مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com
رابط بديل

الجمهورية التونسية
كتابة الدولة للتربية القومية

نصوص أدبية

لتلامذة السنة السادسة من التعليم الثانوي

منشورات الديوان التربوي
1966

جميع الحقوق محفوظة

مَكْتَبَةُ
لِسَانِ العَرَب
رابط بديل
lisanerab.com
أ. علاء الدين شوقى
www.lisanarb.com
twitter مكتبة لسان العرب
facebook مكتبة لسان العرب
instagram مكتبة لسان العرب

الجمهورية التونسية

كتابة الدولة للتربية القومية

نصوص أدبية

لتلامذة السنة السادسة من التعليم الثانوي

منشورات الديوان التربوي

1966

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com
رابط بديل

الفهرس

عنوان النص	الصفحة

حافظ ابراهيم

نداء الى القادة 19
مصر تتحدث عن نفسها 21
شكوى مصر من الاحتلال 23
مظاهرة نسائية 24
عبر الأيام 25
حرب طرابلس 27
الحرب العظمى 28
غادة اليابان 29
سعى بلا جدوى 31
ذكرى وتشوق 33
الى الاستاذ الامام الشيخ « محمد عبده » 35
رثاء الامام « محمد عبده » 37
رثاء « سعد زغلول » 39
الى المويلحى 40
فكتور هوغو 41
تربية البنات 43
الشعر 44
اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها 45
حسرة على فائت 46
حريق « ميت غمر » 47
رحلة الى ايطاليا 49
زلزال « مسينا » 50
جمال الدين الافغانى « من ليالى سطيح » 51
حديث الصحافى « من ليالى سطيح » 54

معروف الرصافى

سياسة لا حماسة 59
حقيقتى السلبية 61
فى سبيل حرية الفكر 62

عنوان النص	الصفحة

مناجاة وشكوى 64
ما وراء القبر 66
الاسلام 68
تنبيه النيام 70
التعاون 74
بنى الأرض 75
الى العمل 76
التربية والأمهات 77
اليتيم فى العيد 80
الأرملة المرضعة 82
الصديق المضاع 84
الساعة 86
كل امرىء وصديقه 87
أيتها الكعاب 88
نحن والماضى 90
الحرية فى سياسة المستعمرين 92

ميخائيل نعيمة

« النقد والشعر »

نهضة الشرق 97
قيمة الانسان 99
روح الانسان 102
غاية الحياة 104
المحراث 105
الحرية غذاء الشباب 107
داء الأب 110
عدة الأديب 113
الكاتب 115
الأديب والناقد 118
فضل الناقد 119

عنوان النص	الصفحة

محور الأدب 121
اللغة والأدب 124
الغربلة 127
الرواية التمثيلية العربية 129
فلنترجم 131
الشعر الحقيقي 132
الشاعر 134
الشعر والشاعر 136
الشعر والعروض 139
منزلة الوزن من الشعر 142
نقد الشعر 144
من أنت يا نفسي 146
أخي 149
لو تدرك الأشواك 151
بين الجماجم 154
الى دودة 156
قبور تدور 158
ابتهالات 160
اغمض جفونك تبصر 163
الخير والشر 164
الطريق 165
التائه 166
المقاييس الأدبية « للمطالعة » 168
الدرة الشرقية « للمطالعة » 172

ايليا أبو ماضى

أنا 179
الطلاسم 180
صراع وعراك 182
بين المقابر 185

عنوان النص	الصفحة
الأسرار	188
الزمان	189
زهرة أقحوان	191
من اشتهى الخمر فميزرع دواليها	193
كن بلسما	194
السماء	195
عطش الأرواح	197
متى يذكر الوطن النوم	199
روعة العيد	202
فلسطين	203
الغد لنا	205
العميان	207
كم تشتكى	209
الغبطة فكرة	211
الصيف	213

طه حسين

فى حلقات الدرس بالأزهر	217
استيقاظ الأزهر	219
محنة الأدب	221
الضمير الأدبى	223
الديمقراطية والارستقراطية فى الأدب	225
حقيقة النقد الأدبى	227
وظيفة الناقد الأدبى	229
الحرية هى الأساس	232
العلم والدين	233
كيف نفهم التاريخ ؟	236
بين الشرق والغرب	237
أثناء قراءة الشعر القديم	240
الشعر القصصى والتمثيلى فى الأدب العربى	242
الشعر الجاهلى	244

عنوان النص	الصفحة

السبب فى بغض المحافظين لأبى تمام 246
نفسية الشاعر 248
طريقتا النشر 250
حول رسالة الغفران .. 252
شخصية « جيد » من خلال يومياته 253
ازمة ...! 256
أصول التصرف 259

توفيق الحكيم

« المسرحية »

محمد 265
أهل الكهف 267
عودة الى الكهف 270
هل تغير شهريار « شهرزاد » 274
صراع فى نفس بجماليون 277
بجماليون وجالاتيا 281
لكل مجتهد نصيب 283
الشيطان فى خطر 286
فى الكوكب المجهول 291
العودة الى الأرض 296
التمثيل عند العرب « للمطالعة » 301
مهمة الفن وتأثيره « للمطالعة » 302
أشخاص المسرحية « للمطالعة » 304
الحوار « للمطالعة » 305
الأداة فى المسرحية « للمطالعة » 306

محمود تيمور

« القصة »

الشيخ « نعيم » 309

عنوان النص	الصفحة

صراع فى الظلام 312
ورقة النصيب 315
فى اتجاه واحد 317
فى خميلة الحب 319
زيارة لطبيب 322
وحشة يوم العيد 324
كيف عرف زوجته 327
بين ابن وأبيه 329
محمد أفندى صل على النبىء 331
ولع أبى على بغنه 333
قلب كبير 335
مجرم فى السجن 338
الحكم لله 340
جزيرة الاحلام 343
الفن ... ما هو ؟ 346
حيرة الأديب 348
الفن للجمهور 350
نشوء القصة وتطورها 353
القصص المصرى الحديث 355
عنصر الصديق فى القصة 357
صلة القصاص بشخصياته 359
بين القصة والشعر 360
مستقبل القصص 363

أبو القاسم الشابى

شعرى 367
قلت للشعر 369
قلب الشاعر 371
الكآبة المجهولة 372
أحلام شاعر 374
أغانى التائه 375

عنوان النص		الصفحة
الأشواق التائهة		376
ألحاني السكرى		377
الصباح الجديد		378
تحت الغصون		380
النبيء المجهول		382
غرفة من يم		385
نظرة في الحياة		386
نشيد الجبار		388
السعادة		390
الاعتراف		391
الى الشعب		392
ارادة الحياة		394
في ظل وادي الموت		395
صلوات في هيكل الحب		397
الجمال المنشود		401
أراك		402
ايتها الحالمة بين العواصف		403
الى عازف أعمى		404
أغنية الألم « للمطالعة »		405
الخيال في الأدب العربي « للمطالعة »		407
الشعور بالجمال « للمطالعة »		410
رأي في الأدب العربي « للمطالعة »		412

منتقيات من الأدب التونسي المعاصر

النثر

- 1 -

مقالات وقصص

في معركة المرأة	الطاهر الحداد	415
الرد على منتقديه	« «	417

عنوان النص		الصفحة
الرجال باعمالهم	» »	418
العامل التونسى فى عهد الحماية	» »	420
الزماد	محمد العزيبى	422
شهرت منه الليالى	على الدوعاجى	426

محمود المسعدى

- أ -

« خواطر فى الثقافة والأدب »

أبو العلاء - فيما بينك وبين نفسك 433
أبو العتاهية 441
المنزلة المستحيلة 447
الأدب مأساة أو لا يكون 450
فأما الزبد فيذهب جفاء 452
الثقافة 454
فى الأدب 456
الوضع الثقافى فى تونس 458
القومية العربية 461
مبمونة تخاطب غيلان 463
ميارى 465
غيلان وميارى وميمونة 469

- ب -

تأملات فلسفية

المسافر - من روح الشرق - 475
- قصة - السندباد والطهارة 483

- 2 -

مقتطفات من خطب

فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة

فى السياسة والاجتماع

وهذا الذى فلته مؤمنا - تقديم - محمد الشعبونى 491

عنوان النص	الصفحة

فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة

أين كنا والى أين نسير ؟ 492
التعاون الحر 495
هذه هى الخطوط الأساسية لسياستنا 497
كفاح متواصل فى عدة ميادين 499
أنانية يجب التخلص منها 501
تضامن فى العمل والمسؤولية والنتائج 503
سيد القوم خادمهم 504
الجزاء يكون على قدر العمل 506
تحديد النسل 507
ضرورة اكمال الحاجات وانسجامها 509
انما الدين الأخلاق 510
السلوك والمعتقد 512
عوامل اليقظة الفكرية فى العالم الاسلامى 514
اصلاح التعليم 515
ما يحتاج اليه التمثيل 517
تعميم الرياضة 518

منتقيات من الأدب التونسى المعاصر

الشعر السياسى

الحر ..... **محمد الشاذلى خزنه دار** 521
ضحايا « « 522
بين مارق وخادر ..... **الطاهر الحداد** 523
انهضى ..... **صالح السويسى** 525

عنوان النص		الصفحة
صوت تونس	**محمد الفائز القيروانى**	527
أنت روح ذللوها بالجماد	**سعيد أبو بكر**	528
فاجعة المرسى	**الهادى المدنى**	529
صوت الجريح	**أبو الحسن بن شعبان**	530
من وحى الرباط	**الصادق مازيغ**	531
لا سلم الا فى الكرامة	« «	533
ضياع	**أحمد المختار الوزير**	535
دخان	« «	537
يوم الشهداء	**الشاذلى عطاء الله**	539

حافظ ابراهيم

نـــداء الى الـقـــادة

إذا الله أحيـا أمّـــة لن يـــردّها
إلى الـمـــوت قـهّـــار ولا متجبّـر
رجـــالَ الغد المأمـــول .. إنا بحاجة
إلى قادة تبني وشعب يـعمّـــــر
رجـالَ الغـد المأمـــول .. إنّا بحاجة
إلى عـالم يـدعـــو وداع يـذكّـــــر

رجـالَ الغد المأمـــول.. إنّـا بحاجة إلى عالم يدري وعلـم يـقـــرّر
رجـال الغد المأمـــول.. إنّـا بحاجة الى حكمـة تُـملِي وكـفّ تحـرّر
رجـالَ الغد المأمـــول.. إنّـا بحاجة إليكـم فسدّوا النقص فينا وشمّروا
رجال الغد المأمول.. لا تتركوا غـدا يمـر مـرور الأمس والعيش أغبر
رجـال الغد المأمول.. إنّ بلادكـم تناشـدكـم بالله أن تتـــذكّـــروا
عليكم حقـوق للـبـلاد، أجلّـهـــا تعهّـد روض العلم ، فالروض مقفر
قصارى مُنى أوطـانكم أن ترى لكم يدا تبتنِي مجـدا، ورأسا يفكـر
فكـونـوا رجالا عامليـن أعـــزّة وصـونـوا حمـى أوطانكم وتحرّروا
ويا طالبي الدستـور.. لا تسكنوا ولا تبيتوا على يأس، ولا تتـضجّـروا
أعـــدّوا لـه صدر المكان، فإنّـنـي أراه على أبـوابكـم يتخطّـــــر
فلا تنطقوا الاّ صوابا، فإنّـنـــي أخاف عليكم أن يقـال: تـهـوّروا
فمـا ضاع حقّ لم ينـم عـنـه أهلـه ولا نـالـه في العـالَـمـيـن مقصّـر
لقد ظفـر الأتـراك عـدلا بسؤلـهـم ونحن على الآثار لا شكّ نظفـر

هُمُ لهُمُ العام القديم مُقَدَّر
ونحن لنا العام الجديد مقدّر
ثقوا بالأمير القائم اليوم ، إنه
بكم وبما تزجون أدرى وأخبر
فلا زال محروس الأريكة جالسا
على عرش (وادي النيل) ينهى ويأمر

« **الديوان** »

مصـــر تتحـــدث عـــن نفسهـــا

وقف الخلق ينظرون جميعـــا
كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبناة الاهرام في سالف الدهـــــــر كَفَوْنِي الكلام عند التحدّي
أنا تاج العلاء في مفرق الشـــــــرق ودرّاته فرائد عقـــدي
أي شيء في الغرب قد بهر النّا
س جمـــالا ولم يكن منه عندي
فترابي تبر ونهري فـــــرات
وسمائي مصقولة كالفـرنـــد
قل لمن أنكروا مفاخر قومـــي مثلما أنكـــروا مآثر وُلـدِي:
هل وقفتم بقمّـة الهـرم الأكـــــــبر يومـا فَرَيْتُمُ بعض جهدي؟
هل رأيتم تلك النقوش اللواتـي أعجزت طوق صنعة المتحدّي ؟
حال لون النهار من قدم العهـــــــد وما مسّ لونها طول عهد
هل فهمتم أسرار ما كان عندي من علوم مخبوءة طيّ بردي؟
ذاك فنّ التحنيط قد غلب الدّهـــــر وأبلى البلى وأعجز نِـــدّي
قد عقدت العهود من عهد فرعو ن ففي مصر كـان أول عقـد
أنا أم التشريع قد أخذ الـــــرّو مان عنّي الأصـــول في كلّ حدّ
ورصدت النجوم منذ أضـاءت
في سماء الدّجى فأحكمت رصدي
وقديما بنى الأساطيل قـومـــي ففرقن البحـار يحملن بندي

قد وعدت الألى بكلّ أبيّ
من رجالي فأنجزوا اليوم وعدي
أمْهِرُوهَا بالروح فهي عروس
تشنأ المهر من عروض ونقد
وَرِدُوا بي مناهل العزّ حتّى
يخطب النجمُ في المجرّة ودّي
وارفعوا دولتي على العلم والأخـ
ـلاق فالعلم وحده ليس يُجْدِي

« **الديوان** »

شكـــوى مصـــر مـــن الاحتـــلال

لقـد كـان فينـا الظلـم فوضى فهذّبت

حواشيه حتّى بـات ظلمـا منظّما

تَمـُنّ علينا اليـوم أن أخصب الثرى وأن أصبح المصري حرّا منعّمـا

أعد عهد (اسماعيل) جَلدا وَسُخْرة فإني رأيت المنّ أنكى وآلمـــا

عملتـم على عزّ الجمـاد وذلـنـــا فأغليتمُ طينـا وأرخصتمُ دمـــا

اذا أخصبت أرض وأجـدب أهلهـا فلا أطلعت نبتـا ولا جادهـا السَّمـا

نهشّ الى الدينار حتى إذا مشـــى به ربـه للســـوق ألفـاه درهـمـــا

فلا تحسبـوا في وفرة المال ـ لم تفد متاعـا ولم تعصم من الفقر ـ مغنما

فإنّ كثير المال ـ والخفض وارف قليـل اذا حلّ الغلاء وخيّمـــا

« الديـوان »

مظـــاهـرة نســـائيـة

خـرج الغـــوانـي يحتـجـجـن ورحـــت أرقـب جـمعهـنّـــه
فـــإذا بـهـــنّ تـخـــذن مـــن سـنـود الثيـــاب شعـــار هنـــه
فطـلعـــن مثـل كـــواكـــب يسطعـــن في وســط الدّجنـه
وأخـذن يجتـزن الطـريـــق ودار (سعـد) قـصـدهـنّـــه
يمشيـن فـي كنف الـــوقـــار وقـد أبـــنّ شعـورهـنّـــه
واذا بـجيـش مـقـبـــــل والخيـل مطلقـة الأعنّـه
واذا الجنـود سيـوفهـــا قـد صوبـت لنحـورهنّـــه
واذا المـدافع والبنـــادق والصـوارم والأسـنّـــــه
والخيـل والفـرسـان قـــد ضربـت نطـاقـا حـولهنـه
والـورد والـريحـان فـــي ذاك النهـار سـلاحهنّـــه
فتطـاحـن الجيشـان سـاعـات، تشيب لـهـا الأجـنّـــه
فتضعـضـع النسـوان ، والنســـوان ليس لـهـن منّـــه
ثـمّ انهـزمـن مشـتّـتـــات الشمـل نحـو قصـور هنّـه
فليهنـأ الجيش الـفـخـــور بنصـره وبكسـر هنّـــه
فكـأنّمـا الألمـان قـــد لبسوا البـراقـع بينّـهـنـه
وأتـوا (بهندنبـرج) مـختـــفيا بمصـر يقـودهـنّـــة
فلـذاك خـافـوا بـأسهـنّ وأشفـقـوا مـن كيـدهـنّـــه

« **الديـوان** »

عبـــر الأيـــام

(قال هذا القصيد بمناسبة خلع السلطان عبد الحميد)

لا رعى الله عهدها من جـدود ! كيف أمْسَيْتَ يا ابن (عبد المجيد)
مشبع الحوت من لحوم البرايا ومجيع الجنـود تحت البنود..
أنت عبد الحميد والتـاج معقـو د وعبد الحميد رهـن القُيُـود
خالد أنت رغم أنف الليـالي في كبـار الرجـال أهل الخلود
لك في الدهر والكمال مجـال صفحـات ما بين بيض وسـود
حاولوا طمس ما صنعت وودّوا لو يطيقون طمس خط الحديد
ذاك عبد الحميد ذخرك عند الله باق ان ضـاق عند العبيـد..
ولي الأمر ثلث قـرن ينـادي باسمه كلّ مسلم في الوجود
كلّما قامت الصلاة دعـا الداعي لعبد الحميد بالتّأييـد
فاسم هذا الأسير قد كـان مقرونـا بذكر الرسـول والتوحيد..
يا أسيرا في "سنت هيلان" رحّب بأسير في "سالونيك" جديد
قل له كيف زال ملكك لم يعـصمك إعداد عدة أو عديد
ضاقت الأرض عن مداك فأرسلـت بطرف الى السماء عنيد
قل له جلّ مالك الملك لا مُلـك لغير المهيمن المعبود
أنت مهما شقيت أرفه حـالا من أسير الجزيرة المكمود
أصحيح ما قيل عنك وحقٌّ ما سمعنا عن الرّواة الشهود:
ان عبد الحميد قد هدّم الشر ع وأربى على فعال الوليد
إنْ بريئا وان أثيما ستُجْزَى يوم تجزى أمام ربّ شهيد

أصحيح بكيت لمّـا أتى الـوفـــــد ونـابتـك رعشـة الـرعـديـد
ونسيـت الإبـاء والـمجـد والسـؤ دد والعـزّ يـاكـريـم الجـــدود
مـا عهـدنـا الملـوك تبكي ولكن علّـهـَـا نزوة الفـؤاد الجليـد
علّهـا دمعـة السـوداع لـذلك الـــــــلك أو ذكـرة لتلـك العهـود
غســل الـدمــع عنـك حوبـة مـاضيـــك ووقّـاك شرّ يـوم الـوعيـد
شفـع الـدمــع فيـك عنـد البــرايا ليس ذاك الشفيــع بالمــردود
دمعـك اليــوم مثـل أمـرك بالأمـــــس مطـاع فـي سيِّــد ومسـود

« **الديــوان** »

حـــرب طـــرابلس

... قد ملأنا البرّ من أشـلائهم ... فدعـوهم يـملأوا الدنيـا كلاما

أعلنوا الحرب وأضمـرنا لهم ... أينمـا حلّـوا هـلاكـا واختراما

خبّـروا فيكتـور عنّـا أنـه ... أدهش العـالـم حربا ونظامـا

أدهـش العـالـم لمـا أن رأوا ... جيشه يسبـق في الجـري النعامـا

لـم يقف في البـرّ الاّ ريـثمـا ... يسلـم الأرواح أو يلقـى الزمـامـا

حـاتـم الطليـان قـد قلّـدتنـا ... منّـة نذكرهـا عـامـا فعـامـا

أنـت أهـديـت إلينـا عـدّة ... ولبـاسـا وشـرابـا وطعـامـا

وسـلاحـا كـان في أيـديكـم ... ذا كـلال فغـدا يفـري العظامـا

أكْثِـرُوا النـزهـة في أحيـائنـا ... وربـانـا انّهـا تَشْفِـي السقـامـا

وأقيمـوا كلّ عـام مـوسـمـا ... يُشْبِـعَ الأيْتَـامَ منّـا والأيامى..

« الديـوان »

الحـــرب العظمـــى

لاَ هُمّ ان الغـرب أصبح شعلـة من هو لها أمّ الصواعق تفـرق
العلـم يذكي نـارهـا وتثيـرهـا مدنيـة خـرقـاء لا تـتـرفّـق
ولـقـد حسبت العلـم فينـا نعمـة تأسـو الضعيف ورحمـة تتدفـق
فإذا بنعمتـه بـلاء مـرهـق واذا بـرحمتـه قضـاء مطبـق
عجـز الـرمـاة عـن الـرمـاة فأرسلوا كسفـا يمـوج بهـا دخـان يخنـق
تتعـوذ الآفـاق منـه وتنثـنـي عنـه الـرّيـاح ويتّقيـه الفيلـق
وتنابلـوا بالكيميـاء فـأسـرفـوا وتساجلـوا بالكهـرباء فأغرقـوا
وَتنازلُوا فـي الجوِّ حيـن بَـدَا لهـم
أنّ البسيطـة عـن مـداهـم أضـيـق
نفسـوا على الحيتـان واسع ملكهـا فتفنّنُـوا فـي سلبـه وتأنّـقـوا
ملـكـوا مسابحهـا عليهـا بعـدمـا غلبـوا النسـور على الجواء وحلّقوا
ان كـان عهـد العلـم هـذا شـأنـه فينـا فعهـد الجـاهليـة أرفـق

« الديـوان »

غـــادة الـيـــابـــان

لا تلم كفّـي اذا السيـف نبـــا ... صحّ منّي العـزم والدهر أبى
ربَّ ساع مبصر في سعيـــه ... أخطأ التـوفيـق فيما طلبـــا
مـرحبـا بالخطب يبلونـي اذا ... كانت العليـاء فيـه السببـا
عقّنـي الدهـر ولولا أنّنِـي ... أوثـر الحسنى عققـت الأدبـا
إيه يا دنيا اعبسي أو فابسمـي ... لا أرأى برقـك إلاّ خلّبـا
أنـا لـولا أنّ لـي مـن أمتـي ... خـاذلا مـا بتّ أشكو النّوبا
أمّـة قـد فتّ في سـاعـدهـا ... بغضهـا الأهـل وحبّ الغربـا
تعشـق الألقـاب في غير العـلا ... وتفـدّى بالنفـوس الـرتبـا
وهـي والأحـداث تستهـدفهـا ... تعشق اللهـو وتهـوى الطـربا
لا تبـالي لعب القـوم بهـا ... أم بهـا صـرف الليـالي لعبا
ليتهـا تسمـع منّـي قـصـة ... ذات شجـو وحـديثـا عـجبـا
كنـت أهـوى في زمـاني غـادة ... وهـب الله لهـا مـا وهـبـا
ذات وجـه مـزج الحسن بـه ... صفـرة تنسي اليهـود الذهبـا
حملـت لـي ذات يـوم نـبـأ ... لا رعـاك الله يـاذا النبـآ
وأتـت تخطـر والليـل فتـى ... وهـلال الأفـق في الأفق حبـا
ثم قـالـت لـي بثغـر باسـم ... نظـم الـدرّ بـه والـحبـبـا
نبّـأونـي بـرحيـل عـاجـل ... لا أرى لـي بعـده مـنقلبـا
ودعـانـي مـوطنـي أن أغـتـدي ... عـلّنـي أقضـي لـه مـا وجبـا
نـذبـح الـدبّ ونفـري جلـده ... أيظـن الـدبّ أن لا يغلـبـا

قلت والآلام تغري مهجتي ... ويك ما تصنع في الحرب الظّبا؟
ما عهدناها لظبي مسرحا ... يبتغي ملهى به أو ملعبا
ليست الحرب نفوسا تشترى ... بالتمنّي أو عقولا تستبى
أحسبت القد من عدتها ... أم ظننت اللحظ فيها كالشبا
فسلينّي انّني مارستها ... وركبت الهول فيها مركبا
وتقحّمت الردى في غارة ... أسدل النّقع عليها هيدبا
قطبت ما بين عينيها لنا ... فرأيت الموت فيها قطبا
جال عزرائيل في أنحائها ... تحت ذاك النقع يمشي الهيدبا
فدعيها للذي يعرفها ... والزمي يا ظبية البان الخبا
فأجابتني بصوت راعني ... وأرتني الظبي ليثا أغلبا
ان قومي استعذبوا ورد الردى ... كيف تدعونيَ أن لا أشربا
أنا يا بانية لا أنثني ... عن مرادي أو أذُوقَ العطبا
أنا ان لم أحسن الرمي ولم ... تستطع كفّاي تقليب الظُّبَا
أخدم الجرحى وأقضي حقّهم ... وأواسي في الوغي من نكبا
هكذا (الميكاد) قد علّمنا ... أن نرى الأوطان أمّا وأبا
ملك يكفيك منه أنّه ... أنهض الشرق فهزّ المغربا
واذا مارسته ألفيته ... حوّلا في كل أمر قلّبا
كان والتاج صغيرين معا ... وجلال الملك في مهد الصبا
فغدا هذا سماء للعلا ... وغدا ذلك فيها كوكبا
بعث الأمة من مرقدها ... ودعاها للعلا أن تدأبا
فسمت للمجد تبغي شأوه ... وقضت من كلّ شيء مأربا

« الديوان »

سعـــى بـــلا جـــدوى

(يصف سعيه المتواصل وبؤسه وإباءه ويتمنى الراحة من ذلك بالموت)

سعيت الى أن كدت أنتعل البدّما ... وعدت وما أعقبت الاّ التندّما

لحى الله عهد القاسطين الذي به ... تهدّم من بنياننا ما تهدّما

سلام على الدنيا سلام مودّع ... رأى في ظلام القبر أنساً ومغنما

أضرّت به الأولى فهام بأختها ... فان ساءت الأُخرى فويلاه منهما

فهبّي رياحَ الموت نكباء وأطفيء ... سراج حياتي قبل أن يتحطّما

فما عصمتني مُنَّ زماني فضائلي ... ولكن رأيت الموت للحرّ أعصما

فيا قلب لا تجزع اذا عضّك الأسى ... فانّك بعد اليوم لن تتألّما

ويا عين قد آن الجمود لمدمعي ... فلا سيل دمع تسكبين ولا دما

ويا يد ما كلّفتك البسط مرّة ... لذي منّة أولى الجميل وأنعما

فلله ما أحلاك في أنمل البلى ... وان كنت أحلى في الطروس وأكرما

ويا قدمي ما سرت بي لمذلّة ... ولم ترتقي الاّ الى العز سلّما

فلا تبطيء سيرا الى الموت واعلمي ... بأنّ كريم القوم من مات مكرما

ويا نفس كم جشّمتك الصّبر والرضا ... وجشّمتني أن ألبس المجد معلما

فما اسطعت أن تستمرئي مرّ طعمه ... وما اسطعت بين القوم أن أتقدّما

فهـذا فـراق بيننـا فتجمّـلـي ... فانّ الرّدى أحلى مذاقا ومطعما

ويا صدركم حلّت بذاتك ضيقة ... وكم جال في أنحائك الهمّ وارتمى

فهلاّ ترى في ضيقة القبر فسحة ... تنفّس عنك الكرب ان بتّ مبرما؟

ويا قبر لا تبخل بسردّ تحيّة ... على صاحب أوفى علينا وسلما

وهيهات يأتي الحيّ للميت زائرا ... فإني رأيت الودّ في الحيّ أسقما

ويأيها النّجم الذي طال سهده ... وقد أخذت منه السّرى أين يمّما

لعلك لا تنسى عهود منادم ... تعلّم منك السّهد والأين كلّما

« الديوان »

ذكـــرى وتـشـــوق

(كتب بها من السودان الى صديقه محمد بك بيرم)

(نشرت فى سنة 1900 م)

أثرت بنا من الشوق القديم ... وذكرى ذلك العيش الرخيم
وأيام كسوناها جمالا ... وأرقصنا لها فلك النعيم
ملأناها بنا حسنا، فكانت ... -بجيد الدهر- كالعقد النظيم
وفتيان مساميح عليهم ... جلابيب من الذّوق السَّليم
لهم شيم ألذ من الأماني ... وأطرب من معاطاة النديم
كهمك في الخلاعة والتّصابي ... وان كانوا على خلق عظيم
دعوتهمُ الى أنس فَوَافَوْا ... موافاة الكريم الى الكريم
وجاءوا كالقطا وردت نميرا ... على ظمإ وهبُّوا كالنَّسيم
وكان الليل يمرح في شباب ... ويلهو (بالمجرّة) والنجوم
فواصلنا كؤوس الرّاح حتَّى ... بدت للعين أنوار الصَّريم
وأعملنا بها رأي (ابن هاني) ... فألحقنا بأصحاب الرّقيم
وظبي من بنِي مصر غرير ... شهيِّ اللفظ ذي خدٍّ مشيم
ولحظ بابلّي ذي أنكسار ... كأن بطرفه سيما اليتيم
سقانا - في منادمة - حديثا ... نسينا عنده بنت الكروم
سلام الله يا عهد التصابي ... عليك وفتية العهد القديم
أحنّ لهم ودونهمُ فلاة ... كأنّ فسيحها صدر الحليم
كأن أديمها أحشاء صبّ ... قد التهبت من الوجد الأليم

كأن سرابها اذ لاح فيها ... خداع لاح في وجه اللئيم
تضلّ بليلها (لهب) فتحكى ... (بوادى التيه) أقوام الكليم
وتمشي السافيات بها حيارى ... اذا نقل الهجير عن الجحيم
فمن لي أن أرى تلك المغاني ... وما فيها من الحسن القديم؟
فما حظّ (ابن داود) كحظي ... ولا أوتيت من علم العليم
ولا أنا مطلق كالفكر أسري ... فأستبق الضّواحك في الغيوم
ولكنّي مقيدة رحالي ... بقيد العدم في وادي الهموم
نزحت عن الديار أروم رزقي ... وأضرب في المهامه والتّخوم
وما غادرت في السودان قفرا ... ولم أصبغ بتربته أديمي
وهأنا بين أنياب المنايا ... وتحت براثن الخطب الجسيم
ولولا سَوْرَةٌ للمجد عندي ... قنعت بعيشتي قنع الظَّليم

« **الديوان** »

الى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

(قالها فى سفر له الى بعض بلاد الوجه البحرى وكان مصاحبا له فى هذا السفر)

صدفت عن الأهواء ، والحرّ يصدف
وأنصفت من نفسي ، وذو اللبّ ينصف
صحبت الهدى عشرين يوما وليلة
فقرّ يقيني بعد ما كان يرجف

فرحت وفي نفسي من اليأس صارم ... وعدت وفي صدري من الحلم مصحف
وكنت كما كان (ابن عمران) ناشئا ... وكان كمن في (سورة الكهف) يوصف
كأن فؤادي إبرة قد تمغطست ... بحبّك أنّى حرّفت عنك تعطف
كأنّ يراعي في مديحك ساجد ... مدامعه من خشية الله تُذْرَفُ
كأنّك والآمال حولك حوّم ... نمير على عطفيه طير ترفرف
وأَزْهَرَ فِي طرسي يراعي وأنملي ... ولفظي فبات الطِّرس يجنى ويقطف
وجمّع من أنوار مدحك طاقة ... يطالعها طرف الربيع فيطرف
تهادى بها الأرواح في كلّ سحرة ... وتمشي على وجه الرياض فتعرف
إمام الهدى! اني أرى القوم أبدعوا ... لهم بدعا عنها الشريعة تعزف
رأوا في قبور الميتين حياتهم ... فقاموا الى تلك القبور وطوّفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنّهم ... "على صنم للجاهلية عكّف"
فأشرق على تلك النفوس لعلّها ... ترقّ اذا أشرقت فيها وتلطف
فأنت بهم كالشمس بالبحر، انها ... ترد الأجاج الملح عذبا فيرشف

كثير الأيادي حاضر الصّفح منصف كثير الأعادي غائب الحقد مسعف
له كلّ يوم في رضى الله موقف وفي ساحة الإحسان والبرّ موقف
تجلّى (جمال الدين) في نور وجهه وأشرق في أثناء برديه (أحنف)
رأيتك في الإفتاء لا تغضب الحجا كأنك في الإفتاء والعلم (يوسف)
فأنت لها ان قام في الشرق مرجف
وأنت لها ان قام في الغرب مرجف

« **الديوان** »

رثاء الامام « محمد عبده »

سلام على الإسلام بعد محمّد
سلام على أيّامه النّضرات
على الدّين والدّنيا على العلم والحجا
على البرّ والتقوى على الحسنات
لقد كنت أخشى عادي الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتي

فوا لهفي والقبر بيني وبينه ... على نظرة من تلكم النظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا ... كأنّي حيال القبر في عرفات
لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا ... تجاليده في موحش بفلاة
ولو ضرّحوا بالمسجدين لأنزلوا ... بخير بقاع الأرض خير رفات
تباركت ، هذا الدين دين محمّد ... أيترك في الدّنيا بغير حماة
تباركت، هذا عالم الشرق قد قضى ... ولانت قناة الدّين للغمزات
مددنا الى الاعلام بعدك راحنا ... فردّت الى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغي سواك عيوننا ... فعدن وآثرن العمى شرقات
بكى الشرق فارتجت له الأرض رجّة ... وضاقت عيون الكون بالعبرات
ففي الهند محزون وفي الصين جازع ... وفي مصر باك دائم الحسرات
وفي الشام مفجوع وفي الفرس نادب ... وفي تونس ما شئت من زفرات
بكى عالم الإسلام عالم عصره ... سراج الدّياجي هادم الشُّبهات
فيا منزلا في عَيْن شَمْسٍ أظلّني ... وأرغم حسّادي وغمّ عداتي

دعـائمـه التقـوى وآساسـه الهـدى
وفيـه الأيادي مـوضع اللبنـــات
عليك سلام الله ! مالـك مـوحشـــا
عبوس المغاني مقفـر العـرصـات؟
لقـد كنت مقصـود الجوانب آهـلا
تطوف بك الآمـال مبتـهـــلات
مثـابـة أرزاق ومهبط حكـمـــــة
ومطلع أنـوار وكنـز عظـــات

« **الديـوان** »

رثـاء « سعـد زغلـول »

إيه ياليل هل شهدت المصابا ... كيف ينصبّ في النفوس انصبابا
قدّ يا ليل من سوادك ثوبا ... للدراري وللضُّحى جلبابا
انسج الحالكات منك نقابا ... واحب شمس النَّهار ذاك النقابا
أي جنودَ الرئيس نادوا جهارا ... فإذا لم يجب فشقوا الثِّيابا
انَّها النكبة التي كنت أخشى ... انَّها السَّاعة التي كنت آبى
انَّها اللفظة التي تنسف الأنـ ... ـفس نسفا وتفقر الأصلابا
مات "سعد" لاكنت يا "مات سعد" ... أسهاما مسمومة أم حرابا
كيف أقصدت كلّ حيّ على الأر ... ض وأحدثت في الوجود انقلابا
قدر شاء أن يزلزل مصـ ... ـرا فتغالى فزلزل الألبابا
طاح بالرأس من رجالات مصر ... وتخطّى التحوت والأوشابا
خرجت أمَّة تشيِّع نعشا ... قد حوى أمة وبَحْرا عبابا
حملوه على المدافع لمَّا ... أعجز الهام حمله والرّقابا
حال لون الأصيل والدّمع يجري ... شفقا سائلا وصبحا مذابا
وسها النيل عن سراه ذهولا ... حين ألفى الجموع تبكي انتحابا
يا كبير الفؤاد والنفس والآ ... مال أين اعتزمت عنَّا الذهابا؟
كيف ننسى مواقفا لك فينا ... كنت فيها المَهيبَ لا الهيابا؟
كنت في ميعة الشباب حساما ... زاد صقلا فرنده حين شابا

« الديـوان »

الى المـــويلحـــــى

(نشرت فى سنة ١٩٠٠ م)

أوشك الدّيـاك أن يصيح ونفســي ... بين همّ وبين ظنّ وحــدس

يا غـلام، المــدام والـكأس والطّا ... س. وهيّء لنـا مكانــا كأمـس

أطلـق الشمس من غياهب هـذا الدّ ... نّ واملأ من ذلـك النّـور كـأسي

وائـذن الصبح أن يلــوح لعينــي ... من سناهـا فـذاك وقت التحسّي

وادع نـدمـان خلوتي وائتناسي ... وتعجّـل واسبـل ستــور الدّمقس

واسقنا يـا غلام حتى تــرانــا ... لا نطيق الـكلام الاّ بهمــس

خمــرة قيل انّـهم عصــروهــا ... من خـدود المـلاح في يوم عـرس

مـذرآهــا فتى العـزيــز منـامــا ... وهو في السّجن بين همّ ويأس

أعقبتـه الخـلاص من بعـد ضيــق ... وحبتـه السّعود من بعـد نحــس

يـا نـديمي بالله قـل لي لــمــاذا ... هـذه الخنـدريس تـدعى بـرجس؟

هي نفس زكيـة. وأبــــوهــــا ... غـرسـه فى الجنان أكرم غـرس

هي نفس تعلّمت حســن أخــلا ... ق المُـوَلـحِـيّ فى صفـاء وأنـس

خصّـه الله حيث يصبـح بـالإقــ ... ـبـال . والعزّ والعـلا حيث يمسى

« الديــوان »

فكتور هوغو

عجميّ كاد يعلو نجمه ... في سماء الشعر نجم العرب
صافح العلياء فيها والتقى ... بالمعري فوق هام الشهب
ما ثغور الزهر في أكمامها ... ضاحكات من بكاء السحب
نظم الوسمي فيها لؤلؤا ... كثنايا الغيد أو كالحبب
عند من يقضي – بأبهى منظرا ... من معانيه التي تلعب بي
بسمت للذهن فاستهوت نُهى ... مغرم الفضل وصب الأدب
وجلتها حكمة بالغة ... أعجزت أطواق أهل المغرب
سائلوا الطير اذا ما هاجكم ... شدوها بين الهوى والطرب
هل تغنت أو أرنت بسوى ... شعر (هوغو) بعد عهد العرب
كان مُرّ النفس أو ترضى العلا ... تظمأ الأفلاك ان لم يشرب
عاف في منفاه أن يدنو به ... عفو ذاك القاهر المغتصب
بشّروه بالتداني وَنَسُوا ... أنّه ذاك العصاميّ الأبي
كتب المنفيُّ سطرا للذي ... جاءه بالعفو فاقرأ واعجب
أبريء عنه يعفو مذنب ؟ ... كيف تُسْدِي العفو كف المذنب؟
جاء والأحلام في أصفادها ... ما لها في سجنها من مذهب
طبع الظالم على أقفالها ... باظاه خاتما من رهب
أمعن التقليد فيها فغدت ... لا ترى إلاّ بعين الكتب
أمر التقليد فيها ونهى ... بجيوش من ظلام الحجب
جاءها (هوغو) بعزم دونه ... عزة التاج وزهو الموكب

وانبـــرى يصـدع من أغـــلالـهـــا بـاليـــراع الحـــرّ لا بالقـضـب
هالـــه ألاّ يـــراهـــا حـــــــرّة تمتطى فـى البحـث متن الكوكب
ساءه الاّ يـــرى فـى قـــومـــــه سيـــرة الإســـلام في عهـد النبي
قلـت عن نفسـك قولا صـــادقـــا لـم تشبـه شائبـــات الكـــذب :
أنـا كالمنـجـــم تبـــر وثـــــرى فاطـرحوا تـربي وصـونـــوا ذهبي

« **الديـــوان** »

تـــربيـة البنـــات

من لي بتربية البنات فانّهـــا ... في الشرق علّة ذلك الإخفـاق

الأمّ مدرسة اذا أعـددتهـــا ... أعددت شعبـا طيب الأعـراق

الأم روض ان تعهده الحيـــا ... بالـرّي أورق أيّما إيـــراق

الأم أستـاذ الأساتـذة الأولى ... شغلت مآثرهم مـدى الآفـاق

أنا لا أقـول دعوا النساء سوافرا ... بين الرّجال يجلن في الأسـواق

يدرجن حيث أردن لا مـن وازع ... يحـذرن رقبتـه ولا مـن واق

يفعلن أفعـال الرجـال لواهيا ... عن واجبات نواعس الأحـداق

في دورهن شؤونهن كثيـرة ... كشؤون ربّ السيف والمـزراق

كلا ولا أدعوكمُ أن تسرفـوا ... في الحجب والتضييق والإرهـاق

ليست نساؤكم حُلىً وجواهـرا ... خوف الضياع تصان في الأحقاق

ليست نساؤكم أثاثا يقتنـى ... في الدّور بين مخادع وطباق

* * *

ربُّوا البنات على الفضيلـة انّها ... في الموقفين لهن خير وثـاق

وعليكمُ أن تستبين بنـاتكـم ... نـور الهـدى وعلى الحياء الباقي

« **الديـوان** »

الشعـــر

ضعت بين النُّهى وبين الخيال

يا حكيم النفوس يا ابن المعالي

ضعت في الشرق بين قوم هجود لم يفيقوا وأمّة مكسال

قد أذالوك بين أنس وكأس وغرام بظبية وغزال

ونسيب ومدحة وهجاء ورثاء وفتنة وضلال

وحماس أراه في غير شيء وصغار يجرّ ذيل اختيال

عشت ما بينهم مذالا مضاعا وكذا كنت في العصور الخوالي

حمّلوك العناء من حب "ليلى"

و"سليمة" ووقفة الاطلال

وبكاء على عزيز تولّى ورسوم راحت بهن الليالي

واذا ما سموا بقدرك يوما أسكنوك الرّحال فوق الجمال

آن يا شعر أن نفكّ قيودا قيّدتنا بها دعاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنّا ودعونا نشمّ ريح الشمال

« الديوان »

اللغـة العـربية تنعـى حظهـا بين أهلهـا

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... ونـاديت قـومي فاحتسبت حياتي
رمـوني بعقـم في الشبـاب وليتنـي ... عقمت فلم أجزع لقـول عـداتـي
ولـدت ولمّـا لم أجد لعـرائسي ... رجالاً وأكفـاء وأدت بنـاتـي
وسعت كتـاب الله لـفظـا وغايـة ... ومـا ضقت عن آي بـه وعظـات
فكيف أضيـق اليوم عن وصف آلـة ... وتنسيـق أسمـاء لمختـرعـات ؟
أنـا البحـر في أحشائـه الدّر كـامن ... فهـل سألـوا الغـوّاص عن صدفاتي؟
فيا ويحكـم أبلى وتبـلى محاسنِـي ... ومنّي وان عزّ الـدواء أساتِـي
أيطـربكـم من جـانب الغـرب ناعب ... ينادي بـوأدي في ربيع حيـاتـي
سقى الله في بطـن الجزيـرة أعظمـا ... يعـزّ عليهـا أن تليـن قنـاتـي
حفظـن ودادي فـي البـلى وحنظتـه ... لهنّ بقلب دائـم الحسـرات
وفاخرت أهـل الغرب والشرق مطرق ... حيـاء بتلـك الأعظـم النَّخـرات
أيهجـرنـي قـومي – عفا الله عنهـم– ... الى لغـة لـم تتصـل بـرواة
سـرت لوثـة الأعجام فيهـا كمـا سرى ... لعاب الأفاعي في مسيـل فـرات
فجـاءت كثـوب ضمّ سبعيـن رقعـة ... مشكّلة الألـوان مختلفـات
الى معشـر الكتاب والجمـع حافـل ... بسطت رجائي بعد بسط شكـاتِي
فـإمّـا حيـاة تبعث الميت في البـلى ... وتنبت في تلـك الرمـوس رفـاتِي
وإمـا ممـات لا قيـامـة بـعـدة ... ممـات لعمـري لم يقس بممـات

حسـرة عـلى فـات

لم يبق شيء من الدنـيا بأيـدينا
الاّ بقـية دمع فـي مـآقـينـا
كنـا قـلادة جيد الـدهـر فـانفرطت
وفي جبـين العـلا كنّـا ريـاحينـا
كـانت منازلنا في الـعزّ شـامخـة
لا تشرق الشمس الاّ في مغانينا ....
فـلم نـزل وصـروف الدهـر ترمقنـا
شزرا وتخـدعنـا الدنيا وتلهِينـا
حتّى غـدونـا ولا جـاه ولا نشـب
ولا صديق ولا خـلّ يـواسينـا

« الديـوان »

حـــريـــق « ميـت غمـــر »

سائـلـوا الليـل عنهـم والنهـــارا
كيف باتت نساؤهم والعـذارى ؟
كيف أمسى رضيعهـم فقـد الأمّ
وكيف اصطلى مع القـوم نـارا ؟
كيف طاح العجـوز تـحت جـدار
يـتـداعـى وأسقـف تـتـجـــارى ؟

ربّ ان القضـاء أنحى عليـهـــم فاكشف الكرب واحجب الأقدارا !
وَمُـر النار أن تكفّ أذاهـــــا وَمُـرِ الغيث أن يسيل انهمـارا !
أين طوفـان صاحب الفلك؟ يـروي هذه النار ، فهي تشكو الأوارا !
أشعلت فحمة الدياجي فباتـت تملأ الأرض والسمـاء شـــرارا
غشيتهم والنحس يجري يمينـا ورمتهم والبؤس يجري يسارا
فأغارت وأوجه القوم بيـض ثم غارت وقد كستهن قـــارا
أكلت دورهم فلما استقلّـت لم تغادر صغارهم والكبـــارا
أخرجتهم من الديار عـــراة حذر الموت يطلبون الفـــرارا
يلبسـون الظلام حتى اذامـــا أقبل الصبح يلبسون النهـــارا
حلّة لا تقيهمُ البرد والحـــر ولا عنهُـمُ تـرد الغبـــارا
أيُّها الرافلون في حلل الوشـى يجرّون للذيول افتخـــارا
إنّ فوق العراء قوما جِياعـــا يتوارون ذلّـة وانكسـارا
أيهـذا السجين لا يمنع السجـن كريما من أن يقيل العثـــارا

مر بألف لهم وان شئت زدها ... وأجرهم كما أجرت النصارى
قد شهدنا بالأمس في مصر عرسا ... ملأ العين والفؤاد ابتهارا
سال فيه النضار حتّى حسبنا ... أن ذاك الفناء يجرى نضارا
بات فيه المُنعَّمُون بليل ... أخجل الصبح حسنه فتوارى
يكتسون السرور طورا وطورا ... في يد الكأس يخلعون الوقارا
وسمعنا في (بيت غمر) صياحا ... ملأ البرّ ضجّة والبحارا
جلّ من قسّم الحظوظ فهذا ... يتغنّى وذاك يبكي الديارا
ربّ ليل في الدهر قد ضمّ نحسا ... وسعودا وعسرة ويسارا

« **الديوان** »

رحلـــة الى ايطـاليـــا

عـاصف يـرتمي وبحـر يغيـــر أنـا بالله منهمـا مستـجيـــــر
وكـأنّ الأمـــواج وهـــي تَـــوَالى محنقـات أشجـــان نفسـي تثور
أزبـدت ثم جرجرت ثـمّ ثـارت ثم فـــارت كمـا تفـــور القـــدور
ثم أوفت مثل الجبـــال على الفـلـــــــك وللفـلـك عـزمـة لا تخـور
تتـرامى بجـؤجـؤ لا يـبـالـــي أميـاه تحـوطـه أم صخـــــور
أزعـج البحـر جانبيهـا مـن الشـــــدّ فجنب يعلـو وجنب يغـور
وهو آنـا ينحطّ من علـو كـالسَّيـــــل وآنـا يحـوطهـا منـه ســور
وهي تـزورُّ كـالجـواد اذا مـــا ساقـه للطعـان نـدب جســـور
وعليهـا نفـوسنـا خـائـــرات جازعـات كادت شَعَاعا تطير
في ثنايا الأمواج والـزبـد المـنـــــدوف لاحت أكفاننا والقبـور
مرّ يـوم وبعض يـوم علينـــا والمنايا الى النفـوس تشيـــر
ثمّ طافت عنايـة الله بالفـلـــــــك فزالـت عمَّـن تُقِـلّ الشرور
ملـكت دفّـة النجـاة يـد اللـــــه فسبحـان من إليـه المصيـر
أمـر البحـر فاستكـان وأمســى منـه ذاك العبـاب وهـو حصيـر

* * *

فيـك يـا مهبـط الجمـال فنـون ليس فيهـا عن الكمـال قصـور
وَدُمى جمّع المحاسن فيهـــا صنع الكفّ عبقـري شـهيـر
قـد أقيمـت من الجمـاد ولـكـن من معانـي الحيـاة فيهـا سطـور

« الديـوان »

زلـــزال « مسينـــا » (1)

نبّئاني ان كـنتـمـا تـعـلمـــان ما دهى الكـــون أيُّها الفرقدان؟
غليان في الأرض نفّس عنـــه ثوران في البحـر والبركـــان
ربّ، أين المفـرّ والبحـر والـــــــبرّ على الكيـد للورى عاملان؟
كنت أخشى البحار والموت فيها راصد غفلة من الـربّـــان
سابح تحتنا مطـلّ علـينـــا حائم حولنـا منـاء مـدان
فإذا الأرض والبـحار ســـواء في خلاق كلاهما غـــادران
ما "لمسّين" عوجلت في صباها ودعاهـا من الرّدى داعيـــان
ومحت تلكم المحاسن منـهـــا حين تمّت آياتها آيتـــــان
خسفت ثم أغرقت ثم بـــادت قضي الأمـر كلّه في ثـــوان
وأتى أمرها فأضحت كأن لـم تك بالأمس زينة البلـــدان
ربّ طفل قد ســاخ في باطن الأر ض ينادي : أمّي! أبي! أدركاني
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـــــر تعاني من حرّه ما تعـاني
وأب ذاهل الى النّار يمشـي مستميتا تمتدّ منـه اليـــدان
باحثا عن بناتـه وبنيـــه مسرع الخطو مستطير الجنـان
تأكل النّار منه، لا هو نـاج من لظاها ولا اللظى عنه وان
غصّت الأرض، أتخم البحر ممّا طوياه من هـذه الأبـــدان
وشكا الحوت للنُّسور شكـاة ردّدتها النُّسـور للحيتـــان
أسرفا في الجسوم نقرا ونهشـا ثم باتا من كـظّـة يشكـوان!

« الديـوان »

(1) وقـع هـذا الزلـزال بمسينـا (Messine) في صقليـة سنـة 1908 م.

من ليالي سطيح

جمـــال الـــدين الافغـــانى

« ذهب الراوى صحبة أحد الأدباء المنافسين لشوقى الى المكان الذى يلتقى فيه كل ليلة بسطيـح ، فـدار حـوار بين الأديب وسطيح، كان الأديب فيه شديدا على شوقى فذكر عددا وافرا من هفواته وساق أمثلة من مساقطه الشعرية عند ذلك تكلم سطيح» .

قـال سطيـح :

صنع الله لـك يا فـلان فإنّي أراك تستبطـن أمـره (1) وتستقصي شعره، ولـكنّ هذا لا يعيب من لبث ما أدري كـم سنـة يضـرب على وتـر واحد في الغـزل والمـديح وهـو يأتـي في كلّ ضربة بنغمـة جديـدة فلـو أنك جئت بأطبع خلق الله على الشعـر وكلّفتـه أن لا ينظـم مـا عـــاش في غيـر المـدح... لمـا جـاء بأبـدع ممـا يجيء بـه اليوم شاعـر الشرق (2)، فاعلـم بأنّـه حقيـق بالـرئـاسـة عليكـم وأنّـه في مقـدّمـة أو لئـك الذيـن أنبـروا لتشييـد هـذه الدولـة الأدبيـة ورفعـوهـا على ألسنـة الأقـلام، فـان أنكـرتـه بعـد اليـوم فقـد أنكـرت نفسـك وكـذبت حسّـك ، فهـو عميـد رجـال هـذه الـدولـة الجـديـدة فـلا يكـن مثلـك واياه كمثـل البحتـري وذئبـه الـذي يقـــول فيـه :

---

(1) أمـره : أمـر شـوقى .
(2) شـاعر الشـرق : شـوقى .

كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجدّ يتعسه الجد

فما ضركم لو تساندتم جميعا وأنتم لا تتجاوزون منازل القمر عدّا فرفعتم من شأن هذه الدولة وحركتم من الخامدين وهززتم من الجامدين ، فانّي أراكم بين متصفّح على أخيه ومتنبّل على قرينه وليس هذا صنع من يريد ما تريدون وتحاولون من ردّ هذه الدولة الى شبابها بعد أن خلا من سنّها ولو لم يتداركها الله بذلك الأفغاني لقضت نحبها ولقيت ربّها قبل أن يمتّعها بكم ويمتّعكم بها، أدركها الأفغاني ولم يبق فيها الاّ الذماء فنفخ فيها نفخة حرّكت من نفسها وشدّت من عزمها . أدركها وهي شمطاء قد نهض منها بياض الشيب في سواد الشباب، فشاب قرناها قبل أن تشيب ناصية القرن الخامس فسوّدت يده البيضاء ما بيّضت من شعرها سود الليالي، وتعهّدتها همته بضوف العلاج حتى استقامت قناتها، وبدا صلاحها، وقد كان النّاس في هذا العهد يدينون باللفظ ويكفرون بالمعنى، فما زال بهم حتّى أبصروا نور الهدى وخرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى، وقام بعده نفر ممن تأدّبوا عنه فكانوا كالسيوف فرّجت للرماح ضيق المسالك فانفسح للمتأدبين المجال وجال كل جولته وتنبّه الوجدان، وتيقّظ الشعور، وتحرّك الفكر، حتى أفضى الى حركة النّفس، وظهر أثر جمال الدين في النفوس العالية وأصبحت تبتدر كلامه الأسماع الواعية، فكان من ذلك أن انطوى أجل التقليد وأن بعث الله على يديه ميّت اللغة وأحيى رفات الانشاء وغادر — رحمة

الله عليه – مصر ولم يضع لنا كتابا نأخذ عنه أو مؤلّفا نغترف منه ولكنّه ترك لنا رؤوسا تؤلّف وأفكارا تصنّف وكأنّه أحس بذلك حين أحسّ بالموت ، فكان يقول وهو يجود بنفسه :

" خرجنا منها ولم ندع أثرا ظاهرا بين السطور ولكنّنا لم نغادرها حتّى نقشنا ذلك الأثر على صفحات الصُّدور فإن لم ترثوا عنّا في بطون الكتب فقد ورثتم عنّا في صدور الرجال فإذا حثوتم التراب على رجل الأفغان فعليكم برجل مصر".

خرج من الدنيا كما خرج سقراط لم ينادر كلاهما مؤلّفا ولم يدع مصنّفا فلولا محمّد عبده ما عرف رجل الأفغان ولولا أفلاطون ما ذكر رأس فلاسفة اليونان.

ولمّا سكنت أنفاس الأفغاني بعد أن تجدّدت بذكره الأنفاس خلفه حكيم الشرق (1) في دولته ووطّن نفسه على المضي في طريقته فأسمع الناس في الحقّ وأسمعوه وجافوه في ذات الاله وخالفوه ولم يزل بهم حتّى غلب حقُّه باطلهم ثم مضى لسبيل رحمة الله، فتفتّقت الأذهان وتطلّعت العقول الى البحث وبرزت اللغة من خبائها تجرّ مطارف آدابها وأطّل علم الأدب من مناره مشرقا على النفوس فأرسل نوره الى الضمائر ونفذت أشعته الى السَّرائر فنما تحت نظره الشعور، كما ينمو النبات جادته الشمس بالنظر أو كسته أشعة القمر فلطّف من كثافة النفوس وهذّب من مرارة الأرواح حتّى شفّت الأولى وعذبت الثانية وبدأ دور هذه الحياة الجديدة بفضل الأدب وعلمه.

من « ليالى سطيح »

(1) حكيم الشرق : محمد عبده .

حـــديث الصحـــافى

« ذهب الـراوى الى المكان الذى يتلقى فيه كل ليلة بسطيح فوجد هناك رجـلا يبكى وينتحب فاقتـرب منه وطلب اليه ان يخبـره خبـره ويحـدثه عمـا نـزل به ، فقـال له » :

انّي امرؤ خفيف الحال، ثقيل الأعباء، رزئت بفقد أبي قبل أن أبلغ الغاية التي الـيهـا مدى أمـلي وأمل الأهل والأقـارب ، فانقطعت عن الدّرس في مدارس الحكومة لقصر يدي عن بلـوغ نفقة التدريس... فأصبحت عيَـالا على أهـلِـي ولبثنا نعيش جميعا من فضلة كانت لنا حتّى أمسينا ذات ليلة ولم نجد ما نستصبح به في الظلام فكرهت أن أجمع عليهم بين خفَّة الحال وثقل وجودي بينهم فخرجت أقصد وجوه الدّرق لعلّي أصل الى عمل أكسب منه ما أدفع به عنّي شرة العوز وذلة السؤال، فأخطأني التوفيق لأنني لم أكن من أهل الشهادات فما زلت أنظر في وجوه الأعمال وأتبصر في أيها أقل مؤونة وأكثر ربحا حتى فتق لي الذهن أن ألقي بنفسي في غمار المحررين وأن أنشيء صحيفة أسبوعية ، فصحّت عزيمتي على الدخـول في زمـرة الكتاب وإن لم أكن منهم، وأقدمني على ذلك ما أراه كلّ يوم من ترامي الناس على احتراف تلك الحرفة وغفلة أهلها عن الذّود عنها حتّى عبث بها الدّعيّ وغضّ منها اللصيق، ولما طوّعت لي النفس ذلك أصدرت الصحيفة وجعلت أكتب في الفضيلة وأدعو النَّاس الى الأخذ بها وأستعين بما سطره الأول

وجرى عليه الأخير وأستمدّ من بطون الكتب أحكم الأمثال وأمثل العظات وأكدّ ذهني في الاستنباط وأنصب بدني في السعي وأغشى الأدباء في دورهم فأطلب الى هذا مقالة في الأدب والى ذلك كلمة في الفضيلة حتى فاضت أنهار الصحيفة بالنصائح وجرى تيارها بالملح والطرائف ولكن فاتني أن أنظر نظرة في أخلاق الأمة التي أكتب لها وأن أجول بالفكر جولة في وجوه عاداتها فلم تنفق سلعتي ولم تنتشر صحيفتي فجعلت أبحث عن علّة ذلك الكساد وعدم تنفيق تلك السلعة حتّى اهتديت بعد كدّ القريحة الى أن ذلك راجع الى فساد الأخلاق وأن العامة قد نامت عنها وعاظها فيبس ما بينها وبين الفضيلة وأخصب ما بينها وبين الرذيلة... فقلت لنفسي :

" أيتها النفس ، لقد أعذر صاحبك وما قصّر فأنت اليوم بين أمرين : إمّا الفضيلة والنّعش، وإمّا الرّذيلة والعيش ".

وكانت من غيرتك النفوس المطمئنة التي بشّرها الله بالجنة، فشمست عن الأولى وسكنت الى الثانية فما زالت تأمرني بالسوء حتى أصبحت صحيفتي مجموعة للنقائص ومستناما للعيوب وأصبح يراعي وقد استمدّ من لعاب الأفاعي لعابه واستعار من كتاب السامير (1) سبابه فما زلت أطعن على زيد لأجتعل من عمرو وأغض من خالد لأشدّ من بكر حتى زلّ الرأي وعثر القلم فأصبحت غريم الحكومة وخوصمت الى المحاكم فأمسيت مخصوما وبتّ وقد اصطلحت على الخطوب وطولبت بالتكفير عن الذنوب بأن أدفع عشرة ذهبا واتخذ لي غير الصحافة سببا. ومن أين لي — أسعدك الله —

أن أقوم بدفع هذا القدر من المال ولقد كنت كلّما هممت بطبع الصحيفة أجمع من كلّ جيب من جيوب المشتركين قرشا كما يجمع العامل في المطبعة من كلّ بيت حرفا ؟

من « ليالى سطيح »

---

(1) كتاب المسامير : كتاب لعبد الله النديم كان فيه صاحبه شديد اللسان حاد النقد .

معروف الرصافي

سيـــاســة لا حمـــاســة

الشعر مفتقر منّي لمبتكـــــــر
ولست للشعر في حال بمفتقـــر

دعوت غرّ القوافي وهي شاردة — فأقبلت تتمشى مشي معتـــذر
وسلّمتني عن طوع مقادتهـــا — فرحت فيهنّ أجري جري مقتدر
اذا أقمت أقامت وهي من خدمي — وأينما سرت سارت تقتفي أثري
ملكن من رقّة رقّ النفوس هوى — من حيث أطربن حتى قاسي الحجر
سقيتهن المعاني فارتوين بها — وكنّ فيها مكان الماء في الثمر
كم تشرئب لها الأسماع مصغية — اذا تنوشدن بين البدو والحضر
طابقت لفظي بالمعنى مطابقـــة — خلوا من الحشو مملوءا من العبر
إنّي لأنتزع المعنى الصحيح على — عري فأكسوه لفظا قدّ من درر
سل المنازل عنّي اذ نزلت بهـــا
بيتا من الشعر لا بيتا من الشَعـــر

وأجود الشعر ما يكسوه قائلـــه — بوشي ذا العصر لا الخالي من العصر
لا يحسن الشعر الا وهو مبتكـــر — وأي حسن لشعر غيـــر مبتكـــر
ومن يكن قال شعرا عن مفاخرة — فلست والله في شعر بمفتخـــر
وإنّما هي أنفاس مصعّـــدة — ترمي بها حسراتي طائر الشَّرر
وهن إن شئت مني أدمع غـــزر — أبكي بهن على أيامنا الغـــرر
أبكي على أمة دان الزمان لهـــا — قبلا ودار عليها بعد بالغيـــر
كم خلّد الدهر من أيامهم خبرا — زان الطروس وليس الخبر كالخبر

ولست أذكر الماضين مفتخـــرا لكن أقيم بهم ذكـرى لمذّكر
وكيف يفتخر الباقون فـي عـمـه بـدارس مـن هـدى الماضين مندثر
لهفي على العرب أمست من جمودهم
حتّى الجمادات تشكو وهي في حجر
أيـن الجحـاجح ممن ينتمـون الـى ذؤابـة الشـرف الوضّاح من مضـر
قوم هم الشمس كـانوا والورى قمـر ولا كرامة لـولا الشمس للقـمـر
راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عقبا نـاموا عن الأمر تفويضا الى القـدر
أقول والبرق يسري في مـراقـدهم "يا ساهـر البرق أيقظ راقد السَّمر"
يا أيها العرب هبُّوا من مـراقدكـم فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر
كيف النجـاح وأنتم لا اتفاق لـكم والعود ليس له صوت بلا وتـر
مالـي أراكم أقلّ الناس مقـدرة يا أكثر النّاس عـدّا غيـر منحصر

« **الديـوان** »

حقيقتـــي السلبيـــة

أحبّ صراحتي قولا وفعـــلا
وأكره أن أميـل الى الريـــاء
فما خادعت من أحد بـأمـــر
ولا آضمرت حسوا في ارتغـاء
ولست من الذين يرون خـيـرا
بابقـاء الحقيقـة في الخفـــاء
ولا ممن يرى الأديان قـامـــت بوحي منـزل للأنبيـــاء
ولكن هن وضع وابتـــداع من العقلاء أربـاب الدهـــاء
ولست من الألى وهموا وقـالـوا بأن الرّوح تعـرج للسمـــاء
ولست من الذين يرون فخـرا لمفتخـر باهـراق الـدمـــاء
ولا ممّن قـد ارتبطـوا بمـــاض فعاشـوا ينظـرون الى الوراء
ولا ممن اذا وبئوا استعـــاذوا بتمتمـة الدعـاء مـن الوبـاء
ولا من معشر صلّوا وصـامـوا لما وعـدوه من حسن الجزاء
ولا ممن يـرون الله يـجـــزي على الصلوات بالحور الوضـاء
ولا ممن يـرى الأشياء تفـنـى بحيث تكـون من عـدم الهواء
ولكن هنّ في جمـع وفـــرق تبدّل منهما صـور البقـــاء
ولست من الذين يـرون فضلا كبيرا للرجال على النســـاء
ولكن دالت الأيـام حتّـى تـهـاون هـؤلاء بـهـؤلاء

في سبيل حرية الفكر

كتبت لنفسي عهد تحريرها شعرا ... وأشهدت فيما قد كتب لها الدهرا
ومن بعد اتمامي كتابة عهدها ... جعلت الثريا فوق عنوانه طغرا
وعلّقته كي لا تناوله يد ... بمنبعث الأنوار من ذروة الشعرى
لذاك جعلت الحقّ نصب مقاصدي ... وصيّرت سرّ الرأي في أمها جهرا
وجرّدت شعري من ثياب ريائه ... فلم أكسه الا معانيه الغرا
وأرسلته نظما يروق انسجامه ... فيحسبه المصغي لإنشاده نثرا
فجاء مضيئا ليله كنهاره ... وان كان بعض القوم يزعمه كفرا
أضمنه معنى الحقيقة عاريا ... فيحسبه جهاله منطقا هجرا
ويحمله الغاوي على غير وجهه ... فيوسعني شتما وينظرني شزرا
رويدك انّ الكفر ما أنت قائل ... وانّ صريح العرف ما خاته نكرا
هل الكفر الاّ أن ترى الحقّ ظاهرا ... فتضرب للأنظار من دونه سترا
اذا كان في عرى الجسوم قباحة ... فأحسن شيء في الحقيقة أن تعرى
فيلمسها من مارست عينه عمى ... ويبصرها من كابدت أذنه وقرا
أحب الفتى أن يستقر بنفسه ... فيصبح في أفكاره مطلقا حرا
وأكره منه أن يكون مقلّدا ... فيحشر في الدنيا أسيرا مع الأسرى
وما هذه الأوطان الا حدائق ... بها تنبت الأفكار من أهلها زهرا
وما حبها الا لأجل تحرّر ... يكون الى العلياء بالنّاس منجرا
وما حسنها الا بأن سماءها ... تضاحك من أحرارها أنجمازهرا
اذا كان في الأوطان للناس غاية ... فحرية الأفكار غايتها الكبرى

فأوطانكم لن تستقل سياسة ... اذا أنتم لم تستقلّوا بها فكرا
اذا السيف لم يعضده رأي محرّر ... فلا تأملن من حدّه ضربة بكرا
سواء على الإنسان بعد جموده ... أحل بقفر الأرض أم سكن المصرا
اذا لم يعش حرًّا بموطنه الفتى ... فسمٌّ الفتى ميتا وموطنه قبرا
أحريتي انّي اتخذتك قبلة ... أوجّه وجهي كلّ يوم لها عشرا
وأمسك منها الركن مستلما له ... وفي ركنها استبدلت بالحجر الحجرا
اذا كنت في قفر تخذتك مؤنسا ... وان كنت في ليل جعلتك لي بدرا
وان نابني خطب ضممتك لائما ... فقبّلت منك الصدر والنحر والثغرا
وان لامني قوم عليك فانّني ... لملتمس للقوم من جهلهم عذرا

« الديوان »

مناجـــاة وشكـــوى

أقول لـرب الشعـر مهـدي الجواهـر ... الى كم تناغي بالقـوافي السواحـر
فترسلهـا غـرّا هواتف بـالـعـــلـى ... تـزود منهـا سمعه كـل شاعـــر
وتشدو بها والقوم صمّ عن العـــلى ... فلم تلـق الأغيـرواع وذاكـــــر
أترجـو من الحسّاد عـونـا وناصـرا ... فتـدعـو منهم خـاذلا غيـر نـاصـر
كـأنّـك لم تبصـر سـواد قلـوبـهـم ... فهـل أنت مغـرور ببيض المشافـر
رويدك انّ القـوم ليسوا كـمـا تـرى ... لدى كلّ ذي علم بما في السرائر
فلا تغتـرر منهم بباد فـانّـمـــا ... ظـواهـرهم منقـوضة بالضمـائـــر
رمتهـم يـد الأيـام من جشع بهـم ... ومن بطر فيهم بـــدأء الضـرائـر
بدائين قتالين حمـت نفـوسـهـم ... فساد السجايـا وانمساخ العناصـــر
وقد فرقت أهواءهم في بـلادهـــم ... أنـانية حلّـت عقـود الأواصـــر
لـذاك ترى كـلّا يعيش لـنفســـه ... على عكس عيش عند أهـل الحواضر
اذا جئتهم أبدوا إليك بشـاشـــة ... وحسن ابتسـام من ثغـور نـواكـر
وان غبت عنهم أو سعـوك مـذمـة ... كـأن لم يبثوا منك قيـلا لـزائـر

.....

فدعـهم وما هم فيـه مـن جـاهـليـة ... يدجـون منهـا في الديـاجي الكوافر
فسوف تراهم من تمادي ضـلالـهم ... يعودون في العقبى بصفقـة خاسـر
ونـزّه بليغ الشعـر عنهم بتـركـــه ... لكلّ كذوب بينـهم متشـاعـــــر
سكبـت بحـور الشعـر قبلـك خائضا ... لعمرك منها كل طـــام وزاخـــر
وسيرت في غـرّ القـوافي بلجهـا ... قصائـد سارت كالسفيـن المواخـر

ونحت على الماضي الذي كان زاهرا
مناحة ربّات الحجال الحرائر

فلم ألف إلاّ منكرين مكانتي
يحيدون عنّي كالوحوش النوافر

كما راعني منهم تماسيح خسّة
تريد ازدرادي بالحلوق الفواغر

فقابلتهم بالصفح عنهم ترفُّعاً وأعرضت عن شتم السفيه المهاتر
أنا اليوم من هذي الحياة على شفا أشارف منه مرقدي في المقابر
سأرحل عنهم عائذا من شرورهم بربٍّ كريم قابل التوب غافر

« **الديوان** »

مـــا وراء الـقـبـــر

متى تطلق الأيـــام حـريـة الفـكـر ..فينشـط فيهـا العقـل من غفلة الأسر
ويصدع كل بالحقيقـة نـاطـقـــــا ويتـرك ما لم يـدر منها لمن يـدري
أرانـا اذا رمنـا بيان حـقـيـقـــــة عزينا معاذ الله فيهـا الى الكفـــر
جهلنـا أشـد الجهـل آخـر عمـرنـــا كمـا قد جهلنـا قبلـه أول العمـــر
همـا ساحـلا بحـر من العيش مائـج ففي أيّ أمر نحن بينهما نجري
ومن أيـن جئنـا أم الى أيـن قصـدنـا وفي أي ليل من تشـكـكنا نســري
كـأنـا أتينـا والمعيشـة لـــجـــــة لنعبـر والأعمـار جسـر الى القبـر
وماذا وراء القبـر ممـا نـريـــــده
وهل من مدى بعـد العبور على الجـسر
تسائلنـي نفسـي وللموت صولـــة
ألا هـل لكسر الموت ويحـك من جبر
لعـلّ حياة المـرء ليـل ستنجـلـــي
غياهبـه من سكرة المـوت بـالفجر
فإن كان ذا حقّـاً فإن حياتنـــــا كمـا قيل ستـر والردى كاشف الستر
وقد قيـل ان الروح تبقى فهـل لهـا عروج الى الأعلى الى الأنجم الزهر
وهل تعرف الجثمـان بعـد عروجها فتمكـث منه في السمـاء على ذكـر
اذا أرضنـا كـانت سمـاء لغيرهـــا فمـا من عروج بل نـزول الى القعـر
وهل عرجت أرواح من في عطـارد الى الأرض أم هـذا الكلام من الهذر
خيـال بـه رحنا نعلّـل أنفُـسـاً هز أن به لمّـا رجعن إلى الحـــجر

وشبّه بالنهر الحياة معاشر ... فمنبعه في رأيهم قدم الدهر
ولكنّهم أعيا عليهم مصبُّه ... وان رجموا بالظن في منبع النهر
فياليت شعري أين ينصب جاريا ... أعودا لبدء أم الى غاية يجري ؟
لعمرك ما هذي الحياة وما الذي ... يراد بنا فيها من الخير والشر ؟
نحاول علما بالحياة وان ذا
منوط الى ما ليس يدرك بالفكر
ونسلك منها في مجاهل قفرة ... فنخرج من قفر وندخل في قفر
على انّنا نمضي الى أمر ربنا ... كما اننا آتون من ذلك الأمر

« الديوان »

الاســـــــلام

يقولون في الإسلام — ظلما — بأنه
يصدُّ ذويه عن طريق التقدّم
فإن كان ذا حقًّا، فكيف تقدّمت أوائله في عهدها المتقدم ؟
وان كان ذنب المسلم اليوم جهله، فماذا على الإسلام من جهل مسلم؟
هل العلم في الإسلام الافريضة، وهل أمة سادت بغير التعلُّم ؟
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلى بصائر أقوام عن المجد نُوّم
وحلّت له الأيام عندقيامه حباها، وأبدت منظر المتبسّم
فأشرق نور العلم من حجراته على وجه عصر بالجهالة مظلم
ودكّ حصون الجاهليّة بالهدى وقوّض أطناب الضلال المخيّم
وأنشط بالعلم العزائم، وابتنى لأهليه مجدا ليس بالمتهدم
وأطلق أذهان الورى من قيودها فطار بأفكار على المجد حوّم
وفك إسار القوم حتّى تحفّزوا نهوضا الى العلياء من كل مجثم
فخلّوا طريقا للبداوة مجهلا وساروا بنهج للحضارة معلم
فدوّت بمستن العلى نهضاتهم، كزعزع ريح أو كتيار عيلم
وعما قليل طبق الأرض حكمهم بأسرع من رفع اليدين الى الفم
وقد حاكت الأفكار عند اصطدامها تلألؤ برق العارض المتهزم
ولاحت تباشير الحقائق، فانجلت بها عن بني الدنيا شكوك التوهم
وما ترك الإسلام للمرء ميزة على مثله ممن لآدم ينتمي
فليس لمثر نقصه حق معدم ولا عربي بخسه فضل أعجم

ولا فخر للإنسان إلاّ بسعيه ... ولا فضل إلاّ بالتقى والتكرّم
وليس التقى في الدين مقصورة على ... صلاة مصلّ، أو على صوم صيّم
ولكنّها ترك القبيح وفعل ما ... يؤدي من الحسنى الى نيل مغنم
فتقوى الفتى مسعاه في طلب العلى ... وما خصت التقوى بترك المحرّم
فهل مثل هذا الأمر يالألي النهى ... يكون عثارا في طريق التقدّم؟
وان لم يكن هذا الى المجد سلّما، ... فأي ارتقاء بعد. أم أي سلّم؟
ألاقل لمن جاروا علينا بحكمهم: ... رويدا فقد قارفتمُ كلّ مأثم؟
فلا تنكروا شمس الحقيقة، انّها ... لأظهر من هذا الحديث المرجّم
عاونا وكنتم سافلين فلم نكن ... لنبدي اليكم جفوة المتهكّم
ولم نترك الحسنى أو ان جدالكم ... وتلك لعمري شيمة المتحلّم
فلما استدار الدهر بالأمر نحوكم ... كشفتم لنا عن منظر متجهّم
فلا تأمنوا الأيام انّ صروفها ... كما هي، إذ أودت بعاد وجُرْهُم

« **الديوان** »

تنبيـــــه النيـــــام

أما آن أن يغشي البلاد سعودها،
ويذهب عن هذي النيام هجودها؟
متى يتأتى في القلوب انتباهها،
فينجاب عنها رينها وجمودها؟
أما أسد يحمي البلاد غضنفر،
فقد عاث فيها بالمظالم سيدها،
برئت الى الأحرار من شرّ أمة
أسيرة حكام ثقال قيودها
سقى الله أرضا أمحلت من أمانها
وقد كان روّاد الأمان ترودها
جرى الجور منها في بلاد وسيعة،
فضاقت على الأحرار ذرعا حدودها

* * *

عجبت لقوم يخضعون لدولة،
يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها،
وأموالها منهم، ومنهم جنودها
اذا وليت أمر العباد طغاتها
وساد على القوم السراة مسودها

وأصبح حرّ النفس في كلّ وجهة،
يردّ مهانا عن سبيل يريدها
وصارت لئام النّاس تعلو كرامها
وعاب لبيدا فى النشيد بليدها
فما أنت الا أيها الموت نعمة
يعزّ على أهل الحفاظ جحودها

* * *

ألا إنّما حرّية العيش غادة
منى كلّ نفس وصلها ووفودها
يضيء دجنّات الحياة جبينها،
وتبدو المعالى حيث أتلع جيدها
لقد واصلت قوما، وخلت وراءها
أناسا تمنّى الموت لولا وعودها
وقد مرضت أرواحنا فى انتظارها،
فما ضرّها، والهفها ؟ لو تعودها

* * *

بنِي وطنِي مالي أراكم صبرتم
على نوب أعيا الحصاة عديدها؟
أما آدكم حمل الهوان، فإنّه
اذا حمّلته الراسيات يؤودها
قعدتم عن السعي المؤدي الى العلى،
على حين بزرى بالرجال قعودها

ولم تأخذوا للأمر يوما عتاده ،
فجاءت أمور ساء فيكم عتيدها
ألم تروا الأقوام بالسعي خلّدت
مآثر يستقصي الزمان خلودها
وساروا كراما رافلين الى العلى،
بأثواب عزّ ليس يبلى جديدها

* * *

قد استحوذت، ياللخسار ! عليكم
شياطين إنس صال منكم مريدها
وما اتقدت نار الحمية منكم،
لنقد اتحاد، فاستطال خمودها
ولولا اتحاد العنصرين لما غدا
من النار يذكو لو علمتم وقودها
اذا جاهل منكم مشى نحو سبة
مشى جمعكم من غير قصد يريدها
كأنّكم المعزى تهاوين عندما
نزا فنزت فوق الجبال عتودها
وما ثلّة قد أهملتها رعاتها
بمأسدة جاعت لعشر أسودها
فباتت، ولا راع يحامي مراحها،
فرائس بين الضاريات تبيدها

بأضيع منكم حيث لاذو شهامة
يذبّ الرزايا عنكم ، ويذودها

* * *

أتطمع هذي الناس أن تبلغ المنى،
ولم تور في يوم الصّدام زنودها
فهل لمعت في الجوّ شعلة بارق.
وما ارتجست بين الغيوم رعودها؟
وأدخنة النيران، لولا اشتعالها
لما تمّ في هذا الفضاء صعودها
وإنّ مياة الأرض تعذب ما جرت
ويفسدها فوق الصعيد ركودها
ومن رام في سوق المعالي تجارة.
فليس سوى بيض المساعي نقودها

« **الديوان** »

التعـــاون

يعيش الناس في حال اجتماع ... فتحدث بينهم طرق انتفاع
وتكثر للتعاون والتفادي ... على الأيام بينهم الدواعي
ولو ساروا على طرق انفراد ... لما كانوا سوى همج رعاع
رأيت النّاس كالبنيان يسمو ... بأحجار تسيّع بالسياع
فيمسك بعضه بعضا فيقوى ... ويمنع جانبيه من التداعي
كذاك الناس من عجم وعرب ... جميعا بين مرعي وراع
قد اشتبكت مصالحهم فكلّ ... لكلّ في مجال العيش ساع
ولولا سعي بعضهمُ لبعض ... لعاشوا عيش عادية السباع
اذا ربّ الحسام ثناه عجز ... تدارك عجزه ربّ اليراع
وإن قلم الأديب عراه زيغ ... تلافى زيغه سيف الشجاع
وإن صفرت يد من ريع زرع ... أعيد ثراؤها بيد صناع
بذاك قضى اجتماع الناس لمّا ... أن اعتصموا بحبل الاجتماع
يساند بعضهم في العيش بعضا ... مساندة ارتفاق وانتفاع
فتعلو في ديارهم المباني ... وتخصب في بلادهم المراعي
وتستعلي الحياة بهم فتمسي ... من العيش الرّغيد على يفاع
وما مدنية الأقوام إلاّ ... تعاونهم على غرّ المساعي
ولم يصلح فساد النّاس إلاّ ... بمال من مكاسبهم مشاع
وإلاّ فالشقاء لهم حليف ... وما حمل الشقاء بمستطاع

« الديوان »

بنـــــي الأرض

بنـي الأرض هـــل من سامع بأبثه ... حديـث بصيـر بالحقيقـــة عالـم

جبلنا على حبّ الحيـــاة وإنّهـــا ... مخيبـة أحـــلام أطـــافت بحالم

سعى النّـاس والأقدار مخبوءة لهم ... ونـاموا وما ليل الخطوب بنائـم

جـرت سفـن الأيـام مشحـونـــة بنا ... على بحـر عيـش بالـــردى متلاطم

تأمّلـت في الأحيـــاء طرًّا فلم أجـد ... بـهم باسمـا إلاّ عـلى ألـف واجم

وربّ سعيـد واحـد تَمّ سعـده ... بألـف شقـي في المعيشـــة راغـم

ومـا المـرء الاّ دوحـة في تنوفـــة ... ملحـوّة أغصانهـا بالسمائـــم

لهـا ورق قـد جـفّ إلاّ أقـــلّـــه ... وعيـدانهـا بين النيـــوب العواجم

ولا بـد أن تجتـثّ يـومـا جـذورهـا ... وتقلعهـا إحـــدى الـريـاح الهواجم

أرى الخيـر في الأحياء ومـض سحابة ... بدا خلّـباً والشـرّ ضربـة لازم

اذا مـا رأينـا واحـدا قـــام بـانيـا ... هنـاك رأينـا خلفـه ألف هـــادم

ومـا جـاء فيـهم عـــادل يستميـلـهم ... الى الحـقّ إلاّ صـدّه ألف ظـــالم

جهلـت كجهـل النّـاس حكمـة خالق ... على الخلـق طرًّا بالتعاسـة حـاكـم

« الديـوان »

الى العمـــل

كلّ ما في البـــلاد من أمـــوال ليس إلاّ نتيجـة الأعمـــال

إن يطب في حياتنا الاجتماعيـــة عيش فالفضل للعمـــال

واذا كان في البـلاد شـــراء فبفضل الانتـاج والإبـــدال

أكثر النّاس يكدحـون لقـوم قعدوا في قصورهم والعلالي

واحد في النعيم يلهو وألـف في شقاء وأبؤس واعتـــلال

فالى كم نشقى وحتّـام نبقـى هكذا في عمايـة وضـــلال

ليس للمرء أن يعيش بلا كـدّ وإن كان من عظـام الـرجـال

كلّ مجد يبنى على غير سعي فهو مجد مهدّد بالـــزوال

ليس قدر الفتى من العيش إلاّ قدر انتاج سعيه المتـــوالي

أيُّهَـا العاملـون إنّ اتِّحَـادا بينكم مرخص لكم كـلّ غـال

ما لعيش تشقـون فيه سقـاما بسوى الاتحـاد من إبـــلال

فليكن بعضكم لبعض نصيـرا ومعينا له على كـل حـــال

واذا قلت إنّكم أنتم النّـــا س جميعـا فلا أكـون مغال

فاعملـوا دائبين غيـر كسالى وارقبوا ما به ستأتِي اللّيَالي

ثمّ قولوا معي مقالا رفيع الصـــوت فلتحى زمـــرة العمّـال

« الديـوان »

التـــربيـة والأمهـــات

هي الأخلاق تنبت كالنبـــات ... إذا سقيت بمـاء المكرمـات
تقوم اذ تعهدهـا المـربـي ... على سـاق الفضيلـة مثمـرات
وتسمو للمكارم باتسـاق ... كما اتّسقت أنابيب القنـا
وتنعش من صميم المجد روحا ... بأزهارلهـا متضـوّعـات
ولم أر للخلائق من محـلّ ... يهذّبها كحضـن الأمـهـات
فحضن الأم مدرسـة تسامـت ... بتربيـة البنيـن أو البنـات
وأخـلاق الوليد تقـاس حسنا ... بأخلاق النسـاء الوالـدات
وليس ربيب عاليـة المـزايـا ... كمثل ربيـب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت في جنـان ... كمثل النبت ينبت في الفلاة

* * *

فيا صدر الفتاة رحبت صـدرا ... فأنت مقرّ أسنى العاطفـات
نـراك، اذا ضممت الطفل لوحا ... يفوق جميع الـواح الحيـاة
إذا استند الوليـد عليك لاحت ... تصاويـر الحنـان مصـوّرات
لأخـلاق الصبي بك انعكـاس ... كما انعكس الخيـال على المراة
وما ضربان قلبك غيـر درس ... لتلقيـن الخصـال الفاضـلات
فأول درس تهذيب السجـايـا ... يكـون عليك يا صدر الفتـاة
فكيف نظنّ بالأبنـاء خيـرا ... اذا نشأوا بحضن الجاهـلات؟
وهل يرجى لأطفـال كمـال ... اذا ارتضعوا ثدي الناقصـات؟
فما للأمهـات جهلن، حتّـى ... أتيـن بكلّ طياش الحصـاة

حنون على الرضيع بغير علم فضاع حنو تلك المرضعات

* * *

أأمّ المؤمنين إليك نشكو مصيبتنا بجهل المؤمنات
فتلك مصيبة يا أمّ منها "نكاد نغصّ بالماء الفرات"
تخذنا بعدك العادات ديناً فأشقى المسلمون المسلمات
فقد سلكوا بهنّ سبيل خسر وصدوهنّ عن سبل الحياة
بحيث لزمن قعر البيت حتّى نزلن به بمنزلة الأداة
وعدّ وهنّ أضعف من ذباب بلا جنح وأهون من شذاة
وقالوا شرعة الإسلام تقضي بتفضيل "الذين" على "اللواتي"
وقالوا انّ معنى العلم شيء تضيق به صدور الغانيات
وقالوا الجاهلات أعف نفساً عن الفحشا من المتعلّمات
لقد كذبوا على الإسلام كذباً تزول الشمّ منه مزلزلات
أليس العلم في الإسلام فرضاً على أبنائه وعلى البنات؟
وكانت أمّنا في العلم بحراً تحلّ لسائليها المشكلات
وعلّمها النبيء أجلّ علم فكانت من أجلّ العالمات
لذا قال : آرجعوا أبداً إليها بثلثيْ دينكم ذي البينات
وكان العلم تلقينا فأمسى يحصّل بانتياب المدرسات
وبالتقرير من كتب ضخام وبالقلم الممدّ من الدواة
ألم نر في الحسان الغيد قبلا أوانس كاتبات، شاعرات؟
وقد كانت نساء القوم قدماً يرحن الى الحروب مع الغزاة
يكنّ لهم على الأعداء عوناً ويضمدن الجروح الداميات
وكم منهن من أسرت وذاقت عذاب الهون في أسر العداة

فماذا اليوم ضرّ لو التفتنا ... الى أسلافنا بعض التفات

فهم ساروا بنهج هدى وسرنا ... بمنهاج التفرّق والشتات

نرى جهل الفتاة لها عفافا ... كأنّ الجهل حصن للفتاة

ونحتقر الحلائل لا لجرم ... فنؤذيهن أنواع الأذاة

ونلزمهن قعر البيت قهرا ... ونحسبهنّ فيه من الهنات

لئن وأدوا البنات فقد قبرنا ... جميع نسائنا قبل المَمات

حجبنا هنّ عن طلب المعالي ... فعشن بجهلهنّ مهتّكات

ولو عدمت طباع القوم لؤما ... لما غدت النساء محجّبات

وتهذيب الرجال أجلّ شرط ... لجعل نسائهم متهذّبات

وما ضرّ العفيفة كشف وجه ... بدا بين الأعفّاء الأباة

فدى لخلائق الأعراب نفسي ... وان وصفوا لدينا بالجفاة

فكم برزت بحيهم الغواني ... حواسر غير ما متريّبات

وكم خشف بمربعهم وظبي ... يمرمع الجداية والمهاة

ولولا الجهل ثم، لقلت : مرحى ... لمن ألفوا البداوة في الفلاة!

« **الديوان** »

اليتيـــم فى العيـــد

أطلّ صباح العيد في الشرق يسمع ... ضجيجا به الأفـراح تمضي وترجع
صباح به تبدي المسرّة شمسها ... وليس لها إلاّ التوهّم مطلع
صباح به يختال بالوشي ذو الغنى ... ويعوز ذا الاعدام طمر مرقّع
صباح به يكسو الغني وليده ... ثيابا لها يبكي اليتيم المضيّع
صباح به تغدو الحلائل بالحلى ... وترفض من عين الأرامل أدمع
ألا ليت يوم العيد ما كان، إنه ... يجدد للمحزون حزنا فيجزع
يرينا سرورا بين حزن وإنما ... به الحزن جدّ والسرور تصنّع
فمن بؤساء النّاس في يوم عيدهم ... نحوس، بها وجه المسرة أسفع
قد ابيض وجه العيد، لكن بؤسهم ... رمى نكتا سودا به فهو أبقع

* * *

خرجت بعيد النحر صبحا، فلاح لي ... مسارح للأضداد فيهنّ مرتع
خرجت وقرص الشمس قد ذرّ شارقا ... ترى النور سيّالا به يتدفّع
هي الشمس خود قد أطلت مصيخة ... على الأرض من أفق العلى تتطلّع
كان تفاريق الأشعة حولها ... على الأفق مرحاة ذوائب أربع
ولما بدت حمراء، أيقنت أنّها ... بها خجل مما تراه وتسمع
فرحت وراحت ترسل النور ساطعا ... وسرت، وسارت في العلى تترفّع
بحيث يسير النّاس كلّ لوجهة، ... فهذا على رسل، وذلك مسرع
وبعض له أنف أشمّ من الغنى ... وبعض له أنف من الفقر أجدع

....

فجئت وجوف الطبل يرغو. وحوله شباب وولدان عليه تجمّعوا
لقد وقفوا. والطبل يهتزّ صوته. فتهتزّ بالأبدان سوق وأكرع
ترى ميعة الأطراب. والطبل هادر تغيض وفي أعصابهم تتميَّع
فقد كانت الأفراح تفتح بابها لمن كان حول الطبل، والطبل يقرع

* * *

وقفت أجيل الطرف فيهم، فراعني هناك صبيّ بينهم مترعرع
صبي صبيح الوجه أسمر شاحب نحيف المباني، أدعج العين، أنزع
يزين حجاجيه اتساع جبينه، وفي عينه برق الفطانةَ يلمع
عليه دريس يعصر اليتم ردنه فيقطر فقر من حواشيه مدقع
يليح بوجه للكآبة. فوقه غبار به هبَّت من اليتم زعزع
على كثر قرع الطبل تلقاه واجما كأن لم يكن للطبل ثمَّة مقرع
كأنّ هدير الطبل يقرع سمعه فلم يلف رجعا للجواب فيرجع
يردُّ ابتسام الواقفين بحسرة تكاد لها أحشاؤه تتقطّع
ويرسل من عينيه نظرة مجهش. وما هو بالباكي، ولا العين تدمع
له رجفة تنتابه وهو واقف على جانب، والجو بالبرد يلسع
يرى حوله الكاسين من حيث لم يجد على البرد من برد به يتلفّع
فكان ابتسام القوم كالثلج قارسا لدى حسرات منه كالجمر تلذع

....

الأرملـــة المـرضعـــة

لقيتهـا ، ليتني مـا كنـت ألقـاهـــا
تمشـي وقد أثقـل الإمـلاق ممشاها

أثوابهـا رثّـة والرجل حـافيـــــة
والدمع تـذرفـه في الخدّ عيناها

بكت من الفقـر فاحمـرّت مـدامـعـها
واصفـرّ كالـورس من جوع محيّـاها

مـات الذي كـان يحميهـا ويسعـدها
فالـدهـر من بعـده بالفقـر اشقاها

المـوت أفجعهـا والفقـر أوجعهـــا
والهـم أنحلـهـا، والغـم أضنـاهـا

فمنظـر الحزن مشهـود بمنظـــرهـا
والبـؤس مـرآه مقـــرون بمـرآهـا

كـرّ الجـديـديـن قـد أبـلى عبـاءتهـا
فانشـق أسفلهـا وانشـق أعـــلاهـا

ومـزّق الـدهـر، ويـل الدهـر مئزرها
حتى بدا من شقوق الثـوب جنباهـا

تمشـي بأطمـارهـا والبـرد يلسعهـا
كـأنـه عقـرب شالـت ذناباهـــا

حتى غدا جسمهـا بالبرد مرتجفـا
كالغصن في الريح ،واصطكّـت ثناياها

تمشي وتحمـل باليسرى وليدتهـــا
حمـلا على الصـدر مـدعـومـا بيمناها

قد قمّـطتها بأهدام ممـــزقـــــة
في العين منشـرهـا سمـج ومطواها

ما أنس لا أنس أنـّي كنت أسمعهـا
تشكو إلى ربـّهـا أو صاب دنياهـا

تقول: يا ربّ لا تتـرك بلا لبـــن
هـذي الرضيعـة وارحمنـي وإيـاهـا

ما تصنع الأمّ في تربيب طفلتـهـــا
إن مسّـهـا الضـرُّ حتى جفّ ثدياها؟

يا ربّ ما حيلتي فيهـا وقد ذبلـت
كزهرة الروض فقد الغيث أظماها!

ما بالهـا وهي طول الليل بـاكيـــة
والأمُّ ساهرة تبكي لمبكاها !

يكاد ينقدُّ قلبـي حين انظـرهـــا
تبكي وتفتـح لـي من جوعها فـاها!

ويلمّهـا طفلة باتت مـــروعـــة!
وبتّ من حولهـا في الليل أرعاها!

تبكي لتشكو من داء ألمّ بهـا ... ولست أفهم منها كنه شكواها
قد فاتها النطق كالعجماء، ارحمها ... ولست أعلم أيّ السقم آذاها؟

....

كانت مصيبتها بالفقر واحدة ... موت والدها باليتم ثنّاها
هذا الذي في طريقي كنت أسمعه ... منها فأثّر في نفسي وأشجاها
حتى دنوت إليها وهي ماشية ... وأدمعي أوسعت في الخدّ مجراها
وقلت: يا أخت مهلا! إنّني رجل ... أشارك النّاس طرّا في بلاياها
سمعت يا أخت شكوى تهمسين بها ... في قالة أوجعت قلبي بفحواها
هل تسمح الأخت لي أني أشاطرها ... ما في يدي الآن استرضي به اللّها؟
ثم اجتذبت لها من جيب ملحفتي ... دراهما كنت استبقي بقاياها
وقلت : يا أخت أرجو منك تكرمتي ... بأخذها دون ما منٍّ تغشاها
فأرسلت نظرة رعشاء راجفة ... ترمي السهام وقلبي من رماياها
وأخرجت زفرات من جوانحها ... كالنار تصعد من أعماق أحشاها
وأجهشت ثمّ قالت وهي باكية ... واها لمثلك من ذي رقّة واها!
لوْ عمّ في الناس حسّ مثل حسّك لي ... ماتاه في فلوات الفقر من تاها
لو كان في النّاس إنصاف ومرحمة ... لم تشك أرملة ضنكا بدنياها
هذي حكاية حال جئت أذكرها ... وليس يخفى على الأحرار مغزاها
أولى الأنام بعطف النّاس أرملة ... وأشرف النّاس من بالمال واساها

« **الديوان** »

الصديق المضاع

علام حرمنا منذ حين تلاقيا ... أفي سفر قد كنت أم كنت لاهيا
عهدناك لا تلهو عن الخلّ ساعة ... فكيف علينا قد أطلت التجافيا
وما لي أراك اليوم وحدك جالسا ... بعيدا عن الخلّان تأبى التدانيا
أنابك خطب أم عراك تعشّق ... فانّي أرى حزنا بوجهك باديا
وما بال عينيك اللتين أراهما ... تديران لحظا يحمل الحزن وانيا
وأيّ جوى قد عدت أصفر فاقعا ... به بعد أن قد كنت أحمر قانيا
تكلّم فما هذا الوجوم فإنّني ... عهدتك غريدا بشعرك شاديا
تجلد تجلد يا(سليم) ولا تكن ... بما ناب من صرف الزمان مباليا
ولا تبتئس بالدهر إنّ خطوبه ... سحابة صيف لا تدوم ثوانيا

* * *

فقال ولم يملك بوادر أدمع ... تناثرن حتى خلتهن لآليا
لقد هجتني يا (أحمد) اليوم بالأسى ... وذكّرتني ما كنت بالأمس ناسيا
أتعجب من حزني وتعلم أنّني ... قريع تباريح تشيب النواصيا
لقد عشت في الدنيا أسيفا وليتني ... ترحّلت عنها لا عليّ ولا ليا
وقد كنت أشكو الكاشحين من العدى ... فأصبحت من جور الأخلاء شاكيا
وما رحت أستشفي القلوب مداويا ... من الحقد إلاّ عدت عنها كما هيا
وداريت حتّى قيل لي متملّق ... وما كان من داء التملّق دائيا
وحتى دعاني الحزم أن خل عنهم ... فإنّ صريح الرأي أن لا تداريا
ورب أخ أو قرت قلبي بحبّه ... فكنت على قلبي بحبّيه جانيا

أراد انقيادي للهوان ومادرى ... بأنّي حرّ النفس صعب قياديا
اذا ما سمائي جاد بالذل غيثها ... أبيت عليها أن تكون سمائيا
ألا فابك لي يا (أحمد) اليوم رحمة ... ودعني وشأني والأسى وفؤاديا
فإن أحقّ النّاس بالرحمة امرؤ ... أضاع ودادا عند من ليس وافيا
وما كان حظي وهو في الشعر ضاحك ... ليظهر الاّ في سوى الشعر باكيا
ركبت بحور الشعر رهوا ومائجا ... وأقحمت منها كلّ هول يراعيا
وسيّرت سفني في طلاب فنونه ... وألقيت في غير المديح المراسيا
وقلت اعصني يا شعر في المدح إنني ... أرى النّاس موتى تستحقّ المراثيا
ولو رضيت نفسي بأمر يشينها ... لما نطقت بالشعر إلاّ أهاجيا
....

« الديوان »

الســـــاعـــة

وخرساء لم ينطق بحرف لسانهـــا سوى صوت عرق نابض بحشاها
حكت لهجة التمتام لفظا ولم تكن لتفصح إلاّ بالزمان لغاهـــــا
لها ضربان في الحشا قد حكت بـه فؤادا تغشّاه الهوى وحكـاهـــا
جرت حركات الدهر في ضرباتها وبانَت مواقيت الورى بعمـاهـــا
على وجهها خطّت علائم تهتـدي بهـا النَّاس في أوقاتها لمـناهـا
مشت بين آنات الزمـان تقيســـه وما هو الا مشيها وخطـــاهـــا
بهـا يتقاضى النَّاس مـا يـوعـــدوه ويرشد ضـلاّل الزمـــان هداهـــا
غدت كأخي الإيمان تأكل فـي معـا وما أكلها إلاّ التواء معاهـــا
تـدور عليهـا عقـرب دور حـــائـــر بتيهاء غمَّـت في الظـلام صواهـا
تريك مكان الشمس في دورانـهـــا اذا حجبـت عنك الغيوم ضياهـا
فاعجب لهـا مصحوبة جاء صنعها نتيجة أفكـار الورى وحجـاهـــا
بنتهـا النهى في الغابريـن بســيطـة فتمَّ على مرّ الزمـان بنـــاهـــا
تنـادي بنِي الأيـام في نقـــراتـهـا أن اسعـوا بجـد بالغين مـداهـــا
ولا تهملـوا الأوقـات فهي بواتـر تقطّع أوصال الحيـــاة شبـــاهـــا

« **الديـــوان** »

كـل امـــرىء وصـــديقـه

تحرّ اذا صادقت من ودّه محـض
يصان لديه المال والدين والعرض
فكلُّ خليل مـنبىء عن خليلـه
كما عن شؤون القـلب قد أنبأ النبض
و الصدق عامل من تحب من الورى والاّ فذاك الحبّ آخره بغض
وسامح صديقا قد أساء بفعلـه ثلاثا عسى عن ذلك الفعل ينفضّ
وبعد ثلاث دعـه غير مسامـح فرفض الذي دامت اساءته فرض
وقوّ أساس الودّ بالصدق فالـذى على جرف هار يؤسّس ينقضّ
وإن وضعت للخلّ منك سحابـة فلايك منها خلبـا ذلك الومض

« الديـوان »

أيتها الكعاب

فتنت الملائك قبل البشر وهامت بك الشمس قبل القمر
وسرّ بك السمع قبل البصر وغنّى بك الشعر قبل الوتر
فأنت بحسنك بنت العبر

ترفّ لمرآك روح الغرام ويهوى طلوعك بدر التمام
ليطلع مثلك بالاحتشام ويرقب خطرة هذا القوام
لكيما يهبّ نسيم السَّحر

تميل بقدّك خمر الدلال فيضحك في ميله الإعتدال
وفيك ارتقى الحسن عرش الجلال ومنه العقول غدت في عقال
وكم قد نهاها وكم قد أمر

اذا الوجه منك بدا للعيان له سجد العشق يرجو الأمان
ويخجل من نوره النيران ويعنو له جبروت الزّمان
ويخضع حتّى القضا والقدر

بك الحسن ألبس ثوب الكمال فأنت الحقيقة وهو الخيال
وأنت مليكة ملك الجمال ولو صوّروك بنوح المثال
لكنت مليكة كلّ الصُّور

يروح الشتاء وتصحو السماء ويأتي الربيع بما نمنما
فيطلع فوق الثرى أنجما ويبتسم الزهر بعد النّما
فأنت ابتسامة ذاك الزهر

فطرفك بالفتر كم قد روى نشيد غرام يهدّ القوى

وما أنت شاعـرة في الهـوى ولكنما الشعر فيك انطوى
فآية حسنك احدى العبر

لسانك يسحر في ظرفه وجفنك يفتن في ضعفه
وقدّك يخطر في لطفه فيطنب ردفك في وصفه
ويوجزه خصرك المختصر

سقتك الكعابة صفو الشباب وغطّى محيّاك منها نقاب
فأنت إذا قمت للانسياب تبخترت في خفر والكعاب
تضيء كعابتها بالخفر

« **الديوان** »

نحن والماضي

عهدتك شاعر العرب المجيدا ... فمالك لا تطارحنا النشيدا
فنحن إليك بالاسماع نصغي ... فهل لك أن تفيد فنستفيدا
بشعر لا تزال تنوط منه ... بجيد بدائع الدنيا عقودا
اذا أنشدته الحسناء تاهت ... كأن قرّطتها درّا فريدا
وأنت إذا قرعت به عبيدا ... رددت الى الحرار به العبيدا
ولو تستنهض الجبناء يوما ... به لتقحّموا الهيجا أسودا
ولو كرّرته للقوم ألفا ... لأقسم سامعوه بأن تعيدا
وكم تهتزّ أعطاف المعالى ... اذا ما قلت قافية شرودا
فلو أنشدتنا في الفخر شعرا ... تذكّرنا به العهد البعيدا
تذكّرنا الأوائل كيف سادوا ... وكيف تبَوّؤُوا الشرف المديدا

* * *

فقلت له وقد أبدى ارتياحا ... إليّ إذ ارتجلت له القصيدا
أجل! إن القبائل من معدّ ... علوا فتسنّموا المجد المجيدا
وانّ لهَاشِم في الدهر مجدا ... بناه لها الذى هشم الثريدا
ومذ قام ابن عبد الله فيهم ... أقام لكل مكرمة عمودا
وأنهضهم الى الشرف المعالّى ... وكانوا عنه قبلئذ قعودا
فأصبح واريا زند المعالى ... قبلا كان مقدحه صلودا
فهم فتحوا البلاد ودوّخوها ... وقادوا فى معاركها الجنودا
وهم كانوا أشدّ النّاس بأسا ... أمنع جانبا وأعمّ جودا

وأرجعهم لدى الجلّى حاوما ... وأصلبهم لدى الغمرات عودا
ولكن أيُّها العربيّ إنّي ... أراك لغير ما يجدي مريدا
وما يجدي افتخارك بالأوالي ... اذا لم تفتخر فخرا جديدا

* * *

أرى مستقبل الأيام أولى ... بمطمح من يحاول أن يسودا
فما بلغ المقاصد غير ساع ... يردّد في غد نظرا سديدا
فوجّه وجه عزمك نحو آت ... ولا تلفت الى الماضين جيدا
وهل ان كان حاضرنا شقيا ... نسود بكون ماضينا سعيدا
تقدّم أيها العربي شوطا ... فإن أمامك العيش الرغيدا
وأسِّس في بنائك كلّ مجدٍ ... طريف وأترك المجد التليدا
فشرّ العالمين ذوو خمول ... إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
وخير النّاس ذو حسب قديم ... أقام لنفسه حسبا جديدا
تراه إذا ادّعى في النّاس فخرا ... تقيم له مكارمه الشهودا
فدَعْني والفخارَ بمجد قوم ... مضى الزمن القديم بهم حميدا
قد ابتسمت وجوه الدهر بيضا ... لهم ورأيننا فعبسن سودا
وقد عهدوا لنا بتراث ملك ... أضعنا في رعايته العهودا
وعاشوا سادة في كلّ أرض ... وعشنا في مواطننا عبيدا
إذا ما الجهل خيَّم في بلاد ... رأيت أسودها مسخت قرودا

« الديوان »

الحرية فى سياسة المستعمرين

يا قوم لا تتكلّموا إنّ الكلام محرَّم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلاّ النوَّم
وتأخَّرُوا عن كلّ ما يقضي بأن تتقدَّموا
ودعوا التفهّم جانبا فالخير أن لا تفهموا
وتثبّتوا في جهلكم فالشر أن تتعلّموا
أمّا السياسة فاتركوا أبدا والاّ تندموا
إنّ السياسة سِرّهَا لو تعلمون مطلسم
واذا أفضتم في المُبَا حِ من الحديث فجمجموا
والعدلَ لا تتوسّموا والظلمَ لا تتجهّموا
من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكرّم
فليمس لا سمع ولا بصر لديه ولا فم
لا يستحقّ كرامة الاّ الأصمُّ الأبكم
ودعوا السعادة إنَّما هي في الحياة توهم
فالعيش وهو منعَّم كالعيش وهو مذمَّم
فارضُوا بحكم الدهر مهما كان فيه تحكّم
واذا ظُلمتم فاضحكوا طربا ولا تتظلموا

واذا أُهنتم فاشكروا وإذا لُطِمتم فابسموا

إنْ قيل هذا شهدكم مرّ فقولوا علقم

أو قيل إنّ نهاركم ليل فقولوا مظلم

أوْ قِيل إنّ ثمادكم سيْل فقولوا مفعم

أو قيل إنّ بلادكم يا قوم سوف تقسّم

فتحمّدوا وتشكّروا وترنّحُوا وترنّموا

« الديوان »

ميخائيل نعيمة

النقد والشعر

نهضة الشرق العربي

—◆—

لقد كثرت "نهضاتنا" في هذه الأيام وتعددت "حركاتنا" حتى لا تسمع إلاّ بالنّاهضين ولا ترى إلاّ القائمين بحركة ما فهناك الحركة الوطنية والجنسيّة والسياسيّة وهناك النهضة الأدبيّة والتهذيبيّة والاقتصادية وكدت أنسى النسائية. وكثيرا ما سألت نفسي ماذا عسانا نعني بقولنا: "نهضة" انقصد أننا كنّا غافلين فاستيقظنا أمْ مُستلقين على ظهورنا فانتصبنا أم سائرين في مُؤخّرة موكب الحياة فأصبحنا في منتصفه أو مقدمته ؟ وكيف لنا كلّما خطونا خطوة أن نعرف هل خطونا الى الأمام أم الى الوراء أم بقينا حيث كنّا ؟ لقد يحسب البعض مثل هذه الأسئلة ضربا من البلاهة والبلادة غير أنّي أسألهم بكلّ احترام أن يطالعوني على المقياس الذي يقيسون به "التقدّم" لأطالعهم على رأيي في "نهضاتهم" — إنّ مسافرا خرج من بيته قاصدا محطّة القطار فوصلها يعرف أنّه قد "تقدّم" في رحلته ذراعا أو فرسخا فكيف لأمّة أن تعرف أنّها "تقدّمت" في سيرها ؟ هل يتمّ لها ذلك إذا انْتَقَلتْ من حكم أجنبيّ الى وطنيّ ؟ أو من ملكيّ إلى جمهوريّ ؟ أو إذا كانت لها مدرسة واحدة فأصبحت لها مدارس؟ أو معمل فغدت وعندها ألف معمل ؟ أو طيارة أو قطعة بحرية صغيرة فأصبحت وعندها طيارات وأساطيل لا تقهر ؟ وبعبارة أخرى — هل اذا بلغت الأقطار العربيّة يوما شأن الولايات المتحدة أو انكلترا أو فرنسا أو اليابان تحسب أنّها "تقدمت". إذا كان لما

تعـوّدنـا أن نـدعـوه "رقيّـا" أو "تقـدماً" مـن معنى فمعناه، يجب أن يقـاس بالسعـادة الناتجـة عنـه ولا مقيـاس للسعـادة في نظـري إلاّ واحد وهـو مقـدار التغلُّب على الخـوف بكـلّ أنـواعه – خـوف المـوت وخوف الجـوع والألـم والفـاقـة والعبـوديـة وكـلّ مـا هنالـك مـن ضـروب الخـوف لأنّ التغلُّب على الخـوف يولـد تـلـك الطمأنينـة الـروحيّـة التي لا سعـادة إلاّ بهـا فإذا كـانت المدنيّة الغربيّة كـما نعـرفهـا تـساعـد على استئصال الخوف أكثر من المدنيّة الشرقيّة فهي حريّـة بالحفظ والتقليد وحـريٌّ إذ ذاك بـالشـرق أن يتبنّى مـن الغـرب برلمـانـاتـه ومعاهدَه العلميـة والمـدنيـة وأن يتـزيّـا بأزيـائـه الأدبيـة وأن لا يقـف في تقليـده عنـد حـدّ.

« **المـراحل** »

قيمـــة الانســـان

... كلّ ما في الطبيعة ثمين وجميل وشريف ولكنّ أثمنَه وأجمله وأشرفه على الإطلاق هو الأنسان فهو الكائن الذي لا حدود لكيانه، هو الفكر الذي لا ينثني يفتّش عن ذاته والخيال الذي لا يملّ ارتياد المستتر والمجهول، والمغنطيس الذي يتناول الإلهام من كلّ ما يتّصل به من الكائنات، والخزان الذي لا ينضب من الشوق إلى الكمال المطلق، هو غاية الطبيعةمن وجودها. أمّا غايته منوجوده فمعرفته لنفسه، ومعرفته لنفسه تعني معرفته لله، ومعرفته لله تعني معرفتهلكلّ شيء ومعرفته لكلّ شيء تعني القدرة على كلّ شيء، والانعتاق من كلّ قيد وحدّ – ومن كان ذلك شأنه ومقامه في الكون فبماذا تزنه وكيف تحدّد قيمته ؟ إنّه في اعتقادي فوق كلّ الموازين والأثمان...

سرّ كنين وكنز دفين هو الإنسان وإناء قدسيّ لحقيقة أزليّة أبديّة هي الله، ولا فرق ما بين رضيع ويافع وبين شابّ وأشيب أو بين ذكر وأنثى ونحن لا نملك من معرفة الغيب ما يخوّلنا أن نحدّد قيمة أي إنسان ثمّ أن نجعل تفاوتا فاضحا بين قيمة إنسان وإنسان.

ليت شعري هل درت بنت فرعون يوم التقطت الطفل موسى أن لقيطها سيقهر والدها يوما من الأيّام وسيقهر الزمان من أعالي طور سينا ؟ ولو هي شاءت أن تبيع ذلك اللقيط، ترى بكم فلس كانت تبيعه ؟

ذلك مثال واحد من أمثلة بغير عدّ يحفل بها تاريخ البشريّة، وكلّها يشهد على أنّ قيمة الإنسان فوق ما يستطيع النّاس تحديدهُ فما أكثر الأنبياء والعباقرة والعظماء الذين ما لمعوا في حداثتهم ولا كان آباؤهم وأمهاتهم على شيء من النبوّة والعبقريّة والعظمة ولو كلّف معاصروهم أن يقيمُوا لهم أثمانا لما ميّزوهم بشيء عن سائر الأحداث وعن سائر الآباء والأمّهات بل كان من الأرجح أن يجعلوهم في أسفل السلّم البشريّ من حيث القيمة والأهميّة.

إنّ مدرسة تحشو دماغ التلميذ بشتّى المعلومات من صالحة وطالحة ولا تعلّمه قيمته كإنسان لمدرسة لا فرق بينها وبين السجن وإنّ طالبا يتخرّج في أعلى المدارس وبأضخم الشهادات ولا يعرف قيمة نفسه وقيمة النّاس لطالب دَفَنَ أجمل شطر من حياته في التراب. فالشهادات تبلى والمعارف تتغربل والأحوال تحول، أمّا الإنسان فأقوى من كلّ حال. والمدرسة المثلى هي التي تهتمّ بالتلميذ إنسانا عزيزا قبل أن تهتمّ به مهندسا أو طبيبا أو محاميا بارعا.

وإنّ معبدا يخرج منه العابد ذليل النفس صغير القلب كسير الجفن لمعبد لا يعرف الله فالله ما خلق الإنسان ليذلّه ويمتهنَه ويشقيه بل ليرفعه إليه ويكرّمه ويسعدَه. ولا براه من الطين ليبقيه طينا، بل نفخ فيه من روحه ليجعله روحا كروحه -- فالمعبد الأمثل هو الذي إذا ما دخله العابد ذليلا وصغيرا وكسيرا خرج منه أبيّا وكبيرا ومجنّحا...

لعلّ أفظعَ ما يتحمّلُه الإنسان من الإنسان هو الذلّ فالذلّ أبشع وجهاً من الكبرياء وأمرّ مذاقاً من الفقر. وأثقل وطأة من المرض وأقسى نابا من الموت.

ولعلّ أفظعَ النّاس في عقيدتي هم الذين يعتزّون بمذلّة الغير، فلا يسرُّهم شيء مثلما يسرُّهم أن يعفّر النّاس لديهم جباههم وأن يزحفوا إليهم على الأكفّ والركب وأن يحرقوا لهم البخور صباح مساء.

ولعلّ أنبلَ النّاس في عقيدتي هم الذين لا يذلُّون إنساناً ولا يذلّون لإنسان. لأنهم يعلمون أن رفعة تنهض على أكتاف الذّل مذلّة أحطّ من الذلّ. وأن صورة الله فيهم هي صورة الله في كلّ إنسان.

لقد تفشّى الذّلّ في الأرض فما استقلّ به قطر دون قطر ولا شرق دون غرب ومع الذّلّ تفشّى المين والرياء والغِشّ والحذر والبغض والصلف والإدّعاء والغطرسة – فالصدق يكاد يكون عنقاء مغرب ومثله الأمانة والثقة والمحبّة والرفق واللطف والعدل والدعة، والذلّ وتوأمه الكبرياء لا يكونان إلاّ في عالم تمتهن فيه قيمة الإنسان، وعالم يمتهن قيمة الإنسان لعالم مقضيّ عليه بالغليان والفوران ومن ثمّ بالانفجار.

ذاك هو العالم الذي نحن منه وفيه. فهو عالم تسيطر عليه ذهنية الحرب، وذهنية الحرب ذهنية بربرية تسترخص الإنسان في سبيل الكسب والسلطان. ويا ليت كسبها كان يوما من الأيام غير الدمار ويا ليت سلطانها كان أكثر من عبودية للنار والدينار...

ذاك هو العالم الذي ورثناه عن سالف الأجيال. فهل نرضى بأن نورّثه على علاته لمقبل الأجيال ؟.

« **صوت العالم** »

روح الانسان

" والذي حارت البريّة فيه حيوان مستحدث من جماد "

هو الإنسان – عبرة العبر وحيرة الحير يَجيءُ من حيث لا يدري، ويمضي حيث لا يدري. يحلّ هذه الأرض ردحا من الزمن فيبهره جلال ما يرى، ويسحره جمال ما يسمع. فوقه نجوم لا تعدّ، وحوله فضاء لا يحدّ وخلفه وأمامه حياة تتردّى كلّ لحظة برداء . فصول تعقب فصولا، وأجيال تلحق بأجيال. نهار تبتلعه ظلمة، وظلمة يمحوها نهار. ولادة وموت، وموت وولادة. وبين الولادة والموت أشواق لا تنطفىء حتّى تلتهب. وآلام لا تكنّ حتى تهيج وسعادة لا تورق حتّى تذوي. وعطش لا يرتوي حتى يعود. وجوع لا يطمئنّ حتّى يثور.

هو الإنسان – أحجية الأحاجي – منذ خالجت نفسه اليقظة حتّى اليوم وهو في صراع مستتبّ مع الطبيعة. لا يصرعها مرّة حتى تصرعه ألف مرّة. ولا يتغلّب على عشرة من عشراتها حتّى تقيم في سبيله ألف عشرة وعشرة ، ولا يرفع الغطاء عن سرّ من أسرارها حتّى تباغته بألف سرّ وسرّ. فهي غالبة أبدا وهو مغلوب. ومن الغريب أنّه مع ضعفه الواضح وجبروتها الظاهر لا يزال يصارعها فلا هو ينثني ولا هي ترحم. ولا هو يقرّ لها بالغلبة ولا هي تسحقه فتستريح منه وتريحه.

فما السِّرّ في حرب هذا "الحيوان المستحدَث" مع كون ما هو -بالنسبة إليها إلاّ حشرة صغيرة ؟ تصرعه الحياة فلا يلبث أن يعود منتصبا على ساقيه متحفّزا للوثوب. تجرّعه من المرارة ألوانا فلا ينقم عليها ولا يتركها إلاّ قسر ارادته. وتنزل به من المصائب أشكالا فيتحمّلها بثبات وصبر – وتقيم في وجهه من العقبات جبالا فلا تثنيه عن سيره ولا تثبط عزيمته.

إنّ "حيوانا" يثبت في جهاده مع الكون مثل هذا الثبات لحيوان وأيّم الحقّ ، غريب وعجيب فما السرّ في هذا الثبات؟

أوَليس السرّ في أن لهذا "الحيوان المستحدث" سلاحا لا تحطّمه العناصر ولا يفلّه الموت ؟ وهل ذلك السلاح إلا قوًى كامنة فيه هي أشدّ وأمتن وأبقى من قواه الحيوانية ؟

تلك قوى الروح غير الفانية. تلك القوى التي ترفعنا فوق الحيوانية، وترينا في دياجير الحياة وميض أنوار تحبّب الينا الحياة وتذكي في داخلنا شرارة أمل بأن لا بدّ أن ندرك يوما ما نحن طالبون إي ! هي قوى الروح تسيّرنا على غير معرفة منّا ونشعر بها إنّما لا ندركها بعد لِذاكَ نبحث عنها حتى إذا ما وجدناها وجدنا أنفسنا فعرفنا إذ ذاك منزلتنا من الكون وسرنا معه لا ضدّه لنتمّ به ويتمّ بنا.

« **الغربال** »

غـــايـــة الحـيـــاة

إنّ الحياة جوهر عجيب لا يتجزّأ ولا يتحلّل. ويستحيل إدراك بعضه الاّ بإدراك كلّـه – وجليّ أنّ ما لا ندركه لا ندرك الغاية منه. وإذا ما حاولنا تقسيمه إلى أصـول وفـروع وحدّدنا غاية هذا الأصل وذاك الفرع فما نحن إلاّ خادعـون أنفسنـا.

ما زلنا نجهل مصدر الحياة الكونيَّة ومصيرها فنحن نجهل كلّ ما في الحياة من ذرّة الرمل إلى أكبر السيارات وأقصاها، هكذا فقد تدرس حياة الجماد، وحياة النَّبـات وحياة الحيوان وحياة الإنسان. لكنّنا مع ذلك ، نظلّ قاصرين عن إدراك غاية الجماد والنبـات والحيوان والإنسان لأنّ لكلّ هذه علاقاتٍ خفيةً بالحياة الشاملة، ونحن قاصـرون عن الإحاطة بالحياة الشاملة وعن إدراك النواميس التي تربطنا بها. فأنّى لنا أن ندرك غايتنا منها وغايتها منا ؟ لذاك فكلُّ بحث في "غاية" الحياة – سواء أأخذنا الحياة بمعناها الشامل أم بمعناها المحصور قاصدين الحياة البشرية الأرضية فقط – ليس سوى تكهّن وتخمين. وحيث جاز التكهّن اتّسع المجال لكلّ ذي فكر أن يظهر فكره ولكلّ ذي رأي أن يبدي رأيه – فأمر نجهله كلّنا على السواء لأمر يصحّ فيه رأي كلّ واحد على السواء وليس لنا أن نحْكم بخطأ هذا الرأي ولا بصواب ذاك بل جلّ ما يحقّ لنا فعله هو تقديم رأي على رأي بالنظر إلى ما يجلوه لنا الواحد أو الآخر من غوامض الحياة وما يجيب عليه من الأسئلة التي نقف تجاهها كلّ يوم صامتين حائرين . معذّبين. وليس هذا التقديم أو التفضيل إلاّ نسبيا إذ أنّه يتوقّف على مداركنا وميولنا وفطرتنا.

« **الغربـال** »

المحـــــراث

مرت بنا أجيال ونحن نطرق بجباهنا عتبات المعـــابد ونقرع صدورنا وننتظر السعادة أن تنزل إلينا في سلّة من السماء . وماذا حلّ بنا يا قوم؟ حلّ بنا ما يحلّ بمحراث من الحديد مهمل في الحقل دون استعمال، غلاف سميك من الصدإ اكتنف عقولنا وقلوبنا فعدنا نتعجّب كيف لا نرى النور والشمس مشرقة ، عدنا نتساءل كيف لا نشعر بمرّ النسيم وقطر الندى وكيف يخترق النور عقولا حولها لحاف من الصدإ ؟ أم كيف تنتعش بقطر الندى قلوب لا يجد الندى إليها سبيلا ؟

تشرق الشمس وتهبُّ الرياح وتهطل الأمطار ومحراث الحقل لا يزداد سوى صدإ فوق صدإ .

وهكذا نحن حولنا الممدن ناشر لواءه حولنا الأمم في عراك وسباق حولنا العلم يذر نوره على العقول فتنمو وتندفع إلى الأمام. وحياتنا لا تتأثّـــر من ذلك كصخر في مهبّ الريح.

ولماذا ؟ لأنّنا نسعى أن نعالج بالنور ما يزداد بالنور سوءا. والدّاءُ أعمق من ذاك وأعظم.

ضَعُوا المحراث في أتون من النّار حرارته كحرارة جهنّم. دَعُوه الى أن يحمرّ كالجمـــر ثم أخرجوه وألقـــوه على السندان وهاتوا المطارق. هاتوا المطارق واضربوا إلى أن لا يبقى للصدإ عليه من أثر. أصقلوه جيّدا وحينئذ إذا أشرقت عليه الشمس لا تزيده إلاّ بهاء ولمعانا .

لا تقولوا إنّنا نيام والغرب مستفيق...

أتدرون ما هو أتون الغرب ؟

هو تلك النيران التي تتدفّق من أفواه خطبائه فتأكل الهشيم وتعدّ التربة لنبت جديد صالح .

أتعلمون ما هي مطارق الغرب ؟

هي تلك الأقلام التي لو وُجّهت نحو سور بابل لقوضته الى أركانه. أتدرون من يشتغل فيه بصقل العقول وصيانتها من الصدإ ؟ هم أولئِك الكتّاب الذين لا يحجبهم قبر ولا تغمرهم لجج بحار.

« **الغربال** »

الحـرية غـذاء الشبـاب

ليـس الشبـاب في حاجة إلى من يـوجّهـه . فالقـوى الهائلـة التي يزخـر بهـا كيانـه هي الكفيلـة بتـوجيهـه في السبيـل المعـدّ لـه. وإنّمـا حاجـة الشبـاب إلى من يحميـه من موجّهيـه الـذيـــن يحاولـون أن يكمّوا فاه ويكبّلـوا يديه ورجليـه ويسكبـوا المـاء البارد على الحماسَة المتأجّجة في صدره. ويـزرعـوا الـذّعر والخنـوع في فكـره وقلبـه. أولئـك الذيـن يعيشـون في قلـق دائـم من ثـورة الشبـ ب على ما رثّ مـن التقاليـد ومـا بَلِـيَ من الأساليـب ولذلك لا ينفكّـون يقيمـون السُّـدود والحـواجز في وجـه تفتّح الشبـاب وانطـلاقـه. وهـم إذ يفعلـون ذلك لا يـدركـون إلى أيّ حـدّ يسيئـون إلى أنفسهـم وإلى الشبـاب فمثلمـا لا خَيْـرَ في أرض ربيعهـا خريف أو شتـاء كـذلك لا خيـر في أمّـة شبابهـا كهـولـة أو شيخوخة. وإنّـه لمـن الإثـم الـذي لا يُغتفـر أن نمسـك على الشبـاب حريـة الإفْصَاح عَـمَّـا في نفسـه مِن قُـوى تَتَحَفَّـزُ للـوثـوب فنجعلـه يـدبّ حيث يستطيع أن يطيـر ونجعلـه يتـردّد حيث يطلـب الإنطـــلاق.

فالشبـاب ربيعنـا ومن حقّنـا أن نَنْعَمَ بـه مُتَفَجِّـرا مِنْ أعمـاقنـا كمـا نَنْعـم بالـرّبيـع متفجّـرا من أحْشَـــاء الأرض. فـلا يحـوّل ورده قُطْـرُبـا ويَاسَـمِينُـهُ عـوسَجـا وبـلا بلـه غِـرْبَانـا ونُسوره بُـومـــا وذلك ما نفعلـه عند ما نَحْـرم الشبـاب حـرّيَّـة التعبيـر عن نفسـه إن بالقـول أو بالفعـل.

ثم نحصره في قوالب صلبة قاسية لا تلبث أن تضيق به فتتشقّق وتتطاير شظايا تُدْميه وتدمينا على السواء وقد تهلكه وتهلكنا.

إنّ ثروة الشباب هي في صفاء بصره وبصيرته وفي مضاء عزيمته وفي ثورته على الركود والجمود وهذه الصفات هي التي تميّز الشّباب من غير الشباب والتي لولاها لما جرى مركب في بحر ولا اشتعلت نار في دار ولا خاطت إبرة ثوبا ولا شيدَ حَجَرٌ فَوْقَ حَجَرٍ ولا كان حرف ولا كان كتاب ولا انطلق لنا جناح في فضاء ولا أضاء لنا سراج في ظلمة ولا كان لنا أيّ علم أو فنّ أو نظام ولا أيّ شيء من الأشياء التي بها نَعيش ومنها تألّفَتْ مَدَنِيّاتُنَا الغابرة وتتألّف الحاضرة وستتألّف التي بعدها .

شبَابُنا هو الثروة التي أين منها ذهبنا الأسود والأصفر وكلّ ما تُنتجه أرضنا من ثمار و حبوب ؟ هذه للنفاد و البوار و تلك للبقاء والازدهار. وحريّ بنا أن نستثمر هذه الثروة إلى أقصى حدّ ونوليها من عنايتنا أضعاف ما نوليه الدوالي في كرومنا والسنابل في حقولنا ولا نقضي عليها بما نفرضه على الشباب من قيود بل نطلق له حريّة القول وحريّة العمل إذ نحن شئنا أن ننْعم بمواهبه وبركاته وأن نتفادى غضباته وثوراته .

ولا يقولنّ قائلٌ إنّ تلك الحرّيّة قد تؤدّي بنا إلى الفَوْضَى. فالفوضى هي ما نحن فيه. ولن يخرجنا منها إلاّ الشباب المجدّد والمتجدّد. ويقينِي أن ما في دَمِ شبابِنا من حرارة وما في عقله من اتّزان و ما في قلبه من إيمان بالعدل والنظام و الإخاء والحريّة

لكفيل بأن يقطع بنا شَوْطا بعيدا نحو عالم ألطف جوًّا وأفسح أفقا وأعذب صوتا من عالم نعيش فيه الآن. فليس كالشباب خزانة نأتمنها على آمالنا وليس كالشباب مجدِّدا لشباب الحياة وليس كالحرّية غذاء للشباب وحافزا له على الإبداع والسير بالقافلة إلى الواحات المطمئنة والمراعي الخصبة.

عن « المطالعة التوجيهية »

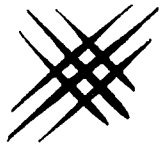

داء الأدب

لقد دعاني البعض هدّاما. أجل إنّني لهدّام. غير أنّني أهدّم لأبني، والذي أهدّمه ليس كما يتوهّم البعض أدبا قديما. والذي أبنيه ليس ما يدعوه أدبا جديدا. فالجمال والحقُّ — وهما كلّ الأدب — لا يشيخان ولا يتداعيان ولا يقوى بشر على هدمهما. إنّما أهدّم كلّ ما كان في نظري خلوا من الجمال والحقّ — قديما كان أم جديدا — وأساعد في تأييد كلّ ما يتناول حياته من معين الجمال الذي لا ينضب ومن اوقيانوس الحقّ الذي لاَ شَوَاطِىء له. إنّني أُجِلُّ الجمال عن مساكنة الشناعة، والحقّ عن مؤاخاة الباطل. لذلك فكلّ بنيان شيد للباطل وان يكن جميل الصنع، ليس جميلا. وهدمه أولى لئلا يَضلّ النّاس ولا فرق في ذلك بين جديد وقديم.

ما أهدّمه إنّما أهدّمه لأسهِّل الطريق لنفسي ولكلّ من كانت طريقه طريقي. وكلّ ما أبنيه إنّما أبنيه مساكنَ لنفسي. من وجد في مساكن نفسي مساكنَ لنفسه فأهلا به. أمّا الذي يجد مساكني باردة وعابسة وقاسية فلا حَرَجَ عليه لو ظلّ خارجا.

من شاء أن يعطِيَ فليكن أوّلا على ثقة من أن في يده ما هو أهل للعطاء أمّا اليد الفارغة فحذار من أن تمتدّ للإعطاء، لأن ما نعطيه ليس إلاّ خيبة وفشلا.

من شاء أن يحرِّر فعليه أولا أن يتحرَّر. أمّا من كان عبدا لنفسه

فحذارِ مِنْ أن يدعـــو النَّاس إلى الحرّية. لأنَّـه لا يقودهم إلاّ إلى عبوديَّته. من شاء أن يتير فعليه أوّلا أن يستنيـــر. أمَّا القلب المُظلم فحذار من أن يَدْعُوَ النَّاس إلى النُّور لأنَّه لا يدلُّهم إلاّ على ظُلماتِه.

وَمَا دَاء الأدَبِ اليوم وفي كلّ يوم – في هذه البلاد وفي كلّ بلاد – إلاّ أنّ الكثير من الأيدِي الفارغة يناديِ : تعالوا خذوا ! والكثير من النفوس المستعبدة يصيح : هو ذا طريق الحرّية ! والكثير من القلـــوب المظلمة يهتف بالنَّاس ! اتبعوني الى النور !

لقد تفقدت في هذه الأثناء قسما من ربوعكم وما فيها من الآثـــار القديمة فزرت قلعة الحصن وبرج صافينا. وكنت حيثما مشيت. وكلّما فسحت لخيالي المجال شعرت كأنّ الجيوش التي تألّبت فوق هذه البطـــاح والهضبات تمشِي معِي. وكأنّ الشعـــوب التي تملّكت هذه الأرض لمحة من الزمن فما لبثت الأرض أن تملّكتها ، تسألنِي من أنا ؟ ولماذا أمتهن حرمة مساكنهم وأزعـــج سكينة لحودهم

وكنت أجهد خيالي لأقـــرأ أخلاقهم في آثارهم وأستخرج من الفضاء رســـوم ميولهم وشهواتهم وغاياتهم. وأقتنص من الأثير أصواتهم. وأقـــول في نفسي لو كان لهم متنب أو أبو علاء. لو كان لهم هوميروس أودانتي لما أجهدت خيالي مثل هذا الإجهـــاد ولأبصرت وجوههم ولمست ميولهم وشهواتهم وغاياتهم. وسمعت أصواتهم في آثار أدبائهم.

إن آثارا يتركهـا الإنسان في الحجر تَنْدَثِرْ بِانْدِثَـــارِ الحجر. لكن آثارا ينقشها الإنسان في روح أخيه الإنســـان لباقية إلى الأبد

لأنّ الرّوح باقية إلى الأبد، والأدب الذي هو بحقّ أدب يجب أن يكون نَقْشا في الأرْواح لا غِشاوة على الأبصار.

فاطلبوا معِي أن يكون لنا من أدبائِنا رُسل لِلرّوح لا حاكة للأقنعة المزركشة.

« **زاد المعاد** »

عـــدة الأديـــب

لكلّ ذي مهنة أو حرفة عدّة. وعدّة الأديب لغة وفكر وخيال وذوق ووجدان وَإرَادَة وهذه كلُّها قابلة للتنمية والصقل . وخير الوسائل لتنميتها وصقلها هو احتكاكها المستمرّ بما سبقها وما عاصرها من نوعها ثمّ توجيهها التوجيه المستقلّ في الطريق الذي تفرضه على الكاتب حياته الباطنية والخارجيَّة .

لذلك كان لا بدّ لكم من المطالعة ومن فكر سريع الالتقاط، ومن خيال مسبل الجناح وذوق مرهف الحدّين. ووجدان صادق الميزان، وإرادة صلبة العود. وكان لا بدّ لكم فوق ذلك كلّه من مَعِدَةٍ تَهْضِمُ ما تلتقطونه هنا وهناك فتحوّله غذاء طيّبا لكم وللذين يقرأون ما تكتبون. وإلاّ كنتم كالا سفنجة إذا غَمَسْتُمُوها في سائل من السوائل ثم عصرتموها رَدّت إليكم ما امتصّته عينا بعين ودون زيادة أوْ نُقصان وكنتم إذْ ذَاكَ أصْدَاء فارغة لا أصواتا حيَّة.

وإن تسألوني ماذا يَحسن بكم أن تطالعوه أجِبْكُمْ : إنّ ذلك يتوقّف على حدّ بعيد على ميولكم وأذواقكم وعلى مقدار جُوعكم إلى المعرفة التي بِدُونِها لاَ قِيَام لأيّ أدب. فقد يكتفي الواحد منكم بمطالعة بعض الآثار الأدبيَّة المشهورة وقد يَتعَدّاها الآخر إلى النجوم والحيوان والنبات وطبقات الأرض والفنون والأديان والتاريخ والفلسفة بأنواعها، حتّى إلى الرّوايات البوليسيَّة.

والمقالات التافهة التي تحفل بها حقول الصحافة الرخيصة، فالأمر الذي لا شكّ فيه هو أنّكم كلّما اتّسع اطّلاعكم على مَجَارِي الحَيَاة البشريّة قديمها وحَدِيثها، بعيدها وقريبِهَا جَلِيلِها وحَقِيرها ، اتّسع مجالكم للتأمّل والتّفكِير وَللعَرض والتّصْوِير. فَمَا انْسَدّت في وجوهكم الطرق إلى مواضيع جديدةٍ تعالجونها بأساليب جديدةٍ.

« **في مهب الريح** »

الكـــاتـب

إنّ الكاتب قلب يخبّر، وعقل يُفكّر وقلم يسطّر فحيث لا شعور فلا فكر وحيث لا فكر فلا بيان وحيث لا بيان فلا أدب.

الشعور والفكر والبيان – ثلاثة لا يكون رجل كاتبا إلاّ إذا توافرت له أكثر من توافرها لسواد إخوانه في البشريّة ولولا تفاوتُ النّاس بِعُمق الشُّعور واتّساعه، وحدّة الفكر واندفاعه وجمال البيان وجلائه، لكان كلّ من عرف القراءة والكتابة كاتبا.

على سطح هذه الأرض قلوب عديدة غير أنّ أكثرها تتدفّق الحياة من حوله ومن فوقه فتنحدر عنه أنحدار الموجة عن الصخرة. إن أمثال هذه القلوب لا تخبّر وان خبّرت فعن تخمة في البطن أو عن وجع في الرأس أو زكام في الأنف.

وعلى الأرض عقول كثيرة. وأكثرها تتناوله الأشياء ولا يتناولها وتغربله ولا يغربلها فأمثال هذه العقول لا تفكّر بل تدور مع الليل والنّهار بقوّة العادة والاستمرار.

وعلى الأرض قناطير من الأقلام. لكنّ منها ما يقول له العقل والقلب أكتب "نعم" فيكتب "لا" إنّ مثل هذا القلم لا يسطّر وإنْ سطّر فحروفا سوداء على أوراق بيضاء لا علاقة بينها وبين عقل الكاتب وقلبه.

ومِن نَكَدِ البشرية – وقد يكون من حسن حظّها – أنْ

أمثال ما ذكرت من القلوب والعقول والأقلام هي القاعدة السائدة فيها، وما اختلفت عنها فشذوذ، وكلّ شاذّ نادر. لذلك نَدَر وُجُودُ الكتّاب والشعراء وأبناء الفن.

للناقدين ولع بتحديد مراتب الكُتّاب والشعراء، والمقابلة بين واحدهم والآخر وتفضيل هذا على ذاك. أو ذاك على ذلك. وقد يكون في مقابلاتهم وتفاضيلهم نفع لهم أو لقارئيهم أما أنا، فإن عثرت على كاتب له قلب يخبّر وعقل يفكّر وقلم يسطر، شكرت ربّي ألف مرّة ومرة وتركت للقارىء المقارنة بينه وبين سواه ومحاسبته بالخَطإ والصواب والحلال والحرام والنفع والضرر فتقديرك الكاتب مَنُوطُ بما تقرأ من نفسك وعنها في سطوره وبين سطوره لا بما يقرؤه سواكَ. فربّ كتاب أطالعه فألفيه ترديد أصداء بعيدة هي أصداء أفكار وعواطف خبرتها فنبذتها من زمان ويطالعه سوايَ فيرى في كلّ سطر من سطوره فكرا جديدا وعاطفة جميلة. والعكس بالعكس لذلك لست أرى جزيل نفع في المقارنة بين الكتّاب والشعراء ومتى أنست من كاتب قلبا يُحسّ وفكرا يقابل ويستنتج وقلما يصوّر بإخلاص قست إذ ذاك مقدرته الكتابية لا بعدد ما يضمّن سطوره من "الحقائق الراهنة" و"المعجزات البيّنات" وغريب المفردات بل بما يثيره في من العواطف والأفكار وبما يوجّه إليه بصري من ظَوَاهِرِ الأمور وبواطنها، حتى إني لأوثر كاتبا يخالفني في كلّ رأي أراه على كاتب ينطق بأفكاري وعواطفي فقد يروقني من الثاني جلاء في الإفصاح ليس لي وتلك منّة صغيرة لكن منّة

الأوّل عليّ أكبر وأوفر لأنّه يكشف لعينيي عوالمَ كانتْ خفيّة عنها ويفسح لفكري وعاطفتي مجالا ما كان لهما. فَيَدْفَعُني بذاك الى تصفية حسابي مع نَفْسي والى تقويم بضاعتي الروحية ولولا ذاك لما عرفت أني من أبناء هذه الحياة .

« **الغربال** »

الأديـــب والنـــاقـد

يؤلّف أحدهم رواية أو أقصوصة أو مسرحية أو ينظم قصيدة أو يدبّج مقالة، فلا هو يدري ولا نحن نستطيع أن نحكم كيف فعل ذلك ولماذا، فدوافع الشوق والقلق التي من وراء عمله هي في الغالب أعقد من أن يحلّلها فكره أو قلمنا. فقد تكـــون رغبة منه في الشهرة أو طمعا في المال، أو حُبًّا لإرشاد أو ترضية لصديق أو حبيب، مثلما قد تكون مَخاضا كمخاض الحامل. فليس علينا أن نَتَقَصَّى الدّوافع التي دفعته على الكتابـــة ولا أن ندينه لأنّه كتب. ولنا اذا نحن شئنا أن نقرأ ما كتب فإذا قرأنا فيه قلقا يشبه بعض ما يقلقنا أو شوقا يضارع بعض أشواقنا، ثمّ وجدناه يعبّر عن ذَيْنك القلق أو الشوق تعبيرا نصدّقه ونطمئن إليه، أو نتمنّى لو يكون لنا مثله شعُرنا بشراكة الحياة بيننا وبينه وقلنا : "بارك الله فيه إنّه لحم من لحمنا ودم من دمنا ولقد ترجمَنا إلى أنفسنا فكان خير الترجمان".

إلا أنّ من النّاس من يقرأون ولا يفهمون كلّ ما يقرأون أو يفهمـــون عكس مـــا يقرأون فيمرّرن باللؤلؤة الفريـــدة وكأنّهم يمرّون بأُكْرة من زجاج أو يمرّون بأكرة من زجاج فيحسبونها لؤلؤة فريدة. إنّ لمثل هـــؤلاء قامَ النّقد والنّاقـــدون.

« **دروب** »

فضـــل النـــاقـد

لقد يَسْأل البعض : وأيّ فضل للنّاقد إذَا كانت مهمّته لا تتعدّى الغربلة ؟ فهو لا ينظم قصيدة بل يقول لك عن القصيدة الحسنة : إنّها حسنة وعن القبيحة إنّها قبيحة ولا يؤلّف رواية بل ينظر في رواية ألّفها سواه ويقول : أعجبني منها كذا ولم يعجبني كذا.

فَأجيبهم : وأيّ فضل للصائغ الذي تعرض عليه قطعتين من المعدن متشابهتين فيقول في الواحدة إنّها ذهب وفي الأخرى إنّها نحاس ؟ أو نعطيه قبضة من الحجارة البلوريّة البرّاقة فينتقي بعضها قائلا : هذا المَاسٌ – ويقول في ما بقي : هذا زجاج ؟ إنّ الصائغ لم يخلق الذهب ولا أوجد الألماسّ لم يخلقهما كما خلق الله العالم من لا شيء. لكنّه "خلقهما" لكلّ من يجهل قيمتهما. ولولاَهُ لظلّ الذّهب نحاسا والالماس زجاجا أو العكس بالعكس – وكم هم الذين يميِّزون بين الالماس وتقليد الالماس ؟

إذَا لم يكن للناقد من فضل سوى فضل ردّ الأُمور الى مصادرها وتسميتها بأسمائها لكفاه ذاك ثوابا. إلاّ أنّ فضل الناقد لا ينحصر في التمحيص والتثمين والترتيب. فهو مُبدع ومولِّد ومرشدٌ مثلَما هو مُمَحِّص ومُثَمِّن ومرتِّب.

هو مبدع عندما يرفع النقاب في أثر ينقده عن جوهر لم يهتد إليه أحد. حتّى صاحب الأثر نفسه. فكم سألت نفسي من هذا

القبيل : ليت شعري هَلْ دَرى شكسبير يوم خطّ رواياته وأغانيه أنّها ستكون خالدة ؟ أم تراه وضعها ليقضي بها حاجة وقتية ظنّ أنّها ماتت بموته ؟ إنّني من الذين يرجّحون الرأي الثاني لذاك يجلّون الناقدين الذين اكتشفوا "شكسبير" بعد موته اجلالهم للشاعر نفسه اذ لولاهم لما كان شكسبير وفي اعتقادي أن الروح التي تتمكّن من اللحاق بروح كبيرة في نزعاتها وتجوالها فتسلك مسالكها وتستوحي موحياتها وتصْعد وتهبط صعودَها وهبوطها هي روح كبيرة مثلها.

ثمّ إنّ الناقد مولد لأنّه فيما ينقد ليس في الواقع إلاّ كاشفا نفسه — فهو إذا استحسن أمرا لا يستحسنه لأنّه حسن في ذاته بلْ لأنّه ينطبق على آرائه في الحسن. وكذلك إذا استهجن أمرا فلعدم انطباق ذلك الأمر على مقاييسه الفنّية. فللناقد آراؤه في الجمال والحقّ وهذه الآراء هي بنات ساعات جهاده الروحي ورصيد حساباته الدائمة مع نفسه تجاه الحياة ومعانيها . وهي إذا تسامت، ثم دُعِّمت من النّاقد بالإخلاص والحماسة والغيرة ومقدرة البيان سطت بقوة خفية على جماهير قرائه. فأعطتهم وجهة جديدة وايمانا جديدا.

والنّاقد مرشد لأنّه كثيرا مَا يردّ كاتبا مغرورا الى صوابه أو يهدي شاعرا ضالا الى سبيله فكم من روائي عظيم توهّم في طور من أطوار حياته أنّه خلق للقريض لكنّه نظم ولم ينظم سوى كلام إلى أنّ قيّض الله له ناقدا رفع الغشاء عن عينيه فأراه أن الرواية مسرحه وليس البحور الشعرية. وكم مِنْ شاعر سخر منه النّاس حتّى كادوا يقتلون كلّ موهبة فيه إلى أنّ أتاه ناقد أظهر للنّاس مواهبَ فيه ثمينة وودائعَ نفيسة فانقلب سُخْرُهم تكريما وتهليلا . مثل هذا الكاتب والشاعر هما هديّة الناقد إلى الأمّة والبشريّة.

« **الغربال** »

محـــور الأدب

أجل إننا في كلّ ما نفعل وكلّ ما نقول وكلّ ما نكتب إنّما نفتّش عن أنفسنا. فإنْ فتّشنا عن الله فلنجد أنفسنا في الله وإن سعينا وراء الجمال فإنما نسعى وراء أنفسنا في الجمال، وإن طلبنا الفضيلة فلا نطلب إلاّ أنفسنا في الفضيلة. وإن بحثنا عن مكـــروب، فلا نبحث إلاّ عن أنفسنا في المكروب، وإن اكتشفنا سرّا من أسرار الطبيعة فما نحن إلا مكتشفـــون سرّا من أسرارنا. فكلُّ ما يأتيه الإنسان إنّما يدور حول محور واحد هو – الإنسان. حولَ هذا المِحور تدور علومه وفلسفته وصناعته وتجارته وفُنونه. وحول هذا المحور تدور آدابه. فهو في كلّها يسعى وراء أمر واحد. وهو أن يظهر نفسه لنفسه علّه يدرك القوى التي تسير به في بحر الوجـــود. ولا قيمة لعَمَـــلٍ يأتيه إلاّ بمقدار ما يدينه ذاك العمل من معرفة نفسه أو يقصيه عنهـــا. وسواء أدرك الإنسان ذلك أم لم يدرك فهو أبدا يقيس كلّ مآتيه بهذا المقياس، فيُهمل منها ما لا يزيده بنفسه معرفة ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهرا من مظاهر نفسه. وما تاريخ المدنية لو فحَصنا، إلاّ تاريخ هذه الغربلة الدائمة والمقابلة بين الأمـــور وانتقاء ما فيه أثر روحي جليل وإهمال ما ليس فيه من أثـــر يذكـــر.

إنّ على سطح الأرض ملايين من البنايات التي شادتها يد الإنسان من قديمة وحديثة لكن الآثـــار الهندسيَّة التي تقرّ بها العين وتنتعش

بها الروح لا تُعدّ بالملايين ولا بالألوف. وفي العالم جبال من الرسوم والتماثيل. لكن الرسوم والتماثيل التي نقف أمامها بخشوع ودهشة تعدّ على الأصابع وفي مكاتب العالم قناطير مقنطرة من الآثار الكتابيّة فكم هي الكتب التي لا تزال تقصدها البشريّة لترشف المعرفة والحكمة من سطورها ؟

قد يخطىء الإنسان اليوم في حُكمه على أثر من الآثار فيستكبر الصغير ويستصغر الكبير قد يخطيء جيلا لكنّه لا يخطيء دهرا فالأثر الخالد لا يموت والميت لا يعيش ولا يخلد من الآثار إلا ما كان فيه بعض من الروح الخالدة.

بين كلّ المسارح التي تتقلّب عليها مشاهدُ الحياة ليس كالأدب مسرحا يظهر عليه الإنسان بكلّ مظاهره الروحية والجسديّة ففي الأدب يرى نفسه ممثّلا ومشاهدا في وقت واحد هنالك يشاهد نفسه من الأقماط الى الأكفان وهنالك يمثّل أدوارَهُ المتلوّنة باوْن الساعات والأيّام وهنالك يسمع نبضات قلبه في نبضات قلب سواه ويلمس أشواق روحه في أشواق روح غيره ويشعر بأوجاع جسمه في أوجاع جسم انسان مثله. هناك تتّخذ عواطفه الصمّاء لسانا من عواطف الشاعر. وتلبس أفكاره رداء من نسيج أفكار الكاتب فيرى من نفسه ما كان خفيًّا عنه وينطق بما كان لسانه عييّا عن النطق به ، فيقترب من نفسه، ويقترب من العالم ، فربّ قصيدة أثارت فيه عاطفة من العواطف ومقالة تفجّرت لها في نفسه ينابيعُ من القوى الكامنة. أو كلمة رفعت عن عينيه نقابا كثيفا أو رواية قلبت إلحاده إلى إيمان

ويأسه إلى رجاء، وخموله إلى عزيمة ورذيلته إلى فضيلة تلك مَزِيّة قد خصّ بها الأدب. وتلك هي مملكة الأدب لا ينازعه فيها منازع. وما سلطان الأدب إلاّ في أنه أبدا يجول في أقطار النفس باحثا عن مسالكها مستطلعا آثارها وما شرف الأديب إلاّ أنّه أبدا يشاطر العالم اكتشافاته في عوالم نفسه حتّى إذا ما وجد آخر بعضا من نفسه في تلك الاكتشافات كان في ذلك لِلأديب أطيب تعزية وأكبر ثواب.

إذَنْ فالأدب الذي هو أدب ليس إلاّ رسولا بين نفس الكاتب ونفس سواه. والأديب الذي يستحقّ أن يدعى أديبا هو من يزوّد رسوله من قلبه ولبّه. لقد كفانا ما عندنا من المعجزات اللغوية، وآن لنا أن نتعطّف ولو بالتفاتة على ذاك "الحيوان المستحدث" الذي كان ولا يزال سِرّ الأسْرَار ولغْز الألغاز، لعلّنا نجد فيه ما هو أحرى بالنظر والدّرس من رأس السمكة في قولهم: "أكلت السمكة حتى رأسها"

« **الغربال** »

اللغـــة والأدب

في الأدب العربـيّ اليوم فكرتان تتصارعـان : فكرة تحصر غـاية الأدب في اللغة وفكرة تحصـر غـاية اللغة في الأدب . وجلـيّ أنّ نقطة الخـلاف هي الأدب نفسـه أو القصد منه. فـذوو الفكرة الأولى لا يـرون لـلأدب من قصد إلاّ أن يكـون معرضا لغـويا يعـرضون فيه على القـارىء كـلّ ما وعـوه من صـروف اللغـة ونحـوهـا، وبيانهـا وعـروضهـا، وقـواعـدهـا وجـوازاتهـا، ومتناقضاتهـا ومترادفاتهـا وحِكمهـا وأمثالها فشاعـرهـم من إذا نظم لم يخـلّ بتفعيـل ولـم يتعدّ الرّويّ الـواحـد ولم يختـر مـن المفـردات غيـر مـا يشكـل فهمـه إلاّ على الـذيـن قضـوا حياتهم في درس اللغـة دون سـواهـــا. وإذا أبـدى عنايـة خاصّـة بصقل أبياتـه وتنسيـق قـوافيه، وأكثـر مـن الاستعـــارات الباليـة والمجـازات المألـوفـة والتشـابيه العـوجـــاء والتـوريـات البخرقـاء فهـو أمير الشعـر بـلا مـراء.

وكـاتبهـم من إذا كتـب في "الحسـد وأضـــراره فـي الهيئـة الاجتماعية" سالـت من قلمـه الكلمـــات الـواحـدة تلـو الأخـــرى فتألّفت من الكلمات عبـارات ومن العبـارات مقـاطـع ومـن المقـاطـع صفحـات ومن الصفحـــات مجلّـدات، وكـلّهـا رجـراجة بـرّاقـة لا مـأخـذ فيهـا لسيبـويـه ولا للكسائي أو لابـن مـالـك كلّ همـزة فيهـا حيث يجب أن تكـون، أفعـالها المتعديـة متعديَّـة بنفسهـا، واللّازمـة متعديَّـة بمـا رتّـب لهـا النحاة من أحـرف الجـرّ لا بسـواهـا وبالإجمـال لا شـائبـة تشـوبهـا سـوى أنَّـك تأتـي على آخـرهـا سائلا نفسـك : "ما هـو الحسـد وما هي أضـــراره في الهيئـة

الاجتماعية ؟" وخطيبهم من اذا اعتلى المنبر تدفّق من فيه صحيح الكلام وأنيقه فملأ أذنيك وأشبع عينيك وترك قلبك مقفلا وعقلك حائرا سائلا : "ماذا تراه قال ؟ ".

جملة القول ان أصحاب الفكرة الأولى ينظرون دائما أبدا لا إلى ما قيل بل إلى كيف قيل. وأوّل سؤال يوجهونه لأثر أدبيّ هو : "هل هو صحيح اللغة ومتينها ؟" فإذا كان كذلك فهو بنظرهم أدب، أمّا إذا عثروا فيه على تاء طويلة بدل القصيرة وألف ممدودة بدل المقصورة وهمزة كرسيّها الياء بدلا من الألف وفعل متعدّ "بإلى" بدلا من "على" فهو ليس من الأدب بشيء وإذا طالعوه وفهموه من أوله الى آخره دون أن يلجأوا الى القاموس فهو "ركيك" والركاكة عندهم هي أن يستعمل كاتب "فقط" بدلا من "فحسب" و"الوسط" بدل البيئة" و"الخادم" بدل "الماهن" والأسد بدل "الهزبر" وما أشبه.

أمّا أنصار الفكرة الثانية الذين يحصرون غاية اللغة في الأدب. فهم ينظرون قبل كلّ شيء إلى ما قيل ومن ثَمّ إلى كيف قيل. لأنّهم يرون في الأدب معرض أفكار وعواطف معرض نفوس حسّاسة تسطّر ما ينتابها من عوامل الوجود وقلوب حيّة تنثر أو تنظم نبضات الحياة فيها، لا معرض قواعد صرفية نحوية وكشاكيل عروضيّة بيانيّة. فالفكر في دينهم أهمّ من لغة المفكّر لأنّه صادر من بحر الوجود الذي ليست الأرض وكلّ من عليها من الشعوب سِوى قَطرة منه أمّا اللغة فمهما اتّسع نطاقها وامتدّ نفوذها لا تتعدّى قسما صغيرا من البشريّة بل مهما عزّ مقامها

لا تتجاوز كونها لباسا للفكر وأكثر ما يرتجى منها أن تكون لباسا جميلا غير أنَّها ان لم تكن سوى أسمال بالية على فكر جليل فقد تحطّ من قدر ذلك الفكر نوعا ولكنَّها لا تذهب بقوّته.

ربّ ألثغَ يبدي لك بعد الوأوأة الطويلة نظرة تقلب نهار حياتك ليلا أو ليل حياتك نهارا فهل تصبّ عليه لعنات الأرض والسماء وتستسقط على رأسه كلّ نيران الجحيم لأنَّه لم يبدِلك نظرته بلغة معربة متينة طليَّة متدفِّقة ؟

« **الغربال** »

الغـــربلـــة

في المَثَـل : من غـربل النَّـاس نخلـــوه.

إذنْ، ويـل للناقـديـن ! ويـل لـهم لأنّ الغـربلةَ دينـهم وديـدنـهم. فيا لِبُـؤْسـهم يـوم ينظـرون، خـلال ثقـوب غـرابيلهـم فيـرون أنفسـهم نخـالـة مرتعشـة في ألـوف من المناخل ! إذْ ذَاك يعلـمـــون أيّ منقلـب ينقلبـــون. فينـدمـــون، ولاتَ ساعـة منـدم !

أجـل. إنّ مهنـة النَّـاقـد الغـربلـة لكنَّهـا ليست غـربلـة النَّـاس. بـل غـربلـة مـا يـدوّنـه قسـم من النَّـاس من أفكار وشعـــور ومُيـول. ومـا يـدوّنـه النَّـاس من الأفكـار والشعـــور والميـــول هـو ما تعـوّدنـا أن نـدعُـوَه أدبـا فمهنـة النَّـاقـد، إذن، هي غـربلـة الآثـــار الأدبيـة لا غـربلـة أصحـابهـا. وإذا كـان من الكُتَّـاب أو الشعـراء مـن لا يفصـل بين آثـاره الأدبيـة التـي يجعلهـا تـراثـا للجميع وبيـن فـرديتـه التـي لا تتعـدّاه ودائـرة محصورة من أقـربـائـه وأصحـابـه فـذاك الكاتـب أو ذاك الشاعـر لـم ينضـج بعـد وليـس أهـلا لأن يسمّى كـاتبـا أو شـاعـرا. كـذلـك الناقـد الـذي لا يميِّـز بيـن شخصيـة المنقـود وبيـن آثـاره الكتابيـة ليـس أهـلا لأن يكـون مـن حاملِـي الغـربـــال أو الـدائنيـن بـديـنـه.

إنّ شخصيَّـة الكاتـب أو الشـاعـر هي قـدسـه الأقـدس. فلـه أن يأكـل ويشـرب ويلبـس ما شـاء ومتى شـاء وحيث شـاء لـه أن يعيـش ملاكـا، ولـه أن يعيـش شيطـانـا. فهـو أولى بنفسـه من سـواه غير أنَّـه ساعـة يأخـذ

القلم ويكتب، أو يعلو المنبر ويخطب، وساعة يودع ما كتبه وما فاه به كتابا أو صحيفة ليقرأه كلّ من شاء ساعتئذ يكون كمن سلخ جانبا من شخصيته وعرضه على النّاس قائلا : "هُوَ ذَا ياناس ، فكر تفحّصوهُ ففيه لكم نور وهداية وها كم عاطفة احتضنوها فهي جميلة وثمينة" وإذ ذاك يسوغ لي أن أحكّ فكره بمحكّ فكري وأن أستجهر عاطفته بمجهر عَاطفَتِي وبعبارة أخرى أن أضع ما قاله لي في غربالي لأفصل قمحه عن زوانه وأحساكه فَذَاكَ حقّ لِي كما أنّ من حقّه أن يكتب ويخطب.

« **الغربال** »

الـرواية التمثيليـة العـربية

حَنَقَ البَعْضُ عَلى الغَرْبِ لاعتِقَادِهِم بِأنّ المَدَنِيَّة الغربيَّة نفثت فِي حياتنا الجميلة الطاهرة الواقعة بأمن تحت أجنحة الملائكة والقديسين روحَ فِسْقٍ وخلاعةٍ وكفر. وتغنّى الآخرون بعظمة الغرب فصاحوا بنا : هيا نعبد الغربَ وكلّ ما خلقه الغرب !

أما نحن فنرى الأفضل أن نقف على الحياد بين أولئك وهؤلاء تاركين لهم حقّ تسوية خلافهم بالمُدى والفؤوس إذا أرادوا بشرط أن لا يعارضونا إذا تجاسرنا أن نعترف ولو بفضل واحد للغرب — وهو فضل آدابه على آدابنا.

ما تعوّدَ البعضُ أن يدعوَه "نهضة أدبية" عندنا ليس سوى نفحةٍ هبَّت على بعض شعرائنا وكتّابنا من حدائق الآداب الغربية فدبَّت في مخيلاتهم وقرائحهم كما تدبّ العافية في أعضاء المريض بعد ابلاله من سقم طويل. والمرض الذي ألمّ بلغتنا أجيالا متوالية كان شللا أوقف فيها حركة الحياة وجعلها، بعد عزّها السابق، جيفة تتغذّى بها أقلام الزعانف المستعبدين وقرائح "النظامين" والمقلّدين أمّا اليوم فقد رجعنا إلى الغرب الذي كان بالأمس تلميذَنا لنقتبس عنه أمثولة جعلناها حَجَر زاوية "نهضتنا الأدبيَّة" وتلك الأمثولة هي أن الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان، وأن الأدب يتوكأ

على الحياة والحياة على الأدب . وأنه – أعني الأدب – واسع كالحياة عميق كأسرارها ينعكس فيها وتنعكس فيه أدركنا – بفضل الغرب – أن نظم الشعر ممكن في غير الغزل والنسيب والمدح والهجاء والوصف والرثاء والفخر والحماسة. لذلك أطربتنا نغمة بعض شعرائنا الحديثين الذين تجاسروا أن يتعدّوا هذه الحدود المقدّسة وأنتقلت إلينا – بفضل الغرب كذلك – الرواية أو ما يدعونه بالانجليزية (نوفل) وبالفرنسية (رومان) وكنّا أسبق النّاس إليها فوجدنا فيها مجالاً واسعا لوصف الحياة والتأثير على العقول والقلوب بواسطة القلم وأدركنا أن النثر لا ينحصر في صِنف الكلام المسجّع، والإكثار من الألفاظ الشاردة المدفونة في بطون المعاجم، وتحبير المقالات المملّة في موضوعات مبتذلة. فقام بيننا بعض من جَرّبُوا أن يمثّلوا حياتنا اليوم في روايات وطنيّة.

وهذه خطوة إلى الإمام.

« الغربال »

فلنتـــــرجم

الفقيـر يستعطـي إذا لـم يكـن لـه من كـدّ يمينـه ما يسـدّ بـه عـوَزَهُ والعطشـان إذا جَفّ مـــاء بئـره يلجأ الى بئر جاره ليـروي ظمـأه. ونحـن فقـراء وإن كُنّـا نتبـجّـح بالغنـى والوفـرة. فلمـاذا لا نسـد حاجاتنا من وفـرة سوانـا وذاك مباح لنـا ؟ وآبـارنـا لا تـروينـا فلمـاذا لا نـرتـوي من مناهـل جيـراننـا وهي ليست محـرّمـة علينـا ؟ نحـن في دور من رقيّنا الأدبي والاجتمـاعـي قـد تنبّـهت فيه حاجـات روحيّة كثيـرة لـم نكـن نشعُـرُ بهـا من قبـل احتكـاكنـا الجديـد بالغـرب. وليس عنـدنـا من الأقـــلام والأدمـغـــة ما يفي بسـدّ هـذه الحاجـــات، فلنترجم ! وَلْنُجِـلّ مقـام المتـرجـم لأنّـه واسطـة تعارف بيننـا وبيـن العائلـة البشـريـة العظمى، ولأنّـه بكشفـه لنـا أسـرارَ عقـــول كبيـرة وقلـــوب كبيـرة تسترهـا عنّـا غـــوامـض اللغـة يـرفعنـا من محيـط صغيـر محـدود نتمـرّغ فـي حمـأتـه، إلى محيـط نـرى منـه العالـم الأوسـع فنعيـش بأفكـار هـذا العالـم وآماله وأفـراحـه وأحـزانـه. فلنتـرجـــم !.

« الغربـال »

الشعـــر الحقيقـــى

كلُّنَا يتكلّم عن الشعر كأنّنا نعرف ما هو الشعر. كما نعرف ما هو الخبز والماء والثوم والبصل ولو اجتمعت زمرة من عشّاق الشعر بيننا لتتحدّث عن الشعر لوجدتها مبلبلة الألسن. هذا يعنِي بالشعر كلاما موزونا مقفّى. وذاك بيتا واحدا من القصيدة والآخر لا يحسب شعرا كلّ ما يقدر القارىء على فهمه دون أن يلجأ الى قاموس.

إنّ جهلنا معنى الشعر الحقِيقِي ومنزلته في عالم الأدب قد أوصلنا الى ما نحن فيه الآن من وفرة "النظامين" وقلّة الشعراء وغِنانا بالقصائد وفقرنا بالشعر. إن الذين حاولوا أن يعرّفوا الشعر بعبارة أو أكثر لجيش غفير – لكن ليس بينهم من اهتدى إلى تعريف يشمل الشعر من كلّ وجوهه لأنّ الشعر غير محدود.

ولو ألقينا نظرة سطحيّة على هذه التعاريف لوجدناها مع كلّ ما فيها من الاختلاف الظاهر في التعبير. تدور حول نقطتين جوهريتين. قسم منها ينظر إلى الشعر من جهة تركيبه وتنسيق عباراته وقوافيه وأوزانه. والآخر يرى في الشعر قوّة حيويّة قوّة مبدعة قوّة مندفعة دائما إلى الأمام. والشعر في الحقيقة ليس الأول وحده ولا الثاني فقط بل كلاهما. الشعر هو غلبة النور على الظلمة، والحقّ على الباطل، هو ترنيمة البلبل ونوح الُورق، وخرير الجدول وقصف الرعد هو ابتسامة الطفل ودمعة الثكلى وتورّد وجنة العذراء وتجعّد وجه

الشيوخ، هو جمال البقاء وبقاء الجمال . الشعر لذّة التمتّع بالحياة والرعشة أمام وجه الموت، هو الحبّ والبغض والنعيم والشقاء، هو صرخة البائس وقهقهة السكران ولهفة الضعيف وعجب القويّ، الشعر ميل جارف وحنين دائم الى أرض لم نعرفها ولن نعرفها، هو انجذاب أبديّ لمعانقة الكون بأسره والاتحاد مع كلّ ما في الكون من جماد ونبات وحيوان. هو الذات الروحية تتمدّد حتى تلامس أطرافها أطراف الذات العالميّة.

وبالإجمال فالشعر هو الحياة باكية وضاحكة وناطقة وصامتة ومولولة ومهللة وشاكية ومسبّحة ومقبلة ومدبرة.

الشعر رافق الإنسان من أوّل نشأته وتدرج معه من مهد حياته حتى ساعته الحاضرة. من الهمجيّة إلى البربرية الى الحضارة الى مدنية اليوم. تمشّت الإنسانية والشعر سميرها ومعزّيها ومشجّعها ومقوّيها – رافقها ويرافقها في الحلّ والترحال والعمل والبطالة والبؤس والرخاء، والحرب والسلم، والوفرة والقلّة تعرفه ابرة الخياط، ومطرقة الحدّاد، وزاوية البناء ومنجل الحاصد، ومحراث المزارع، تعرفه خلوات النسّاك، وقصور الملوك، وأكواخ الفقراء، تعرفه القلوب المنكسرة المجرّدة من أفراح هذه الدنيا والقلوب المفعمة بملذّات العالم وشهواته تعرفه روح العذراء وروح المومس تعرفه العيون الدامعة والعيون الضاحكة والوجوه الشاحبة والوجوه الباسمة ...

« **الغربال** »

الشـــاعـــر

... الفكر كائن قبل اللغة. والعاطفة قبل الفكر. فهما الجوهر وهي القشور. ومن تعس البشريّة أن تفقد مقدرة الأفكار والعواطف كما تنبت وتنمو في الأرواح لا كما ينطق بها اللسان. وأن تراها في حاجة إلى اشارات وعلامات مختلفة تصطلح عليها رموزا لأفكارها وعواطفها لأنّ تلك الإشارات والعلامات مهما دقّت ليست لتأتي إلاّ بأشباح ضئيلة، مبهمة من عالم الفكر المطلق والعاطفة الحرّة ولم تعرف الإنسانية بعدُ في كلّ تاريخها من تيسّر له أن يسكب كلّ فكره أو يُجسِّم كلّ عاطفته في كلام أو خطوط أو ألوان أو ألحان. لذلك فهي أبدا تقرأ بين السطور وما تقرؤه بين السطور هو أفصح وأبلغ وأعمق وأوسع ممّا تقرؤه في السطور . وذاك لأنّها تدرك بالفطرة أنّه يستحيل على بشريّ – كائنا من كان، شاعرا أم كاتبا، رسّاما أم نحّاتا مهندسا أم ملحّنا – تأدية فكر أو عاطفة بكلّ ما فيهما من تجعُّد وتلوّن .

ليس الشاعر يا سادتي من يخلق عواطف ويولّد أفكارا فليس من يخلق شيئا من لا شيء الاّ الله. انّما الشاعر من يمدّ أصابع وحيه الخفيّة إلى أغشية قلوبكم وأفكاركم فيرفع جانبا منها ويحوّل كلّ أبصاركم الى ما انطوى تحتها فتبصرون هناك عواطف وتعثرون على أفكار ولأول وهلة تحسبونها أفكار الشاعر وعواطفه. ولكنّها في الحقيقة عواطفكم وأفكاركم لم يكتشفها الشاعر ولا ابتدعها

ولا أيقظها لكنّه رفع جانبا من الستار عنها وصوّب كلّ أبصاركم إليها ثمّ تركتكم وإياها تستجلون ألوانها وتتفحّصون معانيها. لقد تطالعون، يا سادتي، قصيدة واحدة لشاعر واحد فيشمل بها الأول ويترنّح بها الثاني ويطرب لها الثالث ولا يحفل بها الرابع. فعلام هذا التفاوت في تأثير تلك القصيدة عليكم، والأبيات التي قرأها الأول منكم هي نفس الأبيات التي قرأها الرابع بحروفها؟ أليس ذلك لأن الأول قرأ بين السطور أكثر ممّا قرأه الثاني والثاني أكثر من الثالث والثالث أكثر من الرابع ؟ وكلّهم لم يقرأ غير ما في نفسه وما لم يفصح الشاعر عنه بل رمز إليه رمزا.

« الغربال »

الشعـــر والشـــاعـــر

من هو الشاعـــر ؟

الشاعر نبيّ وفيلسوف ومصوّر وموسيقي وكاهِـن، نَبِـيّ – لأنّـه يرى بعينه الروحية ما لا يـــراه كلّ بشر ومصوّر لأنّـه يقدر أن يسكب ما يراه ويسمعه في قوالب جميلة من صور الكلام – وموسيقي لأنّـه يسمع أصواتا متوازية حيث لا نسمع نحن سوى هدير وجعجعة.

العالم كلّه عنده ليس سوى آلة موسيقيّـة عظيمة تنقر على أوتارها أصابع الجمال وتنقل ألحانها نسمات الحكمة الأبدية . هو يسمع موسيقى في ترنيمة العصفـــور وولولة العاصفة وزئير اللجة وخرير الساقية ولثغ الطفل وهذيان الشيخ فالحياة كلّها عنده ليست سوى ترنيمة محزنة أو مطربـــة يسمعها كيفما انقلب. لذلك يعبّـر عنها بعبارات موزونة رَنّانة. والوزن والتناسب في الـــطبيعة أخوان لا ينفصلان وبغيرهما "لم يكن شيء مِمّا كوّن" والشاعر الذي تعانق روحه روح الكون يدرك هذه الحقيقة أكثر من سواه لذلك نراه يصوغ أفكاره وعواطفه في كلام موزون منتظم. الوزن ضـــروري أمّـا القَافيةُ فليست من ضرويات الشعر لا سيما إذا كانت كالقافية العربية فرويّ واحد يلزمها في كلّ القصيدة ولا مناص لنا من الاعتراف بأنّ القافية العربيّة السائدة الى اليوم ليست سوى قيد من حديد تربط به قرائح شعرائنا – وقد حان تحطيمه من زمـــان.

وأخيرا – الشاعر كاهن لأنّـه يخدم إلاها هو الحقيقة والجمال–

هذا الالاه يظهر له في أزياء مختلفة وأحوال متنوّعة لكنّه يعرفه أينما رآه ويقدّم له تسابيح حيثما أحسّت روحه بوجوده يراه في الزهرة الذاوية والزهرة الناضرة. يراه في حمرة وجنة الفتاة. وفي اصفرار وجه الميّت يراه في السماء الزرقاء والسماء المتلبّدة بالغيوم في ضجة النهار وسكينة الليل. وبالاختصار : إنّ روح الشاعر تسمع دقّات أنباض الحياة وقلبه يردّد صداها. ولسانه يتكلّم "بفضلة قلبه" . تتأثّر نفسه من مشهد يَراه أو نغمة يسمعها فتتولّد في رأسه أفكار ترافقه في الحلم واليقظة فتمتلك كلّ جارحة من جوارحه، حتّى تصبح حملا يُطلب التخلّص منه وهنا يرى نفسه مدفوعا إلى القلم ليفسح مجالا لكلّ ما يجيش في صدره من الانفعالات وفي رأسه من التصوّرات ولا يستريح تماما حتّى يأتي على آخر قافية...

الشاعر – ونعني به الشاعر لا "النظام" – لا يأخذ القلم في يده إلاّ مدفوعا بعامل داخلي لا سُلطة له فوقه. فهو عبد من هذا القبيل لكنّه سلطان مطلق عندما يجلس لينحتَ إحساسه وأفكاره تماثيل من الألفاظ والقوافي لأنّه يختار منها ما يشاء. فيختار الأحسن إذا كان من المجيدين أو مادون ذلك حسب قواه الفنية والأدبية.

أمّا "النظام" فيأخذ قلما وقرطاسا ثمّ يبدأ بوخز دماغه وقريحته علّه يتمكّن من أن يَهيجهما ولو قليلا. غايته لا أن يترجم عن عواطف أو أن يعبّر عن أفكار بل أن "ينظم قصيدة". لذلك اذا خدعنا هذا بطلاوة نسقه فلا يطول أن نكتشف تصنّعه وخداعه. فننساه وننسى قصيدته . أمّا الشاعر الذي يسقي قلمه من قلب طافح وروح هائجة فربّما

لا نفهمه اليوم ولا نهتمّ به ، لكن لابدّ أن نفيق غدا وندرك هفوتنا لأن الجمال – كالشمس – لا يختفي. وحينئذ، نسرع لنكفّر عن اساءتنا إلى ذاك الشاعر ولو بعد موته. فنعلي مقامه ونقيم له التماثيل إن لم يكن في ساحات المدن أو على ملتقى الطرق ففي قلوب تختلج عند مطالعة ما جاد به قلمه.

هذا ما جرى لشكسبير وكثيرين سواه من كبار الشعراء والكتاب فشكسبير لم يمت ولن يموت أمّا ألوف "النظامين" الذين حازوا شهرة وقتيّة عن غير استحقاق فلا نسمع بهم ولا نذكرهم وإذا ذكرناهم فعلى سبيل التفكهة فقط.

« **الغربال** »

الشعـــر والعـــروض

ومن حسنات علم العروض يا رفيقي أنّه كثير البحور. ولكلّ بحر من بحوره قوارب يتعذّر عليك ركوبه إلا بها. ولكلّ من تلك القوارب مقاذيف لا تدار إلاّ بها ولكلّ من تلك المقاذيف حلقات وحنيّات ومماسك لا يعرفها إلاّ غزير الخبرة وطويل الأناة. لذلك فالملاحة في هذه البحور تقتضي اقتحام المخاطر والمجازفة بالحياة. ولذلك قد حذّرنا العاقلون من الإقدام عليها إذا قالوا :

الشعر صَعْب وطويل سُلَّمُهُ إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلّت به الى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

غير أنّ ابناء الضاد ليسوا ممن يهابون المخاطر. ولا ممن يؤثرون الحياة على الشرف. فكلّما تراكمت تلك العقبات في سبيلهم ازدادت عزائمهم مضاء. وكلّما عزّ الحصول على شرف أثيل هانت لديهم الأرواح. فما كان منهم الاّ أن هجموا على تلك البحور . فلجموا أمواجها وامتطوها وراحوا بين شواطئها يهزجون. نعم هوى بعضهم إلى القاع فطمست آثاره ولكن أكثرهم طاف جميع البحور وعاد سالما معافى.

فلنمجّد الملاحين يا أخي – أولئك الذين يحسنون الملاحة في بحور الشعر والذين يرتقون في سلّمه فلا تزلّ بهم قدم إذ لا يعجمون معربة ولا يعربون معجمة ، لنمجّد العروض وأبناء العروض .

تسألنـي ما إذا كنت أتهكّم أو أعنـي ما أقـول لا وتربة الخليل ، لست متهكّما فلعـروض الخليـل فضل عليّ كبيـر. ولأصحابنـا الملّاحيـن فضل أكبـر أقـول انّ لـهم فضلا أكبـر لأن الخليـل يـوم جمع ما كـان في زمانـه من أوزان الشعـر وبـوّبها وحدّد ما يطـرأ عـليهـا مـن الزحافـات والعلـل، لم يقصـد سوى الخيـر، ولم يتـوخّ إلاّ خـدمـة لغـة عـزيـزة عليه. أمّا الـذيـن جاؤوا بعـد الخليـل فتقيّدوا بـزحافاتـه وعلـلـه ألفـا ومائتـي سنـة، فإيّاهـم أسـدى جزيـل شكـرى لأنّـهم بمبـاراتـهم في معـرفـة صحيح أوزان الشعـر وفاسـدهـا قـد اتقنـوا الأوزان وأهملـوا الشعـر وبإهمالـهم الشعـر نبّـهونـي إليـه. وقد ينبّـهنـا عـدم وجود الشيء إلى الشيء أسـرع ممّـا ينبّـهنا إليـه وحـــوده.

لنقف يا أخي بتخشّع أمام شبح من قـــال :

"وشبيـه صـوت النعيّ إذا قيـ س بصوت البشير في كلّ نادٍ"

ولنجْـثُ أمامَ ضـريـح من شـرب على ذكـر الحبيب مـدامـة فسكر بها.

ولنجِـلّ النـار التي كـانـت تتأجّج في صـدر من نظـر الأعمى إلى أدبـه وأسمعـت كلمـاتـه من بـه صـمـم.

فهـؤلاء وقليـل ممـن ساورت أرواحَـهم أحـلام من عـالـم أعـلى، لَعجبَـابرة وإن تقيّدوا بقيود الخليـل فهم أكبر منـه ومن عروضـه. فانمُـرّ من أمـامـهم صامتيـن ولنتابـع السيـر إلى حيث الـدواويـن الحافلـة بصحيح أوزان الشعـر النـاظـرة لا الى جمـال الحيـاة بـل إلى جمال الألفاظ والمقاطع، المصغية لا إلى نبضـات القلـوب وخطـرات الأفكار بـل إلى يد تصفّـق استحسـانـا ولسـان يثرثـر بالمـديـح.

وإنّ في الواحد منّا ما في الآخر من الأفكار ولكنّها قد تكون مستيقظة في بعضنا غافلة في الآخر وإن هذه العواطف والأفكار وإن استيقظت في بعضنا فقد تكون خرساء وفي بعضنا مستيقظة وناطقة

وإنّ العواطف إذا ما استيقظت ونطقت بنفسها بعبارة جميلة التركيب موسيقية الرنّة كان ما تنطق به شعرا وصاحبها شاعرا.

واذْ أنّ العواطف والأفكار هي كلّ ما نعرفه من مظاهر النفس فالشعر إذن هو لغة النفس.

والشاعر هو ترجمان النفس.

فلا الأوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر كما أن المعابد والطقوس ليست من ضرورة الصلاة والعبادة، فربّ عبارة منثورة جميلة التنسيق موسيقية الرنّة كان فيها من الشعر أكثر ممّا في قصيدة من مائة بيت.

الغربال »

منـزلة الـوزن من الشعـر

...ولـو نظـرتَ الآن يا صاحبِـي إلى أوزان الشعـر لـوجـدت أنّ حكـايتنـا معهـا هي حكـايتنـا مـع طقـوس العبادة. إن القصـد الأساسي من الـوزن هـو التنـاسـق والتـوازن في التعبيـر عن العـواطف والأفكار ولا شـكّ أن الأوزان نشـأت نشـوءا طبيعيـا، وكان سببُ ظهـورهـا ميلَ الشاعـر الى تلحيـن عـواطفـه وأفكاره والكلام المتـوازن المقاطـع أسهـل للتّلحين من الكلام الـذي لا تـوازن بيـن مقـاطعـه من حيث الطـول والقصـر. لـذاك لحـق الـوزن بالشعـر ونما معـه نمـوّا طبيعيـــا. فكـان يتكيّف بالشعر ولا يتكيّف الشعـر بـه. هكذا نَمـا الشعـر العربِـي ونمـت أوزانـه. وما زال الـوزن لاحقـا والشعـر سابقـا إلى أن قيّـض الله لأبـي عبد الـرحمـان الخليـل أن جمـع كلّ ما تـوصّل إليـه من الأوزان فبـوّبهـا حـدّدهـا وجعل لكلّ منهـا قـواعـد ولكلّ قـاعـدة جـوازات وللجوازات جوازات الخ.

منذ ذلـك الحيـن يا أخي أخـذ الـوزن يتغلّـب رويـدا رويـدا على الشعر إلى أن أصبـح الشعـر لاحقـا والـوزن سابقـا. وأصبـح كـلّ من قدر أن يتغلّـب على عـروض الخليـل بأوزانهـا وزحافـاتهـا وعللـهـــا أهـلا لأنْ يـدعـى شاعـرا. وذاك راجـع إلى ما قلتـه عن طقـوس العبادة بأنّ الجمهـور من طبيعتـه أن ينظـر إلى ظـواهـر الأمـــور كمـا لـو كـانـت هي جواهـر الأمور.

لو نظرت يا أخي إلى ما جمعنـاه منذ نيف وألـف سنـة لـوجدتـه – مع استثنـاء قليـل منـه – معـرضـا لـلأبحـر الشعـريـة بيـن طـويلـهـا وبسيطهـا وكـاملـهـا وخفيفهـا الـخ، مـع مـا "يطـرأ عليهـا من الـزحافـات والعلل".

لا تضحك فالموقف موقف بكاء لا ضحك. أمِنَ المضحكات أن ندفن ألف سنة من حياتنا الأدبيَّة بالزحافات والعلل ؟

العروض لم يسيء إلى شعرنا فقط، بل قد أساء إلى أدبنا بنوع عام.

فبتقديمه الوزن على الشعر قد جعل الشّعر في نظر الجمهور صناعة، إذا أحاط الطالب بكلّ تفاصيلها أصبح شاعرا. واذ أنّ للشاعر منذ بدء التاريخ مقاما رفيعا بين قومه أصبح كلّ طالب شهرة يلجأ إلى العروض كأنَّه أقرب الموارد. وبذلك انصرفت أكثر مواهبنا إلى قرض الشعر فأفقنا اليوم ولا روايات عندنا ولا مسارح ولا علوم ولا اكتشافات ولا اختراعات. ولا شكّ أنّ كثيرين مِمَّن انصرفوا إلى النظم حبّا في الشهرة لو انصرفوا إلى غيره من أبواب الكتابة والدرس لجاؤوا معاصريهم وَجَاؤونا بنفع كبير. ناهيك عن أنّ درس علم العروض يستغرق وقتا طويلا. فقل معِي : والهْفَ قلباه على عقول أحداث لا تزال تصارع العروض على مقاعد المدرسة !

« الغربال »

نقـــد الشعـــر

لكلّ قارىء مقاييس عديدة يقيس بها الشعر والشعراء لست لآخذها منه ولا لأُبدّلها بمقاييسي فما أنا إلا عارض عليه ما عندي. فلينبذه إذا شاء أو ليقبله اذا شاء.

إنّ أوّل ما أبحث عنه في كلّ ما يقع تحت نظري باسم الشعر هو نسمة الحياة والذي أعنيه بـ"نسمة الحياة" ليس إلاّ انعكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظوم الذي أطالعه فإن عثرت فيه على مثل تلك النسمة أيقنت أنّه الشعر. وإلاّ عرفته جمادا واذْ ذَاكَ ليس ليخدعني بأوزانه المحكمة،ومفرداته المنمّقة، وقوافيه المترجرجة. ومتى أيقنت أنّ فيما أطالعه شعرا ميّزته عن سواه – أوّلاً – باتّساع مداه : بعمقه، وعلوّه وانفراج أرجائه وبعد ذلك فحصت عن سروالـه الخارجي، عن دقّة تركيبه وحلاوة رنّته، وطلاوة ألوانه، وما أشبه. وآخر ما أعيره انتباهي هو الأوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوية. فالشعر الذي ينزل بفكري إلى أعماق بل إلى أغوار تحتها أغوار ويعلو به إلى سموات تلوح من ورائها سموات ويفتح لخيالي آفاقا خلفها آفاق ؛ ويفسح لعاطفتي مَدى يجرّها إلى أمدائه هو الشعر الذي تستأنس به روحي وتتفتّح له براعيم الحياة في داخلي وما كان دونه مدى لنفسي كان دونه قيمة لديّ. أمّا الشعر الذي لا آنس فيه سوى متانة لغويّة وزركشة بيانية ومقدرة عروضيّة، فهو في نظري كغرفة طولها

ذراعان وعرضها ذراعـــان، وعلوها ثلاث أذرع جدراتها موشاة بالرســـوم وسقفها مموّه بالذهب، وأرضها مرصوفة بالفضة يبهرني لأول وهلة منظرها، لكنّـي لا أقضي فيها بضع دقائق حتّى أشعر بحاجة الى الهواء النقي والى فضاء الله الواسع. فأهرب شاكرا ربّي على النجاة وغير ملـــتفت إلى الوراء .

« **الغربـال** »

الشعر :

مـن انـت يـا نفسـي

إن رأيت البحر يطغى الموج فيه ويثور
أو سمعت البحر يبكي عند أقدام الصخور
ترقبي الموج الى أن يحبس الموج هديره
وتناجي البحر حتّى يسمع البحر زفيره
راجعا منك إليه
هل من الأمواج جئت؟
ان سمعت الرعد يدوي بين طيّات الغمام
أو رأيت البرق يفري سيفه جيش الظلام
ترصدي البرق الى أن تخطفي منه لظاه
ويكفّ الرعد لكن تاركا فيك صداه
هل من البرق انفصلت؟
أم مع الرعد انحدرت؟
إن رأيت الريح تذري الثلج عن روس الجبال
أو سمعت الريح تعوي في الدجى بين التلال
تسكن الريح وتبقى باشتياق صاغيه
وأناديك ولكن أنت عنّي قاصيه

في محيط لا أراه

هل من الريح ولـدت ؟

إن رأيت الفجر يمشي خلسة بين النجوم
ويوشّي جبة الليل المولّي بالرسوم
يسمع الفجر ابتهالا صاعدا منك إليه
وتخرّي كنبيّ هبط الوحي عليه
بخشوع جاثيه

هل من الفجر انبثقت؟

إن رأيت الشمس في حضن المياه الزاخرة
ترمق الأرض وما فيها بعين ساحرة
تهجع الشمس وقلبي يشتهي لو تهجعين
وتنام الأرض لكن أنت يقظى ترقبين
مضجع الشمس البعيد

هل من الشمس هبطت؟

إن سمعت البلبل الصدّاح بين الياسمين
يسكب الألحان نارا في قلوب العاشقين
تلتظي حزنا وشوقا والهوى عنك بعيد
فاخبريني ! هل غنا البلبل في الليل يعيد
ذكر ماضيك إليك ؟

هل من الألحان أنت ؟

إيه نفسي ! أنت لحن فيَّ قَدْرَنَّ صداه
وقّعتك يد فنان خفيّ لا أراه

أنـت ريـح ونسيـم أنـت مـوج أنـت بـحـر
أنـت بـرق أنـت رعـد أنـت ليـل أنـت فـجـر
أنـت فيـض مـن إلـه

« **الشعر العربى فى المهجـر** »
محمد عبد الغنى حسن

أخـــــــــى

أخي ! إنّ ضجّ بعد الحرب غـربي بأعمـالـه
وقدّس ذكـر من مـاتـوا وعظّم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادُوا ولا تشمت بمـن دانـا
بل اركع صـامتا مثلِـي بقلـب خاشـع دام
لنبكي حظّ موتانـا

* * *

أخِـي ! إنّ عـاد بعد الحـرب جنـديّ لأَوْطانه
وألقى جسمه المنهـوك في أحضـان خِـلاّنـه
فلا تطلب إذا ما عـدت للأوطـان خـلاّنـا
لأنّ الجـوع لم يتـرك لنـا صحبا نناجيهم
سـوى أشباح موتـانا

* * *

أخي ! إن عاد يحرث أرضه الفـلاح أو يـزرع
ويبنِـي بعد طـول الهجـر كوخا هـدّه المدفع
فقد جفّت سواقينـا وهدّ الذلّ مـأوانـا
ولم يترك لنا الأعـداء غرسـا في أراضينـا
سوى أجيـاف موتانا

* * *

أخي ! قد تمّ ما لو لم نشأه نحن ماتمّا
وقد عمّ البلاء ولو أردنا نحن ما عمّا
فلا تندب فأذن الغير لا تصغي لشكوانا
بل اتبعني لنحفر خندقا بالرفش والمعول
نواري فيه موتانا

* * *

أخي ! من نحن ؟ لا وطن ولا أهل ولا جار
إذا نمنا، إذا قُمْنا رَدَانَا الخزي والعار
لقد خمّت بنا الدنيا كما خمّت بموتانا
فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقا آخر
نوارى فيه أحيانا

* * *

« الشعر العربي فى المهجر »
محمد عبد الغنى حسن

لـو تـــدرك الاشـــواك

يـا سـاقـــي الـجـــلاّس بـالله لا تحفـل بكـاسي بيـن هذى الكؤوس
اتـرع لغيري الكأس، أمّـــا أنـــا فاحسـب كـأنّـي لسـت بين الجلوس
واعبـر ! ودعنـي فـــارغ الكـــاس

لا ! لا تقـل مـا طـــابت الخمر لـي أو أنّنِـي مـا بينكم كـالغريـب
بـل إن لـي يـا صاحبِـي خمـــــرة مـا مثلهـا يطفـى بـــروحي اللهيب
أعصـرهـــا مـن قـلـبـي القـــاســـــي

يا مـرسـل الألحـــان من عـــوده سحـرا يهيـج الصبّ حتّى الجنون
أمـا رأيـت الـرأس منّـي انحنـى والعيـن غـابت خلف ستر الجفون
فـلا تقـــل ذى حـــال ولـهـــــــان

لا ! لسـت بالـولهـان يا صاحبِـــي فالقلـب منّـي جـامـد كالجليد
لكنّنِي مُصْغٍ لنفسِـي.. فـفِـي نفسِـيَ أوتـار وفيهـا نشيـــد
فاضـــرب ودعنِـي بيـن ألحـانِـي

يا سـاكـن القصـر الجميـل ! اغتبط يا صاحبِـي واهنـأ بقصـر جميـل
ولتسقـك الأيّـام من كوثـر اللـ ـذّات ولتمنحـك عمرا طويـــل
تجنِـي الهنـا عـامـاً ورا عـــام

لا ؟ لا تقـل مـا راقنِـي قصرك الـ ـعالي أو انّي لم يطب لي هواه
بـل إن لي يا صاح قصـرا أبـــت نفسِـي بأن تلجـا لقصـر سـواه
ذا قصـــر أفكـــاري وأحـــلامِـــي

يـا جالسـا بيـن اللحـــود الـتِـي سكّانهـا أضحـوا تـرابـا ودود

إي ! إنّ من تبكيه يا صاحبي لا شكّ خدن أو صديق ودود
أو. إن تشأ قل خير إنسان
لكن غدا تنساه أمّا أنت ففي حياتي كلّ يوم دفين
إذ أنّني اجتثّ زاد البلى منّي وكم يبلى رجاء ثمين
في لحظة من عيشنا الفاني !
يا حاشد الأموال فلسا الى فلس يكدّ الليل قبل النّهار
أيامه صفر كأعوامه لا لون فيها غير لون النضار
عمياء تجري حيث لا تدري
لا ! والذي الأقدار خُدامه ما في فؤادي غَصّة من غناك
إذ قد حباني الحظّ بعض الغنى يا صاحبي من غير ما قد حباك
فاحشد ! ولا تشفق على فقري !
يا حامل الإنجيل يدعو إلى نبذ المعاصي منذرا بالعقاب
بشّر وخلّص يا أخي أنفسا ضلّت لكي تلقى جميل الثواب
إذْ ينصب الديّان ميزانه
إمّا صممتُ الأذن عنك فلا تغضب، ودعني في ضلالي أهيم
إذْ لي فؤاد قدْ حوى جنّة والله أدرى كم حوى من جحيم
فاكرز ! ودع قلبي وأدرانه !
يا زهرة ما بين شوك نمت لولا شذاها ضلّ عنها البصر
هل تدرك الأشواك يا زهرتي أنّ الشذا هذا شذاك انتشر؟
في الحقل لا عطر لها فاحا
هل تدرك الأشواك ما تدركين ؟
هل عطّر العلّيق أذ يالله من حيث تمتصين أنت الأريج ؟

أم حاك غير الشوك ثوبا له من حيث حكت أنت أبهى النسيج؟

قد تصبح الأشواك آقاحا

لو تعرف الأشواك ما تعرفين!

« الشعر العربى فى المهجر »
محمد عبد الغنى حسن

بين الجماجم

حدّثيني عن الحياة عسى أعطي فؤادي اللجوع عنها جوابا

* * *

حدّثيني عن القلوب التي كا نت قلوبا واليوم صارت ترابا
كيف كانت بالأمس تملي ولا تحسب للموت في الحياة حسابا
نابضات حبًّا وبغضا وإيما نا وشكًّا وراجيات ثوابا
ها أنا ألمس التراب فلا ألمس همًّا أو غبطة أو عذابا
وأصيخ الى التراب فلا أسمع شكوى أو لهفة أو عتابا
أترين الأشواق صارت بروقا ودموع الأحزان أضحت سحابا
وأنين القلوب أمسى رعودا وأمانيّها استحالت ضبابا ؟
أم ترين التراب عاد ترابا وسراب الآمال عاد سرابا؟

* * *

حدِّثيني عن الخدود التي بالـ أمس كانت مذابحا للجمال
تنطق المؤمنين بالكفر والكفّـ ـار بالسّبح للقوي المتعالي
تتبارى بلا انقطاع إليها ونضحّي لها بأغلى الغوالي
كم سجدنا أمامها وابتهلنا وقرعنا صدورنا في الليالي
وحرقنا القلوب منًّا بخورا ونظمنا العيون عقد لآلي
ها أتينا لنترع الروح ممّا كان فيها لطرفنا من كمال
وغريب أن لا نرى حيث كانت غير دود يدبّ بين الرمال
ويح قلب يرى الخيال جمالا ويح عقل يمحو جمال الخيال

* * *

حدّثيني عن نفخة جعلت آ ... دم حيًّا وكان تُرْبا وماء
يالها نفخةً أرتنا بصيصا ... في ظلام البقا فزدنا عماء
ما لبسنا الحياة حتّى لبسنا ... في ثنايا ثوب الحياة الفناء
فغدونا إذا رجونا عزاء ... صار ذاك الرجاء فينا بلاء
ونسينا أنّا تراب فلا بالأ ... رض نرضى ولا ننال السماء!
نفخة الله أين أين استقرّت ... بعد أن عادت الجسوم هباء؟
أ إلى صدر خالق الكون آبت ... تحمل الهمّ والأسى والشقاء؟
أم طوتها الأقدار لكن لحين ... أم هواء كانت فعادت هواء ؟

* * *

حدثيني عن الحياة لكي أعـ ... ـطَي عنّي أمام نفسي حسابا
فعسى الخالق الذي ضِمْنَ صدري ... لا يزيد النيران فيه التهابا !

« الشعر العربى فى المهجر »
محمد عبد الغنى حسن

الى دودة

تدبين دبّ الوهن في جسميَ الفاني ... وأجري حثيثا خلف نعشي وأكفاني
فأجتازُ عمري راكضا متعثّرا ... بأنقاض آمالي وأشباح أشجاني
وأبني قصورا من هباء وأشتكي ... اذا عبثت كفُّ الزمان ببنياني
ففي كلّ يوم لي حياة جديدة ... وفي كلّ يوم سكرة الموت تغشاني
ولولا ضباب الشكّ يا دودة الثرى ... لكنت ألاقي في دبيبك إيماني
فأترك أفكاري تذيع غرورها ... وأترك أحزاني تكفّن أحزاني
وأزحف في عيشي نظيرك جاهلا ... دواعي وجدي . أو بواعث وجداني
ومستسلما في كلّ أمر وحالة ... لحكمة ربّي ، لا لأحكام إنسان

* * *

فها أنت عمياء يقودك مبصر ... وأمشي بصيرا في مسالك عميان
لك الأرض مهد والسماء مظلّة ... ولي فيهما من ضيق فكري سجنان
لئن ضاقتا بي لم تضيقا بحاجتي ... ولكن بجهلي وادّعائي بعرفاني
ففي داخلي ضدان : قلب مسلّم ... وفكر عنيد بالتساؤل أضناني
توهّم أن الكون سرّ وأنّه ... ينال ببحث أو يباح ببرهان
فراح يجوب الأرض والجوّ والسما ... يسائل عن قاص ويبحث عن دان
وكنت قصيدا قبل ذلك كاملا ... فضعضع ما بي من معان وأوزان..

* * *

وأنت التي يستصغر الكلّ قدرها ... ويحسبها بعضٌ زيادة نقصان
تدبيّن في حضن الحياة طليقة ... ولا همّ يضنيك بأسرار أكوان

فلا تسألين الأرض مَن مدّ طولها ... ولا الشمس من لظّى حشاها بنيران

ولا الريح عن قصد لها من هبوبها ... ولا الوردة الحمراء عن لونها القاني

وما أنت في عين الحياة ذميمة ... وأصغر قدرا من نسور وعقبان

فلا التبر أغلى عندها من ترابها ... ولا الماس أسنى من حجارة صوّان

هل اسْتَبْدَلتْ يوما غرابا ببلبل ... وهل أهملت دوداً لتلهو بغزلان ؟

وهل أطلعتْ شمسا لتحرق عوسجا ... وتملأ سطح الأرض بالآس والبان؟

لعمرك يا أختاه ما في حياتنا ... مراتب قدر أو تفاوت أثمان

مظاهرها في الكون تبدو لناظر ... كثيرة أشكال. عديدة ألوان

وأقنومها باق من البدء واحدا ... تجلت بشهب أم تجلّت بديدان

وما ناشد أسرارَها – وهو كشفها – ... سوى مشتر بالماء حرقة عطشان

« **الشعر العربى فى المهجر** »
محمد عبد الغنى حسن

قبـــور تـــدور

هلمّي هلمّـي نحيّ القبـــور ونمتـص منهـا رحيـق الـدهـــور
عسانـا إذا ما رأينـا عـــظـامـــا يفتّق منهـا الـربيـع الـزهـــور
عـرفنـا بأنّ الفنـاء بـقـــاء وأنّ الحيـاة قبـور تـدور

* * *

هلمّي هلمّـي وخلّـي الـرّجـاء ومـدّي بعينيك نحـو الفضـاء
عساك إذا ما رأيت شـمـوسـا تغيب وتبدو بحكم القضـاء
عرفتِ بأن البقـاء امتثـــال وأنّ الرجاء شقـاء البقـــاء

* * *

تعالي تعالي وخلي الكفـاح لأجل الصلاح وضدّ الطـلاح
وقولي إذا ما همست سـلامـا بإذن المسـاء فردّ الصبـاح
أليس الصباح شقيق المســاء أليس الطلاح شقيق الصـلاح؟

* * *

تناسي زمان الصبا والشبـــاب وسوقي مع الريح جيش السحاب
وقولي : أفي السحب قطر فتـىٌ وقطر تقـادم عهـدا فشـاب ؟
أليس الشباب، أليس المشيـب سحابا ونحن دمـوع السحاب؟

* * *

تخلّ عن الصدق للكـاذبيـن وعن عفّة الحبّ للعاشقيـن
وخلّ الفخار لأهل النّضـار ومجد المعارف للجاهليـن
وخلّ المعالي وجدّ الليـالـي وحبّ التفوق للمقعديـن

* * *

بعينيك نور تراه العيون جميلا فتضحك منها المنون
لأن المنايا تحدّق فيك بعين الزمان التي لا تخون
فتبصر في مقلتيك ترابا وتبصر دودا وراء الجفون

* * *

فخليّ جمالا يراه الغرور وليست تراه عيون الدهور
وخليّ الجهاد، وخلى الطموح وخليّ القصور، وحي القبور
ودوري مع الكون جيلا فجيلا فهل نحن إلاّ قبور تدور؟

« الشعر العربى فى المهجر »
محمد عبد الغنى حسن

ابتهالات

كحّل اللهم عينيي
بشعاع من ضيـاك
كـي تـراك

في جميع الخلق ! في دود القبـور في نسـور الجوّ، في موج البحـار
في صهـاريج البـراري ،في الزهـور في الكلا، في التبـر، في رمل القفار
في قروح البرص، في وجـه السليـم في يد القـاتـل، في نجع القتيـل
في سرير العرس ، في نعش الفطيم في يد المحسن ،في كفّ البخيـل
في فـؤاد الشيـخ، في روح الصغيـر في ادّعا العالـم، في جهل الجهول
في غنى المثري، وفي فقـر الفقيـر في قذى العاهـر، في طهر البتـول

وإذا مـا سـاورتهـا سكتـة النـوم العميـق
فـاغمـض اللـهم جفنيـهـا الى أن تستفيـق

* * *

وافتـح اللهم اذنـي
كي تعي دوما نـداك
مـن عـلاك

في ثغـاء الشـاة في زأر الأسـود في نعيـق البوم، في نوح الحمام
في خريـر المـاء في قصف الـرعـود في هديـر البحر، في مرّ الغمـام
في غنا البلبـل ، في نـدب الغـراب في دبيب النمـل في هبّ الريـاح
في طنيـن النحل، في زعق العقـاب في صراخ الليل في همس الصبـاح

في بكا الأطفال في ضحك الكهول في ابتهالات العراة الجائعين
في انتحاب الناي، في دقّ الطبول في صلاة الملك والعبد السجين
واذا ما قرب الموت ووافاها الصمم
فاختمَنْ ربّي عليها ريثما تحيا الرمم

* * *

وليكن لي يا إلهي
من لساني شاهدانْ
صادقانْ

إن أفُهْ بالحقّ فليشهد معي أو أفه بالبُطْلِ فليشهد عَليْ
وإذا ما قام غيري يدّعي يا إلهي الحق في بُطلْ وَغَيْ
فليكن سيفا لساني حده في سبيل الحق ماض لا يهاب
لا يكفّ الضرب حتّى ضدّه ينثني عن غيّه نحو الصواب
وإذا ما خان نطقي قلمي فأراه البطل في الحقّ الصريح
في كلام الغير فاجعل من فمي لساني أيُّها الباري ضريح
فلسان يعلن الحق وسرًّا يذبحه
ليت شعري غير صمت الموت ماذا يصلحه؟

* * *

واجعل اللهم قلبي
واحة تسقى القريب
والغريب

ماؤها الإيمان أمّا غرسها فالرجا والحبّ والصبر الطويل
جوّها الإخلاص أمّا شمسها فالوفا والصدق والحلم الجميل
فإذا ما راح فكري عبثا في صحارى الشكّ يستجلي البقا
مرّ منهوكا بقلبي فجثا تائبا يمتصّ من قلبي الرجا
وإذا ما أملي يوما مشى تائها في مهمه العيش السحيق
عاد لمّا كاد يقضي عطشا يحتسي الإيمان من قلبي الرقيق
وإذا الإيمان ولّى والرجا أضحى ضرير
فلينم قلبي الى أن ينفخ البوق الأخير

« **الشعر العربى فى المهجر** »
محمد عبد الغنى حسن

أغمض جفونك تبصر

إذا سماؤك يوما تحجّبت بالغيوم
أغْمِضْ جفونكَ تبصر خلف الغيوم نجوم

* * *

والأرض حولك إمّا توشّحت بالثلوجْ
أغمض جفونك تبصر تحت الثلوج مروج

* * *

وإنّ بليت بداء وقيل داء عياء
أغمض جفونك تبصر في الداء كلّ الدواء

* * *

وعندما الموت يدنو واللحد يفغر فاه
أغمض جفونك تبصر في اللحد مهد الحياة

« الشعر العربى فى المهجر »
محمد عبد الغنى حسن

الخيـــر والـشـــر

سمعت في حلمِي ويا للعجب !

سمعت شيطاناً يناجِي ملاكْ

يقول : إي بل ألف إي يا أخِي لولا جحِيمِي أين كانت سماك ؟

أليس أنَّا توأمان استـــــوى سرّ البقا فينا، وسر الهـلاك ؟

ألمْ نُصَغْ من جوهر واحـــد إن ينسنِي النَّاس أتنسى أخاك؟

* * *

فأطرق ابن النور مسترجعا في نفسه ذكرى زمان قديم

واغرورقت عيناه لما انحنى مستغفراً وعانق ابن الجحيم

وقال: إي بل ألف إي يا أخي من نارك الحرّى أتانِي النعِيم...

وحلَّق الاثنان جنبا إلى جنب، وضاعا بين وَشي السُّديم

« **الشعر العربى فى المهجر** »
محمد عبد الغنى حسن

الـطـــريـق

نحن يا ابني عسكر قد تاه في قفر سحيـــق
نرغب العَـــوْد ولا نذكر من أين الطـريـــق
فانتشرنا في جهـات القفر نستجلي الأثـــر
نسأل الشمس عن الـدرب ونستفتي الحجـر
وسنبقى نـفـحص الآثـار من هـذا وذاك
ريثمـا نـدرك أنّ الـدرب فينا، لا هـنـــاك
وسنبقـى في انتقـال وشقـاء وعـــذاب
وصعـود ، وهبـوط ، وذهـاب ، وإيـــاب
وسنبقـى نهجـع الليـل وفـي الصبـح نفيـق
ريثما نلـقى منـانا، ريثماً نلقى الـطـريـق

« الشعر العربى فى المهجـر »
محمد عبد الغنى حسن

التـــائـه

أسير في طريقي في مهمه سحيق
ووحدتي رفيقي وَوُجْهَتِي الفضا
مطيتِي التـــراب وخـوذتي السحاب
ودرعي الســراب ورائـدِي القضا

* * *

تسوقنِي الشوانِي في موكب الزمان
ولست أدري شانِي في معرض الورى
فلا القضا ينبيـني ولا الرجا يهدينِي
ولا السما تعطِينِي نورا لكي أرى

* * *

بل في ضلوعِي نار تثيرها الأقـدار
ياليتهـا تختـار سِـواي موقـدا
نـار بـلا رمـاد يشوى بها فؤادي
وليس إذ ينـادِي من يسمع النـدا

* * *

واحرقتي ، أوّاه ! لو كنت أدري ما هي
أشعلة الالـه أم شعله الرّدى
فهي التِي تحيِينِي وهي التي تفنِينِي
وهي التي تسقِينِي من جمرها ندى

وهي التي لظاها أرانـي الإلـهـا،
وهي التي لولاها لم أعرف الشقـا
رباه هـل بـليّـه ذي النّـار أم عطيه
تحلو بها المنيّـة ويعذب البقاء ؟

* * *

هـل جرها عنـادي عليّ أم فسـادي
أم جرها انقيادي لسلطة الهـوى ؟
أم جرها غروري بفكري المبتـور،
أم جرها قصوري عن فهم ما انطوى؟

* * *

ربّاه هل يـلام من ريثُـهُ أوّامُ
ونوره ظـلام إنّ قلبـه كبـا؟
أم يجلب العقابا من يأكل الضبابا
ويرتدي السرابا إنْ فكـره نبـا؟

* * *

أخالقي رحماكا بما برت يداكا!
إنْ لم أكن صداكا فصوت من أنـا ؟
ربّي ألا تـرانـي أساق كالحمـلان
ربي أما كفانـي عماي والونـى ؟

* * *

فابدل لظى نيراني بحمرة الإيمـان
واجعل من الحنـان للقلب مرهمـا
إذ ذاك بالتهليـل أسير في سبيلـي
وخالقي دليلـي ووجهتي السما

« **همس الجفون** »

(1)

المقاييس الأدبية

... اذا كان في الأدب من آثار "خالدة" ففي خلودها برهان على أن في الأدب ما يتعدى الزمان والمكان وجليّ أن المقاييس التي نقيس بها مثل هذه الآثار لا تتقيّد بعصر ولا تتعلّق بمصر. فإذا كنّا لا نزال نعجب ونطرب بما كان يعجب ويطرب به العبراني واليوناني والإيطالي والعربي والانكليزي منذ مئات وألوف من السنين أفليس ذاك لأنّنا نقيس هذه الآثار الأدبية بنفس المقاييس التي كان يقيسها بها أولئك ؟

إذن ففي الأدب مقاييس ثابتة تتجاوز الزمان والمكان. ولا تعبث بها أمواج الحياة المتقلّبة وأذواق العالم المتضاربة وأزياء البشرية المتبدّلة.

فما هي هذه المقاييس ؟

قلنا ان قيمة الأمور الروحية إنّما تقاس بالنّسبة إلى حاجاتنا الروحية. ولكلّ منّا حاجاته بل لكلّ أمّة حاجاتها. ولكلّ عصر حاجاته غير أنّ من هذه الحاجات ما هو مقيّد بالفرد أو بالأمّة وأحوالها الزمانية والمكانية. وهذه تتقلّب وتتغيّر ومنها ما هو مشترك بين كلّ الأفراد والأمم في كلّ العصور والأمكنة. وهذه الحاجات هي المقاييس الثابتة التي يجب أن تقاس بها قيمة الأدب فإن حددناها حددنا مقاييسنا الأدبية وتمكنّا من أن نعطي كلّ أثر أدبي حقه.

أمّا هذه الحاجات المشتركة فقد لا يسعني ولا يسع سواي الإحاطة بها غير أني سأحاول أن أذكر منها ما هو في اعتقادي أهمها:

أوّلا : حاجتنا الى الإفصاح عن كلّ ما ينتابنا من العوامل النفسية: من رجاء ويأس وفوز وإخفاق، وإيمان وشكّ، وحبّ وكره، ولذّة وألم، وحزن وفرح، وخوف وطمأنينة، وكلّ ما يتراوح بين أقصى هذه العوامل وأدناها من الانفعالات والتأثرات.

ثانيا : حاجتنا الى نور نهتدي به في الحياة : وليس من نور نهتدي به غير نور الحقيقة حقيقةً ما في أنفسنا وحقيقة ما في العالم من حولنا. فنحن وان اختلف فهمنا عن الحقيقة لسنا لننكر أن في الحياة ما كان حقيقة في عهد آدم ولا يزال حقيقة حتّى اليوم وسيبقى حقيقة حتى آخر الدهر.

ثالثا : حاجتنا الى الجميل في كلّ شيء ففي الروح عطش لا ينطفىء الى الجمال وكلّ ما فيه مظهر من مظاهر الجمال فإنا وإن تضاربت أذواقنا فيما نحسبه جميلا وما نحسبه قبيحا لا يمكننا التعامي عن أنّ في الحياة جمالا مطلقا لا يختلف فيه ذوقان .

رابعا : حاجتنا الى الموسيقى ففي الروح ميل عجيب إلى الأصوات والألحان لا ندرك كنهه فهي تهتزّ لقصف الرعد ولخرير الماء ولحفيف الأوراق لكنّها تنكمش من الأصوات المتنافرة وتأنس وتنبسط بما تآلف منها.

هذه بعض حاجاتنا الروحية إن لم تكن أهمّها وهي معنا في كلّ حين فهي وان تنوّعت في النّاس بتنوّع الأفراد والشعوب والأزمنة والأقطار لا تتنوّع بجوهرها. بل بدرجات شدّتها وقوّة شعورنا بها وهي المقاييس الثابتة التي يجب أن نقيس بها الأدب فتكون قيمته بمقدار ما يسدّ من بعض هذه الحاجات أو كلّها ويكون أثمنه أجلاه بيانا. وأغناه حقيقة وأطلاه رونقا وأشجاه وقعا.

إنّ لمفردات اللغة التي نصوغ منها منثوراتنا ومنظوماتنا صفات عجيبة وميزات غريبة فلكلّ كلمة معنى أو روح ولكلّ كلمة رنّة ولكلّ كلمة صبغة أولون والمجيد من الكتّاب والشعراء من اذا شاء الإفصاح عن عاطفة أو فكرة جمع بين مفردات يتولّد من ارتباط معانيها معنى جليّ ومن اندماج ألوانها صورة واضحة جميلة ومن تآلف رنّاتها

لحن رقيق شجي.

غير أنّ من الكتاب والشعراء من لا يرون من الألفاظ إلاّ معانيها، فهؤلاء قد يفصحون عن عاطفة أو فكرة وإنّما يجيء إفصاحهم عاريا من الجمال خاليا من الموسيقى. ومنهم من لا يرون من الألفاظ غير ألوانها، فهؤلاء قد يرسمون صورة طليّة لكنّها تأتي مجرّدة من الحياة ومنهم من لا يرون في الالفاظ سوى رنّاتها. فيؤلفون ألحانا رقيقة إنّما لا جمال فيها ولا بيان. فقيمة ما يكتبه هؤلاء تقاس بقدر ما يسدّه من هذه الحاجة أو تلك من حاجاتنا الروحية. لكن منهم من جمع الى دقّة الإفصاح جمال التركيب فآثار هؤلاء تقاس بحاجتين. ومنهم من ضمّ الى دقّة الإفصاح وجمال التركيب عذوبة الرنّة فآثار هؤلاء تقاس بثلاث حاجات ومنهم – وهم قليل – من جمع بين دقّة الإفصاح وجمال التركيب وعذوبة الوقع وحلاوة الحقيقة فقيمة ما يكتبه أو ينظمه هؤلاء لا تكاد تحدّ. من هذا النّوع مؤلّفات شكسبير فليس من كلّ ما ظهر في العالم حتّى اليوم من شعراء وكتبة من تمكّن من أنّ يجوب أقطار النفس البشرية كما حابها هذا الممثل الإنكليزي . ولا أن يفصح عنها ببلاغته ولا أن يزين بلاغته بالجمال الذي زانها به. ولا أن يودعها من الألحان ما أودعه شكسبير في أكثر أبياته ومقاطعه ولا أن يبطنها بالحقائق التي بطن بها هذا الجبّار مشاهد رواياته وفصولها لذلك لا يزال شكسبير كعبة نحجّ إليها وقبلة نصلّي عليها.

والآن لا بدّ لي من كلمة عن مقاييسنا العربية بنوع خاصّ. فبلاؤنا ليس بأن لا مقاييس عندنا بل أن ليس عندنا من يحسن استعمال هذه المقاييس وتطبيق الأدب عليها. فمن سوء طالعنا انّنا وكّلنا شؤوننا الأدبية الى جرائدنا ومجلاتنا في الغالب. وجرائدنا ومجلاتنا تقيس الأدب بعدد مشتركيها ومناصريها وأعمدتها وحقولها. ومن كان ذاك شأنه فحاجاته الروحية معدودة محدودة. فأنّى له أن يقيس حاجات أمّة أو أمم ؟ واذا قاسها فبحاجاته وحسب لذلك لنا في كلّ يوم شاعر "مطبوع" أو "عبقري" أو "نابغة" أو كاتب "نحرير" وقصيدته "عصماء" أو "درّة فريدة" إلى ما هنالك من

الألقاب والنعوت التي جرائدنا ومجلّاتنا المباركة أدرى بها مني فكثير من القصائد التي تزفّها إلينا الجرائد والمجلّات "دررا فريدة" لو قسناه بالمقاييس الأدبية الثابتة لوجدناه عاريا من كلّ شيء سوى الرنّة. وإن كان فيه جمال فلا عاطفة وإن كان فيه عاطفة فلا جمال ولا حقيقة . وإن كان فيه حقيقة فمبتذلة أو مشوّهة.

لست أدري، وربّ الكعبة، كيف تزهر آدابنا وتثمر ما دامت مقاييسها في أيدٍ لا تعرف من الأدب كوعه من بوعه ؟ لا ولا أعلم كيف وصلنا إلى هذا الحدّ من الهبوط وعندنا من الآثار الأدبية ما لو قيس بأدق المقاييس لكان راجحا. كيف يكون لنا أبو العلاء الذي جمع في كثير من قصائده ومقاطعه بين دقّة البيان وجمال التنسيق ورنّة الوقع وصحّة الفكر ولا نخجل من أن نلقّب "بالأمير" و"النابغة" و"العبقري" من ليس في شعرهم سوى الزركشة والرنّة ؟ فقد تطرب به حين تقرأه لكنّك تنساه في الحال وتلقيه من يدك وليس في قلبك وتر يتحرّك، ولا في رأسك فكر يُفكِّر. إنّ حاجتنا ليست إلى مقاييس أدبية ثابتة فهي وافرة لدينا إنّما الحاجة إلى من يحسنون استعمال هذه المقاييس لا سيما في دورنا الحالي لأنّه دور انتقال حاجتنا الى شعراء وكتاب يقيسون ما ينظمون ويكتبون بهذه المقاييس فيسيرون وتسير معهم آدابنا في الصراط القويم وإلى ناقدين ممحّصين يميّزون بين غثّ الأدب وسمينه فلا يحسبون الأصداف دررا ولا الحُبَاحِب كواكب.

« **الغربال** »

(2)

الـــدرة الشـــرقيـة

... قــرأت :

أنادي الرسم لو ملك الجــوابا وأجزيه بدمعِـي لو أثابـــا

ووقفت قليلا لأتأكد ممَّا إذا كنت أطالع قصيدة جاهلية أم عصريَّة. إذ تبادرت في الحـــال إلى ذهنِـي أبيات كثيرة فيها "أطلال" و "رسـوم" و "دمـــوع" . "لعبلة أطـــلال..." "قفانبك..." "عفت الديـــار...".

إذا وقف امرؤ القيس وبكى واستبكى "من ذكرى حبيب ومنزل" ففِي وقفته وفي ذكـــراه وفيما يلِـي من وصفه ما يبكِـي. فلا تكلّف في بكائه ولا تصنع. لكن ماذا الذي يبكيه أحمد شوقِي ؟ – عزّ الأندلس ؟ مجد العرب ؟ – لا شك أنّ في أشباح عروش ثلَّت، وفي رســوم مجدباد، وفي بقايـــا مدنيَّة درست ما يقبض على القلب ويعصره فيطلق دمع العين . لكن عينا لم تر تلك الأشباح والرسوم والبقايا لا تسكب عليها دمعا الاّ إذا تجسّمت تلك الخيالات أمامها في وصف راو أو رسم رسّام أو نحت نحّات أو حركـــات ممثّل وما الشاعر الاّ راو يقصّ في قالب جميل عن انفعالات نفسه وتموّجـــات عواطفه وآماله وتقلبـــات أفكاره في كلّ ما يسمعه ويراه ويشعر به وشوقِـي بعد أن صرف سنوات في الأندلس عاد إلى مصر ووقف يخبر أهلهـا بما شاهد ويقاسمهم عواطفه وتأثراته التي وَلدتها فيه تلك المشاهد لينقل إلى قلوبهم بعض الانفعالات التي تسرّبت إلى قلبه يوم كان واقفا بين تلك "الدمن البوالي".

فماذا قال لهم ؟

قام ينادي الرسم و"يجزيه بدمعه" ويقول إنّ العبرات "قلت لحقه" وإنّهنّ – يعني العبرات – "ستبقى مقبلات التراب" عنه وإنّه "نثر الدمع في الدمن البوالي" وبكلمة أخرى إنّه بكى. ولماذا؟

لو بقيت شهرا بل عاما أقول للنّاس : "يا ناس إنّي بكيت !" لما بكى معي أحد ولما رقّ لحالي مخلوق غير أنّي لو أدخلتهم قلبي وقد خيّم الحزن فيه وفتحت أمامهم أبواب نفسي وقد علقت في شراك اليأس لتبلّلت مع عيني عيون، ولا نقبضت مع قلبي قلوب ، ولكمدت مع نفسي نفوس وهذه هي مهمّة الشاعر. إن قصّر فيها فهو وزّان وليس بشاعر وكم هم الشعراء بيننا الذين يستعيضون عن وصف عاطفة بذكر نتيجتها الخارجية فإن حزنوا قالوا "بكينا" وإن فرحوا قالوا "ضحكنا" كأن لا سبيل لوصف الحزن الا بالدموع أو لوصف الفرح الا بالضحك ! فما أغزر الدموع في مآقينا وما أسخى مآقينا بسكب الدموع !

في "الدرّة الشوقية" أمثال كثيرة من هذا الوصف السطحي الذي لا يحرّك فكرا في رأس، ولا يرسم صورة في مخيّلة، ولا يهيج عاطفة في قلب غير أنّ فيها من الوصف الشعري ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم يكن ضائعا بين أبيات جاءت حشوا فبان كضمة من الزّهر في حقل من العوسج.

فمن ذاك الوصف تعبيره عن شوقه الى مصر وحبه لها حيث يقول :

ويا وطني لقيتك بعد يأس ... كأنّي قد لقيت بك الشبابا
ولواني دعيت لكنت ديني ... عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهي ... إذا فهت الشهادة والمتابا

ومن الحشو قوله بعد البيت الأول من هذه الفقرة :

وكلّ مسافر سيعود يوما ... إذا رزق السلامة والايابا

فلا فرق عندي بين هذا البيت وبين قول القائل :

الليل ليل والنّهار نهار ... والأرض فيها الماء والأشجار

ومن الحشو قوله كذلك بعد الأبيات الثلاثة السابقة :

وقد سبقت ركائبيَ القوافي مقلّدة أزمتها طرابا
تجوب الدهر نحوك لا الفيافي وتقتحم الليالي لا العبابا
وتهديك الثناء الحرّ تاجا على تاجيك مؤتلقا عجابا

فماذا يؤهل هذه الأبيات لأن تدعى شعرا ؟ اذ لا رسم فيها جديدا ولا فكر مبتكرا ولا عاطفة حيّة تزيد على العاطفة التي وصفها في الأبيات السابقة بل جلّ ما يقال فيها انّها لو قام الخليل من قبره وعرضت عليه لقال إنّها محكمة النظم وإنّها من البحر "الوافر".

ومن وصفه الشعري أيضا قوله حيث يشكر للأندلس أنّه في مدة إقامته فيها تخلّص من وجوه الممالئين والأغبياء المدعين :

فأنت ارحتني من كلّ أنف كأنف الميت في النزع انتصابا
ومنظر كلّ خوّان يراني بوجه كالبغي رمى النقابا

ومن الحشو قوله بعد هذين البيتين :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

فعلام هذا الانتقال المفاجيء الغريب من نقد عنيف مرّ إلى "حكمة" مبتذلة لا حكمة فيها ؟ أما كان الأَحرى به أن يتمّم صورة حالة قومه الاجتماعية حتى اذا تجلّت أمام أعين سامعيه بكلّ خطوطها وألوانها قالوا من تلقاء أنفسهم : "لا والله . فلا يعمر أبدا بنياننا ما دامت أخلاقنا خرابا"

لئن غفرنا للشاعر أبياتا ما حشا بها القصيدة إلاّ لزيادة العدد فلن نغفر له تناقضا فاحشا في المعاني. فو الله لنعجب من أمر شاعر يشكر الغربة لأنّها أراحته من "كل أنف كأنف الميت في النزع انتصابا" ومن منظر "كلّ خوّان" يراه "بوجه كالبغيّ رمى النقايا" وينذر قومه بأنّ بنيانهم لا يقوم "إذا أخلاقهم كانت خرابا" ثمّ يعود بعد لحظة يخاطب وطنه وأولئك القوم أنفسهم بهذه اللهجة :

وحيّا الله فتيانا سماحا كَسَوْا عطْفَيّ من فخر ثيابا
ملائكة إذا حفّوك يوما أحبّك كلّ من تلقى وهابا
وان حملتك أيديهم بحورا بلغت على أكفّهمُ السحابا

تلقـونـي بكـلّ أغـــــرّ زاه كـأنّ عـلى أسـرّتـه شهـابـــا
تـرى الإيمـــان مـؤتلقـا عـليـــه ونـــور العلـم والكرم اللبـابـا
وتلمـح من وضـاءة صفحتيـه محيا مصـر رائعـــة كعـابا

فبلد فتيانه ملائكة إذا "حفُّوه يوما" أحبَّه وهابه كلّ قادم إليه وان حملته "أيديهم بحورا" بلغ السحابا، وبلد ترى على أوجه فتيانه شهبا وترى الايمان "مؤتلقا عليها ونـور العلم والكرم اللبابا" لبلد سعيد ، وأهله لقوم مهما جاز أن يقال فيهم فلا يصحّ أن يقال إنّ "أخلاقهم خراب" أم هي "الدرر" لا تكون كاملة ما لم يتخللّها قليل من النقد وقليل من الإطراء وقليل من الفخر وقليل من الحكم سـواء تآلفت معانيها أم تنافـرت ؟ بل هو الموقف فلا يجب أن ننسى أنّ القصيدة "نظمت لاحتفال أقيم في دار الاوبرا السلطانية غرضه إنشاء جمعيّة تعاون لمساعـدة الفقـراء". وكيف يمكن شاعرا أن يتلو قصيدة في اجتماع تلك غايته بدون أن يندّد ولو قليلا بالأغنياء والتجار ويحنّن القلوب على الفقير والجائع والبائس ؟ وكيف يمكن شاعرا استهلّ قصيدته بمناداة الرسـوم ونثر العبرات بين "الدمن البوالي" ان يتخلّص من خرابات الاندلس الى غلاء المعيشة الى شقاء الفقير الا اذا غالى في إطراء سامعيه فوصفهم بالملائكة وحينئذ صاح فيهم :

شبابَ النيل إنّ لكم لصوتـا يُلبّـى حين يرفع مستجابـــا
فهزّوا العـرش بالدعـــوات حتى يخفّف عن كنانته العـذابـــا
أمن حرب البسوس إلى غـــلاء يكاد يعيدها سبغا صعابـــا ؟

هذا ما يدعونه "حسن التخلّص" لكن شاعرنا ما بلغ بنا هذا الحدّ الا بعد أن دار بنا ألف دورة لولبية أنستنا أول الطريق ونصفها مع ذلك فقد سرنا معه حتّى الآن فلنسر معه حتّى النهاية.

بعد أن تخلّص الشاعر الى الغلاء والضنك وقف يعاتب ربّه على ما أنـزل بمصر : "انيلا سُقْتَ فيهم أم سرابا ؟ " ثمّ يضرع إليه

حنانـك واهـد للمثـلى تجـــارا بها ملكوا المرافق والرقـابا
ورقّق للفقير بهـا قلـــوبـا محجرة وأكبادا صلابـــا

ومتى انقلب الشاعر فجأة من نائح يبكي "الدّمن البوالي" الى ناقد يسخر بادعاء قومه وجهلهم إلى مغرم يتغزل بحبّ وطنه إلى مادح يرى في قومه ملائكة يتلألأ على وجوههم نور العلم والإيمان والكرم إلى شيخ أو قسيس يعاتب ربه ويسترحمه إلى اقتصادي يبحث في غلاء أسعار المعيشة وأسبابه إلى عالم اجتماعي يناضل عن الفقير الى فيلسوف لا يرى "مثل سوق الخير كسبا ولا كتجارة السُّوء اكتسابا"، وأخيرا إلى لا هوتي يفسِّر لنا غاية الله من إرساله الأنبياء على الأرض :

ولولا البرّ لم يبعث رسول ولم يحمل إلى قوم كتّابا

متى تقلّب الشاعر هذا التقلّب السريع بين مطلع القصيدة وختامها ولم يترك في النفس سوى رنّة القافية المتتابعة حار في أمره الناقد وسدت في وجهه السبل. فلا حول ولا ؟

قال دعبل :

إنّي إذا قلت بيتا مات قائله ومن يقال له ذا البيت لم يمت

ولعمري سواء أصدق دعبل بقوله هذا القول في شعره أم كذب ففي البيت أفضل مقياس للفصل بين جميل الشعر ورديئه وبين غثّه وسمينه فالشعر الذي يحقّ أن ندعوه شعرا لا يموت ما دام في الأرض بشر تتحرّك في قلوبهم عواطف وتجول في رؤوسهم أفكار فهل قصيدة شوقي شيء من هذا النوع في الشعر ؟ ودرر الشعر لا تحلّ بها الغِيَرُ ولا يسلبها الزمان رونقها فهل درّة شوقي من هذه الدرر ؟ أم ما هي إلاّ صدفة برّاقة ؟

إنّني أترك الجواب للقراء.

« **الغربال** »

إيليا أبو ماضي

أنـــــا

حرّ، ومذهب كلّ حرّ مذهبي ... ما كنت بالغاوي ولا المتعصّب
إنّي لأغضب للكريم بنوشه ... مَن دونه، وألوم من لم يغضب
وأحبّ كلّ مهذّب ولو انّه ... خصمي، وأرحم كلّ غير مهذّب
يأبى فؤادي أن يميل إلى الأذى ... حب الأذيّة من طباع العقرب
لي أن أردّ مساءة بمساءة ... لو أنّني أرضى ببرق خلّب
حسب المسيء شعوره ومقاله ... في سرّه : يا ليتني لم أذنب!

* * *

أنا لا تغشني الطيالس والحلي ... كم في الطيالس من سقيم أجرب
عيناك من أثوابه في جنّة ... ويداك من أخلاقه في سبسب
وإذا بصرت به بصرت بأشمط ... وإذا تحدّثه تكشف عن صبي
إنّي إذا نزل البلاء بصاحبي ... دافعت عنه بنا جذي وبمخلبي
وشددت ساعده الضعيف بساعدي ... وسترت منكبه العري بمنكبي
وأرى مساوئه كأنّي لا أرى ... وأرى محاسنه وإن لم تكتب
وألوم نفسي قبله إن أخطأت ... وإذا أساء إليّ لم أتعتّب
متقرّب من صاحبي فإذا مشت ... في عطفه الغلواء لم أتقرّب
أنا من ضميري ساكن في معقل ... أنا من خلالي سائر في موكب
فإذا رآني ذو الغباوة دونه ... فكما يرى في الماء ظلّ الكوكب

الطلاسم

جئت لا أعلم من أين ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرت قدّامي طريقا فمشيتُ
وسأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقيْ ؟
لست أدري

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود ؟
هل أنا حرّ طليق أم أسيرٌ في قيود ؟
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود ؟
أتمنّى أنّني أدري ولكن ...
لست أدري

وطريقي ما طريقي ؟ أطويل أم قصير ؟
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور ؟
أ أنا السّائر في الدّرب أم الدرب يَسير؟
أم كلانا واقف والدهر يجري ؟ ...
لست أدري

ليت شعري وأنا في عالم الغيب الأمين
أتراني كنت أدري أنّني فيه دفين

وبأنّي سوف أبدو وبأنّي سأكون
أم ترانِي كنت لا أدرك شيئا ؟ ...
لست أدري

أتزانِي قبلما أصبحت إنسانا سويًّا
كنت محوا أومحالا أم ترانِي كنت شيًّا
ألهذا اللغز حلّ ؟ أم سيبقى أبديًّا ؟
لست أدري... ولماذا لست أدري ؟
لست أدري

« الشعر العربى فى المهجر »
محمد عبد الغنى حسن

صـــراع وعـــراك

إنَّنِـي أشهـد فِـي نفسِـي صـــراعـا وعـراكـا
وأرى ذاتِـي شيطـانـا وأحيانـــا مـــلاكـــا
هـل أنـا شخصـان يأبى ذاك مع هـــذا اشتراكـا
أم تـرانِـي واهمـا فيمـا أراه ؟

لســـت أدري

.....

أيـن ضحكـي وبكـائِـي وأنـا طفـــل صغيـــر
أيـن جهـلِـي ومـــراحـي وأنـا غضّ غـــريـــر
أيـن أحـــلامـي وكـانت كيفمـا ســـرت تسيـــر
كلُّها ضاعت ولكن كيف ضاعت ؟

لســـت أدري

لـي إيمـــان ولكن لا كـإيمـانِـي ونسـكـــي
إنَّنِـي أبكِـي ولكن لا كمـا قـد كنـت أبكِـي
وأنـا أضحـك أحيانـا ولـكن أيّ ضـحـــــك!
ليت شعري ما الذي بدّل أمري ؟

لســـت أدري

كلّ يوم لي شأن كلّ حين لي شعور
هل أنا اليوم أنا منذ ليال وشهور
أم أنا عند غروب الشمس غيري في البكور
كلّما ساءلت نفسي جاوبتني :

لست أدري

ربّ أمر كنت لمّا كان عندي أتّقيه
بتّ لمّا غاب عنّي وتوارى أشتهيه
ما الذّي حبّبه عندي وما بغّضنيه
أ أنا الشخص الذي أعرض عنه ؟

لست أدري

.....

ربّ قبح عند زيد هو حسن عند بكر
فهما ضدّان فيه وهو وهم عند عمرو
فمن الصّادق فيما يدّعيه ليت شعري
ولماذا ليس للحسن قياس ؟

لست أدري

قد رأيت الحسن ينسى مثلما تنسى العيوب
وطلوع الشمس يرجى مثلما يرجى الغروب

ورأيت الشرّ مثل الخير يمضي ويؤوب
فلماذا أحسب الشرّ دخيلا ؟

لست أدري

.....

إنّني جئت وأمضي ، وأنا لا أعلم
أنا لغز ، وذهابي كمجيء طلسم
والذي أوجد هذا اللغز لغز مبهم
لا تجادل...ذو الحجى من قال أنّي :
لست أدري

« الجداول »

بيـن المـقـــابـر

ولقد قلت لنفسي وأنا بيـــن المقـــابـــر :
هـل رأيـت الأمـن والـــراحـة إلاّ في الحفائر؟
فـأشـــارت فإذا للـدّدود عيث فـي المحـــاجـر
ثـمّ قـالـــت :أيُّهـا السائـل إنّـي

لســـت أدري

انظـري كيف تســـاوى الكلّ في هـــذا المكان
وتـلاشى في بقايـا العبـد ربّ الصـــولـجـــان
والتقـى العـاشـق والقـالـي فمـا يفتـــرقـــان
أفـهاذا منتهى العـدل ؟ فقـالـت :

لســـت أدري

إن يـك الْمـــوت قصاصـا أيّ ذنـب للطهـــارة
وإذا كان ثوابـا أيّ فضـل للـدّعـــــارة
وإذا كـان ومـا فيـه جـــزاء وخـســـــارة
فـلـم الأسمـــاء إثـم وصـــلاح ؟

لســـت أدري

أيُّها القبر تكلَّم واخبرينِي يا رمام !
هل طوى أحلامك الموت وهل مأت الغرام
من هو المائت من عام ومن مليون عام
أيصير الوقت في الأرماس محوا ؟
لست أدري

إن يك الموت رقادا بعده صحو طويل
فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل
ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرحيل
ومتى ينكشف الستر فيدري ؟
لست أدري

إن يك الموت هجوعا يملأ النفس سلاما
وانعتاقا لا اعتقالا ، وابتداء لا ختاما
فلماذا أعشق النوم ولا أهوى الحماما
ولماذا تجزع الأرواح منه ؟
لست أدري

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور
فحياة فخلود أم فناء فدثور
أكلام النَّاس صدق أم كلام النَّاس زور
أصحيح أنّ بعض النَّاس يدري ؟
لست أدري

إن أكن أبعث بعد الموت جثمانا وعقلا
أترى أبعث بعضا أم ترى أبعث كلاّ
أترى أبعث طفلا أم ترى أبعث كهلا
ثمّ هل أعرف بعد البعث ذاتي ؟
لست أدري

يا صديقِي لا تعلِّلنِي بتمزيق الستور
بعد ما أقضى فعقلي لا يبالي بالقشور
إن أكن في حالة الإدراك لا أدري مصيري
كيف أدري بعدما أفقد رشدي ؟
لست أدري

« الجداول »

الأســـــرار

يا ليتني لصٌّ لأسرق في الضُّحى
سرّ اللطافة في النسيم الساري
وأجسُّ مؤتلق الجمال باصبعي في زرقة الأفق الجميل العاري
ويبين لي كنه المهابة في الرّبى والسرّ في جذل الغدير الجاري
والسِّحر في الألوان والأنغام والـ أندماء والأشذاء والأزهـــار
وبشاشة المرج الخصيب ووحشة الوادي الكئيب وصولة التيّار
وإذا الدّجى أرخى عليّ سدولـه أدركت ما في اللّيل من أسرار
فلكم نظرت إلى الجمال فخلته
أدنى الى بصري من الأشفار
طالبته فإذا المغالق دونه
وإذا هنالك ألف ألف ستار
باد ويعجز خاطري إدراكه وا فتنتي بالظاهر المتواري!

« الجداول »

الـــزمـــان

يمشي الزمان بمن ترقّب حاجة ... متثاقلا كالخائف المتردّد
حتى ليحسبه أسيرا موثقا ... ويراه أبطأ من كسيح مقعد
ويخال حاجته التي يصبولها ... في دارة الجوزاء أو في الفرقد
ويكون ما يرجّوه زورة صاحب ... ويكون أبعد ما يرجّى في غد

* * *

فإذا تولّى النفس خوف في الضحى ... من واقب تحت الدُّجى أو معتدي
طارت بها خيل الزمان ونوقه ... نحو الزمان المدلهمّ الأسود
فكأنّها محمولة في بارق ... أو عارض أو عاصف في فدفد
ويكون أقصر ما يكون إذا الفتى ... مدّت له الدنيا يد المتودّد
فتوسط اللّذّات غير منفّر ... وتوسّد الأحلام غير منكّد
فإذا لذيذ العيش نغبة طائر ... وإذا طويل الدهر خطرة مرود

* * *

وإذا الفتى لبس الأسى ومشى به ... فكأنّما قد قال للزّمن اقعد
فإذا الثّواني أشهر، واذا الدقا ... ئق أعصر، والحزن شيء سر مدي
وإذا صباح أخي الأسى أو ليله ... متجدّد مع همّه المتجدّد
قهر الورى وأذلهم إن الورى ... متعلّل أو طامع أو مجتد
جعلوا رغائبهم قياس زمانهم ... والدهر أكبر أن يقاس بمقصد
وقتلت في نفسي الرغائب والمنى ... فقهرته بتجرُّدي وتزهُّدي
يشكو الذي يشكو السهاد جفونه ... لو لم يكن ذا ناظر لم يسهد

إن كان شيبي للنفـــاد أعـــدُّه ... فيما انقضى ومضى وإن لم ينفد
ما ان رأيت الكحل في حدق المها ... إلا لمحت الدود خلف الإثمد
من ليس يضحك والصبـاح مورّد ... لم يكتئب والصبح غير مورد
سيّان أحلام أراها في الكرى ... عندي وأشياء بها اشتملت يدي
أنا في الزمان كموجة في زاخر ... أنا فيه إنْ يزبد وإن لم يزبد
مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي ... أو مخرجي منه ، ولا بمبددي
هيهات ما أرجو ولا أخشى غدا ... هل أرتجي وأخاف ما لم يوجد ؟
والأمس فِيّ فكيف أحسبه انتهى ... أفما رأيت الأصل في الفرع الندي
قبل كبعد حالة وهميَّـــــة ... أمسِي أنا، يومي أنا، وأنا غدي

« الجـداول »

زهـــرة أقحـــوان

كان في صدري سرّ كـامن كالأ قحوان
أتوقّاه وأخشى أن يـراه مَن يـرانـي
وإذا لاح أمامي عقـل الذعـر لسـاني
فكأنّي عند بَحْرٍ هائج أو بـركـان
لم أخفه غير أنّي خفت أبنـاء الـزمان
ولكم فان نظيري خاف قبلي بطش فـان

* * *

لم يسع سرّي فؤادي لم تسع نفسِي المغاني
فقصدت الغاب وحدي والدجى ملقي الجران
ودفنت السِّرّ فيه مثلمـا يدفـن جـان
ورأى الليل قتيلي فبكـاه وبكـانـي
إنّ للّيـل دمـوعـا لا تراهـا مقلتـان

* * *

كنت حتى مع ضميري أمس في حرب عـوان
فانقضى عهد التجا فيّ وأتى عهد التدانـي
خدرت روحي فأمسى شأن جلّ الخلق شأني
لا أرى في الخمـر معنى ولكم فيها معـان
فكأنّـي آلة العاصـر أو إحدى الأوانـي
لم يعد قلبِي كالبرق شديـد الخفقـان

لم تعد نفسي كالنجمة ذات اللمعـــان
بتّ لا أبكي لمظلـوم ولا حرّ مهـــان
لا ولا أحفل بالبـاكي ولو ذا صـولجان
صرت كالصَّخر سـواء هـادم عندي وبان

* * *

يا لآمالي العـوالي ! يا لأحلامي الحسان!
طوت الغابة سرّي فانطوت معـه الأماني
ضاع لمّا ضـاع شيء من كياني بل كياني

* * *

في صباح مستطير كصبـاح المهـرجـان
لهـت فيه الرّوابي حلّـة من أرجـوان
وتبدّى الغاب من أوراقه في طيلسـان
ساقني روح خفيٌّ نحـو ذيّاك المكـان
فإذا بالسرّ أضحى زهـرة مـن أقحـوان

« **الجـداول** »

من اشتهى الخمر فليزرع دواليها

خذ ما استطعت من الدنيا وأهليها ... لكن تعلّم قليلا كيف تعطيها
كن وردة طيبها حتّى لسارقها ... لا دمنة خبثها حتّى لساقيها
أكان في الكون نور تستضيء به ... لو السماء طوت عنّا دراريها
أو كان في الأرض أزهار لها أرج ... لو كانت الأرض لا تبدي أقاحيها
إن الطّيُور الدّمى سيّان في نظري ... والورق إن حبست هذي أغانيها
إن كانت النفس لا تبدو محاسنها ... في اليسر صار غناها من مخازيها

* * *

يا عابد المال قل لي هَلْ وجدت به ... روحا تؤاسيك أو روحا تؤاسيها
حتّام يا صاح تخفيه وتطمره ... كأنما هو سوءات تواريها؟
وتحرم النفس لذّات لها خلقت ... ولم تصاحبك يا هذا لتؤذيها
أنظر إلى الماء إن البذل شيمته ... يأتي الحقول فيرويها ويحييها
فما تعكر الاّ وهو منحبس ... والنفس كالماء تحكيه ويحكيها
السجن للماء يؤذيه ويفسده ... والسجن للنفس يؤذيها ويضنيها
وانظر إلى النّار إنّ الفتك عادتها ... لكنّ عادتها الشنعاء ترديها
تفني القرى والمغاني وهي ضاحكة ... لجهلها أنّ ما تفنيه يفنيها
أرسلت قولي تمثيلاً وتشبيهاً ... لعلّ في القول تذكيراً وتنبيها
لا شيء يُدرك في الدنيا بلا تعبٍ ... من اشتهى الخمر فليزرع دواليها

عن كتاب « شعراؤنا »

كـــن بلسمـــا

كـن بلسمـا إن صـــار دهـرك أرقما ... وحلاوة إن صار غيرك علقمـا
إن الحياة حبتـك كـلّ كنـــوزهـــا ... لا تبخلنّ على الحيـاة ببعض ما
أحسنْ وإن لم تُجْزَ حتّى بالثّنا ... أيّ الجزاء الغيث يبغي إن همـى؟
من ذا يكافيء زهـــرة فـــوّاحـــة ... أو من يثيب البلبـل المترنّـما؟
عُـدّ الكرام المحسنيـن وقســهم ... بهمـا تجد هـذيـن منهـم أكرمـا
يـا صاح خـذ علم المحبّـة عنهمـا ... إنّـي وجدت الحُبّ علمـا قيّما
لـو لم تفـح هذي، وهـذا مـا شـــدا ... عاشت مـذمّـمـة وعاش مـذمّما
أيقـظ شعـورك بالمحبّـة إن غفـا ... لـولا شعـــور النّـاس كانوا كالدُّمى
أحبب فيغـدو الكوخ كـوخـا نيّـــرا ... وابغض فيمسـي الكون سجنا مظلما
ما الكأس، لولا الخمـر، غير جاجـة ... والمرء، لولا الحبّ، الا أعـظـمـا
كـرِهَ الـدجى فاســودّ الاّ شهبه ... بقيت لتضحـك منه كيف تجهّـما
لو تعشـق البيداء أصبح رمـلهـــا ... زهـرا وصـار سـرابهـا الخدّاع ما
لو لم يكن في الأرض الاّ مبغـض ... لتبـــرّمـت بوجـوده وتبـــــرّمـا
لا تطلبـنّ محبّـة مـن جـــاهـــل ... المـرء ليس يحبّ حتّـى يفهمـا
وارفـق بأبنـاء الغبـاء كـأنّـهـــم ... مـرضى فإنّ الجهـل شيء كالعمى
وَالْـهُ بورد الـروض عن أشواكه ... وانـس العقـارب إن رأيـت الأنجمـا

« الشعر العربى فى المهجر »

محمد عبد الغنى حسن

السمـــــاء

لا تسلني عن السماء فما عندي
إلاّ النعوت والأسمـــــاء
هي شيء وبعض شيء وحينا كلّ شيء وعند قوم هبـــاء

* * *

فسماء الراعي كما يتمنّاها مروج فسيحة خضـــــراء
تلبس التبر مئزرا ووشاحا كلّما أشرقت وغابت ذكاء
أبدا في نضارة لا يجفّ العشب فيها، ولا يغيض المـــاء

* * *

وهي عند الام التي اخترم الموت بنيها، وضل عنها العـــزاء
موضع لا ينالهم فيه ضيـــم لا ولا يدرك الشباب الفنـاء
وكذا يولد الرجاء من اليأس إذا مات في القلوب الرجاء

* * *

وهي عند الفقير أرض وراء الأفق، فيها ما يشتهي الفقـــراء
لا يخاف المشري ، ولا كلبه الضاري، ولا لامرىء به استهـــزاء
وهي عند المظلوم أرض لهذي الأرض لكن قد شاع فيها الإخاء

* * *

يجمع العدل أهلها في نظـــام
مثلما يجمع الخيوط الـرداء
لا ضعيف مستعبد لا قـــوي مستبدّ بل كلّهم أكفـــاء
كلّ شيء للكلّ ملك حـــلال كلّ شيء فيها كما الكلّ شاءوا

وهي عند الخليع أرض تميس ... الحور فيها وتدفق الصهباء
كلّ ما النفس تشتهيه مباح ... لا صدود لا جفوة لا إباء
أكبر الإثم قولة المرء هذا ... الأمر أثم ، وهذه فحشاء
ليس بين الصلاح والشرّ حدّ ... كالذي شاء وضعه الأنبياء
وإذا لم يكن عفاف وفسق ... لم تكن حشمة ولا استحياء

* * *

كلّ قلب له السماء الذي يهوى ... وإن شئت كلّ قلب سماء
صور في نفوسنا كائنات ... ترتديها الأفعال والأشياء
رب شيء كالجوهر الفرد فذّ ... عدّدته الأغراض والأهواء
كلّ ما تقصر المدارك عنه ... كائن مثلما الظنون تشاء

« **الجداول** »

عطش الأرواح

زحزحت عن صدرها الغيم السماءْ وأطلّ النور من كهف الشتاء
فالرّوابي حلل من سندس والسّواقي ثرثرات وغناءْ
رجع الصيف ابتساما وشذى فمتى يرجع للدنيا الصّفاء ؟
فأرى الفردوس في كلّ حمى وأرى النّاس جميعا سعداء
زالت الحرب وولّت إنّما ليس للذّعر من الحرب انقضاء
إن صحونا فأحاديث الوغى
في الحمى الآهل والأرض العراء
وإذا نمنا تراءت في الكرى صور الهول وأشباح الفناء
نتّقي في يومنا شرّ غد وإذا الصبح انطوى خفنا المساء
عجبا ! والحرب باب للرّدى وطريق الدمار وعفاء
كيف يهواها بنو النّاس ؟ فهل كرهوا في هذه الدنيا البقاء؟
إن يكن علم الورى يشقيهم يا إلهي ردّ للنّاس الغباء!
وليجيء طوفان نوح قبلما تغرق الأرض بطوفان الدّماء
واعصم الأسرار واحجب كنهها
عن ذوي العلم وأرباب الذكاء
فلقد أكثرتَ أسباب الأذى عندما أكثرتَ فينا العلماء
كم وجدنا آفة مهلكة كلّما زحزحتَ عن سرّ غطاء
قد ترقّى الخلق لكن لم تزل شرعة الغابة شرع الأقوياء
حرّم القتل ولكن عندهم أهون الأشياء قتل الضعفاء

لا تقل لي هكذا الله قضى ... أنت لا تعرف أسرار القضاء
جاءني بالماء أروي ظمأي ... صاحب لي من صِحَابِي الأوفياء
يا صديقي جَنِّبِ الماء فمي ... عطش الأرواح لا يروى بماء
أنا لا أشتاق كاسات الطلا ... لا ولا أطلب مجدا أو ثراء
إنّما شوقي إلى دنيا رضى ... وإلى عصر سلام وإخاء
لا تعدني بالسما يا صاحبي ... السما عندَ قرب الأصدقاء
وأراني الآن في أكنافهم ... فأنا الآن كأنّي في السماء

ديوان « تبر وتراب »

متى يذكر الوطن النوم

جلست وقد هجع الغافلون ... أفكّر في أمسنا والغد
وكيف استبدّ بنا الظالمون ... وجاروا على الشيخ والأمرد
فخلت اللواعج بين الجفون ... وأنّ جهنَّم في مرقدي
وضاق الفؤاد بما يكتم ... فأرسلت العين مدرارها

* * *

ذكرت الحروب وويلاتها ... وما صنع السيف والمدفع
وكيف تجور على ذاتها ... شعوب لها الرتبة الأرفع
وتخضب بالدّم راياتها ... وكانت تذمّ الذي تصنع
فباتت بما شيدت تهدم
صروح العلوم وأسوارها

* * *

نساء تجود بأولادها ... على الموت والموت لا يرحم
وجند تذود بأكبادها ... عن الأرض والأرض لا تعلم
وتغذو الطيور بأجسادها ... فإن عطشت فالشراب الدَّم
وفي كلّ منزلة مأتم
تشقّ به الغيد أزرارها

* * *

لقد شبع الذئب والأجدل ... وأقفرت الدور والأربع
فكم يقتل الجحفل الجحفل ... ويفتك بالأروع الأروع
ولن يرجع القتل من قتلوا ... ولن يستعيدوا الذي ضيّعوا

فبئس الألى بالوغى علموا
وبئس الألى أججوا نارها

* * *

أمن أجل أن يسلم الواحد تطلّ الدماء وتفنى الألوف
ويزرع أولاده الوالد لتحصدهم شفرات السيوف
أمور يحاربُها الناقد وتدمي فؤاد اللبيب الحصيف
فيا ليت شعري متى نفهم
معاني الحياة وأسرارها ؟

* * *

وحولت طرفي إلى المشرق فلم أر غير جبال الغيوم
تحول على بدره المشرق كما اجتمعت حول نفسي الغموم
فأسندت رأسي إلى مرفقي وقلت وقد غلبتني الهموم
بربّك أيّتها الأنجم
متى تضع الحرب أوزارها ؟

* * *

كما يقتل الطير في الجنّة ويقتنص الظبي في السبسب
كذلك يجني على أمّتي بلا سبب وبلا موجب
فحتّام تؤخذ بالقوّة ويقتصّ منها ولم تذنب
وكم تستكين وتستسلم
وقد بلغ السيل زنارها

* * *

وسيقت إلى النطع سوق النعم مغاويرها ورجال الأدب
وكلّ أمرىء لم يمت بالخذم فقد قتلوه بسيف السغب

فما حرّك الضيم فيها الشهم ولا رؤية الدم فيها الغضب
تبدّلت النّاس والأنجم
ولما تبدل أطوارها

* * *

أرى الليث يدفع عن غيضته بأنيابه وبأظفاره
ويجتمع النمل في قريته إذا خشي الغدر من جاره
ويخشى الهزار على وكنته فيدفع عنها بمنقاره
فلا الكاسرات ولا الضيغم
ولا الشاة تمدح جزّارها

* * *

عجبت من الضاحك اللّاعب وأهلوه بين القنا والسيوف
يبيتون في وجل ناصب فإن أصبحوا لجأوا للكهوف
وممّن يصفّق للضارب وأحبابه يجرعون الحتوف
متى يذكر الوطن النُّوم
كما تذكر الطير أوكارها

عن « بلاغة العرب فى القرن العشرين »

روعـــة العيـــد

يا شاعر الحسن هذي روعة العيـــد ... فاستنجـد الوحي واهتـف بالأناشيد

هذا النعيم الذي قد كنـت تنشـــده ... لا تلـه عنـه بشيء عيـر مـوجـــود

محاسن الصيف في سهل وفي جبـل ... ونشوة الصيف حتّى في الجلاميد

ولست تبصـر وجهـا غيـر مؤتلـق ... ولست تسمـع الاّ صـــوت غـرّيـد

قم حـدّث النّـاس عن لبنان كيف نجا ... من الطغاة العتاة البيض والســـود

وكيف هشّت دمشـق بعد محنتـهـا ... واسترجعت كـلّ مسلوب ومفقود

* * *

فاليـوم لا أجنبـيّ يستبـــدُّ بنـــا ... ويستخـفّ بنا استخفاف عربيـــد

يا أرز صفّـق، ويـا أبناءه ابتهجـــوا ... قد أصبح السِّـرب في أمن من السيِّد

* * *

مَا بلبلٌ كان مسجوناً فأطْلَقه ... سَجّانُهُ ، بعد تعذيبٍ وتنكيدِ

فـراح يطـوي الفضاء الرّحب منطلقـا ... إلى الرّبى والسواقي والأمـــاليـد

إلى المـــروج يصلّـي فـي مسارحها ... إلى الكـروم يغنّـي للعنـاقيـــــد

منّي بأسعـد نفسـا إذْ نـزلت عـــلى ... قومي الصناديد أبنـاء الصنـاديـــــد

سمـاء لبنـان بشـرٌ في مـلامحـهـم ... وفجـره في ثغـور الخرّد الغيـــد

إن تسكنـوا الـــطـود صار الطود قبلتنا ... أو تهبطوا البيد لم نعشق سوى البيد

ديوان « تبـر وتـراب »

فلسطيـــــن

ديـار الســلام وأرض الـهــنـــا
يشقّ عـلى الكلّ أن تحــزنـــا

فخـطـب فلسطيـن خطب العــلـى وما كـان رزء العـلى هيّـنـــا
سهـرنـا لـه فكـأنّ السُّـيـــوف تحزّ بأكبادنـا هـهـنـــــا
وكيف يـزور الكـرى أعيـنـا تـرى حولها للـرّدى أعينـا ؟
وكيف تطيب الحيـاة لـقـــوم تسـدّ عليـهم دروب المنـى ؟
بـلادهـم عـرضـة للـضيـــاع وأمتـهم عــرضـة للـفـنـــا
يـريـد اليهـود بأن يسلبـوهـا وتأبى فلسطيـن أن تـذعـنـا
وتأبى المـروءة في أهلـهـــا وتأبى السُّيُوف وتأبى القنـا
أ أرض الخيـال وآيـاتـــــه وذات الجـلال وذات السَّنـــاء
تصيـر لغوغـائـهم مسـرحـا وتغـدو لشـذّاذهـم مكمنـا؟

* * *

بنفسـي "أردنـهـا" السَّلسـبيـل
ومن جـاوروا ذلـك الأردنـا
لقـد دافعـوا أمس دون الحـمـى فكانت حـروبـهم حربنـــا
وجـادوا بكلّ الـذي عـنـدهـــم ونحـن سنبـذل مـا عـنـدنـا
فـقـل لليهـود وأشيـاعـهـــم : لـقـد خـدعتكم بروق المنـى
فليسـت فـلسطيـن عَرْضـا مشاعـــا
فتعطـى لمن شـاء أن يسكـنا !

فإن تطلبوها بسمر القنا ... نردّكم بطوال القنا
ففي العربي صفات الأنام ... سوى أن يخاف وأن يجبنا
وان تحجلوا بيننا بالخداع ... فلن تخدعوا رجلا مؤمنا
وإن تهجروها فذلك أولى ... فإن فلسطين ملك لنا
وكانت لا جدادنا قبلنا ... وتبقى لأحفادنا بعدنا
وإنّ لكم بسواها غنى ... وليس لنا بسواها غنى
فلا تحسبوها لكم موطنا ... فلم تك يوما لكم موطنا
وليس الذي نبتغيه محالا ... وليس الذي رمتم ممكنا
فانّا سنجعل من أرضها ... لنا وطنا ولكم مدفنا

ديوان « الخمائل »

الغـــد لنـــا

تبدّل قلبـي من ضلالته رشـــــدا
فـلا أربٌ فيه لهنـد ولا سعـــدى

ولم تخب نار الوجد فيه ولا انطوت ولـكن هيامي صَارَ بالأنفع الأجدى
وما الزهـد في شيء سوى حبّ غيره أشد الورى نسكاً أشدهـمُ وجـدا
أحبَّ سواي العيش لهوا وراحـــة وأنكرته لهواً فأحببته كـــدّا
وما دام في الدنيا سموّ ورفعـــة فما أنـا من يرضى ويقنع بالأردى

* * *

هـو الموت أن نحيا شياها وديعـة
وقد صار كلّ النَّاس من حولنا أسدا

وأن نكتفي بالأرض نسرح فوقها وقد ملكوا من فوقنا البرق والرعدا
وأن ينشروا في كلّ أفق بنودهم وأن لا نـرى فوق السماك لنا بندا

* * *

تأمّلت ماضينا المجيد الذي انقضى
فزلزل نفسي أنَّه أنهار وانهـدّا

وكيف امَّحت تلك الحضارات كلُّها وصارت بلاد أنبتتها لها لحدا
وصرنا على الدنيا عيـــالا وطالمـا تعلَّم منَّا أهلها البذل والرفـــدا
ونحن الألى كان الحرير برودهم على حين كان النَّاس مابسهم جلدا

* * *

إذا الأمس لم يرجع فإنّ لنا غدا
نضيء به الدنيا ونملأها حمدا

وتلبسنا في الليل آفاقه سنى وتنشرنا في الفجر أنسامه ندا
فإنّ نفوس العرب كالشُّهب تنطوي وتخفى، ولكن ليس تبلى ولا تصدا
ومثل اللآلي لا يخيس جمالها وإن هي لم ترصف ولم تنتظم عقدا
إذا اختلفت رأيا فما اختلفت هوى أو افترقت سعيا فما افترقت قصدا

ديوان « تبر وتراب »

العميان

كم خفضنا الجناح للجاهلينا
وعذرناهمُ فما عذرونا
خبِّروهم يا أيُّهَا العاقلونا
إنَّما نحن معشر الشعراء يتجلّى سرّ النبوة فينا

* * *

ذكِّروهم فَرُبَّ خير كبير
فعلته الهداة بالتذكير
إنَّما النَّاس من تراب ونور
فبنو النور يعبدون النورا وبنو الطين يعبدون الطينا

* * *

قيل عنَّا : قصورنا من هباءِ
تتلاشى في ضحوة ومساء
أو سطور بالماء فوق الماء
لو سكنتم قصورنا بعض ساعة لنسيتم شهوركم والسِّنِينا

* * *

لو دخلتُمْ هياكل الإلهام
وسرحتم في عالم الأحلام
واجتليتم سرّ الخيال السامي
وعرفتم كما عرفنا الله لخررتم أمامنا ساجدينا

* * *

قد سقتنا الحياة كأسا دهاقا
حسنت نكهة وطابت مذاقا
وسقينا ممّا شربنا الرفاقا
فتركناهم حيارى سكارى يتمنّون أنّهم لا يعونا

* * *

همُّكم في الكؤوس والأكواب
آه لو كان همّكم في الشراب
لطرحتم عنكم قيود التراب
وشعرتم بلذة أو عذاب هذه الخمرُ ليتكم تشربونا

* * *

أتقولون : إنّه مجنون ؟
أتقولون : إنّه مفتون ؟
أتقولون : شاعرٌ مسكين ؟
كم مليك كم قائد كم وزير ودّ لو كان شاعرا مكسينا

* * *

عاش (ملتن) فلم يكن مذكورا
وهو ميرس (كالشيخ) كان ضريرا
ولقد مات (إبْنُ برد) فقيرا
أرأيتم كما رأى العميان؟ أفلستم بنورهم تهتدونا؟

« **الجداول** »

كـــم تشتكـــى

كم تشتكي وتقول : إنك مُعْـدِمُ
والأرض ملكك والسما والأنجم
ولك الحقول وزهرها وأريجها
ونسيمها والبلبل المترنِّـــم
والماء حولك فضّة رقراقـــة
والشمس فوقك عسجد يتضرّم
والنور يبني في السفوح وفي الذرى دورا مزخرفة وحينا يَهْـدِمُ
فكأنَّـهُ الفنّان يعرض عَابثـــا آياته قدّام من يتعلّـــم
وكأنه لصفائه وسنائـــه بحر تعوم به الطيور الحوّم
هشّت لك الدنيا فما لك واجما وتبسَّمت فعلام لا تتبسَّـــم ؟
ان كنت حسرانا لعزّ قد مضى هيهات يرجعه اليك تنـــدُّم
أو كنت تشفَق من حلول مصيبة هيهات يمنع ان يحل تجهّم
أو كنت جاوزت الشباب فلا تقل شاخ الزمان فانه لا يهـــرَم
أنظر فما زالت تطلّ من الثرى صور تكاد لحسنها تتكلّـــم
ما بين أشجار كأنّ غصونها أيد تصفّق تارة وتسلِّـــم
وعيون ماء دافقات في الثَّرى تشفي السقيم كأنما هي زمزم!
ومسارحٍ فُتِنَ النسيم بحسنها فسرى يدندن تارة ويهمهـــم
فكأنه صبٌّ بباب حبيبـــه متوسِّل، مستعطف، مستـ رحم
والجدول الجذلان يضحك لاهياً والنرجس الولهان مُغْـفٍ يحلم

وعلى الصعيد ملاءة من سندس ... وعلى الهضاب لكلّ حسن مبسم
فهنا مكان بالأريج معطّـــر ... وهناك طود بالشعاع معمّـــم
صور وآيات تفيض بشاشة ... حتى كأن الله فيها يبســـم !
فامش بعقلك فوقها متفهّماً ... إنّ الملاحة ملك من يتفهّـــم
أتزور روحَـــك جنّةٌ فتفوتها ... كيما تزورك بالظنون جهنّـــم؟
وترى الحقيقة هيكلا متجسداً ... فتعافها لِـو ساوس تتوهّم
يا من يحنّ الى غد في يومه ... قد بعت ما تدري بما لا تعلم

« **الجداول** »

الغبطـــة فكـــرة

أقبـل العيـد ولكن ليس فـي الناس المسـرّة
لا أرى إلاّ وجوهـا كـالحـات مكفهـرّة ...
وشفـاهـا تحـــذر الضّحك كأنّ الضّحك جمرة
ليـس للقـوم حـديث غيـر شكـوى مستمـــرّة
قـد تسـاوي عنـدهم لليـأس نفـع ومضـرّة
لا تســـل مـــاذا عـراهـم ؟ كلُّهـــم يجهل أمره
حـــائـر كـالطـائـر الخـائف قـذ ضيَّـع وكره..

* * *

أيهـا الشـاكي الليـالي ! إنمـا الغبطـة فكـرة
ربما استـوطـَنَتِ الكـوخَ ومـا في الكوخ كسرة
وخلت منهـــا القصـور العـاليـات المشمخـــرة
تلمـس الغصن المعـرّى فـاذا فـي الغصـن نضْـرة
واذا رفَّت عـلى القفـر استـوى مـــاء وخُضـــرة
واذا مسَّت حصـاة صقلتهـا فهـي د رّ ة
لـك ،مـا دامـت لـك، الأرض وما فـوق المجـرّة
فـــاذا ضيـعتـــهـا فـالـكون لا يعـدل ذرّه

أيهـا البـاكي رويـدا !لا يسدّ الدّمع ثغـرة
أيهـا العـابس لـن تعطـى عـلى التقطيب أجـرة
لا تكـن مـرّا ولا تجعـل حيـاة الغيـر مـرَّة
ان مـن يبكـي لـه حَـوْل على الضحـك وقـدرة
فتهلّـلْ وترنّم، فالفتى العابـس صخـره !
سكـن الـدهـر وحـانـت غفلـة منـه وغِرّة
إنـه العيـد... وانّ العيـد مثـل العُـرس مـرّة !

ديوان « الخمـائـل »

الصيف

عاد للأرض مع الصيف صباها ... فهي كالخود التي تمّت حُلاها
صور من خضرة في نضرة ... ما رآها أحد إلاّ اشتهاها
ذهبُ الشمسِ على آفاقها ... وسواد الليل مسك في ثراها
ونسيم الفجر في أشجارها ... وشوشات يطرب النهر صداها
والسواقي فتنٌ راقصة ... ضحكها شدوٌ وتهليل بكاها
والأقاحي صور خلاّبة ... وأغاني الطير شعر لا يضاهى
انها الجنّة فاعجب لامرىء ... هو فيها وقليلا ما يراها
أيها المعرض عن أزهارها ... لك لو تعلم ياهذا شذاها
أيها النائم عن أنجمها ... خلق الله لعينيك سناها
أيها الكابح عن لذّاتها ... نفسه: هيهات لن تعطى سواها
لا تؤجّل لغدٍ ليس غد ... غير يوم كالذي ضاع وتاها
واذا لم تبصر النفس المنى ... في الضحى كيف تراها في مساها
هذه الجنّة فاسرح في رباها ... واشهد السحر زهورا ومياها
واستمع للشعر من بلبلها ... فَهُوَ الشعر الذي ليس يضاهى

* * *

ما أحيلى الصيف ما أكرمه ... ملأ الدنيا رخاء ورفاها
عندما ردّ الى الأرض الصبا ... ردّ أحلامي التي الدهر طواها
كنت أشكو مثلما تشكو الضنى ... فشفى آلام نفسي وشفاها

ديوان « تبر وتراب »

طه حسين

في حلقات الدرس بالأزهر

كانت لقصّة الغلام مع الشيخ في درس البلاغة عواقبها، فقد انصرف عن الشيخ الى شيخ آخر كان مجاورا له في الربع وكانت غرفته تلي غرفة الشيخ الموسوس، وكان شافعيا مثله ولكنّه لم يكن موسوساً. وكان أهدأ الناس وأرزن الناس وأطيبهم قلبا وأقلّهم كلاما. لم يسمع الصبي صوته الاّ حين كان يلقي السلام عليه أو على من يمر به من أصحابه. فلما انصرف الغلام عن درس الشيخ الأول ذهب من غده الى درس الشيخ الثاني وكان يلقي درسه في تلك القبّة من جامع محمد بك أبي الذهب، وكان الغلام يعرف هذا الجامع حقّ المعرفة. سمع دروس النحو والمنطق في جميع أماكنه وزواياه وكانت له قصص قد نلمّ بها في هذا الحديث.

فأقبل الغلام اذن مع الظهر منصرفه من درس القشور، فصعد هذه الدرجات التي كان يألفها، ثم خلع حذاءه ومشى في هذا الممرّ بين حلقتين من حلقات الدرس طالما عرفهما وتخطّى عتبة القبو وجلس في حلقة الشيخ هادئا كعادته، فحمد الله وصلّى على نبيّه وأخذ يقرأ قول المؤلف في تنكير المبتدإ وفي نكته ومزاياه ثم مضى حتّى وصل الى استشهاد المؤلف بالآية الكريمة "وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ" فجعل يعلّل مع المؤلف والشارح والمحشّي والمقرّر تنكير الرضوان بكلام لم يعجب الغلام ولم يقع من نفسه ولم يستطع الغلام أن يصبر على ما كان يسمع فأخذ يجادل الشيخ ولكنّه لم يكد يفعل حتى قطع الشيخ عليه كلامه وقال في صوته الهادىء المطمئن:

"اسكت يا بنيّ فتح الله عليك وغفر لك ووقانا شرّك وشرّ أمثالك. اتّق الله فينا ولا تشاركنا في هذا الدرس فتفسد علينا أمرنا وانصرف. الى ما أنت فيه من هذه القشور الضالّة المضلّة التي تقبل عليها في الضّحى"

وتضاحك الطلاب، ووجم الغلام. واستأنف الشيخ قراءته وتفسيره في صوته الهادىء المطمئنّ الرزين. وأقام الغلام على مضض حتى انصرف الطلاب فانصرف معهم ثائرا محزونا وقد أعرض عن دروس البلاغة وأنفق بقية عامه يخرج من درس القشور اذا كان الظهر فيمضي الى دار الكتب في "بلب الخلق" فيمكث فيها الى أن يحين إغلاقها قبل الغروب.

« الأيام »

استيقـــاظ الأزهـــر

كان الصبيّ يحبّ الأزهر في هذه اللحظة حين ينتهي المصلُّون من صلاة الفجر وينصرفون وفي عيونهم آثار النُّعاس ليتحلّقوا حول هذا العمود أو ذاك وينتظروا هذا الأستاذ أو ذاك فيسمعوا منه درس الحديث أو درس التفسير أو درس الأصول أو درس التوحيد.

كان الأزهر في هذه اللحظة هادئا لا ينعقد فيه ذلك الدَّوي الغريب الذي يملؤه منذ تطلع الشمس الى أن تصلّـــى العشاء. وإنما كنت تسمع فيه أحاديث يتهامس بها أصحابها وربما سمعت فتى يتلو القرآن في صوت هادىء معتدل وربما مررت إلى جانب مصلّ لم يدرك الجماعة أو أدركها ولكنّه مضى في التنفّل بعد أن أدّى الفريضة. وربما سمعت أستاذا هنا أو هناك يبدأ درسه بهذا الصوت الفاتر، صوت الذي استيقظ من نومه فأدّى صلاته ولم يطعم بعد شيئا يبعث في جسمه النشاط والقوّة. فهو يقول في صوت هادىء حلو منكسر بعض الشيء : "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين... قال المؤلِّف، رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه آمين..."

والطّلاب يسمعون لهذا الصوت في هدوء وفتور يشبهان هدوء الشيخ وفتوره.

وما أكثر ما كان الصبي يوازن في نفسه بين أصوات الشيوخ حين ينطقون بهذه الصيغة في درس الفجر وأصواتهم حين ينطقون بها في درس

الظهر. فأمّا أصوات الفجر فكانت فاترة حلوة فيها بقية من نوم، وأمّا أصوات الظهر فكانت قويّة عنيفة ممتلئة فيها شيء من كسل أيضا تصوّر امتلاء البطون بما كانت تمتلىء به من طعام الأزهريين في ذلك الوقت الذي كان فيه الأزهريون يعيشون على الفول والمخلّل وما يشبه الفول والمخلّل من ألوان الطعام. كان في أصوات الفجر دعاء للمؤلّفين يشبه الاستعطاف وكان في أصوات الظهر هجوم على المؤلّفين يوشك أن يكون عدوانا.

« **الأيام** »

محنـــة الأدب

حياتنـا الأدبية فيمـا يظهر من أمرهـا راكدة خامدة ما في ذلك شـكٌّ فقد أصبحت الكتب القيّمـة نـادرة يمـرّ العام دون أن يظهر منهـا كتـاب واحد فضلا عن كتابين أو ثلاثة كتب. والصحف اليومية والاسبوعية لا تكاد تحفل بالأدب، وقد تمرّ الأسابيع وقد تمرّ الشهور دون أن نقرأ في صحيفـة يوميـة أو أسبوعية فصلا أدبيّا ذا بال. والمجلّات الشهرية تعنى بلون من الأدب يسير لا يكلّف كاتبه عناء طويلا ولا يكلّف قارئه جهدا ثقيلا. ويستحبُّ فيمـا تنشر المجلّات الشهريـة من فصول هذا الأدب أن تكون لغتهـا يسيرة سهـلة وأن تكون موضوعـاتها أيسـر وأسهل من لغتهـا فنحن قوم مترفون لا نريد أن نشقّ على أنفسنا حين نكتب، ولا نريد أن نشقّ على أنفسنـا حين نقرأ. وأحبّ شيء إلينا أن نقرأ المقال ثم ننساه والموضوع الذي يحتاج كاتبـه الى أن يدرس فيطيل الدرس ويبحث فيُمعن البحث عسير على الكاتب والقـارىء جميعـا. وتخيـــّر الألفاظ والتأنّق فيها يكلّف الكاتب والقارىء ما لا يحبّـان أن يتكلّفـا. فقد دخل علينـا السأم وأصبحنا نؤثّر أن نمرّ بالأشياء مرّا سريعـا. وكثيرا ما نقرأ لندعو النوم لا لنذوده عن أنفسنا ورحم الله أيّاما كنّا نرى الوقت فيهـا قصيرا سريع الحركة وكنّـا نتمنّى لو زيد في ساعات الليل والنهـار نصفها أو مثلهـا لنقرأ فنطيل القراءة، ولندرس فنحسن الدرس. ورحم الله أيّامـا كانت الصحف اليومية والأسبوعية فيهـا تتنافس أيّهـا يكون أشدّ عنـايـة بالأدب وأكثر تتبعـا للموضوعـات التي يفرغ لها القرّاء في آخر النهـار وأوّل الليل، فيحلون إليهـا ويستمتعون بهـا وينكرون منهـا

ويعرفون ويكتبون الى الصحف بما ينكرون وما يعرفون. ورحم الله أيّـامـا كنّا نشغـل فيهـا بهذه الكتب الكثيرة التي تعرض للأدب والنقد ولفنون الحيـاة على اختلافهـا فيشغـل بها الكتاب نـاقدين ومقرّظين. ويشتدّ الخلاف بينهم حول هذا الرأي أو ذلك فتشترك صحف كثيرة في درس موضوع واحد أثـاره كاتب من الكتّاب فأنكر عليه كاتب آخر بعض مـا قال أو كلّ ما قـال، وأسرع الى هذا الكاتب وذاك أنصارهما فاختصموا وأطـالوا الاختصام وانتفع القرّاء والكتـاب جميعـا بهذه الخصومـات.

رحم الله تلك الأيـام. فقد مضت ومضى عهدهـا حتى كأنّ أصحابهـا قد مضوا معهـا وهم مع ذلك أحياء يلقى بعضهم بعضـا بين حين وحين ولـكنّهم لا يكتبـون أو لا يكادون يكتبون ولا يختصمـون في الأدب والنقـد وإنمـا يختصمـون في السيـاسـة والمنافع العاجلـة.

« **خصـام ونقـد** »

الضميـــر الأدبـــى

الضمير الأدبي الصحيح صلب لا يعرف المرونة، ماض لا يعرف التردّد، قـاس لا يعرف لينـا. ترى الأديب يتلوّن في أشياء كثيـرة ولـكنّه لا يفرّط في الأدب. تراه يساوم في أشياء كثيرة ولـكنّه لا يساوم في الأدب لأنه لا يستطيـع أن يمس الأدب بتلوّن أو تفريط أو مساومـة. انظر الى هذا الشـاعر قد اتخذ لنفسه هذا المذهب في الشعر أو فرض هذا المذهب على نفسه فـرضـا فهو يتصوّر على هذا النحو دون ذاك وينظـم على هذا النحو دون ذاك ويتغنّـى على هذا النحو دون ذاك. قد تختلف عليـه الأحداث وتلمّ به الملمّـات ويمتحن في حياته ما شاء الله من ضروب الامتحان ولـكنّه لن يغيّر مذهبـه في الشعر ولن يتحـوّل عن أسلوبـه في النظـم ولن يميل عن طريقتـه في الغنـاء، إلا أن يكون هذا التحـوّل نتيجة طبيعيـة للتطـوّر الفنّي الذي لابدّ منـه فأمّـا أن يبيـع مذهبـه بمذهب آخر لأنّ النـاس يريدونه على ذلك، فأمّـا أن يغيّر أسلوبه في النظم لأن أسلوبه القديم لا يرضي الناس ولا يوافق أهواءهـم فأمّا أن يميل عن طريقتـه في الغنـاء الى طريقة أخرى لأنّ طريقتـه لا تلائـم ذوق النـاس فهذا شيء لا سبيل إليـه لأنّ الأديب الخليق بهذا الاسـم لايفكّر في النّاس ولا يحفل بهم ولا يقف عندما يريدون وما لا يريدون وإنمـا يفكّـر في الأدب وحده ويحفل بالأدب وحده ويقف عنـا ما يريد الأدب وحـده.

الأديب هو أصدق صورة للرجل المجبر الذي لا رأي له ولا إرادة ولا اختيار فيمـا ينتج من الآثـار الأدبيـة الخالصـة هو أشبـه شيء بالأداة التي

توجّه وهي لا تعرف كيف توجّه وأشبه شيء بالمرآة التي تتلقّى الصور وهي لا تعرف كيف تتلقّاها وأشبه شيء بالرجل الملهم الذي يأتيه الوحي وهو لا يعرف كيف يأتيه ولا من أين يأتيه، هذا هو الضمير الأدبي الذي يتيح لأصحابه البقاء ويتيح لهم الخلود ويتيح لهم أن يكونوا أئمة للناس وقادة للحضارة.

فأما هذه الضمائر الضعيفة الفاترة التي لا تعرف ثباتا ولا تقدر على مقاومة ولا تحسن استقرارا ولا استمرارا فلست أدري ما هي ولكنّي أعلم حقّ العلم أنّها ليست ضمائر أدبية وإنما هي ضمائر تستطيع أن تسمّيها بما شئت من الاسماء وأن تصفها بما أحببت من الأوصاف.

حديث الأربعاء « الجزء الثالث »

الديمقراطية والارستقراطية في الأدب

... أمّـا الأدبـاء الذين ينتجون فلست أعرف كيف ينظمـون أنفسهم أو كيف ينظمهم غيرهم على نحو من هذه النُّظـم المعروفة في السياسة. ذلك أن الأديب بطبعه حرّ، حرّ حتّى بإزاء إرادتـه الخاصّة، فهو لا يستطيع أن ينتج متى شـاء، وهو لايستطيع أن ينتج كيف شاء. وهو لا يستطيع أن ينتج ما شاء، وإنّمـا هو رجل قويّ الذّهن واسع العقل خصب الخيـال يحسّ ما حـوله من الأشياء ويتأثّر بهـا وإذا بعض ما يحسّ يملك عليه نفسـه ويثيـر فيهـا آثـارا قويّة تضطرّه الى أن يكتب أو ينظم أو يصوّر ما أحسّ على كلّ حال. ولست أزعم أن إرادة الأديب ملغاة في انتاجه إلغاء تامّا ولكنّي أزعم أن تأثير الإرادة في هذا الانتاج ضئيـل جدا لا يكاد يذكر، وأن المقدار اللاشعوري في إنتاج الأدب أعظم جدّا من المقدار الشعوري. وقد يكون من السهـل أو من الصّعب أن تحلّل حياة الأديب تحليلا وأن تردّ آثاره إلى مصادرها الأولى من مزاج الأديب وطبيعته ومن البيئة التي أحاطت به والعصـر الذي عاش فيه ولكنّ هذا التحليل نفسـه إن أتيح للباحثين من مؤرخي الآداب فهو دليـل واضح على أن الأديب الى أن يكون مجبرا في الأدب أقرب منـه الى أن يكون مختـارا. فالأديب إذاً حرّ بالقيـاس إلى النـاس وهو حرّ بالقياس إلى نفسـه أو إلى أرادته إن شئت التدقيق، وهو إلى أبعـد غايات الحرّية. وهو من هذه الناحية متمرّد لا يستطيع أن يخضع لنظام ولا أن يذعن لسلطان إلاّ سلطان هذا الشيطان الذي يلهمـه ويوحي إليـه ويدفعه الى الإنتاج. قد يكون الأديب ديمقراطي المذهب ديمقراطي المزاج

ديمقراطيّ البيئة ديمقراطي الوراثة فتصدر عنه آثار ديمقراطية أيضا لأنّها لا تستطيع إلاّ أن تكون ملائمة لمصدرها. وقد يكون الأديب أرستقراطيًّا في هذا كلّه فتصدر عنه آثاره أرستقراطية. واذا اتّصلت حياة "الفاشزم" وأثّرت في الأجيال كما اتّصلت حياة الاستقراطية والديمقراطية فلا بدّ أن يوجد أدباء تصدر عنهم آثار تلائم هذا المذهب الجديد من مذاهب الحياة. وإذاً فكيف يستطيع كاتب من الكتّاب أو ناقد من النقاد أو صاحب سلطان مهما يكن أن يجعَل النقد أو الأدب ديمقراطيًّا أو استقراطيا أو فاشيا أو بلشفيًّا كلّه ! ليس إلى ذلك سبيل وإنما السّبيل في ذلك هي الفوضى. هي هذه الحرّيّة المطلقة الحرّية التي لا تعرف الطبيعة غيرها ولا ترضى الطبيعة سواها . الحريّة التي تستمتع بها الشمس حين تُضيء والنّسيم حين يهبّ والزهرة حين تتأرّج والريح حين تعصف والرعد حين يقصف والبرق حين يضطرب في السماء هذه الحريّة هي سبيل الأدب ليس إلى تقييدها من سبيل. وإذاً فكيف يمكن أن ينظم النقد كلّه على أنّه ديمقراطي أو على أنه أرستقراطي أو على أنّه ما شئت من هذه المذاهب التي يلهج بها أصحاب السياسة ويكثرون فيها الجدال والحوار !

حديث الأربعاء « الجزء الثالث »

حقيقة النقد الأدبي

الناس يفهمون النَّقد فهمين متناقضين تناقضا شديدا وكلاهما خاطىء سيّء الأثر. فمنهم من يفهم من النقد حمدا خالصا وثناه طيّبا وتقريظا من غير تحفّظ. والنقد عند هؤلاء ضرب من المدح يقصد منه ترويج الكتاب واذاعة أمره ورفع صاحبه بين الناس. لهذا لا يكاد أحدهم يفرغ من كتابه حتى يرسله إليك ويسعى به إليك، وحتى يرجو منك أن تتناوله بالنَّقد وألاّ تحرمه كلمة من "كلامك العذب وأسلوبك الحلو وإنشائك الرَّائع". وهو يقدّر في نفسه أن الكلام العذب والأسلوب الحلو والإنشاء الرائع إنّما هو كلامه وأسلوبه وإنشاؤه، وأنّ النَّاقد إنّما هو وسيلة لترويج الكتاب والثناء عليه لا أكثر ولا أقل. ومنهم من يفهم النقد على أنّه طعن وقدح وتجريح ودلالة على السيئات فهو يكرهه ويكره أصحابه و يكره تأليف الكتب حتّى لا يتعرّض لألسنتهم وأقلامهم، فان اضطرّته حياته وصناعته إلى التأليف فهو يتوسّل إلى النَّاقدين ألاّ يعرضوا لكتابه بخير ولا بشرّ وأن يخلُّوا بينه وبين القرّاء يقرأونه فيرضون عنه أو يسخطون عليه...

... وفي الحقّ أنّ الصّلة بين النقَّاد والمؤلِّفين دقيقة بطبعها لا تخلو من الحرج فأيّ مؤلِّف لا يطمع في الثناء على كتاب بذل فيه من الجهد ما بذل ولقي فيه من العناء ما لقي ! وأي مؤلِّف لا يكره أن يتناول النُّقاد جهده ونتيجة جهده بالنَّقد فيبيِّنوا ما فيهما من ضعف ويدلُّوا على ما فيهما من قصور ! كلُّنا يحبّ الثَّناء ويعتقد أنّه مستحقّ له، وكلُّنا يكره الذّمّ ويعتقد أنه خليق ألاّ يتعرّض له. ولكن شيئا ينقصنا مع هذا وهو أن نقدّر

العلم قدره ونؤمن بأن لا قوام للعلم بغير النَّقد. ولا أكاد أفهم أن رجلا يستحقّ أن يوصف بأنه عالم أو أديب أو من طلّاب العلم والأدب اذا لم يكن يقدّر النقد وحاجة العلم والأدب إليه.

يقدّر النَّقد لا على أنه ثناء خالص ولا على أنه هجاء خالص، فليس العلم في حاجة إلى الثناء وليس هو في حاجة إلى الهجاء وإنّما هو يترفَّع عنهما جميعا. إنَّما ينبغي أن يقدّر النقد على أنَّه تمحيص للعلم ودلالة على ما فيه من حقّ يجب أن يبقى وباطل يجب أن يزول، أو قل على ما تعتقد إنه حقّ أو باطل .ولست أدري لم يؤذيك أن يدلَّك ناقد على أنَّك أخطأت وأنت لم تأخذ على الأيام عهدا بالإصابة المطلقة. ولست أدري لم تحرص على أن يصفك الناس بأنَّك موفَّق للحقّ أبدا ولم يقدّر هذا التوفيق لإنسان ما.

النقد إذاً حاجة طبيعيّة لكلّ حركة علميَّة أو أدبية أو فنِّية. ولكنّ النَّقد لا خير فيه ولا نفع منه إذا لم يكن حرّا من كلّ قيد من هذه القيود المنكرة التي تحول بين النقَّاد وبين أداء واجبهم على وجهه.

حديث الأربعاء « الجزء الثالث »

وظيفة الناقد الأدبي

... إنّ الأديب مهما يكن أمره كائن اجتماعي لا يستطيع أن ينفرد ولا أن يستقلّ بحياته الأدبية ولا يستقيم له أمر إلاّ اذا اشتدّت الصّلة بينه وبين النّاس ،فكان صدى لحياتهم وكانوا صدى لإنتاجه، وكان مرآة لما يذيع فيهم من رأي وخاطر، ، وما يغذوهم به من هذه الآثار الأدبية على اختلاف ألوانها.

وهو في حاجة إلى أن يشعر بهذه الصلة وإلى أن يراها قويّة متينة متردّدة بينه وبينهم كما يتردّد الرّسول بين المحبّين. ذلك يدفعه الى العمل وينشّطه للإنتاج ويغذو نفسه بالمعاني ويثير فيها الخواطر والآراء ويشيع في لغته القوّة والحدّة والنّشاط.

ويلائم بين هذه اللغة وبين قلوب الذين يقرأونه ويسيغونه على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في جمهور الناس ومن هنا ينشأ لون من الأدب هو الذي يحقّق الصلة بين المنتج والمستهلك ويحقّقها على أتمّ وجه وأقواه وأنفعه، لأنّه يقوم مقام الرسول بين هذين العاشقين اللذين يختصمان حينا ويأتلفان حينا آخر، وهما الأديب والجمهور. وهذا اللون الجديد من الأدب هو النّقد الذي يبلّغُ الى النّاس رسالة الأديب فيدعوهم إليها ويرغّبهم فيها، أو يصرفهم عنها ويزهّدهم فيها، والذي يبلّغ الأديب صدى رسالته في نفوس النّاس وحسن استعدادهم لها أو شدة ازورارهم عنها أو فتورهم بالقياس إليها. ولعلّه أن يبيّن للأديب أسباب إقبال الناس عليه وإعراضهم عنه. ولعلّه أن ينصح

للأديب بما يزيد إقبال النّاس عليه إن كانوا متقبلين .ويخفّف إعراضهم عنه إن كانوا معرضين ،فهو الرسول الحكيم الذي نصح القدماء هو حكيم بالقياس الى الجمهور لأنّه يدلّ الناس على ما يحسن أن يقرأوا وعلى ما يحسن أن يفهموا مما يقرأون. وهو رسول بالقياس الى الأديب لأنّه يبيّن للأديب مواقع فنّه من النّاس وقد يدلّه على الخطأ إن وقع فيه ليتجنّبه وعلى الصواب إن وفّق إليه ليتزيّد منه وقد يدلّه على التقصير الفنّي ليتّقيه وعلى الإجادة الفنّيّة ليبتغيها فيما يستأنف من الآثار...

في النّاقد الخليق بهذا الوصف مزايا الأديب الخليق بهذا الوصف وعيوبه لايكادانيفترقان إلاّ في أن أحدهما – وهو الأديب – يتّخذ طبائع الأشياء وحقائقها مادّة لأدبه وموضوعا لإنتاجه على حين يتّخذ الآخر وهو الناقد صور الأشياء ونماذجها أي الأدب نفسه مادّة للنقد وموضوعا. ومع ذلك فليس من المحقّق أنّ النّاقد لايلمّ بطبائع الأشياء وحقائقها وربّما كان المحقّق عكس ذلك. فما أكثر ما يحتاج الناقد الى أن يعالج الموضوع الذي عالجه الأديب ليبين أو ليتبيّن ما عسى أن يكون قد عرض للأديب من صعوبة وما عسى أن يكون الأديب قد سلك الى تذليل هذه الصعوبة من طريق وما عسى أن يكون الأديب قد وفّق إليه من إجادة أو قد تورّط فيه من إساءة.

فالناقد آخر الأمر أديب بأدق معاني الكلمة والنقد آخر الأمر أدب بأصحّ معاني الكلمة أيضا وربما أتيحت للناقد مزايا لا تتاح للأديب المنشىء فالناقد مرآة لقرائه كالأديب، والقراء مرآة للناقد كما أنّهم مرآة للأديب أيضا، ولكن الناقد مرآة صافية واضحة جليّة كأحسن ما يكون الصفاء

والوضوح والجلاء، وهذه المرآة تعكس صورة الأديب نفسه كما تعكس صورة القارىء وكما تعكس صورة الناقد فالصفحة من النقد الخليق بهذا الاسم مجتمع من الصور لهذه النفسيات الثلاث : نفسية المنشىء المؤثّر، ونفسية القارىء المتأثِّر، ونفسية النَّاقد الذي يقضي بينهما بالعدل ويزن أمرهما بالقسطاس.

« **فصول في الأدب والنقد** »

الحـــريـــة هـــى الأســـاس

... لا أحاول أن أضع قصّة فأخضعها لما ينبغي أن تخضع له القصّة من أصول الفنّ كما رسمها كبار النقاد، فقد يجب لتستقيم القصّة أن يحدّد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث، الذين تعرض لهم الخطوب أو الذين يبتكرون هذه الخطوب.

لا أضع قصّة فأخضعها لأصول الفنّ ولو كنت أضع قصّة لما التزمتُ اخضاعها لهذه الأصول لأنّي لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأنّ للنُّقاد مهما يكونوا أن يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن، ولا أقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحبّ أن أسوق من الحديث وإنّما هو كلام يخطر لي فأمليه ثم أذيعه فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه ومن شاء أن يرضى عنه بعد فليرض مشكورا ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكورا أيضا. والمهمّ هو أن يخطر لي الكلام وأن أمليه وأن أذيعه وأن يجد القارىء ما يشعره بأن له إرادة حرّة تستطيع أن تغريه بالقراءة وأن تصدّه عنها وأن يشعر القارىء أيضا بأنّ له ذوقا صافيا يستطيع أن يعرف في الأدب وأن ينكر وأن يقبل من الأدب أو يرفض، وليس هذا كلّه بالشّيء القليل وما أحبّ أن يظنّ القارىء أنّي أتحكّم فيه أو أتجنّى عليه فأنا أبعد الناس عن التحكّم وأزهدهم في التّجنّي وأشدّهم للقارىء حبّا وإكبارا ولكنّي لا أحبّ أن أخضعه لذوقي ويجب أن تكون الحرّية هي الأساس الصحيح للصّلة بين القارىء وبيني حين أكتب أنا ويقرأ هو.

« المعذبون فى الأرض »

العلـــم والـديـــن

نرى أنّ الخصومة بين العلم والدّين أساسية جوهرية لا سبيل إلى اتّقائها ولا إلى التّخلّص منها هي أساسية جوهرية لأنّ العلم والدّين لا يتصلان بملكة واحدة من ملكات الإنسان وإنّما يتصل أحدهما بالشعور ويتّصل الآخر بالعقل، يتأثّر أحدهما بالخيال ويستأثر بالعواطف ولا يتأثّر الآخر بالخيال إلاّ بمقدار ولا يعنى بالعاطفة إلاّ من حيث هي موضوع لدرسه وتحليله، والخصومة بين العلم والدّين أساسية جوهرية لأنّ الدّين أسنّ من العلم، ولأنّه كان في العصور القديمة كلّ شيء : كان دينا وكان علما. ولأنّ العلم جاء بعد ذلك فغيّر هذا القسم العلمي من الدّين وأبى الدّين أن يذعن لهذا التّغيير وأبى العلم أن ينزل عما ظفر به من الثمرات فلن يتفقا إلاّ إذا جحد أحدهما شخصيته.

والخصومة بين العلم والدّين أساسية جوهرية لأنّ الدّين يرى لنفسه الثّبات والاستقرار ولأنّ العلم يرى لنفسه التغيُّر والتجدّد فلا يمكن أن يتفقا الا أن ينزل أحدهما عن شخصيته.

والخصومة بين العلم والدّين أساسيّة جوهريّة لأن أحدهما عظيم جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حدّ له ولا انتهاء لموضوعه ولأن الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطى يقدم ثم لايكره أن يحجم ويمضي ثم لا يكره أن يرتدّ ،ويبني ثم لا يتحرّج من الهدم فلا يمكن أن يتّفقا إلاّ أن ينزل أحدهما عن شخصيته.

فالخصوالة بينهما أمر لابدّ منه ولكنّ المسألة في حقيقة الأمر ليست في أنّ الخصومة واقعة أو غير واقعة وإنما هي في أن الخصومة ضارّة أو نافعة أو بعبارة أدقّ : المسألة هي أن نعرف هل كتب على الإنسانية أن تشقى بالعلم والدّين أم هل كتب على الإنسانية أن تسعد بالعلم والدّين ؟ أمّا نحن فنعتقد أنّ الإنسانيّة تستطيع أن تسعد بالعلم والدّين جميعا وإنّها ملزمة إذا لم تستطع أن تسعد بهما أن تجتهد في ألاّ تشقى بهما وسبيل ذلك عندنا واضحة وهي أن ينزع السلاح كما يقولون من يد العلم والدّين، أو قل سبيل ذلك أن ترغم السياسة على أن تقف موقف الحيدة من هذين الخصمين فالعلم في نفسه لا يريد ولا يستطيع الأذى ، والدّين في نفسه لايريد ولا يستطيع الأذى ولكن السياسة تريد وتستطيع الأذى غالبا وهي كما قلت تتّخذ العلم حينا وسيلة إلى هذا الأذى وتتّخذ الدّين حينا آخر وسيلة إليه وهب السياسة لم تطع رجال الدين ولم تشتر نفوسهم وضمائرهم ولم تهيّء لهم من أسباب الرغد والنعيم ما يصرفهم عن الله ويجعل الدين في أيديهم سلعا تباع وتشترى أو هب السياسة لم تفسد نفوس العلماء وضمائرهم وأخلاقهم ولم تشترهم بالمناصب وأسباب السلطان ولم تمنحهم من أسباب الرغد والنعيم ما يحولهم عن البحث العلمي الهادىء إلى هذه الخصومة العنيفة العميقة، هب السياسة لم تشغل أولئك ولا هؤلاء ولم تمكّن السواد من أن ينتصر لأولئك أو هؤلاء فماذا تكون النتيجة ؟ تكون أن يمضي رجال الدين في حياتهم الدينية ورجال العلم في حياتهم العلمية وأن ينصرف السواد إلى حياته العملية المنتجة منتفعا بالدين فيما بينه وبين الله منتفعا بالعلم في تدبير شؤونه اليومية وأن تزول هذه الخصومات المنكرة التي تقسم الناس شيعا

وأحزابا وتغري بعضهم ببعض وتجعل بعضهم لِبعض عدوّا وتبثّ فيهم ألوان الرذيلة وحبّ الكيد والوقيعة وما إليها من الرذائل الفاحشة.

« من بعيـد »

كيف نفهم التاريخ ؟

لا يزال العالم الجليل رفيق بك، وكثير من العلماء المعروفين في الشرق يسبغون على التاريخ الإسلامي صفة من الجلال والتقديس الديني أو الذي يشبه الديني تحول بين العقل وبين النظر فيه نظرا يعتمد على النقد والبحث العلمي الصحيح، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال خطرهم وتقديس مكانتهم وهم يضيفون إليهم كل خير وينزهونهم عن كل شر، وهم يصفونهم بجلائل الأعمال ويرفعونهم عن صغائرها وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث، ومقياسا من مقاييس النقد فإذا أضفت إلى الرشيد شيئا فليس هذا الشيء صحيحا إلا اذا كان في نفسه خليقا بالرشيد يليق به وبمكانته وليست هذه المكانة هي مكانته في نفسها وإنما هي المكانة التي خلعها عليه القدم وبعد العهد وجلال الخلافة وكرامة الدين وسطوة الأمة العربية.

فأما النقد التاريخي من حيث هو نقد تاريخي فأما النظر إلى الناس من حيث هم ناس ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس وتحليل أخلاقهم وعاداتهم كما تحلل أخلاق الناس وعاداتهم والملاءمة بين هذه الأخلاق والعادات وما اكتنفها من الظروف والأحوال فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه.

حديث الأربعاء « الجزء الثانى »

بيـن الشـــرق والغـــرب

—◆—

ليختصم أنصار الجديد وأنصار القديم مـا وسعتهـم الخصـومة وما وجدوا من أنفسهم قوّة على احتمال أثقالهـا والمضيّ فيما تحتاج إليه من الجهاد فإن الزمن يمضي في سبيله رغم خصامهم وصلحهم وهو لا يمضي وحده ولـكنّه يدفع أمـامـه قومـا منّا ويجرّ وراءه قومـا آخـرين وهو منتـه بأولئك وهؤلاء إلى حيث يريد هو من التغيير والتطوّر والتجديـد لا إلى حيث يريدون هم من الوقوف والجمود والإسراف في المحافظة على القديم كلّ القديم.

ولقد خطر لي بعد أن فرغت من قراءة ما ينشره أصدقاؤنـا في "الرسـالة" حول التجديد وأنصاره وحول المحافظة وأصحابها وقد فرغت أيضا من قراءة طائفة من هذه الكتب الكثيرة التي أظهرتها الشهور الأخيرة والتي تجتمع أمامي وتزداد من يوم إلى يوم وتلحّ عليّ في أن أفرغ لهـا وأجلس إليهـا وأنظر فيهـا فأنصرف بهـا عما يحيط بي من ظروف الحياة التي أعمـل فيهـا كلّ يـوم .

نعم ! فكّرتُ في هذا وقد فرغت من قراءة بعض هـذه الكتب فـإذا نحن نختصم في الجديد والقديم ونسرف في الخصومة ونغـلو في التفسيـر والتأويل على حين يدفعنـا الزمان في طريق التجديد دفعا لا سبيل إلى الإفلات من قوّته ولـكنّي وقفت عند ظاهرة لعلّها تستحقّ أن يقف عندهـا النُّقـاد والمفكّرون وهي هذا الشكل العقليّ الفنّيّ الذي تأخذه الصّلة بين الشرق والغرب في هذه الأيـام فقد كنّا منذ حين نتأثّر بالغـرب ونسعى إليـه ونقتبس منه ونريد أن ننقلـه إلينـا إن صحّ هذا التعبير وكان هـذا السّعـي

يفني شخصيتنا أو يكاد يفنيها فإذا نحن غربيّون في تفكيرنا وتعبيرنا وحياة عقولنا وقلوبنا وإذا حظوظنا تختلف من هذه الغربية قوّة وضعفا : منّا من يحسن التقليد ومن يسيئه وكان ضعف شخصيتنا هذا يبغّضنا إلى المحافظين من أهل الشرق ويزهّدهم فينا وكان يثير في نفوس المجدّدين من أهل الغرب حبّا لنا يشوبه العطف والإشفاق وكنّا نضيق ببغض أولئك وحبّ هؤلاء ونتمنّى من أولئك وهؤلاء موقفا طبيعيًّا لا حرج فيه ولا تكلُّف ولا ضيق .

كذلك كانت حال كتّابنا وشعرائنا في هذا العصر الحديث حين كانوا يريدون التجديد أو يذهبون إليه ولكنّ الأمر تغيّر في هذه الأيّام فقويت شخصيّة الكتّاب والشُّعراء حتّى آمنت بنفسها وآمن بها النّاس من حولها في الشّرق والغرب جميعا وأصبح كتّابنا وشعراؤنا ينشئون النّثر ويقرضون الشعر فلا يزورُّ عنهم كثير من المثقّفين حقًّا في الشّرق ولا يرفق بهم أهل الغرب وإنّما يحبُّهم أولئك فيَقْرَأونهم ويخلصون لهم النُّصح والنّقد والتّشجيع ويقدّرهم هؤلاء فيدرسونهم ويقيسون الآماد التي قطعوها في سبيل التّجديد والاتصال بالحضارة الغربية والتّمكين لهذه الحضارة في بلاد الشّرق دون أن تفنى شخصيتهم أو يصيبها الضعف والفتور .

وأغرب من هذا الذي تراه حين تقرأ ما يكتبه "جيب" و"كمفمير" وغيرهما من كتّابنا وشعرائنا أنك تلاحظ في هذه الأيّام أن من أهل الشّرق من يتمثّلون الغرب حتّى كأنّهم من أهله فيتحدّثون إليه بلغته ويفكّرون كما يفكّر ويشعرون كما يشعر ويشاركونه بهذا في إنتاجه الأدبي الخالص ويصدرون كتبهم حيث يصدر الغرب نفسه كتبه في لندرة أو باريس وإذا

هذه الكتب تصل إلينا من عواصم الغرب فنتلقّاها كما كنّا نتلقّى الكتب الغربيّة من قبل وتتناولها صحفنا بما تتناول به كتب الغرب من نقد وتقريظ وترى بعض أهل الشرق يتمثّلون الغرب ويسيغونه ويهضمونه إن صحّ هذا التّعبير ويذيبونه في أنفسهم ويغلّبون شخصيتهم عليه ويغذّون قوميّتهم به ثم يتحدّثون إلينا بلغتنا مهذّبة ويفكّرون معنا بطرائق تفكيرنا مصفّاة قد أضيفت إلى ثروتنا ثروة أخرى فأخصبت وآتت ثمرا نحبّه ونستعذبه ونستزيد منه فنلحّ في الاستزادة.

وكذلك يتّصل الشرق بالغرب اتّصالا عقليا وفنّيا بعد أن كان الاتّصال بينهما ماديّا تقليديّا وكذلك نتقدّم في التّجديد خطوات واسعة قيّمة مغنية حقا فنضيف إلى ثروة الغرب كما يضيف الغرب إلى ثروتنا.

« **فصول في الأدب والنقد** »

أثنـاء قـراءة الشعـر القديـم

... ونحن لا نحبّ أن يظل الأدب القديم في هذه الأيّام كما كان من قبل لأنّنا لا نحبّ القديم من حيث هو قديم، ونصبو إليه متأثّرين بعواطف الشّوق والحنين، بل نحن نحبّ لأدبنا القديم أن يظلّ قواما للثّقافة، وغذاء للعقول لأنّه أساس الثقافة العربيّة، فهو إذن مقوّم لشخصيتنا، محقّق لقوميتنا، عاصم لنا من الفناء في الأجنبيّ، معين لنا على أن نعرف أنفسنا.

فكلّ هذه الخصال أمور لا تقبل الشّك ولا يحسن فيها المراء ولكننا مع ذلك نحبّ أن يظلّ أدبنا أساسا من أسس الثقافة الحديثة لأنّه صالح ليكون أساسا من أسس الثقافة الحديثة. ونحبّ أن يظلّ أدبنا القديم غذاء لعقول الشباب لأنّ فيه كنوزا قيّمة تصلح غذاء لعقول الشباب.

والذين يظنّون أنّ الحضارة الحديثة قد حملت إلى عقولنا خيرا خالصا يخطئون فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرّا غير قليل، لم يأت منها هي وإنّما أتى من أنّنا لم نفهمها على وجهها، ولم نتعمّق أسرارها ودقائقها وإنّما أخذنا منها بالظواهر وقنعنا منها بالهيّن اليسير، فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهل أيضا. هذا الشباب أو هذا الشيخ الذي أقبل من أوربا يحمل الدّرجات الجامعيّة ويُحسن

الرّطانة بإحدى اللُّغات الأجنبية أو بغير لغة من اللُّغات الأجنبية ويجلس إليك وإلى غيرك منتفخا منتفشا مؤمنا بنفسه وبدرجاته وبعلمه الحديث أو أدبه الحديث ، ثم يتحدّث إليك كأنّه ينطق بوحي "أبولون" فيعلن إليك في حزم وجزم أن أمر القديم قد انقضى وأن النّاس قد أظلهم عصر التجديد وأن الأدب القديم يجب أن يترك للشيوخ الذين يتشدّقون بالألفاظ ويملأون أفواههم بالقاف والطّاء وما يشبههما من الحروف الغلاظ وأنّ الاستمساك بالقديم جمود والاندفاع في الحياة إلى أمام هو التطوّر، وهو الحياة وهو الرّقي. هذا الشباب وأمثاله ضحيّة من ضحايا الحضارة الحديثة لأنّه لم يفهم هذه الحضارة على وجهها ولو قد فهمها لعلم أنّها لا تنكر القديم ولا تنفر منه ولا تصرف عنه. وإنّما تحبّبه وترغّب فيه وتحثّ عليه ، لأنّها تقوم على أساس منه متين ولولا القديم ما كان الحديث. وأنّ بين أدباء الأوروبيين الآن لقوما غير قليلين يحسنون من آداب القدماء ما لم يكن يحسنه القدماء أنفسهم، ويعكفون على درس الأدب القديم أكثر ممّا كان يعكف كثير من القدماء ويؤمنُون بأنّ اليوم الذي تنقطع فيه الصِّلة بين حديث أدبهم وقديمه هو اليوم الذي يقضي فيه الموت على أدبهم ويحال فيه بينهم كل إنتاج.

حديث الأربعاء « الجزء الاول »

الشعر القصصى والتمثيلى فى الأدب العربى

خصوم القديم وأنصار الحديث يزعمون أنّ الأدب العربيّ كان حسنا في عصره وأصبح الآن غير ملائم، ذلك لأنّ هناك فنونا من الأدب لم يعرفها الأدب العربيّ.

فالشّعر العربيّ فقير بالنسبة للشّعر الأجنبي فليس فيه شعر قصصيّ ولا تمثيليّ، كما كان عند اليونان وإذن فلا بدّ من العدول عن هذا الأدب القديم إلى الأدب الحديث.

وهذا غريب فلست واثقا كلّ الثقة من أنّ الأدب العربيّ يخلو من القصص وأخشى أن يكون من جحدون وجود الأدب القصصيّ عند العرب إنما جحدوه لأنّهم لم يحقّقُوا بالضّبط معنى الأدب القصصيّ والذين يقرأون الشّعر الجاهليّ أو ما صحّ منه والذين يقرأون الشّعر الأموي كشعر جرير والفرزدق والأخطل يلاحظون أنّ مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصيّ موجودة في الشعر العربيّ فأهمّ ما يمتاز به هذا الشعر القصصي أن شخصيّة الشاعر تفنى وأن هذا الشعر يكون مرآة لحياة الجماعة وأنا أستطيع أن أؤكد لكم أنّنا لا نعرف شيئا يصوّر الأمّة أصدق تصوير ويضطرّنا أن نلمسها بأيدينا كالشعر العربيّ.

وإذا قرأتم قصيدة من شعر جرير أو الفرزدق أو الأخطل فأنتم ترون العرب في البادية وتسمعونهم يتحدّثون وتحسّون حياتهم كما تحسّون

أنفسكم ولا تكادون تلمسون شخصية الشعراء في أشعارهم فإذا لم توجد عندنا "الياذة" أو "أودسا" فليس من شكّ أنّ ما أدّته الالياذة والاودسا قد أدّاه لنا الشعر القديم من تصوير الحياة الاجتماعية وتصوير حياة الأبطال.

ثمّ من الذي يستطيع أن ينكر أنّ في أدبنا العربيّ القصصيّ جمالا ليس أقلّ من جمال الالياذة والاودسا وليس ذنب الأدب العربيّ أن لا يقرأه النّاس ولا يعرفوه.

أيّ الأدباء عني بقصص أبي زيد وعنترة، وما إليه من الأقاصيص الكثيرة التي تعنى بها العامّة أيكم يدرسه مضطرّ إلى أن يعترف أنّ للأدب العربيّ من هذا الجمال الفنّيّ الرائع ما لا يقلّ عن الاياذة والاودسا.

فليقرأ أدباؤنا أولا وأنا واثق أنّ هذا الأدب الذي ندعه لقهوات العامّة ونزدريه سيحدث في أدبنا العربيّ نهضة واسعة المدى.

« من حديث الشعر والنثر »

الشعـــر الجـاهـــلي

... نحن بين اثنتين : إمّا أن نقبل في الأدب وتاريخه ما قال القدماء لا نتناول ذلك في النقد إلاّ بهذا المقدار اليسير الذي لا يخلو من كل بحث والذي يتيح لنا أن نقول : أخطأ الاصمعي أو أصاب أبو عبيدة وإمّا أن نضع علم المتقدمين كلّه موضع البحث بل لست أريد أن أقول البحث وإنّما أريد أن أقول الشّك أريد ألاّ نقبل شيئا ممّا قال القدماء في الأدب وتاريخه إلاّ بعد بحث وتثبّت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان.

أوّل شيء أفجأك به في هذا الحديث هو أنّي شككت في قيمة الشعر الجاهليّ وألححت في الشك أو قل ألحّ عليّ الشّك. فأخذت أبحث وأفكّر وأقرأ وأتدبّر حتّى انتهى بي هذا كلّه إلى شيء إن لم يكن يقينا فهو قريب من اليقين ذلك أنّ الكثرة المطلقة ممّا نسمّيه شعرا جاهليّا ليست من الجاهليّة في شيء وإنّما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام فهي إسلامية تمثّل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر ممّا تمثّل حياة الجاهليين وأكاد لا أشكّ في أن ما بقي من الشّعر الجاهليّ الصحيح قليل جدّا لا يمثّل شيئا ولا يدلّ على شيء ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبيّة الصحيحة لهذا العصر الجاهلي.

وأنا أقدّر النتائج الخطرة لهذه النّظرية ولكنّي مع ذلك لا

أتردّد في إثباتها وإذاعتها ولا أضعف عن أن أعلن إليك وإلى غيرك من القرّاء أن ما نقرأه على أنّه شعر امرىء القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء النُّاس في شيء وإنّما هو انتحال الرّواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النُّحاة أو تكلّف القصّاص أو اختراع المفسّرين والمحدّثين والمتكلّمين.

« في الشعر الجاهلي »

- السبب في بغض المحافظين لأبي تمام

كان أبو تمّام مبغضا إلى المحافظين وهنا نحتاج إلى أن نتبيّن السبب الفنّي الخاصّ الذي من أجله لم يكن أبو تمّام محبّبا إلى الذين عاصروه من العلماء ومن الأدباء المحافظين، وهذا شيء آخر غير الحسد والخصومة التي تنشأ عنه. المتقدّمون متّفقون على أنّ أبا تمّام كان تلميذا في البديع لمسلم بن الوليد وأنّه أسرف في هذا البديع إسرافا شديدا هو الذي جعل شعره بغيضا إلى الأدباء ونقّاد اللغة والواقع أنّ مسلما قد سبق أبا تمّام إلى البديع والواقع أيضا أنّ مسلما لم يبتكر البديع ابتكارا وإنّ البديع لم يستحدث في العصر العباسيّ وإنّما البديع فنّ قديم وجد منذ وجد الشعر ومنذ عني الشعراء بهذا الفنّ واتخذوه حرفة وصناعة.

هذا النوع قديم تجدونه عند شاعر كزهير وأوس بن حجر والحطيئة عند هؤلاء الشعراء الذين كان يسمّيهم الأصمعي "عبيد الشعر" والذين لم يكونوا يرسلون الشعر على سجيّتهم وإنّما كانوا يفكّرون ويطيلون التفكير ويتعمّدون الإجادة الفنّيّة فيما يقولون. كانوا من غير شك قد رسموا لأنفسهم مذهبا في الفنّ يعتمدون عليه وهو العناية بالتشبيه والاستعارة يستعينون عليهما بالحسّ أكثر ممّا يستعينون بالتفكير الخالصّ. فكان أحدهم إذا أراد أن يأتي بفكرة أو يصوّر معنى من المعاني لا يأتي به سهلا ولا يسيرا ولا يأتي به على أنّه معنى يتحدّث به قلب إلى قلب أو عقل إلى عقل

وإنَّما يأتي به في صورة نحسُّها باللمس أو بالعين أو بالأذن، نحسُّها على كلّ حال. ومن هذه الناحية كثر الشعر البديعي وكثر فيه التشبيه والاستعارة. ليس هذا الفنّ عباسيا وإنَّما هو قديم وجد مع الشعراء ومع ذلك فليس من شكّ في أن العصر العبَّاسيّ قد شهد عناية شديدة جدّا بالبديع لم تكن موجودة من قبل حتَّى لا تكاد تقرأ لمسلم أو أصحابه بيتا أو بيتين إلاّ وجدت أمثلة من البديع. وإذا فما كان الشعراء القدماء يتَّخذونه وسيلة إلى الجمال الفنّيّ قد أصبح غاية عند مسلم وأصحابه.

« **من حديث الشعر والنثر** »

نفسيـــة الشـاعـــر

... إنّ التفسيـر النفسـيّ لأبي نـواس وغير أبي نواس من القـدماء الـذيـن لم يبق لنا منهـم إلاّ فنُـونـهم، فيه كثيـر من الشطـط وهو إلى الظـن والفـرض أقـرب منـه إلى اليقيـــن والتّحقيـــق.

انظـر مثلا إلى هـذه القصّة التي يـرويهـا القـدمـــاء عن أبـي نـواس حين جلس مع جماعـة من أصحابه وأخـذوا في بعض لهـوهـم فـذكـر أصحابه انحـرافهم بهـذا اللهـو عن الـديـن وإسـرافهم على أنفسـهـم، وأبـو نـواس ساكـت لا يقـول شيئـا فلمـّا سألـوه عن سكـوتـه أنشـدهذيـــن البيتيـــن :

يـا نـاظـرا في الـدّيـــن مـا الأمـر ... لاقـــدرٌ صحّ ولا جـبـــــــر
مـا صحَّ عنـدي من جميـع الـــذي ... تـذكـــر إلاّ الـمـــوت والقبـــر

فضـاق أصحابه بهـذا الشعـر ولامـوه عليـه أشـدّ اللـوم وأعنفـه وأنـذروه بالقطيعـة فأظهـر النّـدم وقـال :

أيَّـــةَ نـار قـــدح الـــقـــــادح ... وأيّ جـــدّ بلـغ المـــــازح
لله درّ الـشيـــب مـن واعـــــظ ... ونـاصح لـــو قبـل النّـــاصـــح
يـأبى الفتـــى إلاّ اتّبـــاع الهـوى ... ومنهـج الحـــق لـــه واضـــح
فـاسـم بنفسـك إلـى نـســـوة ... مهـورهـنّ العمـــل الصـالـح
لا يجتلـي الحـــوراء مـن خـدرهـا ... إلاّ امـرؤ ميزانـــه راجـــــح
من اتّقَـى الله فـــذاك الـــــذي ... سيـق إليـــه المتجـر الـرابـح

شمِّر فما في الدين أغلوطة ورح لمَّا أنت له رائح

فأوّل شيء ألاحظه في هذه القصّة هو الانتقال المفاجيء بين هذين الفنّين من الشعر فأبو نواس في البيتين الأوّلين يائس من البعث والنُّشور لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا لم يصحّ عنده من عاقبة الحياة إلاّ الموت والقبر ثمّ هو في الأبيات الأخرى مؤمن ممعن في الإيمان يلوم المتهاون في أمر دينه ويحبِّب إليه الطاعة والتّقوى ويقطع بالثواب والعقاب ويذكر الجنّة والحور العين والطريق إلى الظفر بنعيم الآخرة ثمّ يجزم في البيت الأخير بأنّ الدين صحيح كلّه.

وأكبر الظنّ أنّ الشعر صحيح قاله أبو نواس ولكن القصّة صنعت وتكلّفها صانعوها تكلّفا ليظهروا أنّ مجون أبي نواس كان يدفعه إلى الشطط وأنه كان يرجع إلى نفسه فيردّها إلى القصد والاعتدال وأكبر ظنّي أنّ أبا نواس قال البيتين الأولين في ساعة من ساعات لهوه وعبثه أو في ساعة من ساعات ضيقه وسأمه، وقال الأبيات الأخرى في ساعة من ساعات رجوعه إلى نفسه وشعوره بالحاجة إلى شيء من النَّدم والتوبة والاعتذار.

« **خصام ونقد** »

طـريقتـــا النثـــر

منذ القرن الثاني للهجرة ظهرت طريقتان مختلفتـــان :

طريقة قوم اتصلوا بالفلسفة وهم المتكلّمـــون وأصحاب الفلسفة والمعتـــزلة بنوع خاصّ، ومن زعمائهم الجاحظ والنظّام، وطريقة قوم لم يتّصلوا بالفلسفة ولكنّهم اتّصلوا بالأدب العربيّ واتّصلوا بالحضارة الفارسيّة والأدب الفارسيّ.

والفرق بين هاتين الطريقتين واضح جدّا. ولكنّ وضوحه يظهر في القرن الثالث والقرن الرابع فأمّا أصحاب الفلسفة اليونانية والمتّصلون بهذه الثقافة الغربية فهم أصحاب تفكيـــر وعناية بالمنطق وبترتيب الكلام ترتيبا منطقيّا. أمّا المتّصلون بالثقافة الفارسيّة فهم أصحاب سجع وأصحاب بديع ولذلك نلاحظ أنّ رجلا كأبي حيان التوحيدي، كان من تلاميـــذ الجاحظ وأشدّ الناس تأثّرا باليونان لا يلتفت إلى البديع ولا يعنى بالسجع ولكنّه في القرن الرابع يمضي على نحو الجاحظ بينما ابن العميد والصاحب بن عبّاد ومن إليهما كانوا يلمّون بالثقافـــة اليونانيّة وكانوا حراصا على الثقافة الفارسيّة فكانوا أصحاب بديع وسجع.

ونحن عندما نقول "بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد" نعني كتابة عبد الحميد المتأثّرة بالثقافة اليونانيّة المعتمدة على الترتيب وعلى المنطق وكتابة أخرى عنيت بالفنّ اللفظيّ والزخرف أكثر من المعنى.

هاتان الطريقتان في النثر نفسه تقابلهما طريقتان في البيان فهناك بيان قام على بيان اليونان ومنطقهم وهو هذا الذي نجده عند أصحاب المنطق وعند قدامة وبيان آخر قد تأثّر بالحضارة الفارسيّة والأدب العربيّ من بعيد وهو هذا البيان الذي نجده في كتاب الصناعتين وأساسه العناية الفنية.

« من حديث الشعر والنثر »

حـــول رســـالـــة الغفـــران

من قرأ رسالة الغفران وأراد أن يفقه معناها حقّ الفقه احتاج إلى دقّة ملاحظة وحذق فطنة وبعد نظر ونور بصيرة وإلى أن يدرس روح الكاتب فيحسن درسه ويعرف أغراضه فإذا لم يوفّق إلى ذلك مرّت به رسالة الغفران وهو يظنُّها من أقوم كتب الدين.

ذلك أنّ أبا العلاء يسلك في هذه الرسالة إلى النّقد مسلكا خفيا تكاد لا تبلغه الظنون ولولا أن مؤرّخيه قد كانوا يسيئون الظنّ به لما اهتدوا إلى ما في رسالة الغفران من النقد. على أنّهم لم يفهموه إلاّ الظاهر الذي يلمس والصريح الذي لا يشكّ فيه : كالأشعار الإباحية التي رواها عن بعض الزنادقة فأمّا نقده الخاصّ فقلّما فطنوا له ولسنا نشكّ في أن عليًّا أبا منصور بن القارح الذي كتبت إليه هذه الرسالة قد كان شديد الزندقة أو شديد الغفلة فإنّ أبا العلاء لا يكتب بهذه الرسالة إلاّ وهو واثق منه بإحدى الخصلتين. وتدلّنا رسالة الغفران على أنّ هذا الرجل كان معاقرا للخمر متهالكاً عليها حتّى ألحّ عليه أبو العلاء في أن يتوب.

« **تجديد ذكرى أبي العلاء** »

شخصيـة « جيـد » من خـلال يوميـاته

... شخصية "اندريه جيد" متمرّدة بأوسع معانـي هذه الكلمة وأدقّها متمرّدة على العرف الأدبـيّ وعلى القوانين الخلقية وعلى النّظام الاجتماعـيّ وعلى النّظام السّياسـيّ وعلى أصول الدين نفسها متمرّدة على كلّ شيء على نفسها في أكثر الأحيان، وفي كلّ إنسان حرّ أو مؤمن بحرّيته حظّ من التمرّد على هذا النظام أو ذاك من نظم الحياة الاجتماعيّة ولكنّه يصانع ويداجـي ويحتال ليلائم بين شخصيّته وبين البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ففي حياته شيء من الكذب قليل أو كثير وفيها حظّ من النفاق عظيم أو ضئيل يظهر للنظم الاجتماعيّة طاعة لها ورضى بها وهو لها كلّها أو بعضها كاره وعليها ساخط وبها متبرّم ولكنّه محتاج إلى أن يعيش فلا بدّ له من الكذب والنفاق وخداع الجماعات وسرقة لذّاته ما وجد إلى سرقتها سبيلا، والنّاس قد عرفوا ذلك وأقرّوه وتواضعوا عليه وأصبح الكذب والنفاق وسرقة اللذات وإخفاء السيّئات أو ضاعا اجتماعية يألفها النّاس ينكرونها في ألفاظهم ويقرّونها في سريرتهم وفي أعماق نفوسهم أمّا "أندرية جيد" فإنّه ينفرد بالملاءمة بين تمرّده الداخلـيّ وسيرته الخارجيّة إن صحّ هذا التعبير، يرى الرأي فيعلنه مهما تكن نتيجة ذلك ويشتهـي الشيء فيسعى إليه ويحققه مهما تكن نتيجة ذلك ويحسّ هذا الحسّ أو ذاك ويشعر هذا الشعور أو ذاك ويجد القدرة على تصوير حسّه وشعوره فلا يتردّد في تصوير

حسّه وشعوره يقسو في هذا كلّه على النّاس ويقسو في هذا كلّه على نفسه ولا يقبل في هذه القسوة هوادة ولا موادعة...

قلت إنّ شخصيّة "اندرية جيد" متمرّدة وأن تمرّده صريح صادق وأنّ هذا التمرّد الصريح الصادق هو الذي يميّزه عن غيره من الكتاب والأدباء والمفكّرين وأحبّ أن أشير إلى بعض النواحي التي يظهر فيها تمرّده هذا قويّا عنيفا ولكنّي أحبّ أن ألاحظ قبل كلّ شيء أنّ القسم الأول من يومياته هذا الذي كتب في أوّل الشباب يصوّر لنا هذه الشخصيّة الناشئة وفيها أصول القوّة والبأس والتمرّد والثورة فهو لا ينشأ كما ينشأ غيره من الشبّان الممتازين متأثّرا بما حوله من الحياة الأدبية والعقليّة مؤثّرا فيه ولكنّه ينشأ ناقدا لتأثّره وتأثيره مسجّلا لما يأتيه من خارج ولما يصدر عنه مبيّنا ما في هذا وذاك من خير أو شرّ محاولا إصلاح ما يراه شرًّا والاستزادة ممّا يراه خيرا محاسبا نفسه حسابا شديدا على ما أخذ وما أعطى مراقبا فنّه الناشيء الغضّ مراقبة دقيقة يقوّمه إذا أعوجّ ويردّه إلى الطريق إذا جارعنها وإلى الطريق التي يريدها هو لا التي يريده عليها الأدباء وأصحاب الفنّ الذين هم أكبر منه سنًّا وأبعد منه بالفنّ والأدب عهدا وأعمق منه بهما علما.

وهو لا يقرأ كتابا ولا مقالا ولا فصلا في صحيفة ولا يسمع حديثا من أديب ناشيء مثله أو أديب متقدّم في السنّ ممتاز في المكانة إلاّ مسّه بالنقد والتحليل وردّه إلى أصله واستخلص منه ما يلائم مزاجه وطبعه ونفى منه ما يجافي هذا الطبع أو ينافي ذلك المزاج فهو إذاً ينشيء شخصيّته الفنّيّة تنشيئا ممتازا قوامه الملاحظة والمراقبة الشديدة

والنقد لا اسماح فيه حتّى إذا تمّت نشأة هذا الفنّ واستقرّت في نفس الشابّ هذه الثقة أو هذا الشيء الذي يشبه الثقة ويدفع الأديب إلى الإنتاج واجه النّاس بآثاره ناقدا لنفسه في إصدار هذه الآثار مسجّلا ما يعرف من مواطن الضعف فيها منتظرا ما سيلقى النّاس به آثاره من الرضى أو السخط ومن النّقد أو التقريظ.

« **فصول في الأدب والنقد** »

أزمـــــة ...!

... أمّا كتاب "الدفاع عن الأدب" للأديب الكبير "جورج دي هامل" فقد عرض لناحية أخرى من نواحي هذه الإزمة العقلية. فقد كثر القرّاء في هذا العصر بمقتضى انتشـــار التعليم وأصبحت أمم عظيمة قارئة كلّها رجالها ونساؤها شبابُها وشيبها بل صبيتها أيضا. وكلّ هذه الطبقات القارئة في حاجة إلى الغذاء العقلِيّ اليومي ولكنّها مختلفة متفاوتة فيما بينها : فمنها الطبقات ذات الثقافة العميقة الواسعة ومنها الطبقات ذات الثقافة المتوسطة ومنها الطبقات ذات الثقافة اليسيـــرة جدا. وكلّ أولئك يريدون أن يقرأوا وكلّ أولئك يشترون ما يقرأون. وواضح جدّا أن أصحاب الثقافة العميقة الواسعة قلّة لا تذكر بالقياس إلى أوساط النّاس ودهمائهم، فالذين يكتبون لهذه القلّة أجدر ألاّ يصيبوا من الربح شيئا يقاس إلى ما يصيبه الذين يكتبـــون لأوساط النّاس ودهمائهم. وإذا فهناك أزمة خطيرة يتعرّض لها الكتاب الجيِّد المتقن الذي يصوّر الثقافة العالية الممتازة والذي يحتاج صاحبه إلى أن يبذل فيه الجهد العنيف والوقت الطويل والتفكيـــر العميق. وإذا فلن يقبل الطابعـــون والنّاشرون على هذه الكتب الممتازة في أنفسها لأنّها لا تضمن لهم ربحا وقد تجرّ عليهم بل من المحقّق أنّها ستجرّ عليهم خسارة عظيمة. والأمر لا يقف عند هذا الحدّ فالنّاس في حاجة إلى القراءة ولكنّهم في حاجة إلى القراءة السّريعة اليسيرة السهلة، لأن الحياة الحديثة تقتضي السرعة

والسُّهُولة واليسر. والصحف والمجلاّت تقدّم إلى النّاس ما يريدون وأكثر ممّا يريدون فما حاجتهم إلى الكتاب الجيِّد أو الرديء ! بل الأمر أشدّ خطرا من هذا . فهذا الراديو الذي احتلّ البيوت كلّها والأندية كلّها والميادين كلّها والذي يصحبك في القطار ويصحبك في السفينة ويصحبك في السيّارة. هذا الراديو يغنيك عن القراءة : عن قراءة الكتب لأنّه يحدّثك في الأدب والعلم والفن،وعن قراءة الصحف لأنه يحمل إليك الأنباء على اختلافها، وعن كلّ قراءة لأنّه يستطيع أن يشغلك ما دمت يقظان وأن يشغلك دون أن يشغلك وإنّما هو مفتاح يدار فينصب عليك الكلام أو الغناء أو الموسيقى ثم يدار فيقطع هذا كلّه. ولا بأس أن تدعه يصيح بما يشاء وأن تمضي أنت فيما تشاء تفرغ له إن أحببت وتعرض عنه إذا أردت. فما حاجتك إلى القراءة التي تقيِّد نظرك وعقلك وتشغلك بنفسها عن كلّ شيء! ولا تنس السِّينما فأنت واجد فيه متى شئت ما يرضي عينك وأذنك معا. فما حاجتك إلى الكتاب وما حاجتك إلى الصُّحف ! ولكن هذا الإنتاج الذي تنشره الصحف ويذيعه الراديو والسينما شيء والإنتاج العالي الممتاز شيء آخر. فإذا أغرق النّاس في الاستمتاع بهذا الإنتاج اليسير السريع ضعفت عقولهم وقلوبهم وملكاتهم وضعف شخصياتهم وأصبح بعضهم مشبها لبعض وأصبحوا وقد صيغوا على صورة واحدة هي التي يصوغهم عليها الراديو أو السِّينما أو الصُّحف.

والواقع أن هذه الأدوات الثلاث تجتمع كلُّها غالبا في أيد واحدة وإذا فليس الخطر على العقل وإنتاجه الممتاز فحسب ولكنّه على الحرّية أيضا وعلى شخصيّة الأفراد والجماعات في الوقت نفسه

ومن أجل هذا وأشياء أخرى كثيرة غير هذا بعث جورج "دي هامل" صيحة الخطر المنكر في كتابه وهو بالطبع يريد الدفاع عن الأدب الرفيع الذي لا ينتج في سرعة ولا يساغ في سرعة وإنّما هو محتاج إلى الأناة والمهل لينتج ويساغ.

« **فصول فى الأدب والنقد** »

أصـــول التصـــوف

... هناك صورة ثالثة للفلسفة عند المسلمين يمثّلها القرن الرابع ويتبرّم بها أبو العلاء وهي فلسفة المتصوِّفة.

ألوهم في هذه الفلسفة قديم فأكثر النّاس يراها غلوًّا في الدّين واجتهادا في تقديس الله ويرفعون سندها حتّى يصلوا به إلى عصر النبيّ وأصحابه.

والحقّ أنّ تحليل التصوّف الإسلامي غير يسير لكثرة ما فيه من تركيب وامتزاج. ولكنّا نشير إلى العناصر الأولى التي تتألّف منها الفلسفة الصوفية عند المسلمين فأوّل هذه العناصر وأقدمها عنصر فلسفيٌّ يونانيّ هو وحدة الوجود، ظهر هذا المذهب واضحا عند اليونانيين في فلسفة الرواقيين أصحاب "زينون" وهم المعروفون عند العرب باسم الرواقيين وأصحاب الرواق وأصحاب المظال، نشأت فلسفتهم لمّا فشلت فلسفة افلاطون وارسطاليس في تحقيق الصلة بين العالم وموجده فزعموا أنّ ليس في الوجود إلاّ قوّة واحدة ذات وجهين أحدهما عقل تصرف به الحركة والآخر صورة تظهر فيها الحركة وعلى هذا فالموجود وموجده شيء واحد في نفسه وإنّ اختلف في الاعتبار قالوا : وهذه القوّة متحرّكة أبدا وعن حركتها تنشأ هذه الظلال المختلفة التي نسمّيها الخليقة قالوا : وإذا كانت هذه الحركة واحده فلا شك في أنّها تعود بين

حين وحين إلى جوهرها أي إن هذه الظلال المختلفة تعود إلى أصلها الأوّل فلا يكون بينها اختلاف ثمّ ترجع بعد ذلك إلى اختلافها بمقتضى هذه الحركة الدائمة، فما يزال العالم في اتّصال وافتراق أبدا.

وهذا المذهب هنديُّ النَّشأة ظهر عند الهنود قبل أن يعرف العالم فلسفة اليونان فإن البوديّة من أهل الهند يرون اتّحاد العالم بموجده وأنّه من حين إلى حين يعود كتلة هائلة من النّار تتحرّك حول نفسها ولأهل الهند في ذلك أعاجيب فإنّهم يوقّتون المدة من حياة العالم بمائة ألف سنة ويقولون : كلّما مرّ هذا الأمد الطويل عاد العالم كتلة من النار ثمّ تتجدّد نشأته ويعود فيه كلّ شيء إلى عهده. فأنا الآن أكتب هذا الكتاب ولا شكّ عند أهل الهند الأقدمين في أنّي سأعود بعد مائة ألف سنة إلى تأليفه على ما أنا فيه من حال وطور ومن زمان ومكان قال الرواقيون : وإذ كان أشرف وجهي هذه القوّة إنّما هو العقل فلا بدّ أن نحرص على الاتصال به وذلك بأن نروّض أنفسنا على الفضيلة وعن هجران المادّة وملاذّها ومن هنا أنشأ الرواقيون مذهبهم الشديد في الأخلاق.

العنصر الثاني من عناصر التصوّف مذهب يونانِي أيضا هو الإشراق. يقوم هذا المذهب على القاعدة التي فرضها افلاطون من أن هناك عالما عقليّا مجرّدا يماثل عالم المادّة المركّب ومن هذا العالم العقلِيّ أهبطت النفس الانسانية إلى عالم المادّة لتبتلى وتمحص فلما جاء الاسكندريون وزعيمهم أفلوطين قالوا : إذا كان مذهب إفلاطون حقًّا ولا شكّ في أنّه كذلك فمن اليسير أن تتّصل النفس

بعالمها العقلي في أثناء الحياة المادّية وإنّما سبيل ذلك أن يصفّى جوهر النفس بهجران اللّذة والإعراض عنها وأخذ الجسم بأنواع الحرمان من ألوان الطعام والشراب ثمّ حصر الفكر في موضوع واحد لا يتجاوزه ولا يتعدّاه وذلك يستلزم من غير شكّ الاجتهاد في ألاّ تتّصل المحسّات بشيء من عالم المادّة. قالوا : فإذا تمّ للإنسان ذلك وهو لا يتمّ إلاّ بعد مشقّة وجهد فقد تطّلع النّفس على ما في العالم العقلي من جمال وصفاء وقد تتّصل بمبدعها فتكون لها بذلك لذّة يخطىء من وصفها بلذة الإنسان.

وفي كتب أفلوطين : أنّه قد جرّب ذلك وشهده بنفسه.

وهذا المذهب أيضا هنديّ، فمن المعروف عن نسّاك الهند الأقدمين أنّهم كانوا ينقطعون عن اللاذّات ويعتكفون في كهف مظلم ويضعون الكمائم والصمائم في أفواههم وأنوفهم وكذلك يغشّون أبصارهم ويسدّون آذانهم ويصدفون عن المادّة ليتّصلوا بالاله.

هذان العنصران نقلا إلى المسلمين في القرن الثالث منسوبَيْن إلى افلاطون وارسطاليس وغيرهما من الفلاسفة فلمّا أضيف إليهما شيء ظاهر من الدّين بحيث تكون صورتهما غير منافية للإسلام نشأ عن هذه العناصر الثلاثة مزاج فلسفيّ خاصّ هو الذي أظهر الحلاج والجنيد وغيرهما من متصوّفة القرن الرابع، ولقد كانت المتصوّفة أقرب إلى الشيعة منهم إلى أهل السنة فظهر فيهم مذهب الباطنية وكثر تأوّلهم للكتاب والحديث وانتشر مذهبهم في العامّة فأدّى إلى فنون من الإباحة ومخالفة الدين واخترعوا أشكالا للعبادة التي توصلهم

إلى الله فيما يقولون فنشأت طرقهم في الذّكر واتّخذوا الحشيش وسيلة إلى غايتهم فكثرت منهم الحماقات والأباطيل وضاق بهم أبو العلاء فأشبعهم ردّا ونعيا وازدراء كما سترى عند الكلام على اللّزوميات ورسالة الغفران ، من هذا تعرف أن التصوف ليس مذهبا إسلاميّا خالصا وإنّما هو مذهب هنديّ أخذ صبغة الفلسفة اليونانية عند الرواقيين والاسكندريين، ثم أخذ الصبغة الإسلامية في أيّام بنِي العباس.

« **تجديد ذكرى ابى العلاء** »

توفيق الحكيم

المسرحية

محمد

بعد غزوة "بني المصطلق" ظهرت من النبي جفوة في حقّ عائشة "زوجته" وقد مرضت فأتتها أمُّها تسهر على راحتها كما أنّ أمّ مسطح كانت تقوم على خدمتها وقد عرفت من أمّ مسطح أنّ النّاس يتحدّثون عنها بحديث الإفك فجعلت تبكي متألّمة...

أمّ مسطح : هوّني عليك... هوّني عليك ! ...

زينب : (تعود مسرعة) ما بكاؤك هذا ؟ ...

عائشة : (لأمّها) يغفر الله لك ! ... تحدّث النّاس بما تحدّثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئا ! ...

زينب : (مطرقة) أي بنيّة خفّضي عنك الشّأن، فوا لله لقلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبُّها لها ضرائر إلاّ كثّرن وكثّر النّاس عليها ؟ ...

عائشة : (تبكي) أنا وصفوان ! ... أنا وصفوان ! ...

زينب : (في ألم) لا تبكي هذا البكاء ! ...

عائشة : (لأمّ مسطح وهي تجهش) أتقولين إنّ مسطحا قد رآنا ؟..

أم مسطح : هوّني عليك إنه حديث إفك

عائشة : (باكية) إنّي... إنّي حقّا كنت على بعير صفوان...

أم مسطح : (في عجب) حقّا ! !

زينب : (تلتفت إلى ابنتها) أنت ! ...

عائشة : انتظرا حتّى أقصّ عليكما الخبر !

زينب : قصّي

عائشة : (تكفكف دموعها) تعلمان لمّا كانت غزوة "بني المصطلق" اقترع رسول الله بين نسائه كما يصنع فخرج سهمي عليهن فخرج بي، فلمّا فرغ من سفره ذلك رجع قافلا حتّى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات فيه بعض الليل ثم أذن في النّاس بالرحيل فارتحل النّاس وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد فيه "جذع ظفار" فلمّا فرغت انسلّ من عنقي ولا أدري فلما رجعت إلى الرّحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده وقد أخذ النّاس في الرحيل فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتّى وجدته وجاء القوم الذين كانوا يرحّلون لي بعيري فأخذوا الهوْدج وهم يظنُّون أنّي فيه كما كُنت أصنع فاحتملوهُ فشَدوُّه على البعير ولم يشكُّوا أنّي فيه ثمّ أخَذُوا برأس البعير فانطلقوا به فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولامجيب قد انطلق النّاس فتلفّفت بجلبابي، ثمّ اضطجعت في مكاني وعرفت أنّي لو افتقدت لرجع إليه، فو الله إنّي لمضطجعة إذ مرّ بي "صفوان السّلمي" وقد كان تخلّف عن العسكر لبعض حاجته فرأى سوادي فأقبل حتّى وقف عليّ وقد كان يراني فلما رآني قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ظعينة رسول الله! !.. وأنا متلفّفة في ثيابي قال ما خلفك يرحمك الله ؟ ... فما كلّمته ثم قرّب البعير، فقال اركبي واستأخر عنّي فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب النّاس فوالله ما أدركنا النّاس، وما افتقدت حتّى أصبحت ونزل النّاس فلمّا اطمأنُّوا طلع الرّجل يقود بي فقال أهل الإفك ما قالوا...ووالله ما أعلم بشيء من ذلك إلاّ منك يا أمّ مسطح الآن.

أمّ مسطح : لا تبكي ! ...

عائشة : الآن أدركت علّة ما كنت أنكر من رسول الله ! إنّي لأدرك الساعة ما به ! ! ...

أهـــل الـكـهـــف

(مشلينيا يسأل مرنوش عمّا به فيخبره بموت ابنه فيقول):

مرنوش : مات ...

مشلينيا : ولدك ! أجاب بأنّ ولدك قد مات.

مرنوش : وأخذ بيدي إلى المقابر وأرانِي قبرا متهدّما

مشلينيا : قبره !

مرنوش : وقرأت بعينِي أسطرا متأكّلة

مشلينيا : ثم ماذا قرأت ؟

مرنوش : اسم ولدي ... ثمّ

مشلينيا : ثم ماذا ؟

مرنوش : ثم عبارة لم أفهمها

مشلينيا : قلها... قلها يا مرنوش

مرنوش : مات شهيدا في سنّ الستّين بعد أن جلب النّصر لجيوش الروم !

مشلينيا : أهذا ما قرأت على حجر القبر ؟

مرنوش : نعم

مشلينيا : تريد أن تزعم أنت يا مرنوش ما زعم يمليخا أمس

مرنوش : لا شكّ عندي الآن

مشلينيا : أيُّها المسكين لقد جننت مثل يمليخا هذا كلّ ما في الأمر

مرنوش : أنت لا ترى الحقيقة ابنِي مات في سنّ الستّين

مشلينيـا : هب أنّ هذا حدث... اتبكـي اليوم يـا مرنـوش ؟، هب أنّـه مات في الستّيـن كمـا تـزعـم شريفـا بعد أن عاش حياتـه شريفـا وقاتـل في ضفـوف الأبطـال وربّمـا بلـغ القيـادة ومجّـد اسمـه كمـا تـرى فمـاذا تـريـد لابنـك أكثـر من ذلك ؟ (لنفسـه) يالـه من كـلام يتضاءل بجـانبـه هـذيـان المغـروريـن .

مرنـوش : ولـكنّـه مـات ... مـات قبـل أن يفـرح بهـديتّـي التي كـنـت أحـملـهـا إلـيـه مع العيـد .

مشلينيـا : أيُّهـا المسكيـن إنّـه لم يمـت البارحة بـل مـات شيخـا هـرمـا بعـد أن قضى حياة طـويلـة كلّهـا سعادة وفخـــار.

مرنـوش : ولدي الصغير مات شيخـا هرمـا – أتسخر منّـي يـا مشلينيا في هـذه الساعـة الأليمـة ؟

مشلينيـا : إنّي لا أسخر البتة أنت الذي جئت تـروي هذا الجنـون ماذا أصنع لـك ؟ وما دمـت تصدّق الآن بمليخـا فـلا ريـب أنّ ولـدك شبّ وكبـر وسار في حياتـه العاديـة آمنـا مطمئِنًّا ولعلّه تـزوّج وأتى بـذرّيـة صالحـة من ذكـور وإنـاث – كـلّ ذلك ونحن في الكهف نائمون.

مرنـوش : ذرّيـة صالحـة ! من هـذا ؟ ولـدي الصغيـر الذي كـان ينتظـر أوبتـي بلعبـة يلهـو بهـا.

مشلينيـا : أيُّهـا المسكيـن أنـت لا تستطيع أن تتصوّر ولـدك إلاّ كما رأيتـه آخـر مرّة ومهمـا تسمـع عن الثلاثمـائـة عام فهـي كـلمـات وأرقـام لا تغيِّـر شيئـا من صـورة ولـدك الصغيـر تلـك الصـورة المنطبعـة في مخيِّلتك

مرنوش : (صائحا) كفى هراء كفى هراء... ولدي قد مات ولا شيء يربطني الآن بهذا العالم هذا العالم المخيف نعم صدق يمليخا هذه الحياة الجديدة لا مكان لنا فيها وانّ هذه المخلوقات لا تفهمنا ولا نفهمها هؤلاء النّاس غرباء عنّا ولا تستطيع هذه الثياب التي نحاكيهم بها أن تجعلنا منهم لقد عرفني النّاس من وجهي ومن كلامي برغم ثيابي فتبعوني أنا والعبد وحتّى العبد الذي نصبه الملك لخدمتي ما كان يفهم أغلب ما أقول وكان يبتعد عنّي كأنّي أجرب أو أبرص ولقد صرنا نتخبّط طول اليوم في المدينة نسأل ونبحث واليأس والرجاء يقطعان قلبي والنّاس من حولي لا تفهم ما أريد ولا أسمع منهم إلاّ صياحا يتبعونه بإشارة إليّ هامسين "هذا أحدهم هذا أحدهم تعالوا شاهدوا هذا أحدهم" ثم المدينة أهي طرسوس ؟ مستحيل أن تكون طرسوس نعم يا مشلينيا إنّنا بعيدون عن هذه المدينة وسكّانها بمقدار ثلاثمائة عام إنّ يمليخا لم يجن ولم يكذب إنّي الآن فقط أدرك هذه الحقيقة ثلاثمائة عام مضت وها هو ذا عالم آخر يحيط بنا كأنّه بحر زاخر لا نستطيع الحياة فيه كأنّنا سمك تغيّر ماؤه فجأة من حلو إلى ملح...

« **أهل الكهف** » (الفصل الثالث)

عـــودة الى الكهـــف

بقي مشلينيا وحده بعد أن مات مرنوش فأخذ يقول :

مشلينيا : لم يبق سواي وكلب الراعي، ذهب يمليخا ولم يذكر كلبه (ينادي)

قطمير... قطمير... (لا يجيبه سوى الصدى) لعلّه مات كذلك وهو رابض فلم ينتبه إليه أحد ولم يستطع المسكين مقاومة الجوع (لحظة صمت) هو أيضا عاش حياته وذهب كأنّه ظلّ كلب مرّ فوق حائط... (لحظة صمت) ما الفرق بين قطمير وظلّه ؟ (لحظة تأمّل) ربّاه.... أخشى أن يكون مرنوش قد أصاب (لحظة تأمّل أخرى) كلاّ... كلاّ... لقد فقد مرنوش البصيرة... لسنا حلما... لا... بل الزّمن هو الحلم أمّا نحن فحقيقة... هو الظلّ الزّائل ونحن الباقون... بل هو حلمنا نحن نحلم الزمن وهو وليد خيالنا وقريحتنا ولا وجود له بدوننا. إنّ تلك القوّة المركّبة فينا وهي العقل منظّم جسمنا المادّي المحدود... آلة المقاييس والأبعاد المحدودة... هو الذي اخترع مقياس الزمن ولكن فينا قوّة أخرى تستطيع هدم كلّ ذلك أو لم نعش ثلاثمائة عام في ليلة واحدة فحطّمنا بذلك الحدود والمقاييس والأبعاد ؟ نعم ها نحن أولاء استطعنا أن نمحو الزمن... نعم تغلّبنا عليه... (لحظة) لكن وأسفاه ! بريسكا : ما يحول بيني وبينها إذن ؟ الزمن ؟ نعم محوناه... ولكن ها هو ذا يمحونا الزمن ينتقم إنّه يطردنا الآن كأشباح مخيفة ويعلن أنّه لا يعرفنا ويحكم علينا بالنّفي بعيدا عن مملكته...

ربّي هذه المبارزة الهائلة بيننا وبين الزمن أتراها انتهت بالنصر له ؟ (بعد لحظة منهوكا) آه لقد تعبت... تعبت من الكلام ومن التّفكير... ومن الحياة بل من... الحلم ... هذه ليست الحياة بل هي حلم مهوّش مضطرب ... إلى الحقيقة إذن... الصافية الجميلة ! نعم إنّ الحقيقة لا يمكن أن تكون بهذا الاضطراب ولا يمكن كذلك ألاّ تكون هناك حقيقة... (لحظة) أشهد الله... أنّي أموت مؤمنا... أشهد المسيح أنّي أومن بالبعث لأنّ لي... قلب يحبّ (صمت)

∴

يمليخا ومرنوش ومشلينيا ممدودون والكلب قطمير بقربهم يتساءلون هل كانوا في حلم أم خرجوا حقًّا من الكهف ويدور الحوار بين مرنوش ومشلينيا بعد أن مات يمليخا...

...مشلينيا : (في يأس) آه... يا مرنوش – الرّحمة... أريد أن أعيش... أرحمني أريد أن أعيش.

مرنوش : سوف تعيش

مشلينيا : (في فرح) أصحيح يا مرنوش ؟ أأستطيع أن أعيش ؟

مرنوش : نعم بين جلدتي كتاب

مشلينيا : (يائسا) آه

مرنوش : لا فائدة من نزال الزمن... لقد أرادت مصر من قبل محاربة الزمن بالشباب فلم يكن في مصر تمثال واحد يمثّل الهرم والشيخوخة كما قال لي يوما قائد جند عاد من مصر، كلّ صورة فيها هي للشّباب من آلهة ورجال وحيوان كلّ شيء شابّ... ولكنّ الزمن قتل مصر وهي شابّة وما تزال ولن تزال... ولن يزال الزمن

ينزل بها للموت كلّما شاء وكلّما كتب عليها أن تموت...(مشلينيا لا يجيب) مشلينيا (مشلينيا لا يجيب) (ويتكلّم مرنوش بعد لحظة في صوت ضعيف) مشلينيا إنّ الكلام قد نهك ما بقي من قواي أحسّ البرودة تسري في جسدي قد نسينا أنا في طريق الموت منذ أسابيع (مشلينيا لا يجب... مرنوش في صوت حائر) مشلينيا لماذا لا تجيبني ؟

مشلينيا : ماذا تريد منّي ؟

مرنوش : (ضعيف الصوت) أصغ إليّ... لا تحاول المستحيل .

مشلينيا : لست أحاول شيئا.

مرنوش : (متخاذل الصوت) أفهم أنّك رجل ميّت

مشلينيا : أفهم... (صمت عميق)

مرنوش : (في شبه أنين) مش...لينيا (مشلينيا لا يجيب) شأذهب... يا... مشلينيا...

مشيلينا : (كأنّمَا يخاطبُ نفسه) الزّمن ... ما هو الزّمن ؟

مرنوش : (يحتضر) مشلي... ضع يدي اليسرى في يد يمليخا... (مشلينيا واجم) مات المسكين... ولم... يعرف الحقيقة... ومع ذلك... هل عرفناها نحن ؟

مشلينيا : ماذا تعني... يا مرنوش ؟

مرنوش : أحلام... نحن أحلام الزّمن

مشلينيا : الزّمن يا مرنوش ؟

مرنوش : نعم... الزّمن يحلمنا !

مشلينيا : كي يمحونا بعد ذلك

مرنوش : إلاّ من استحقّ الذكر فيبقى في ذاكرته

مشلينيا : التاريخ ؟

مرنوش : نعم

مشلينيا : (في قلق) أهذا كلّ ما نرتجيه بعد الموت ؟ أهذا كلّ تلك الحياة الأخرى ؟

مرنوش : نعم

مشلينيا : (في قلق) مرنوش ! أنت إذن لا تؤمن بالبعث !

مرنوش : أحمق ! أو لم نر بأعيننا إفلاس البعث ؟

مشلينيا : أستغفر الله أنت الذي عاش مسيحيًّا تموت الآن كَوثنيّ !

مرنوش : (في صوت خافت) نعم... أموت الآن...

مشلينيا : مجرّدا عن الأيمان

مرنوش : مجرّدا... عن كلّ شيء... عاريا كما ظهرت... لا أفكار ولا عواطف... ولا عقائد...

مشلينيا : رحمة لك أيُّها التَّعيس.

مرنوش : مشلينيا (مشلينا ينظر إليه ولا يجيب)وقتما تلحق بي... ضع يدك... في يدي اليمنى...

مشلينيا : حاشا أن أضع يدي في يد وثنيّ

مرنوش : إذن... (مشلينيا ينظر إليه صامتا وهو يموت) الوداع... (حشرجة ثم صمت)

مشلينيا : (بعد لحظة) مرنوش... (مرنوش لا يجب) مرنوش صديقي أخي... (لا يسمع جوابا) مات... مرنوش (ينظر إلى السَّماء) اللهمّ ارحمه رحمة واسعة إنَّه قانط فقد قلبه ولا يعي ما يقول (صمت عميق)

هل تغير شهريار

شهرزاد : أترك ما وراء حياتك يا شهريار، تأمّل وجه الرّداء ودعك من البطانة فما فيها غير خيوط.

شهريار : كلّ الرّداء في تلك الخيوط

شهرزاد : لا شيء يعنيك وراء الرداء (صمت)

شهريار : ينظر إلى السِّتار الأسود في غير اكتراث

شهريار : ولا شيء يعنيني وراء السِّتار !

شهرزاد : هذا الستار ! لماذا تنظر هكذا إلى هذا السِّتار ؟

شهريار : الأسود ؟

شهرزاد : نعم — الأسود

شهريار : لون الظّلام ؟ شدّ ما أبغض لونه ! ...

شهرزاد : مالذي يمنعك من قتله ؟

(العبد يبرز فجأة من وراء الستار صائحا)

العبد : أيَّتها الخائنة ! وقتلك معي

شهريار : (في هدوء) لا تمتهن شهرزاد ! لست أحبّ من يمتهن شهرزاد

العبد : (خائفا) مولاي...

شهـريار : (للعبد) اذهب

شهـرزاد : ألا تقتلـه وتقتلنـي ؟

شهـريار : كـلاّ

(العبـد يخـرج فرحـا بالنجـاة)

شهـرزاد : شهـريـار !

شهـريار : لم تنظرين إليّ هكذا ؟

شهـرزاد : أنت رجـل هالـك

شهـريار : أما كنت تعرفين ذلك من قبـل ؟

(فجأة صيحـة ذعـر ترتفـع خارج المكان ثمّ صوت استغـاثـة ويظهـر العبـد راجعـا أدراجـه على نحو غريب وهو منفـزع)

الـعبـد : النجـدة ! النجدة ! الـوزيـر !

شهـريار : الـوزيـر ! قمـر : ماذا بـه ؟

الـعبـد : سيف الجّلاد ؟ أطـاح رأسه عن جسده بسيف الجّلاد إذ أبصـرني خارجـا من الحجـرة

شهـريار : قمـر مـات ... !

شهـرزاد : لا تجـزع يا شهـريـار !

شهـريار : انطفـأت حيـاة قـمـر !

شهـرزاد : وأسفـاه !

شهـريار : (بعـد لحظـة) لم يعـد قمـر يستمـدّ الحيـاة من الشّمـس

شهـرزاد : لأنّـه لم يعـد يـؤمـن بهـا

شهـريار : الإيمـان ؟

شهـرزاد : لقـد كـان رجـلا

شهـريار : نعـم – قد كـان رجـلا

شهـرزاد : أمـا أنـت يا شهـبريـار

شهـريار : أنـا ! من أنـا ؟

شهـرزاد : أنت انسان معلّـق بين الأرض والسمـــاء ينخـر فيـك القلق ولقـد حاولـت أن أعيـدك إلى الأرض فلـم تفلـح التجـربـــة.

شهـريار : لا أريد العـودة إلى الأرض

شهـرزاد : لقـد قلتهـا يا شهـريار – لا شيء غيـر الأرض

شهـريار : (يتحـرّك) وداعـا إذن يا شهـرزاد.

شهـرزاد : اتـذهب ؟ دعنِي أحاول مـرّة أخـرى...

شهـريار : (ينصرف في صمـت)

العبـــد : (يتبعـه بأنظـاره حتّى يختفِـي)

العبـــد : لقـد ذهـب

شهـرزاد : لا مفـرّ لـه من هـذا

العبـــد : أقسم أنّهـا دمـاء زوجاتـه ! هي دمـاء زوجاتـه ! مضى عهـد الدمـاء لكن هذا ما صـار إليـه الرّجـل.

شهـرزاد : (كالمخاطبـة لنفسهـا) دار وصار إلى نهـايـة دورة

العبـــد : (يتحـرّك فجأة) أستطيع أنـا أن أعيـده إليـك

شهـرزاد : خيـال ؟ شهـريـار آخـر الذي يعـــود يولـد غضًّـا نديًّا من جديـد – أمَّـا هـذا فشعـــرة بيضـاء قـد نـزعـت .

« **شهرزاد** » (**الفصل السابع**)

صـراع فى نفـس بجماليـون

تلخيص ما تقدم : بجماليون فنّان نحت تمثال امرأة من العاج "جالاتيا" فجاء آية في الإبداع والفنّ ثمّ طلب من الآلهة فينوس أن تبثّ فيها الحياة. فأجابته إلى ما يريد فإذا بالنّدم يداخله حين عاد وفكّر بأنّ جالاتيا صائرة إلى الفناء بعد أن دبّت فيها الرّوح وأنّ الفنّ باق لا يزول.

جالاتيا : ولكنّ فنّك باق

بجماليون : أين هو ؟ أين هو ؟

جالاتيا : لقد صنعت في الفنّ أثرا...

بجماليون : أين هو ؟ أين هو هذا الأثر ؟ أين هو ؟

جالاتيا : آه... ليس من السهل عليّ أنا أن...

بجماليون : هذا الأثر هو... هو أنت أليس هذا ما تقصدين ؟

جالاتيا : هذا ما كنت أظنّ

بجماليون : لا

جالاتيا : لا لست أنا جالاتيا

بجماليون : لست أنت أثري الفنّي إنّي لم أصنع امرأة في يدها مكنسة .

جالاتيا : (تنظر إلى المكنسة في يدها وتداريها في خجل وألم) :آه

بجماليون : (يهدأ قليلا) معذرة يا جالاتيا إنّي آسف كلّ الأسف إنّي لم أرد إيلامك... ولا إيذاءك... ولم يخطر على بالي الانتقاص

من تقديري لك واحترامي إيّاك... إنّما... إنّما...

جالاتيا : لا تهتمّ لأمري يا بجماليون... إنّي أفهم مرادك وأدرك ما يجول في خاطرك .

بجماليون : يا زوجتي المحبوبة إنّك خير زوج وأصلح رفيق وأصدق صديق.

جالاتيا : نعم... ولكنّي... لست عملك الفنّي إنّك لعلى صواب يا بجماليون

بجماليون : ليس الذنب ذنبك يا جالاتيا إنّها الحياة جعلتك كما أنت الآن .

جالاتيا : أقلّ جمالا من أثرك الرائع

بجماليون : إنّي أحبُّك على الرّغم من ذلك

جالاتيا : نعم ولكن... حبّ فقير بخس عقيم... حبّ خليق بالحجرة المغلقة والسماء التي يحدّها سقف، حبّ لو يغنيك عن... عن... جالاتيا الأخرى

بجماليون : (يضع رأسه بين كفّيه)

جالاتيا : (تمرّ بأناملها على شعره في حنان ومودّة) يؤلمني أن أراك حزينا يا بجماليون

بجماليون : (كالمخاطب لنفسه) نعم أنت زوجتي المحبوبة ولكنّك لست... أثري الخالد .

جالاتيـــا : يسرّنـي أيُّهـا العزيـز أن تعلـن إليّ هكـذا كلّ خلجات قلبـك !

بجماليون : وفيم المكابرة ما دمت قد شعرت بما يكاد يمزّق نفسي قطعتين ويشطرها شطرين... نعم... أنتما الإثنان تتجاذبان قلبـي... أنتما الإثنان تتصارعان... هي بارتفاعها وجمالها الباقي ... وأنت بطبيعتك وجمالك الفاتن... هي الفنّ وأنت الزّوجة أيّتها الآلهة ! لقد أخذتم منّـي فنّي وأعطيتمونـي زوجة (يأخذ رأسها بين كفّيه ويتأمّله وهي جاثية عند قدميه) إنّي صنعتك هكذا حقًّا يا جالاتيا هذا الجسم وهذا الرأس وهذا الوجه لكن...مالذي تغيّـر فيك مع ذلك؟ أتدرين كيف صنعت جالاتيا العاجية ؟ لقد حملنـي ذلك الجواد المجنّح في سمـــاء المثل الأعلى... حلّقت وحلّقت حتّى تعبت الأجنحة وكلّت عن متابعة التّصعيد... هناك بين أمثلة الجمال المختلفة تخيّرت وانتقيت وعدت لجالاتيا بأكمل الصُّور وأجمل النّظرات وأحلى البسمات وأروع اللفتات... ثمّ نبذت ونحيت ... فجعلت جالاتيا منزّهة عن كلّ نقص وكلّ سهو وكلّ سخف إنّها الجمال مقطّرا من خلال ألف مصفاة من الصّبر الطويل والعمل المضني والتّجربة المتّصلة... ولقد ثبّت ذلك كلّه في العاج وخالدته لا تتألّمي يا زوجتي العزيزة... لم يذهب كلّ هذا الجمال عنك لا... لكن ما الذي تغيّر فيك مع ذلك ؟ نظراتك جميلة... نعم ولكن فيها شيئا محدود المعنى... أمّا نظراتها فكانت كأنّها تشرف على عوالم غير محدودة الآفاق لفتاتك رائعة ولكن تفسدها أحيانا حركة طائشة أمّا لفتاتها فكانت دائمة الروعة والجلال بسماتك حلوة ولكن... أعرف ما تنطوي عليه وشفتاك

رقيقتان ولكن أعرف ما ينفرج عنهما من حديث وما يمكن أن ينطبع عليهما من قبلات أمّا شفتاها فكانتا تنفرجان عن كلمات لم تقلها قطّ ولن تقولها أبدا ولكن لها صدى بعيدا يتغلغل في كلّ قلب إلى الأغوار التي لا يدرك لها قاع... وفمها يوحي بقبلات لم تمنح قطّ ولن تمنح أبدا ولكنّها تتراءى للأعين دائما وتسرّ النفوس دائما على مدى الأزمان... هذا هو الفرق بينك وبينها وكلّ ما فيك محدود وكلّ ما فيها غير محدود.

جالاتيا : (في صوت خافت وإطراق ذليل)

صدقت يا بجماليون.

« **بجماليون** » (الفصل الثالث)

بجماليون وجالاتيا

يبدو بجماليون أنّه مملول شديد السّأم وجالاتيا تحاول تسليته وتردّ عليه الراحة :

جالاتيا : (تدنو منه) إنّك في حاجة إلى الرّاحة، الإقامة في الكوخ لا تلائمك هنا يا بجماليون أعرف كيف أحيطك بكلّ عنايتي... من يدري لعلّ شمس الغابة التي كنّا نتعرّض لها طول النّهار.

بجماليون : كلاّ... ليست الشمس...

جالاتيا : (تضع خدّها على جبينه) جبينك حارّ بعض الشيء

بجماليون : أترين ذلك ؟

جالاتيا : (تجسّ يديه) ويداك أيضا... فيجب أن أعدّلك فراشك لتأوي إليه .

بجماليون : الآن ؟ لا... لا أريد النّوم الآن...

جالاتيا : لا تنم إذن... استلق بجسمك على الفراش... وأنا أحضر إليك شرابا من عصير الفاكهة ... وأجلس عند قدميك هكذا... أحادثك حتّى تنام.

بجماليون : (يعبث بشعرها وهي جاثية عند قدميه) ما أطيبك يا جالاتيا إنّي أحبّك... نعم ... أحبّك على الرّغم من كلّ شيء...

جالتيا : (ترفع عينيها) على الرّغم من كلّ شيء... ؟ ماذا تعني؟

بجماليون : لست أعني شيئا... إنّما هي كلمات نلفظها دون أن ندري لماذا لفظناها

جالاتيـــا : أنـا أدري لمـاذا لفظتهـا

بجماليون : لا أظن أنّـك تدرين بما لا أدرى بـه أنا نفسـي لا تشغلـي بالـك أيتهـا العزيـزة بمـا تلفـظ الأفـواه من كلمـات إنّـمـا جعلت لنا هـذه الفـوهـة لنخـرج منهـا دخانـا من الحمـاقـــات.

جالاتيـــا : دخان ينذرنـا أحيانـا بمـا في جوف البـركـان ! ومع ذلك... سأفعـل ما تـريـد لن أشغـل بالي بغيـرك أنـت...

بجاليون : وحتّى هذا... لا تغالـي فيـه...

جالاتينا : آه يا عـزيـزي بجماليـون ألم أقـل لـك إنّك تتبرّم بكلّ شيء الآن... حتى بحبّي لـك

بجماليون : هذا غير صحيح إنّي أمنعك عن التحدّث هكذا... إنّـك لتـزيـديـن في ألمـي بمثـل هذا الكلام.

جالاتيـــا : أزيـد في ألمـك ! لو أنّي كنت جديـرة أن تخبـرني بهـذا الألـم ! متى تأذن لـي على الأقـل في أن أضمّـد جراح نفســك؟

بجماليون : جراح نفسي! من الذي أخبرك أنّي جريـح... وأنّي متألّم هل شكـوت هل تـوجّعـت ؟ من أيـن تأتيـن بهـذه الهـواجس والأوهـــام .

جالاتيـــا : (تنهض وتعـود إلى مكنستهـا) سأفعـل ما تـريـد سألزم الصمـت... إنّـي لا ريـب أسأت الفهـم...

بجماليون : إنّـا دائمـا نسيء فهـم أنفسنـا، خيـر الأمـور فيمـا أرى أنّ لا نطلـب هـذا الفـهم أو نحـاول إذا أردنـا لأنفسنـا السـلام.

« **بجمـاليـون** »

لكـل مجتهـد نصيـب

المنظـــر الأول

حجرة في إحدى المصالح بها مكتب واحد... يجلس إليه موظّف واحد... والمكتب ليس فوقه أوراق ولكن فوقه فنجان من القهوة وكوب من الماء وعليه سجاير... والموظّف اسمه شعبان أفندي يدخّن ويطالع إحدى صحف الصّباح باهتمام... وعندئذ يسمع نقر على البـاب... ثمّ يفتح ويظهر السّاعي.

السّاعي : (معلنا) الأستاذ مرسي عبد الجواد

شعبان : (بسرعة) يتفضّل... يتفضّل (السّاعي يفتح الباب ويدخل الزائـر)

مرسي : (داخلا) سلام عليكم

شعبان : (ناهضا مسلّما) أهلا وسهلا... قهوة ؟ ...سيجارة ؟ (يقدم العلبة)

مرسي : (وهو يتناول سيجارة بعد أن جلس قرب المكتب) سيجارة فقط لا غير

شعبان : (وهو يشعل له السيجارة) مبروك يا مرسي

مرسي : (باسما) يا مرسي بك، من فضلك

شعبان : طبعا الدرجة الخامسة

مرسي : ورئيس قلم... طويل عريض

شعبـان : (مشيـرا إلى الجريـدة فوق المكتب) حركـة واسعـة... بسم الله ما شـاء الله

مرسـي : شملـت كثيرا من إخـواننا... ولقد بحثت عن اسمك ياشعبان

شعبـان : لاتتعب نفسـك !... اسمِـي غير موجـــود

مرسـي : سهـو غير مقصـود

شعبـان : مقصـود... غير مقصـود... الحـركـة لم تشملنِـي والسلام

مرسـي : والسبب ؟

شعبـان : سبب ؟... تسألنِـي أنـا عن السبب ؟ ؟

مرسـي : قلبِـي عنـدك

شعبـان : لم ينفـع سجـودي ولا صلاتِـي... منذ أن ظهـرت الإشاعة عن إعـداد مشـروع الحـركـة... وأنـا أتـوضـأ كـلّ يوم خمـس مـــرات وأصلّـي في اليـوم عشـرات الـركعـــات... فرضـا وسنـة واجبـا ونـافـلـة... كلّ ذلك لأصـل إلى الدرجـة السابعـة... تـرى ماذا يفعـل أولئـك الذيـن يـريـدون أن يصلـوا إلى السمـاء السابعـة ؟ ؟...

مـرسـي : أنـا أقـــول لـك...

شعبـان : قـل لـي بسرعـة من فضلـك

مرسـي : قبل كـلّ شيء يجب أن تتـذكّـر الحكمـة المأثـورة : لـكلّ مجتهـد نصيـب

شعبـان : وهـل أنـا كسـلان

مرسـي : الله أعلم...ولـكن الظاهـر للعين المجرّدة أنّـك لا تؤدّي عملا

شعبـان : مـن أدراك ؟ ؟

مرسـي : أدرانِـي مكتبـك هذا الذي ليس عليه ورقـة تـوحّـد الله...

شعبـان : هل المسألـة مسألة مظاهـر ؟... تعال هنا وانظر (يفتـح درجا فيّ المكتـب)

مرسـي : (يطـلّ وينظـر متسائـلا) ما هـذا ؟

شعبـان : ثـلاثـون ملفـًّا... وارد اليـوم !

مرسـي : لم تنجـزهـا ؟ ؟

شعبـان : بـل أنجـزتهـا كلّـهـا في ساعتين

مرسـي : أنجـزتهـا كـلّـهـــا ! !

شعبـان : ليـس اليـوم فقـط ! ... كـلّ يـوم أنا على هـذه الحال ... يـرد لـي في المتـوسط نحـو ثـلاثيـن ملفـًّا... فـلا يهـدأ لـي بـال ولا يطمئِنّ لـي خاطـر ولا يـرضى لـي ضميـر حتّـى أنكبّ عليهـا انكبـابا وأعمـل فيها بكلّ قوتي وهمتّـِي إلى أن أنجزهـا وأفـرغ منهـا... وأجلـس بعدهـا كمـا تـرى خاليـا مـرتـاحـــا أشـرب قهـوتِي وأدخّـن سيجارتِي بلـذّة ومـتعة ...

مرسـي : (بـدون وعي) حمـار...

شعبـان : (مأخـوذا) مـاذا تقـــول ؟

مرسـي : لا تـؤاخـذنِـي يا شعبـان... إنّـمـا أنـا أرثـي لـك، لقـد وضعـت يـدي الآن على سـرّ خيبتـك

« **لكل مجتهد نصيب** »

الشيطـــان فى خـطـــر

« حجـرة مكتب بسيطـة الريـاش ...
الفيلسوف بين أكداس الكتب والمجلات
يقـرأ ويفكـر فى هـدوء الليـل... »

خـلاصة المشهـد الأول :

بينمـا كـان الفيلسـوف منهمكـا في تفكيره يـدقّ جرس التليفـون فيتناول السمّـاعـة وإذا بالمكالـم يقـول : إنّـه الشيطـان بنفسه يرغب في مقابلـة الفيلسـوف فيرفض هذا قبول الطلـب ويضـع السمّاعـة ولم يكـد يفعـل حتّى طرق مسامعـه نقـر باب الحجـرة. يفتـح الفيلسـوف البـاب وإذا الشيطـان يظهـر لـه بثيابـه الحمـراء. يدخـل الـزائـر الحجـرة ويرغب في أدب ولياقـة من الفيلسـوف أن يمـدّه بفكـرة يستطيـع بهـا التخلّص من خطـر جسيـم يهـدّده ويهـدّد البشـريّة وهو : الحـرب. الفيلسـوف يندهـش لصدور مثل هـذه الـرحمـة عن الشيطـان وبينمـا همـا يتناقشـان في هـول الحرب الذريّة المقبلـة وضـرورة درء خطـرهـا إذ يفتـح فجـأة بـاب مغلـق في الحجـرة وتنـدفـع منه امـرأة في ثيـاب المنـزل... هي زوجـة الفيلسـوف.

الزوجـة : (صائحـة) أما كفى قـراءة وكتابـة ؟... هذا النـور الكهربائـي الذي تبقيـه طول الليـل ، أهـو بنقـود أم بغيـر نقـود ؟ !... ومن الذي يـدفـع حسابـه كلّ شهـر ؟... أهـو أنـت من جيبـك أم أنـا من المصـروف؟!..

الشيطـان : (هامسا) من حضـرتهـا ؟ !....

الفيلسـوف : زوجتـي !...

الشيطـــان : خذ راحتك في الحديث معها، إنّها لم تبصرني ولم تسمعني !...

الزوجة : (لزوجها)كلّمني ! ... ما لك تحرّك شفتيك وتنظر إلى الفضاء؟؟

الفيلسوف : (يلتفت إليها) نظرت إليك أنت !... طلباتك ؟ !...

الزوجـــة : طلباتي ؟ !... أنت تعرفها جيّدا وتتقن تجاهلها !... ولكنّي أقسمت أن أحقّقها كاملة شئت أم كرهت !

الفيلسوف : بالقوّة !

الزوجـــة : أنت لا تريد أن تسوّي أمورنا بالوسائل الودّية !...

الفيلسوف : أنا ؟ !... أنا الرجل المسالم ؟ !...

.....

الزوجـــة : أرأيت ؟ !... كلّ ما تتمنّاه أنت هو أن تسمّم حياتي !..

الفيلسوف : وأنت ؟ !... هل قررت الإضراب يوما واحدا عن تنغيص حياتي ؟ !...

الشيطـــان : (هامسا للفيلسوف) أهذا هو الزّواج ؟ !...

الفيلسوف : نعم... لطيف جدّا... أليس كذلك ؟ !

الزوجـــة : عدت تحرّك شفتيك وتحملق في الفضـــاء !...

الفيلسوف : أتريدين أيضا التحكّم في شفتي والتّدخّل في عيني؟!.. أليس لي الحقّ أن أكلّم من أشاء وأنظر إلى من أشاء ؟ !...

الزوجـــة : ليس في الحجرة غيري !...

الفيلسوف : من أدراك ؟ !...

الزوجـــة : تقصد أن هنا الآن شخصا آخر غيري تنظر إليه وتخاطبه ؟...

الفيلسوف : غيرك ؟ !... طبعا هنا غيرك !... أتظنين أنه ليس في الكون غيرك ؟ !...

.....

الزوجة : لا ينبغي أن يكون في البيت كلمتان وحاكمان !... بل أمر واحد ومسيطر واحد...

الفيلسوف : هو أنا بالطبع !...

الزوجة : بل هي أنا بالضرورة !...

الفيلسوف : أهذا معقول ؟ !

الزوجة : المسألة ليست بالعقل ! !...

الفيلسوف : بالقوّة ؟ !...

الزوجة : بكلّ أسف نعم !... وسترى الآن من منّا الذي سيخضع الآخر !... لقد قلت منذ لحظة : أنّك تبصر ما لا أستطيع أن أبصره !... خسئت وكذبت !... إنّي أبصر الآن أكثر منك ذلك الشّخص الذي معنا في الحجرة !...

الفيلسوف : تبصرينه ؟ !... من هو ؟...

الزوجة : هو الشيطان !...

الشيطان : (هامسا) يا للعجب !... كيف شمّت رائحتي ؟ !...

الفيلسوف : (دهشا) أترينه الآن معنا !...

الزوجة : (دون أن تلتفت أو تفطن لوجود الشيطان الفعليّ) نعم !... ولتكن على حذر !... فهو الآن بيني وبينك... ألاّ تعلم – وأنت الفيلسوف – ذلك المثل الذي يقول : "ما اجتمع رجل وامرأة إلاّ كان الشيطان ثالثهما" ؟...

الشيطـــان : (همسا للفيلسوف) ليس دائما !... إنّـي هنا الليلة بينكما بمحض المصادفـــة... كما تعلم !...

الفيلسوف : (للشيطـان)... نعم !... أعلم !...

الزوجـــة : (وقد ظنّت الكلام موجّها إليها) تعلم ؟... نعم هذا المثل حقيقـيّ !... والدليل على وجود الشيطان بيننا الآن أنّـه يوسوس لي أن اختطف هذه المحبرة التي أمامك هكذا !... (تشرع باختطاف محبرة المكتب)... وأن أقذف بما فيها على رأسك، وثيابك، وكتفك!..

الشيطـــان : (هامسا للفيلسوف) يا للظلم !... أتصدّق أنّي أقـــول لها أن تفعل ذلك ؟ !

الفيلسوف : لا... لا أصدّق طبعـــا !...

الزوجـــة : (رافعة في يدها المحبرة) لا تصدّق ؟... بل صدّق أني أفعلها ! ... إذا لم تبادر وتسلّم لي بلا قيد ولا شرط !...

الفيلسوف : (هائما) أجننت ؟ !... تلقين عليّ هذه المحبرة بما فيها من حبـــر ؟ !...

الزوجـــة : حبر أحمر كالدّم !... سلّم لي في الحال وأعلن خضوعك التّـام !!!!

الفيلسوف : خضوعي التّـام ؟ !...

الزوجـــة : بدون قيد ولا شرط... وإلاّ ألقيت عليك هذه!...

(تهزّ في يدها المحبرة...)

الفيلسوف : (صائحا هذه ؟ !... هذه قنبلة... قنبلة ذرّيّـة !...

الزوجـــة : (مهدّدة بالمحبرة) فلتكن ما تكون !... اخضع وإلاّ..

الفيلسوف : (ملتفتا إلى الشيطان مستنجدا) ما رأيك ؟...

الشيطـــان (هامسا لـه) رأيـي ؟... تسألنِي عن رأيِي وأنا الذي جئت ألتمس رأيك ! أرأسك هذا هو الذي سيفكّـر لي في منع الحـــرب ؟...

الفيلسوف : الحرب في حجرتي !!!! (يشير إلى زوجته) وهي التي أعلنتهـا !...

الشيطـــان : (منصرفا) يا خيبة أملِي في حضرتك !...

الفيلسوف : تنصرف ؟ !... وتتركنِـي مهدّدا ؟ !... انقذني!...

الشيطـــان : دعنِي أنقذ نفسِي أولا... من هنا... قبل أن تلقى في الحجـــرة قنبلتكم الذّريـة !

(يهرول هاربا من الباب مشيرا بيده إشارة الوداع !...)

« الشيطـان فى خطـر »

في الكـوكب المجهـول

السجين الثاني : معنى هذا أنّنا نعيش الآن فوق كوكب معدنيّ مشبع بالكهرباء... كهربـاء لا أدري كنهها... ولكنّي اكتشفت آثارها... وفي استطاعتنا إجراء تجربة الآن إذا أردت... سأوّجه إليك كلاما... لا من فمي... ولكن من رأسي... هل أنت مستعدّ ؟...

السجين الاول : تكلّم !...

السجين الثاني : "يطرق ويستجمع فكره ويركّزه ولا ينطق بشيء"؟؟...

السجين الاول : نعم... نعم... سمعت... أدركت...

السجين الثاني : ماذا قلت لك ؟...

السجين الاول : قلت لي : "نحن الآن مخلوقات نعيش بالكهرباء"!..

السجين الثاني : بالضبط... هذا نصّ العبارة التي وجهتها إليك...

السجين الاول : هذا عجيب حقّا !... إذن صرنا !...

السجين الثاني : صرنا نملك في رأسينا محطّات إرسال واستقبال!...

السجين الاول : "مفكّرا لحظة" انتظر... انتظر... ربّما كان هذا أيضا يفسّر سرّ بقائنا على قيد الحياة !... لماذا لا تقول إنّ الطاقات الحيوية التي كان يكتسبها الجسم وخلاياه بالدورة الدموية والاكسجين صار يكتسبها الآن من خارجه مباشرة بالاشعاعات الكهربائية ؟ !

السجين الثاني : هذا هو السرّ...

السجين الاول : إذن نحن...

السجين الثاني : نعم... نحن الآن يا صديقي قد صرنا كبطارية تشحن بالكهرباء... وهي تشحن آليًّا ما دمنا فوق هذا الكوكب !...

السجين الاول : نحن آليًّا كالبطارية !... ما عدنا إذن نحتاج إلى طعام أو شراب... حقًّا... إنّي لم أعد أشعر بالجوع...

السجين الثاني : ولا أنـا...

السجين الاول : مع أنّه قد مضى علينا ولا شكّ وقت طويل منذ سقوطنـا...

السجين الثاني : ولا نشعر كذلك ببرد ولا بحرّ...

السجين الاول : طبعا... ولا بحاجة إلى ملابس...

السجين الثاني : مجرّد جهازين كأجهزة اللاسلكي !!!...

السجين الاول : لا نأكل ولا نشرب ولا نبرد ولا نسخن ولا ننام !...

السجين الثاني : ولا ننام ؟ !...

السجين الاول : وما حاجتنا إلى النّوم ؟ !... ما دام النّشاط مستمرًّا بصفة آليّة ؟ ! هل تنام البطارية المشحونة ؟ !...

السجين الثاني : حقّـا... لن ننام...

السجين الاول : ولن نمرض... ولن نموت...

السجين الثاني : ماذا تقـول ؟ ...

السجين الاول : ما دامت الحياة فينا مستمرَّة بما نتلقّاه من اشعاعات خارجيَّة فكيف يأتي الموت ؟ ... لن نعرف الموت أبدا فوق هذا الكوكب !...

السجين الثاني : نحن إذن هنا باقيان... دائما... مثل هذا الجبل المعدني الذي نراه أمامنا ! ... هذا جميل ! ... أليس كذلك ؟...

بل هذا يدعو إلى السُّخريَّة ! ... حكموا علينا في الأرض بالإعدام وقادونا إلى الموت... وإذا نحن نعيش دائما... إلى الأبد ! ... أمَّا هم على الأرض فسوف يموتون جميعا ! ...

(يضحك ضحكات متلاحقة)

السجين الاول : لا تضحك هكذا !! ...

السجين الثاني : ولم لا ؟... أضحك أنت أيضا ! ... لو علم من قضوا علينا بالموت أنَّنا نتمتَّع هنا بالخلود... (يضحك)

السجين الاول : أضحك أنت وحدك... أمَّا أنا فلا...

السجين الثاني : ماذا يمنعك ؟... ألا يسرّك على الأقلّ ما وصلنا إليه : الصِّحة الدّائمة والحياة الخالدة ...

السجين الاول : هذا جميل حقًّا... ولكن...

السجين الثاني : ولكن ماذا ؟ ...

السجين الاول : النتيجة !... ماذا نفعل منذ الآن... ما هو عملنا؟... حتَّى مجرّد اكتشاف هذا الكوكب ثمّ بما في رأسينا من اشعاعات دون حاجة إلى حركة أو عمل ! هل فكَّرت في أيّ شيء نستخدم به حياتنا هنا ؟... هذه الحياة الخالدة والصِّحة الدّائمة !!...

السجين الثاني : قبل كلّ شيء قم بنا نصنع لنا منزلا... أو مأوى!...

السجين الاول : لماذا المأوى والمنزل ؟ ...

السجين الثاني : "مفكّرا" نعم !!! ... حقًّا... لا حرّ هنا ولا برد..

السجين الاول : ولا تعب... ولا حاجة إلى راحة أو استجمام أو استرخاء... لقد قلتها أنت : نحن مثل هذا الجبل المعدني !...

السجين الثاني : ولكن يجب على كلّ حال أن نعمل شيئا ! ...

السجين الاول : هنا المشكلة ! ... ما هو العمل الذي نعمله ؟ !

السجين الثاني : "يفكّر لحظة" لا... لا تخفني !... ما هذا الكلام الذي تقول ؟... تريد أن تقول إنّه لم تعد بنا حاجة إلى العمل... لن نجوع حتّى نبحث عن الطعام ولن نتعب حتّى نبحث عن المأوى... فليكن !... ولكن يجب أن نعمل ... لا يمكن أن نقضي هذا الخلود دون عمل شيء ! ...

السجين الاول : هل هذا الجبل المعدني يعمل شيئا ؟ !...

السجين الثاني : لا... ولكن هذا الجبل لا عقل له... أمّا نحن فلدينا العقل... وهذا العقل... وهذا العقل يرفض أن يبقى ساكنا لوقت طويل...

السجين الاول : إذن فليفكّر هذا العقل لنا في شيء نعمله...

السجين الثاني : نعم هذا كلّ أملنا... هذا العقل... وهو يجب أن يعمل... لأنّه إذا وقف فقد انتهينا... انتهى الإنسان فينا... ودخلنا في عداد الأشياء ، لا في عداد الأشخاص !...

السجين الاول : أجبني... ماذا يفعل الحيوان ؟ ... بل حتّى الإنسان عندما يشبع ولا يجد ما يعمل ؟ إنّه يلعب... أليس كذلك ؟ ... ما دمنا فقدنا الحاجة إلى العمل فأمامنا اللعب ؟ ...

السجين الثاني : اللعب ؟ !! ... ماذا نلعب هناك ؟ !...

السجين الاول : ماذا كانت هوايتك على الأرض ؟ !...

السجين الثاني : هوايتي ؟ !... كانت هوايتي إصلاح أجهزة الراديو... كان الجيران منذ كنت طالبا في الهندسة يرسلون إليّ أجهزتهم لإصلاحها... وحتّى قبل القبض عليّ كنت أفسد جهاز الراديو عمدا لإصلحه من جديد... وأنت ماذا كانت هوايتك ؟...

السجين الاول : الإصغاء إلى جهاز الراديو !... هوايتك أن تصلحه وهوايتِي أن أصغِي إليه... إلى الموسيقى على الأخصّ... كانت تطربنِي تلك الأغنية التي تقـــول :...

(يسمع في الحال صوت أغنيَّة "حياتِي لك طول الأبد" كأنَّها صادرة فعلا من جهاز للراديـــو ...)

« رحلة الى الغد »

العـــودة الى الأرض

(شبه بهو فى مسكن عجيب ... لا يمكن وصفه بالدقة ولا تخيله تماما ... فهو بالطبع غير الطراز المعروف ... والحيطان تكاد تكون مضيئة كأنها من زجاج لكنها مغطاة فى بعض الاركان بستائر غريبة النقش . فى أحد جوانب هذا البهو تقف فتاة شقراء فى ثياب غريبة كذلك أمام جهاز يشبه أجهزة التسجيل الصوتى والتلفزيونى ... وهى مشغولة باعداده ...)

السجين الاول : "يدخل وهو يتثاءب" آه... ما ألذ النوم !... يظهر أنّي نمت كثيرا !

الشقراء : أكثر ممّا ينبغي... يكفينا عادة ثلاث ساعات !...

السجين الاول : فقط ؟... هذا خطأ... إنّ النّوم ليس لمجرد استعادة النشاط... إنّه في ذاته متعه...

الشقراء : متعـــة ؟ !...

السجين الاول : أدركنا هذا ونحن فوق ذلك الكوكب الملعون !...

الشقراء : ستصف كلّ مشاعرك بالطبع في تقريرك عن الرحلة... والآن... هل أنت مستعدّ للبدء في العمل ؟...

السجين الاول : لحظة من فضلك !... أريد قدحـــا من القهوة !... تلك متعة أخرى !...

الشقراء : معذرة !... لم تتناول قهوتك بعد ؟ !... أتريـــدها باللبن ؟ !... ومع ذلك تستطيع أن تجهّز لنفسك القهوة التي تريدها... ليس أبسط من ذلك... هناك في المطبخ... تجد إلى جانب أنابيب المياه

الباردة والساخنة أنابيب أخرى ذات ألوان مختلفة، إحداها للقهوة والثانية للشاي والثالثة للبن. والرابعة للحساء وهكذا ، افتح الصنبور الذي تريده وضع تحته القدح بالمقدار الذي تحبّ ...

السجين الاول : أفي كلّ مسكن هذا ؟ !...

الشقراء : بالطبع... هذه السوائل من ضروريات الحياة كالمياه تماما...

السجين الاول : هذا ولا شكّ يكلّف كثيرا ؟ !...

الشقراء : بالعكس... التكاليف زهيدة جدّا... وتتحمّلها الدولة عادة في كلّ مكان.

السجين الاول : شيء عجيب ! ...

الشقراء : ألم يكن هذا موجودا في عصركم ؟...

السجين الاول : العفو !...

الشقراء : حقّا... حقّا... في دراساتنا التاريخيّة لذلك العصر منذ ثلاثمائة سنة كان العالم مختلفا...

السجين الاول : ثلاثمائة سنة !... أليس عجيبا أن أسمعكم تقولون هذا عنّا وعن عصرنا... أنا وزميلي !... ثلاثمائة سنة ؟ !... أين كنّا طوال هذه الأجيال ؟ إنّ هذه الرحلة لم تستغرق في نظرنا أكثر من يوم أو بعض يوم !!!

الشقراء : إذا أردت الدّقة فهي قد استغرقت ثلاثمائة سنة وتسعا...

السجين الاول : وتسعا ؟...

الشقراء : بالضبط... طبقا للحساب الذي أجرته هيئة العلماء على أساس ما هو مثبت في السجلات العلميّة القديمة...

السجين الاول : بالتأكيد... يوم انطلاق الصاروخ بنا كان طبعا يوما مشهودا ومثبوتا في السجّلات... هذا لا جدال فيه... ولكن شعوري...

الشقراء : شعورك... هذا ما يجب أن تصفه في تقريرك...

السجين الاول : كيف يمكن إلغاء هذا الشعور... أو تغييره ؟... قد يكون ما تقولين صحيحا... بل هو قطعا صحيح علميّا... لأنّه معروف أنّ الزمن على الأرض نسبيّ... وبمجرّد انطلاقنا من الأرض بسرعة الضوء نتجرّد أيضا من الزمن، وتصبح اللحظة مساوية لعام هنا... كلّ هذا صحيح في نظر الحقيقة العلميّة... لكن الحقيقة الشعوريّة ؟! شعوري أنا... ماذا أصنع فيه ؟ !...

الشقراء : صفه وصفا دقيقا...لأنّها حقّا تجربة رائعة !... وهذا ما ينتظره النّاس منك... في كلّ بقاع العالم... وما سوف يكون موضوعا لدراسة العلماء في كلّ مكان !...

السجين الاول : نعم... أنا الآن فأر في قفص زجاجيّ، موضوع لدراسة العلماء والهيئات العلمية ؟ !... أليس كذلك ؟ ! ...

الشقراء : ليس هذا بالضبط !... أنت أيضا موضوع تكريم في كلّ مكان !... إنّك تخدم العلم، والدولة تقدم إليك تقديرها !...

السجين الاول : حقّا... لست أنكر... لقد أعدوا لي هذا المسكن الجميل وخصّصوا لي هذه السكرتيرة الجميلة !...

الشقراء : "باسمة" شكرا !...

السجين الاول : بهذه المناسبة تعرفون بالطبع أنّه كانت لي زوجة؟! على هذا الحساب لا يمكن أن تكون باقية حتّى الآن على قيد الحياة!...

الشقراء : بعد ثلاثمائة عام ؟ !... ولم لا ؟ !...

السجين الاول : ماذا تقولين ؟!...

الشقراء : قد تجدها مسنّة بالطبع... وقد تكون ماتت قبل أن تلحق عصر التقدّم الطبّي...مهما يكن من أمر فإنّ لدينا كثيرين في الستين أو السبعين أو حتّى الثمانين بعد المائتين... في صحّة جيّدة...

السجين الاول : عجبا !... وما هو متوسّط العمر عندكم إذن !...

الشقراء : مائة وخمسون عاما وربّما مائتان... ثمّ يبدأ الشخص يفقد شبابه !...

السجين الاول : شبابه ؟!... ومتى إذن الشيخوخة ؟ !...

الشقراء : الشيخوخة العادية تظهر آثارها على الشخص عندما يقترب عادة من الثلاثمائة...

السجين الاول : شيء جميل !...

الشقراء : علمنا من التاريخ أنّه قبل ثلاثة قرون كانت شيخوخة الانسان في الثمانين !... هذا قليل جدّا !... ألا ترى ذلك ؟ ...

السجين الاول : أتسألينني أنا ؟ ... إنّنا كنّا نرى الثمانين عمرا مديدا !....

الشقراء : هذا مضحك... على ذلك كم ترانِي أبلغ من العمر ؟...

السجين الاول : أنت ؟... بالطبع ما بين العشرين والخامسة والعشرين !.

الشقراء : "باسمة" أنا في الستين يا سيّدي !...

السجين الاول : ماذا تقولين ؟... لا... أرجوك – لا تسخري منّي !..

الشقراء : بل هي الحقيقة... لماذا تستغرب ؟... سنّ الستين هي سنّ صغيرة...

السجين الاول : وفي الخامسة والعشرين كيف كنت إذن ؟...

الشقـراء : كنت كمـا أنا الآن... لم أتغيَّـر كثيرا... من ناحيـة الجسم على الأقـــل !...

السجيـن الاول : ومـــاذا تفعلـــون لتبقـوا هكـــذا ؟ !...

الشقـراء : وأنتم في عصركم... ماذا كنتـم تفعلـــون لتشيخـوا في الثمـــانيـن ؟ !...

السجيـن الاول : كـانت هناك أمـراض... وكـانت الغـدد تضعـف والخـلايـا تبلى... والشرايين تجف... وأشيـاء أخـرى من هذا القبيـل !...

الشقـرا : قبل سنّ المائتين قلَّما يحدث لنا شيء من هـــذا !...

السجين الاول : الطبّ الذي أعرفـه ونبغـت فيه لا شـكَّ أنـه شيء بدائي جدّا عندكم الآن... يجب أن ألتحـق بكليّة الطبّ من جديـد لأتخـرّج طبيبـا ملمّـا بما وصلتـم إليـه من علـم...

الشقـراء : لا حاجـة بـك إلى ذلـك... عندنـا أطبّاء كثيـرون لا يجـدون عمـلا... وأنـت الآن في يـدك عمـل لا يعرفـه أحد غيرك... الـدنيـا كـلّهـا تنتظـر وصف مغامـرتـك العجيبة في الفضـاء... إن البيانات التي ستدلـي بهـا ستكون لهـا أكبـر القيمـة في نظـر الجهـات العلميـة المختلفـة... إنهـا كلّهـا مترقّبة منتظـرة... وكمـا قلـت لـك أمـس لـن تحتـاج إلى أن تـدون معلـومـاتـك أولا... يكفـي أن تتحدّث أمـام هذا الجهـاز لترسـل حـركـاتـك مع حديثك مترجمـا إلى كلّ لغة في نفس الـوقت إلى كلّ بيت في العالـم...

« رحلـة الى الغـد »

(1)

التمثيل عند العرب

الأدب التمثيليّ باب لم يفتح في اللغة العربيّة إلاّ في العصر الحاضر ! ..... ولقد تردّد الأدب العربيّ في قبول هذا اللون الغريب عنه !... فتركه زمنا خارج جدرانه يسمع بأمره من أفواه النظارة دون أن يحفل بالالتفات إليه أو الخوض فيه !...

لقد جدّ منذ نحو قرن في بعض البلاد العربيّة كسوريا ولبنان ومصر نوع من المسارح يمتزج فيه الجدّ بالهزل والتمثيل بالغناء... وقد نقلت إليه بعض قصص الغرب نقلا تامّا وغير تامّ تعرض في ثوبها الأصيل أو في ثوب يناسب الشرق أحيانا في لغة فصحى وأحيانا في لغة تلائم أفهام العامّة...

وكان المنبع الذي يستقي منه المسرح في ذلك الوقت هو الأدب الفرنسي والأدب الانقليزي فرأينا البخيل لمليار تعرض بالزّجل ورأينا روميو وجوليت لشكسبير تعرض بالألحان...

كان مبدأ المسرح العربيّ في الشرق كما هو معروف "مارون النقّاش" ثمّ تبعه خلفاؤه : القرداحي وأبو خليل القبّاني... إلخ... إلى أن حمل لواءه الشيخ سلامه حجازى... وورثه برواياته وألحانه أسرة عكاشة فمضوا في خطّته... ولكنّ الثورة المصريّة وانبثاق الروح القوميّة دفعتهم إلى الالتفات نحو تمصير رواياتهم... في ذلك الوقت بدأ كاتب هذه السطور حياته المسرحية مؤلّفا لتلك الفرقة بعض الروايات على النحو الذي كان العمل عليه جاريا في تلك الأيام...

من مقدمة « الملك اوديب »

(2)

مهمة الفن وتأثيره

... ما مهمّة الفنّ الحقّ إذن ؟ أهي أن يقف في المجتمع واعظا ومرشدا وهاديا إلى سواء السبيل ؟

من المجمع عليه أنّ الوعظ والإرشاد ليسا من وظيفة الفنّ لأنّ وظيفة الفنّ هي أن يخلق شيئا حيًّا نابضا يؤثّر في النفس والفكر...

ما هو نوع هذا التأثير ؟ هنا المسألة !

إنّ نوع التأثير هو الذي يحدّد نوع الفنّ فإذا طالعت أثرا فنّيا قصيدة أو قصّة أو صورة وشعرت بعدئذ أنّها حرّكت مشاعرك العليا أو تفكيرك المرتفع فأنت أمام فنّ رفيع... فإذا لم تحرّك إلا المبتذل من مشاعرك والتافه من تفكيرك فأنت أمام فنّ رخيص.

هنالك سؤال آخر : ما مصدر هذا التأثير في العمل الفنّي ؟ أهو الأسلوب أم اللّب ؟ أهو الشكل أم الموضوع ؟

إنّ الأثر الفنّي الكامل في نظري هو ذلك الذي يحدث فينا ذلك الشعور الكامل بالارتفاع !... وقلّما يحدث هذا إلا عن طريق السموّ في اللّب والأسلوب لأن ضعف الشّكل وسقم الأسلوب يحدثان في النفس شعورا بالقبح والضّيق والاشمئزاز وهذا ينافي الشعور بالجمال والتّناسق والانسجام...

شأن الفنّ هنا أيضا شأن الدّين... فما من رجل دينّ يثير في نفسك إحساسا علويًّا حقًّا إلا إذا كان في طريق حياته مستقيم السلوك سليم الأسلوب... بغير ذلك يختلّ التّناسق بين الغاية والوسيلة وبهذا الاختلال يداخل النفس شعور الشكّ في حقيقة رجل الدّين .

لو علم رجل الفنّ خطر مهمّته لفكّر دهرا قبل أن يخطّ سطرا.. ولكنّ الوحي يهبط عليه فيسعفه ومعنى هبوط الوحي أنّ شيئا ينزل

عليه من أعلى، شأنه في ذلك شأن المصطفين من أهل الدّين... وهل يمكن أن يهبط من أعلى إلاّ كلّ مرتفع نبيل ؟ ...

للدّين وللفنّ... السمـــاء هي المنبع.

« **فـن الأدب** »

(3)

أشخـــاص المســـرحيـة

يتعيَّـن على المؤلّـف المسرحيّ أن يتخيَّـر من الأشخاص من تعقَّدت حياتـهم إلى الحدّ الذي يستطيعـون معـه أن تكـون قلـوبـهم موضعـا لانفعالات مختلفـة ونفـوسهم مظهـرة لطبائـع متباينـة وعقـولـهم قادرة على التعبير والإفصاح... ولقـد كـان مؤلّفو المسرح في القديم يتخيَّرون أشخاصهـم من بين الملـوك والأمـراء وعليـة القـوم يـوم كـانـت الثقـافـة ومـا يتبعهـا من تعقُّـد الحيـاة والمشاعـر والفكـر محصـورة فيهم فلمَّـا انتشـر التَّعليم والتثقيف في العصور الحديثـة وشمـل أهـل الطبقـات المتوسِّطـة في الحضـر وتعقَّـدت تبعـا لـذلك وتنـوّعت حياتـهم وعواطفـهم وعقولهم اتَّجه المؤلّـف المسرحـي إلى هـذه الطبقـة الـوسطى ينتقي من بينهـا أشخـاصه وهـو لهذا السبب قلّمـا يتـرك الحضر ويتّجه إلى الريـف. فإنّ عـــدد المسرحيـات التي اتَّخـذت من الـريف موضـوعـا ضئيـل جدّا في تاريـخ الآداب المسرحيّة قديمهـا وحديثهـا... وهذا راجـع بالضـرورة إلى أن أهـل الـرّيف بحياتـهم الـراتبة الهادئـة التي تجـري على نمـط واحد وبخلقـهم الساذج البسيـط قلَّمـا يمنحـون كـاتـب المسرحيـة ما يحتاج إليـه من الحوادث التي تكشـف عن حقائق الطِّباع وغرائب الأخلاق وما يلزمه من مدارك تحسن الإفصـاح والتَّعبير عن خفايا النفوس فضلا عن عنصر الطبيعة في الرّيـف وصلتـه بـالنَّـاس وحاجتـه إلى شاعـر يتغنّـى بجمالـه أو ناثـر يصف ألـوانـه أكثـر ممَّـا يحتاج إلى المسرحي الذي لا يبنِـي عملـه إلاّ على ألـوان النفـوس والطبائـع والأخلاق والمـدارك.

« فـن الأدب »

(4)

الحـــــوار

...مهمّـة الحـوار إذن ليست أن يـروي ما حـدث لأشخـاص ولـكنّ مهمّـته أن يجعلـهم يعيشـون حوادثهم أمامنا مباشـرة دون وسيط أوتـرجمان فإذا قـام الحـوار بهـذه المهمّـة فإنّ واجبـه لم ينته بعـد ، فنحـن لا يكفينـا منـه في المسرحيـة أن يكشف لنـا عن حـوادث ومـواقف بـل عليـه فـوق ذلك أن يلـوّن لنـا هـذه الحـوادث وهـذه المـوافـق بـاللون الموافـق لنـوع المسرحيّـة فإن كـانت مأساة تخيّـر من الألفاظ ما يثير في نفوسنا الرّهبة والجزع والجلال والخشوع وإن كانت ملهاة انتقى من العبارات ما يشـع في قلـوبنـا روح الفكـاهـة والمـرح والسُّخـريـة والعبـرة... فالحـوار في يـد المؤلّـف المسرحـي كالـريشـة في يد المصوّر وهي المنـوط بهـا الرّسـم والتلـويـن والتكـويـن وكـل مـا يـوضع على اللـوحـة من فـنّ... ولا تقـف مهمّـة الحـوار عند رسم الحـوادث وتلـويـن المـواقف بـل هو الـذي يعـوّل عليـه أيضـا في تكـويـن الشخصيـات فـلا بـدّ لنـا أن نعـرف من طـريقـة طبائع الأشخـاص ودخائـل نفـوسـهم فهـو الذي يجب أن يظهرنا على ما ظهر منهم وما خفي ما يفعلـون أمـامنـا ومـا ينـوون أن يفعلـوا، مـا يقـولـون لغيـرهـم من الأشخـاص ومـا يضمـرون لـهم في أعماق النفـــوس.

« فـن الأدب »

(5)

الأداة في المسرحية

...ليست هنالك إذن خصومة أصيلة بين اللغة العربية والأدب التمثيلي... إنّما هو نوع من التباعد الموقّت، مرجعه الافتقار إلى الأداة... شأن العرب هنا شأنهم يوم كانوا لا يعرفون من المطايا غير الابل... لو أنّ الظروف شاءت أن تحرمهم الجواد لظلّوا حتّى الساعة لا يعرفون ركوبه... ولكن ما إن دخل الجواد الصحراء حتّى غدا العرب فرسانه... حذقوا فنون تربيته وفنون الحديث عنه فإذا سئل اليوم عن الجواد الأصيل في أرجاء العالم قيل هو الجواد العربي وإذا أريد وصف رائع لخصال الخيل فلن يكون إلاّ في الشعر العربي...

كلّ الأمر إذن في الأداة... وكما أنّ العرب في عهد الإبل كان لسان حالهم يقول : "أعطوني الجواد ونحن نركب" فإنهم كذلك قد يقولون : "أعطونا المسرح ونحن نكتب"

وما من ريب في أن العالم اليوم قد تغيّر... وأصبح المسرح بمعناه الواسع ضرورة من ضرورات الحياة الحاضرة ليس وقفا على طبقة دون طبقة فهو الغذاء اليومي لأذهان النّاس يختلف دسمه باختلاف ثقافاتهم ولكنّه في آخر الأمر هو أداة الفنّ الشائعة في مشارق الأرض ومغاربها وأعني بالمسرح هنا كلّ فنّ يرمي إلى تصوير الأشياء والأشخاص والأفكار على : خشبة أو شاشة أو موجة أو صفحة بأن يقيمها حيّة تتحادث وتتحاور وتبرز مكنون سرّها وفكرها أمام الناظر أو السامع أو القارىء...

هذا الأسلوب العالميّ في عرض الأفكار عرضا حيّا في صورة تمثيل لم يعد إلى تجاهله من سبيل...وحيثما ذهبنا اليوم في بلاد الضّاد وجدنا دورا شاهقة سامقة مزخرفة هي أفخم دور مدننا بناء ؛ تلك هي المسارح.

من مقدمة « الملك أوديب »

محمود تيمور

القصّة

الشيـــخ « نعيـــم »

... كان الشّيخ "نعيم" رجلا مهيب الطّلعة تتجلّى في أساريره علائم الإيمان العميق : لقد وهب الرجل حياته للتعبُّد وقصر عمله على إبلاغ رسالة الدّين وهداية الخلق إلى الطريق المستقيم... فإذا تكلّم تناثرت على فمه آيات القرآن وأحاديث الرّسول وأمثال الصالحين وإذا خطا في الطريق وجدته مطأطئا فوق سبحته يغمغم بأذكاره أو يناجي ربّه وإذا اعتلى منبره يوم الجمعة تدفّق لسانه بفصيح الكلام وتدفّع صوته قوّي الجرس...

ويوما وقف الشّيخ أمام الزّاوية إذ قدم عليه شابّ في صحبته امرأة. وكان ذلك الشّابّ مطربشا، زريّ الهيئة نحيف الجسم... وما أن وقعت عين الشّاب على شيخ الزّاوية حتّى اقترب منه قائلا :

– حد امك "تهامي" يا سيّدنا ! فابتسم الشّيخ وهو يقول :

– العفو يا أفندي... العفو... ما مسألتك ؟

فأجمل الشّاب قصّته فقد طلّق امرأته الطلقات الثلاث فأبت عليه زوجته أن تعاشره إلاّ بعد فتوى الفقهاء... وقد أفتاه أولئك الفقهاء بأنّها لا تحلّ له إلاّ أن تزوّجت رجلا غيره... فهو يعرض على شيخ الزّاوية أن يكون ذلك الزّوج المنشود. وتفضّل الشيخ فأعلن قبوله للنُّهوض بهذه المهمّة وانصرف الشّابّ تاركا امرأته "صابحة" في كنف الشّيخ إلى حين. وكانت "صابحة" فتاة موفورة الحظّ من

الوسامة، مترنّحة الأعطاف من المرح. عاشرت الشيخ بضعة أيّام فحلت من قلبه أكرم محلّ، حتّى لقد حرص على أن يقضي معها أطول وقته فجعل يتخلّف عن الزاوية في بعض الصلوات ويقصد الأسواق هنا وهنالك لينتقي "اصابحة" حليًّا وملابس ويجلب لها فاكهة وحلوى..

وانقضى الإسبوع والتقى الشابّ والشيخ بباب الزّاوية يوم الجمعة عقب الصلاة... فبادره الشيخ قائلا : أحضرت ؟ ما هذه الجسارة !

فعجب "تهامي" ممّا يسمع وظلّ هنيهة لا يتكلّم. ثمّ اندفع صائحا يقول للشّيخ :

ـ أيُّنا الجسور ؟ لقد جئتك أطالب بردّ زوجتي إليّ.

فتراجع الشّيخ خطوات وتجمّع النّاس يتساءلون : ما الخبر ؟ فانتفض الشّيخ "نعيم" وصاح من أعماق قلبه قائلا :

ـ يا عباد الله !... يا عباد الله !...

فتجمّع النّاس من هنا وهنالك وأحاطوا بالشيخ وأنصتوا له وقد خشعت منهم القلوب وتعلّقت الأنفاس فقال الشّيخ جهوريّ الصّوت :

ـ أتثقون بي أم أنتم لا تثقون ؟ فصاحوا صوتا واحدا :

ـ إنّا بك واثقون ! فاستأنف قائلا :

ـ لقد هداني الله إلى إنقاذ مطلّقة هذا الشابّ وحمايتها من شرّه... فهل أعصي أمر الله !. فقالوا جميعا :

ـ كلاّ بل تمضي على هدى من الله.

فقال لهم وهو يشير إلى الشّابّ :

– إذن كفُّوا عنِّي هذا !...

وما كاد الشيخ يتمّ جملته حتَّى أحدق النَّاس "بتهامي" وأبعدوه عن الزّاوية وما زالوا به حتَّى فارق البلدة وهم ينذرونه بالويل إن عـاد.

وسار الشَّيخ "نعيم" ميمِّماً داره في جمع من النَّاس وهو يتهادى في مشيته ، تحفّ به المهابة والجلال...

« **شيخ الزاوية** »

صـــراع فى الظـــلام

...ومنذ هذه الليلة استمرّ الفتى في دار أبيه مع تلك المرأة يقاسمها العيش وكان لا يبرح الدّار في يومه إلاّ لماما، حيث تلجئه مطالب الحياة على أنّه كان في بعض الأماسيّ يرتقب ساعة من هزيع الليل فيخرج وقد أوى النّاس إلى مساكنهم متسلّلا إلى ذلك البيدر المهجور يقضي فيه طويلا من الوقت وهو جالس على الحجر العريض يرقب السماء شارد اللّب موزّع الخاطر... وكثيرا ما أخذته انتفاضة زلزلت كيانه في مجلسه، فجعل يدقّ صدره بيده يغالب ما احتبس فيه من نزعات ومشاعر.

إنّه ليحسّ بأنّ في طوايا نفسه بركانا يتضرّم ويوشك أن يقذف بالحمم وعبثا يحاول أن يسدّ فوهته أو يخمد جذوته

وإنّه ليفزع إلى الغدير ناظرا في صفحته تحت ضوء الكواكب فيتجلّى له وجهه أمامه تكسوه تلك اللحية المهندمة فيلمس أطرافها بأنامله ثمّ لا يلبث أن تعالجه ثورة عارمة فكأنّه يريد أن يقتلع تلك اللحية من جذورها لا يبقي منها ولا يذر. لقد اتّخذ اليوم لنفسه حياة طابعها عزلة النّاس فهو يتجنّب مرآهم ما وسعه أن يتجنّب حتّى ليحاول وهو يسلك طريقه أن يتنكّب عن مواجهة أقرب ذويه وقد علت سحنته صلابة وجهامة حلّت محلّ ما كان قبلا من وداعة وتطلق فأمّا عيناه فكانتا ترميان بنظرات تتلظّى فيهما الشّهوة والشرّ بعد أن كانت هاتان العينان تترسل منهما نظرات الطّهر والصّفاء

إلى أيّ طريق في حياته هو مسوق ؟

ترى أيّة نهاية ترتقبه لتختم حياته تلك ؟

أصائر هو في صحبة هذه المرأة حيث صار زوجاها الراحلان ؟

أمستطيعة هي أن تقضي عليه قضاءها عليهما من قبل ؟

من تكون هذه المرأة ؟

إنّها زوج أبيه، في مقام أمّه ؟

يا سوء هذه العلاقة التي تربط بينه وبينها اليوم !

حتّى متى تبقى هذه العلاقة الشّنعاء ؟

أولئك هم النّاس يتهامسون به ويجري ذكره في حديثهم مشوبا بالأقاويل

ألا يملك إخماد هذه العاطفة الهوجاء التي شبّت بين جوانحه لتلك المرأة ؟

عجبا لهذه العاطفة التي تلتقي فيها المتناقضات

لا سبيل إلى إنكار أنّه يهواها، بل أنّه لا يطيق عنها بعدا.. فما باله على الرغم من ذلك كلّه تثور به الرّغبة في أن يعصف بها ويقضي عليها ؟

وانتهى الأمر بالشّابّ إلى أن يلزم الدّار، حبيسا لا يفارقها في ليل أو نهار...

واتّخذت هذه الدار صبغة مرهوبة في القرية فرانت عليها كآبة ووحشة كأنّها قبر أخطأ مكانه فاستقرّ بين دور الأحياء

وكان النّاس يجوزون بتلك الدّار فينظرون إليها على أنّها خربة من الخربات تعمرها أرواح الشياطين

وفي أمسيّة من الأماسيّ الساجية تفزع أهل القرية فتدفّقوا من أعماق الدور إذ رأوا ألسنة النّار تتعالى من تلك الدّار المشؤومة فتحيط بها من كلّ جانب.

وأقبل جمع من رجال القرية يحاولون اقتحام الدّار وتخليص من فيها من السّكان فهالهم أنّهم لم يسمعوا نأمة استغاثة ولا حركة فرار وألفوا الباب محكم الرّتاج فانطلقوا يقرعونه فانبعث من جوف الدّار صوت ثائر كأنّه هذيان محموم وهو يردّد :

لا تقربوا الباب... دعوا الدّار تأكلها النّار ! ...

وجعلت جحافل اللّهب تزفر وتجيش والنّاس يتراجعون من النار خشية ورهبة كأنّهم يهربون من نار الجحيم.

« صراع في الظلام »

ورقـــة النصيـــب

...قدم "سيِّد أفندي" على القاهرة يخبّ في جلبابه الصُّوفيّ البلديّ متأبِّطا من صحف اليوم وهو يميل طربوشه على فوده... وسلك طريته إلى ركنه وهو يحيّي من يراه من الأصحاب تعلو فمه ابتسامته المألوفة وإن كانت في هذه الساعة يمازجها لون من التكلّف ويغشاها ظلّ من الكآبة والاغتمام.

وما لبث "سيِّد أفندي" أن اتّخذ مجلسه في ركنه المألوف ثمّ نادى فأوصى بالشّاي والنّارجيلة وبسط الصُّحف يحاول أن يسرّيَ عن نفسه بقراءة الحوادث والأخبار. وبينما هو يرشف من قدح الشّاي إذ جاز به بائع أوراق النصيب فما أن اقترب منه يعرض بين يديه أوراقه حتّى زجره "سيِّد أفندي" محنق النَّفس وهو يقول له:

– هل عهدتني أشتري هذا الورق ؟ لم تضايقني ؟

فقال له الغلام : عندي أوراق "جمعية الرّفق بالإنسان" وهي جديرة بالشِّراء ! الكسب ألف جنيه... أوراق مضمونة كالذّهب !

فازورّ عنه الرجل مقطّب الجبين وهو يقول : اختر غيري فألق على سمعه هذا الهراء... أغرب عن وجهي ! وهمّ "سيِّد أفندي" بأن يمضي في قراءة صحيفة المساء ولكنّه ما أسرع أن طواها : إنّ مبلغ الألف جنيه الذي يرنّ به صوت الغلام قد غزا مناطق تفكيره... لا أحد ينكر أنّ مبلغ الألف جنيه مبلغ جدير بالاعتبار... به يستطيع

مأزوم أن يخلص من ضائقته... مأزوم مثل "سيّد أفندي" الذي تحاصره أقساط جاء أجلها وهو اليوم يحملها هموما ثقالاً. ولمّا انقضت جلسة العشية نهض الرجل متثاقل الخطى يؤمّ داره... وقد ذهب به التّفكير كلّ مذهب. وتابع السّير وإذا بعينيه تتصيّدان كومة على الطوّار وإذا هي غلام أوراق النصيب ، يهوّم برأسه. فألفى "سيّد أفندي" قدميه تتمهّلان ونظره لا يبرح الطّوار. وشعر الغلام بأنّ شخصا عن كثب منه فانفتل قائما، ينفض عنه فتور المنام وأقبل على "سيّد أفندي" يعالج القول في حذر ويدني منه ورقة في يده : إنّها آخر ورقة... ليس معي سواها... الحظّ من نصيبك حتماً... خمسة قروش تعطيك ألف جنيه !

وتريّث "سيّد أفندي" يتأمّل الورقة في يد الغلام فرأى الغلام في ذلك ما يشجّعه على التقدّم والمزيد من القول والإغراء. وألفى "سيّد أفندي" يده تدلف إلى جيبه وتخرج بخمسة قروش وسرعان ما دسّها في يد الغلام واجتذب منه الورقة وهو يجمجم ؛ : "لولا ما أنت فيه من فقر ومسكنة لما اشتريت الورقة منك. فليكن هذا المبلغ منحة لوجه الله !"...

« ورقة النصيب »

في اتجـــاه واحـــد

... من عادتي أن أتفادى من الذهاب إلى المصارف في الأيّام الأولى من الشهر... ولكن اتّفق لي أن قصدت إلى "المصرف الوطني" في مطلع الشهر لأصرف صكًّا بخمسة جنيهات هي ما بقي لي على أحد عملائي من أتعاب قضيّة وكنت في جمع زاخر أدافع جهدي في سبيل الوصول إلى نافذة الصكوك وقد أخذ منّي الضيق كلّ مأخذ. فلمحت وأنا مدهوش مغيظ فتاة تمرق إلى النافذة بين صفوفنا غير معنية بأحد. وانطلق لساني بلفظة احتجاج، قابلتها الفتاة بإجابة تحدّ خشنة فازددت سخطا ولكن لم يجد سخطي نفعا.

وبينما كنت خارجاً من المصرف وقد قبضت قيمة الصك صدمني شخص صدمة أزعجتني فالتفتّ فإذا بالفتاة عينها تسابقني نحو الباب فرمقتها بنظرة نكراء وهممت أن أصيح بها مهدّدا متوعّدا، فعاجلتني بابتسامة رقيقة وهي تردّد:

ألف معذرة !... لم أقصد البتّة أن أسيء إليك...

فنظرت إليها ولساني لا يزال ناقما ثائرا، فلم تدع لي فرصة التكلّم، بل واصلت قولها — : كنت قليلة الذوق معك مرّتين... ولكنّي أؤكد لك أنّي لم أفعل ذلك عن عمد... إنّهم يرهقوننا بانتظار مضجر مثير للأعصاب ولدينا أعمال لا تحتمل إضاعة الوقت!..

كانت تتكلّم وابتسامتها تزداد إشراقا ونضارة، فقلت لها وقد

مرّت على فمي بسمة عابرة : هذا صحيح... إنّهم يرهقوننا بالانتظار... ولكن لا تنسي يا آنسة أنّنا في أوّل الشهر... فللمصرف عذره !

– أوافقك على أن للمصرف بعض العذر لا العذر كلّه... على الرؤساء أن يدبّروا الأمر وأن يبذلوا أقصى الجهد في سبيل إراحة العملاء.

– لقد أضاعوا عليّ محاضرة كان لزاما أن أستمع إليها في الجامعة !.

– أطالبة أنت ؟

– في كليّة الآداب...

– حسن جدا...

ورأيتني أسير وإياها في إتّجاه واحد من الطريق...

« **شفاه غليظة** »

في خميلـــة الحـــب

زعموا أنّ زهرة شبّت على حافة غدير لؤلؤيّ في خميلة حافلة قد حبتها الطبيعة ربيعا لا يتبدّل.

إنّها زهرة في عنفوان صباها قضت أيّام طفولتها في سذاجة ومرح لا تعرف من الحياة غير جانبها الوضّاء تمضي وقتها تغنّي وتضحك وتتندّر في تماجن وهزل مع أصدقائها سكان الخميلة من طيور وهوامّ. والآن انقضى عهد الطفولة وبانقضائه تغيّر كلّ شيء غدت الزّهرة الثرثارة الماجنة صموتا ترغب في الاختلاء بنفسها والاستغراق في تفكير طويل

فإذا ما صحت من أحلامها تلفّتت حولها لتبحث عن محبّين أضناهما الغرام يتبادلان القبلات بلوعة وحنين فتراقبهما في شوق تريد أن تشاركهما شعورهما الفيّاض. وإذا ما جنّ الليل ونامت الطّبيعة كلّها يحلو للزهرة أن تسهر لتصغي إلى ذلك الصمت الرائع وقلبها الصّغير يزخر بشتّى العواطف.

إنّها تحسّ انقلابا عجيباً في نفسها فما سرّ هذا الانقلاب ؟

وجاء النّسيم فحيّاها تحيّة الصّباح فاختلج قلبها لمرآهُ وتورّد خدّاها فأسبلت جفنيها وردّت تحيّته في ارتباك وكان النّسيم ناصع الجبين تلمع عيناها يقظة وحياة فدار حولها بجسمه الليّن السّاحر وهو يديم النظر إليها متفحّصا فأسرعت خلجات قلبها وعظم ارتباكها

فوقف النسيم مزهوا يبتسم، وقال :

ارفعي رأسك إليّ أيّتها الصغيرة وخبّريني ماذا يزعجك ؟؟

فلم ترفع الزهرة رأسها بل زادت في تنكيسه وأطالت صمتها ورأى النّسيم كيف أنّ أوراقها تضطرب بشدّة مع أنّه قابع لا يتحرّك والدّنيا كلّها ساكنة بسكونه، فأشفق عليها وأخذ يلاطفها ويقول : لقد حزرت سرّ كِي يا صغيرتي ويجب أن أصارحك بنصيحة فلا تتألمي منها، بدأت الزّهرة ترفع رأسها متباطئة تسترق النّظر إليه وهي مرهفة السّمع. وتابع النّسيم حديثه قال :

لقد أحبّني قبلك كثيرات من سكّان هذه الخمائل والمروج وتعذّبت من أجلي ولكنّها لم تنل منّي مأربا... لقد خلقت لأن أحَبّ أمّا أن أحِبّ فذلك أمر لم يقع ولن يقع أبد الدّهر وكيف يراد أن أكون محبّا وأنا الطّليق الذي حباني الله حريّة لم يمنحها كائنا آخر غيري، مسكني هذا العالم الفسيح أحيط به من كلّ ناحية فكأنّه في قبضتي أمرح فيه كما أشاء ، أطوي فيافيه وأنبسط على بحاره وأعلو حتى ألمس سمواته البعيدة المحجّبَة بالأسرار أجل يا صغيرتي إنّ حرّيتي مطلقة لن يستطيع أحد أن يحدّ منها. أفليس كلّ مكان تحت أمري أدخله كما أشاء وفي أيّ وقت أشاء ؟ هل استطاع كائن مهما عظم أو صغر أن يخفي نفسه عنّي حتّى العذارى الطاهرات ؟ إنّي لأدخل عليهنّ بلا استئذان في خدورهنّ وهنّ نيام. فلا يستطعن دفعي أو الهرب منّي فكيف أحب وكلّ شيء ميسور المنال عندي ؟ لا أبدأ أفكّر في رغبة حتّى أرانِي قد حصلت عليها... ؟

وأخذت الزّهرة ترفع رأسها رويدا وقد بدأ الاضطراب يفارقها إنّها لتحسّ ضآلتها وتفاهة أمرها أمام ذلك المزهو الجبّار ورنت إليه والحسرة تهصر قلبها تتسمّع حديثه كأنّه حكم القضاء الفاصل...

« **مكتوب على الجبين** »

زيـــارة لطبيـــب

وقف (سليمـان أفندِي) أمـام أحد المنازل في شارع (محمّـد علي) ورفع بصره إلى اليافطـة الكبيـرة المعلّقة على الشُّـرفـة المكتـوب عليهـا بالخطّ الثُّلثِـي والرّقعِـي :

الدكتور نجيب شافعي

طبيب وجرّاح وحكيـم عيـون

العيادة 14 من 9–12 صباحا ومن 4–6 مساء

وابتسـم وأخـرج ساعتـه فوجدهـا السادسـة. فأسـرع الخطى ودخـل المنـزل وأخـذ يصعـد درجات السلّـم أربعـا أربعا وقد تأكّـد من وصولـه متأخّـرا ووقف أمـام بـاب العيـادة وهـو يصلـح هندامـه. ثم قـرع الجرس ولم تمض برهـة وجيـزة حتّى فتـح البـــاب.

دخـل سليمـان أفنـدي وسـار وراء الخادم في ممشًّـى مظلـم رطب ثم عرّج على اليمين إلى حجرة الانتظار. فإذا بها حجرة واسعة معتّمة مؤثثة بأثـاث رثّ. وجلـس على مقعـد من المقـاعـد بعـد أن علـم من الخـادم أنّـه أوّل زبـون جاء اليـوم.

مكـث سليمـان أفنـدي بـرهـة يقلّـب بصره في أنحـاء الغـرفـة وهو سابـح في أفكاره. ثمّ قـام متململا وجعـل يتسلّى بالنظر إلى الصـوّر المعلّقة على الحائـط. وكـان يصفّـر وينقـر بأصابعـه على عصاه الخيـزرانية. ثمّ تـرك الصُّـور وأخذ يسيـر في الغـرفـة ذهـابـا وإيـابـا وأخـرج ساعتـه

فوجدها السادسة والنصف فصفّق بعد أن أعياه البحث عن موضع الجرس ولمّا جاء الخادم سأله (سليمان أفندي) :

ـ أين الدكتور يا حضرة... الساعة السادسة والنصف...

فابتسم الخادم وقال معتذرا :

ـ إنّ الدكتور كان نائما وقد أيقظته وهو الآن يرتدي ملابسه... خمس دقائق فقط.

« **الشيخ جمعة وقصص اخرى** »

وحشـــة يـــوم العيـــد

ـ كلُّ عـام وأنتم بخير !...

لماذا أحسّ السّاعة انقباضاً وكآبة على حين أنّ الجوّ كلّه مدعـاة إلى فرح وابتهاج ؟

لماذا استشعر الآن وحشة وقلقا على حين أنّي في منزلي الأمين لا يشغلنِي شاغل ؟

وطفقت أذرع الحجرة في جيئة وذهاب... ثم جعلت أعرك مفاتيح المذياع معابثا إيّاها ثمّ أخرجت ساعتِي وعلمت أن الحفلة بادئة بعد قليل.

وفيما أنا قبالة المذياع أعابثه إذ بيدي تنسلّ إلى جيبِي فتلامس فيه شيئا

ماذا ؟ يا للعجب ! إنّه خاتم أمّي الذي أوصتنِي أن أجعله لعروسي هديّة الزّواج

كيف وضعته في جيبِي ؟ كيف نسيته فيه ؟

ومكثت أتفحّص الخاتم وقد طاف بخاطري شبح "فكرية" ابنة عمّي وهي تحيينِي تحيّة خفرة وتبتسم لي في تلطّف لست أنكر أنّها فتاة أنيسة ولا شكّ أن قلبها عامر بحبّي. أمّا أنا فما هو شعوري لها ؟ أعترف بأنّي تجاهها لغز معقّد عصيّ وجعلت أدفع بالخاتم عاليا وأتلقّفه باسم الثّغر وعدت أطوي الحجرة ذهابا وجيئة في خطوات مهتاجة.

وبغتة ألفيتني أمام التلفون وأدرت القرص في غير وعي وإذا أنا بعد لحظة أكلّم عمّي قائلا :

ـ أردت أن أبادر إلى تحيّتكم وتهنئتكم بالعيد... كلّ عام وأنتم بخير.

ـ وأنت بخير يابنيّ... كيف حالك ؟

ـ الحمد لله... وأنتم كيف حالكم ؟

ـ لا بأس... لا جديد

ـ ماذا تفعلون الآن يا عمّي ؟

ـ نحن الآن مجتمعون تأهّبا لسماع الغناء في حفلة الليلة

ـ إتّفاق طريف... وهذا شأني أنا أيضا ؟

ـ حالنا واحد ؟

ولكن ثمة فرق بيننا، فأنتم أسرة كثيرة العدد وأنا واحد فرد

ـ ولم الوحدة يا بنيّ ؟

ـ هذا ما جرى... ولا أكتم عنك أنّي أشعر بوحشة ؟

ـ هل لي أن أقترح عليك ؟

ـ أقترح ما شئت

ـ لم لا تكون بيننا فتأنس بك وتشركنا فيما نحن فيه من اجتماع الشّمل ؟

ـ كيف ؟ أأنتقل إليكم الآن وقد تأخّر الوقت ؟

ـ يا بنيّ لا كلفة بيننا... زيارتك في كلّ وقت موضع ارتياح؟

ـ لست أدري بماذا أجيبك ؟

ـ دعني ألحّ عليك في المسارعة إلى الحضور... ستزيد ليلتنا

طيبا ومسرّة.

– أحقًّا ؟

– أأنت في ذلك ترتاب ؟ لا تتكاسل ولا تتلمس المعاذير...

– سأحاول يا عمِّي

– نحن في انتظارك

– أرجو أن أفعل ولكن لا تعتبوا عليّ إن منعني عائق، أشكرك يا عمِّي أجزلَ الشُّكر... طاب مساؤك تحيَّاتي للأسرة جميعا... تحيَّاتي "لفكرية" !

وألفيتني أهرع من فوري فأستخرج حلَّتي الجديدة وما هي إلاّ دقائق حتَّى كنت أنيق البزّة ينفح العطر منِّي وأنا بباب الدّار جيَّاش الوجدان أنتظر سيَّارة أجرة ذهب ابن الطَّاهي في طلبها وبين الحين والحين، كنت أضع يدي في جيبي لأستوثق من وجود العلبة الفاخرة يتوسَّطها الخاتم الذي أوصتني أمِّي أن يكون هديَّة الزّواج؟

« كل عام وانتم بخير »

كيـــف عـــرف زوجتـــه

أتعلم كيف عرفتها ؟

إنَّها لمصادفة عابرة كان لها في حياتي أبلغ الأثر ومن عجب أنَّه كلَّما خطرت ببالي ذكرى هذه المصادفة أهدت إليَّ جديدا من المتاع....

كان ذلك على شاطىء "سيدي بشر"...

وكنت في لمَّة من الصِّحاب نسبح، ونستمري مداعبة الأمواج... وبغتة دوّت صرخة استغاثة فرأيت الشاطىء قد تراكمت عليه جموع النَّاس مهتاجين يحدّقون في المـــاء...

وسرعان ما ظهر قارب النَّجاة يسوسه ذلك البحَّار المعهود في قميصه المخطَّط وسراويله القصيرة الدكناء تتهدّل على جوانب وجهه قبَّعته البيضـــاء...

وتلفتّ أنظر حيث ينظر الجمع فلمحت على البعد رأسا لا يكاد يطفو حتَّى يطويه الموج...

وألفيتنِـي أسبح من فوري قاصد إليه دون أن يكون ذلك وليد عزم أو تفكير...

كنت آنئذ كتلة من الأعصاب أندفع في تهوّر للّحاق بذلك الرأس الذي يصارع الموت...

ووجدتنِـي أسبق القارب وكلّما دنوت من مكان الرّأس ازددت من حميَّة وحماس فلقد كنت أحسّ أن أنظار الجموع على الشاطىء

ترقب ما أنا مقدم عليه...

واقتربت من المكان المقصود، فإذا الرأس يغشاه الموج وتنتشر على صفحة الماء خصلات من الشَّعر كأنَّما هي دماء قاتمة مسفوحة...

وغاب عن عينيّ في لحظة كلّ شيء... وشعرت بأنّي أتهاوى بين طباق الماء، أتلمَّس ذلك الغريق الذي تعلَّق مصيره بجهدي.

وما كنت أرى شيئا... فقد تخبَّطت في بطن الموج أضرب بيدي على غير هدي... وفجأة وجدتني أرتطم بجسد. وأحسست على الفور بيدين تتشبَّثان بعنقي بقوّة وعنف ولا أدري أي جهد واتاني حتَّى استطعت أن أجتاز غائلة الموج، دون أن يجتذبني التَّيَّار بمن أحمل إلى القاع!

طفوت على سطح الماء وما زال الجسد متعلِّقا بي... وشاهدت من خلال غشاوة الماء التي تغلف عينيّ شبح القارب يتوسَّطه ذلك القميص المخطَّط والسراويل الدّكناء. وهو يصيح بي أن أعجل إليه، فلم أعره جانب اهتمام...

وكيف لهذا البحَّار الفضولي أن ينازعني ما غنمته من فوز ويقاسمني دون حقّ ما بذلت من مجهود ؟.

لن أفلت هذه الفتاة التي ألقت المقادير شبابها ونضارتها بين يديّ...

لقد آمنت منذ اللحظة الأولى أن مصيرها قد ارتبط بمصيري، وأنَّها قد أصبحت لي أنا وحدي ؟....

ولم تنقض أيَّام حتَّى كنت للفتاة خاطبا، ثمّ أصبحت لها زوجا...

بيـــن ابـــن وأبيـــه

... أخذ "محجوب أفندي" مجلسه على الوسائد وانكفأ على سبحته يداول حبّاتها بين أصابعه. ورجعت الزوجة تحمل قدح الشّاي المعطّر وقدّمته إلى الرّجل وهي تقول في تضاحك :

– أقسم برأسك الغالي إنّه ليس في مصر كلّها من يستطيع أن يصنع قدحا من الشّاي مثل هذا القدح... اشربه وطب نفسا به...

وبعد فترة مدّت المرأة يدها في تلطُّف تدلك قدميْ زوجها المكدود وقالت في صوت متخافت وبصر زائغ :

– لي عندك رجـــاء ! فأجابها الرّجل وهو ينأى عنها بجانبه:

– أيّ رجاء لك ؟

– عدني أوّلا أن تستجيب له

– عجيب أمرك... أخبريني لأعرف ماذا تريدين ؟ فانكبّت المرأة على ركبته تقبّلها مهتاجة وهي تقـــول :

– اصنع معروفا معي واستجب لرجائي. فقال لها الرّجل وهو يتباعد عنها :

– أفصحي... أفصحي عمّا في نفسك

فرفعت إليه المرأة عينين خضّلهما الدّمع وقالت في صوت متقطّع

ـ أريد أن أفرح "بعبد الخالق"...

فحملق الرجل وقد أزهرت عيناه وقال :

ـ تفرحين "بعبد الخالق"... بهذا الولد الخائب ؟

فأحسّ "عبد الخالق" بغتة بأنّ نارا تتضرّم في رأسه وأن عينيه قد اكتستا صبغة حمراء فصرخ وجسمه تزلزله رعدة :

ـ يميناً إنّي لن أرى لحظة راحة ما دمت أنت عقبة في طريقي!

فأنفذ "محجوب أفندي" بصره إلى مكان ابنه وقد اختلط عليه الأمر لا يكاد يصدّق أن "عبد الخالق" يعنيه بهذا القول المنكر ثم صاح :

ـ ماذا قلت يا كلب ؟

ولبثت الأمّ حيرى تنقّل بصرها بين ابنها وزوجها وقد غشيها شحوب وقالت لابنها بصوت كأنّه النّشيج :

ـ هذا عيب منك يا "عبد الخالق" إنّ من يكلّمك أبوك !

فقال الفتى بصوت تتجاوب أصداؤه في أرجاء الرّدهة :

ـ لا أعرف من تسمينه أبي !

وطفق الرجل يتقلّب على الوسادة يحاول أن يمتلك زمام موقفه وقال مهمهما :

ـ أين عصاي ؟ ايتوني بها !...

ثمّ نهض قائما وهمّ بأن يأخذ طريقه إلى ناحية ابنه فأسرعت الأمّ تحول بين زوجها وبين الانطلاق ولكنّها لم تفلح وابتدأت المعركة بين الولد وأبيه فأقحمت الأمّ نفسها وتلقّت أوفر الضربات وما زالت "بعبد الخالق" حتّى نحّته إلى الباب تاركة أباه يتابع زمجرته وهديره...

محمد أفندى صل على النبىء

ـ صلّ على النّبِيء ! ...

ـ اللهمّ صلّ عليه ! ...

ـ لقد نويت أن أطلّق المرأة ...

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ! ...

ـ قلت لك صلّ على النّبيء.

ـ ألف صلاة عليه يا أخي .

ـ لقد استخرت الله في تطايق المرأة

ـ هذا خراب بيوت

ـ خراب بيوت أو عمران بيوت... هذا ما اعتزمته والسّلام !

ـ أنسيت أنّ النبيء صلّى الله عليه وسلّم قال : "أبغض الحلال إلى الله الطّلاق" ؟

ـ أعرف ذلك ولكن لا تنس أنّ الله سبحانه وتعالى قال : "لا يكلّف الله نفسا إلاّ وسعها" !

دار هذا الحوار بين "محمّد أفندي" والمأذون الشّرعي في مكتبه إذ قدم عليه "محمّد أفندي" ليتّفق معه على إجراء الطّلاق.

وجعل المأذون الشّرعي يسوّي طوايا عمامته، مطيلا في تسويتها وهو يتنحنح، معدّا حنجرته لإلقاء خطبته العتيدة، يحاول بها إصلاح ذات البين، وإبراء نفسه من تبعة هذا المكروه قبل أن يغمس قلمه في الدّواة، شروعا في تدوين وثيقة الطّلاق ، وذلك تنفيذا للتعليمات

الرّسمية المعهودة.

وما عتم المأذون الشّرعيّ أن انبجس لسانه يشقشق بالجمل والعبارات محشوّة بالنّصح للزّوج أن يكفّ عن الطلاق وأن يؤثر الحسنى وأن يمسك زوجته بمعروف.

وكان يتلو هذه الخطبة عن ظهر قلبه كما ينشد التلميذ قصيدة من المحفوظات...

ولكنّ "محمّد أفندي" رفع طربوشه من رأسه في ملالة وفخر فتبدّى رأسه أجردَ ما حلاً إلاّ من شعيرات مبعثرة، كأنّها أعشاب مصوّحة في صحراء مقفرة... ثمّ رفع صوته في حشرجة يقول :

– صلّ على النبيء يا شيخ...

– اللهمّ صلّ عليه

– لقد اعتزمت تطليق المرأة والسلام...

وما أسرع أن دوّنت الوثيقة الرّسميّة فدسّها "محمّد أفندي" في جيبه، ونهض بجرمه المتكتّل وألواحه العراض ينقل خطاه كأنّه بغل أثقلته الأحمال ومضى يترفّع برأسه، ويتطاول بقامته على الرّغم من أنّه ذرّف على الخامسة والستّين وهو يفتل شاربه الغزير في زهو المنتصر الغلاّب يحسّ بين جنبيه سورة الفتوّة.

« محمد أفندى صل على النبيء »

ولـع أبـى عـلى بفنـه

كان الشيخ "مبارك" يبذل جهده في تقويم ما أعوجّ من أمـر ابن أخيه، عليّ، يخاشنه مرّة ويحاسنه أخرى ولكنّ الفتى ظلّ على حاله لا يردعه ضرب ولا ينجع فيه نصح. بل لقد أصبح يجد في نفسه اشمئزازا من عمّـه، واصغارا لشأنه فهو في حسابه جامد الفكر، مأفون الرّأي، جهول، غير مقدّر للفنّ قدره الجليل. وزاد الهوس بالفتى فعمد إلى الموسى يمرّها على منابت شاربه لكي يخضرّ وعني بشعر رأسه حتّى يغزر وينمو وفزع إلى كسار مرآته ينظر ويفحص ليشدّ جلدة وجهه ولا يزال يغضها لكي تتكمّش وهل أدلّ على عبقريّة الممثّل من رأس مهوش الشعر، ووجه تكاثرت عليه التجاعيد !

وكان إذا آنس وقتا من النّهار لا بيع فيه دلف إلى المخزن الأغبش في أقصى الحانوت فضحك وعبس وأومأ وأشار واشرأبّ وتقاصر وتكلّم وغمغم حتّى ينهكه التمثيل أو يصيح به زبون يطلب الجبن والزيتون فيبرز من المخزن محتقن الوجه ندىّ الجبين !...

وسقطت للفتى بعد لأي حلّة من حلل التمثيل مهلهلة فكان إذا خلا إلى حجرته إرتداها ليمثّل بها بعض المواقف الحبيبة إليه في تحمّس واهتياج. وحرص الفتى على أن يتمّ التعارف بينه وبين الأدباء والممثّلين وأدركوا منه ما يحمل بين جنبيه من ولع بالتمثيل وما إليه فلا تكاد تراه جماعة منهم حتّى ترغب إليه في أن يلقي شيئا ممّا يجيد،

فيبدي بعض التمنّع والتعذّر أوّل الأمر ثمّ يندفع في الإلقاء بغتة، تنتظمه رعشة، وما أن يفرغ من تمثيله حتّى يرتجّ المجلس بالتضاحك والتهلّل والتصفيق...

ومرّة كان يضمّه أحد الأندية ومن حوله جمع الصّحاب يستمعون إليه وقد وقف يعرض تمثيلياته المختارة وحنجرته تكاد تنشقّ من الصّياح فتهافت السّابلة عليه يتفرّجون وأقبل منهم رجل مهذار على الفتى يصافحه في حميّة وهو يقول : لقد أبدعت يا أستاذ إبداعا يعيا لساني بوصفه فأهنّئك من أعماق قلبي !

ثم التفت إلى الجمع المزدحم مهيبا بهم أنّ يحيّوا الفنّان العظيم هاتفا : "فليحي نابغة التّمثيل "فردّد القوم نداءه متغامزين ودنا الرجل المهذار من الفتى يحمله على كتفه ويطوف به والنّاس من خلفه يتبعونه في ضجّة ومراح.

« ابو علي الفنان »

قلب كبير

...وتركت "ميمي" الشّرفة، وقد استولت عليها فكرة غريبة وقصدت على الفور إلى حجرة مربّيتها وأخذت تحدّثها في اهتمام وتتوسّل إليها لتجيب سُؤلها ...

واستيقظت الأمّ بعد العصر بقليل وبعد أن تناولت قهوتها دخلت عليها "ميمي" وكانت تحمل في يدها شيئا ملفّفا ليس بالصّغير ودنت من أمّها في إشراق، وقبّلتها ثمّ قالت لها في إلحاح :

"عديني أن تجيبيني إلى طلبي يا أمّاه ؟ "

فابتسمت "سميرة هانم" وقالت : (أريد أن أعرف أوّلا هذا الطلب)

فقبّلتها "ميمي" قبلة طويلة وقالت : (بل عديني قبل أن تعرفي ؟)

وانهالت "ميمي" عليها بقبلاتها الجنونية ، كانت تطبعها هنا وهناك بلا حساب... فأذعنت الأم وأعلنت رضاها فقالت "ميمي" على الفور :

"إذن قومي يا أمّي... قومي ! "

وقامت الأمّ فقالت لها الفتاة : "اخلعي ثوبك هذا ؟ "

وبهتت "سميرة هانم" وكادت ترفض لولا أن بدأ سيل القبلات ينهمر عودا على بدء ويعمل عمله المعجز فخلعت الأمّ ثوبها وأخرجت "ميمي" في الحال مما في يدها ثوبا آخر جميل اللون بديع التّفصيل وطلبت من أمّها أن ترتديه وأخذته الأمّ، وجعلت تقلّبه بين يديها وهي تنظر تارة إليه وتارة إلى ابنتها وكانت نظراتها هذه في بادىء

الأمر نظرات دهشة وحيرة ثمّ تحوّلت بعد ذلك إلى نظرات إعجاب وحنوّ – إعجاب بـ"الثوب الجديد" وحنوّ على ابنتها... وأخيرا وقفت تحدّق في الفتاة طويلا وهي صامتة وقد أخذت تفطن إلى السرّ. وخنقتها عبرة مكتومة أسرعت الصبية فبدّدتها بحديث ظريف عن الثوب وجودة نوعه ومتانة صبغته كأنّها بائعة لبقة وارتدته "سميرة هانم" وأعجبت به أشدّ إعجاب، كان حقًّا بديعا في تفصيله بديعا في لونه بديعا في شكله يشهد بحسن ذوق مَن انتقاه وأخذت الأمّ تنظر إلى خيالها في المرآة، وهي تستدير أمامها مرات كثيرة وقالت :

ولكن كيف تمّ ذلك يا حبيبتي ؟

– إنّه لك وكفى ؟

فقالت الأمّ ونظراتها ما زالت عالقة بالمرآة :

"كأنّه فصّل خصيصا لي ؟ "

فأجابت "ميمي" في تخابث :

"إنّ جميع أثوابك القديمة التي تعطينها مربّيتي توافقها كلّ الموافقة، وكأنّها فصّلت خصيصا لها ؟ "

فنظرت إليها مبتسمة وقالت :

إذن هي التي قيس الثوب عليها ؟

– والآن اجلسي يا أمّي... اجلسي !

وأخرجت الفتاة ممّا في يدها علبة مسحوق "بودرة" وزجاجة عطر، وأخذت "تبدّر" وجه أمّها وتعطّره، ذلك الوجه العطشان

الذي لم يمسسه المسحوق ولم يندّه العطر عامين كاملين وكانت الأمّ تنظر إلى ابنتها في صمت وابتسام وبعد أن انتهت "ميمي" من عملها هذا، وجّهت عنايتها إلى شعر أمّها فأخذت ترجّله وتصفّفه في مهارة لا تقلّ عن مهارة الحلاّق الفنّي .

وأخيرا ابتعدت عن أمّها وهي تتأمّلها طويلا ثمّ صاحت في حماس :

"ما أحلاك وما أجملك يا أمّي ؟... كم أنت فاتنة... ؟ "

« قال الراوى »

مجـــرم فى السجـــن

كان جالسا القرفصاء في حجرته الفرديَّة من السِّجن معتمدا ذقنه بيديه، رانيا إلى الحائط المعتم أمامه ولم يكن له غير الحائط مجالا للنَّظر، فحجرته ليست كلُّها إلاّ حوائط متشابهة.

وذلك الظَّلام المخيِّم على كلّ شيء كان يراه شائعا حوله ويحسُّه يغمر دخيلة نفسه إنَّه الظلام الدائم العابس، ذلك الزميل الوحيد الذي يلازمه ولا يريد له فراقا.

لقد أمضى في هذه الحجرة أيَّاما لا يحصي لها عددا ولم يكن يستطيع أن يميِّز بين ليلها ونهارها فقد كانت الحجرة متغلغلة في مبنى السجن كأنَّها هاربة تريد أن تلوذ بمكان سحيق تستخفي فيه عن الأنظار ، ولا يذكر أنَّه رأى ما يسمُّونه ضوء الشمس وإن كان يذكر أنّ بصيصا يدلف إليه حينا بعد حين فلا يعرف : أبقية هي من أشعَّة الشَّمس استطاعت أن تفلت من بين الجدران والسُّدود ؟ أم فضلة هي من فضلات أضواء المصابيح الشحيحة في ذلك البناء الكئيب ؟

وذلك الصَّمت الثقيل... كان يتمثَّل في مخيَّلته كأنَّه كتل ضخمة من الحجارة تتراكم على كاهل ذلك المأوى الضَّيِّق الذي يحتويه... صمت متواصل يقطعه رنين أجراس السِّجن في فترات متباعدة فيترامى هذا الرنين إلى أذنه مضطربا متخاذلا، مزّق بعد الشقَّة أشلاءه فلا يبلغه إلاّ أصداء غامضة لا يدرك لها كنهاً حتَّى أنَّه ليتخيَّلها

بعض وساوس نفسه الموحشة...

وأحسّ السّجين ضغطا يتكاثف على صدره واحتبست أنفاسه فراح يلتمس الهواء جاهداً، لقد أبرم القضاء منذ أيّام حكمه فيه بالإعدام شنقا... وسينفذ الحكم يوما، إن تراخى قليلا فهو آت لا ريب فيه لقد صدر حكم الإعدام ولكن أين منه ساعة التّنفيذ ؟ كلُّ جارحة من جوارحه تكذّب أن حكم الإعدام نافذ فيه... وتهيّأ وقتئذ ليتحرّك حتى يثبت لنفسه أنّه ممتلىء قوّة وفتوّة وأنّه جيّاش القلب بحرارة الحياة فلم يلبث أن أحسّ رعشة تتمشّى في أوصاله فتوهن ساقه وهمّ بأن يبتسم فأحسّ بعضلات وجهه تتقلّص كمن أجهش بالبكاء أمّا الضّحكة التي أزمع إطلاقها فقد ألفاها ترتدّ إلى حلقه متخاذلة وأحبّ أن يتكلّم بصوته الجهوري الحادّ شأنه فيما اعتاد من مناقشة وحوار وأن يقول : ليس في طوق أحد أن ينالني بضرّ.فإذا بشفتيه تجمجمان بنغمة مختنقة قائلا : "ما قتلت إلاّ منتقما لشرفي... ربّنا عادل... الأمر لله !"

« كل عام وأنتم بخير »

قصة الحكم لله

الحكـــم للـــه . .

...لقد وضح للشيخ "عبد المتجلّي" أنّ جنايته المزدوجة لم تكن في موضعها لقد قتل نفسين برئتين منساقا بدافع وهم وخدعة قتل أختا عزيزة كريمة وصديقا وفيًّا أمينا قتلهما بلا جريرة كأنّه يلهو ويعبث... وغضّ من بصره وجعل يقرض أظفاره بعنف حتّى أدمى أنامله وصعّد زفرات حرّى... وسرعان ما لا حقه الرّيب : ليس بمعقول أن يقتل نفسين بغير حقّ. إنّ فراسته لم تخطىء مرّة وبصيرته لم تكذبه يوما... ولكن ماذا يضع أمام اعتراف ذلك "السّعداوي" بأنّه واش كذوب ؟ ؟ ... وماذا يضع بما أقنعه به محاميه من أنّه قتل بلا موجب وأن شهادة الشهود وقرائن الحادث كشفت هذه الحقيقة ساطعة ناصعة ؟ ؟ وغامت الدنيا أمام عينيه وازداد المكان تجهّما وحلوكة.

ورفع رأسه فاصطدم بصرة بهذه الجدران الكالحة البغيضة جدران البئر المظلمة التي لا منفذ لها... وفتح عينيه جهد إمكانه وراح يحملق تائه النظر... وتمثّلت له اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكم الإعدام : إنّه ليراه الآن أمامه جليّ الصورة واضح القسمات منكبًّا على أوراقه فإذا رفع رأسه تراءت عيناه الصغيرتان خلف نظارته وهو يركّز بصره دائما في موضع ثابت لا يعدوه إلى منصّة المحامين ولا إلى صفوف الجمهور ولا إلى قفص الاتّهام كأنّه لا يعنيه من هذا كلّه شيء... وكان ذلك القاضي لا يفتأ يتابع حركة يده إلى رأسه يخلع طربوشه ثم يعيده مكانه فتظهر صلعته ملتمعة وتستخفي سريعا...

وقد نطق بحكمه في صوت أخن ولهجة فاترة كأنّه يتحدّث إلى جار له حديثا تافها لا يثير الانتباه .

وبينما كان الشيخ منسرح الفكر في هذه الأخيلة إذ انتفض في جلسته انتفاضة مباغتة... كلاّ لن يشنق ولن يمسّه أحد بضرّ... لقد قتل من قتل ثأراً للشّرف ... إنّ أخته وصمت اسمه بل اسم الأسرة بالعار فحقّ عليها القتل ... ولكن أيكون قتل من قتل بلا أناة ولا رويّة؟ أينسى ساعة دنا منه " السعداوي " والتحقيق أخذ مجراه وانكبّ على يده يغسلها بدموعه ويستغفره ويردّد بصوت متحشرج : لقد خدعتك يا "عبد المتجلّي" لقد أثرت حفيظتك على بريئين أختك طاهرة طهر الملائكة وصاحبك مخلص لم يخطر بباله أن يهتك لك سترا ولا أن يلحق بك عارا... عفوك عفوك ؟ وكان يصغي إلى استغفار هذا "السعداوي" ولا يلفظ من قول، إنّه يسأل نفسه الآن : لماذا لم يجبه حتّى بكلمة واحدة يصبّ فيها عليه اللعنة ؟ لماذا لم ينقضّ على هذا الوغد ويصرعه بدفعة واحدة ؟ لماذا كان خاملا كالمعتوه لم يحرّك ساكنا؟إنّه يذكر أنّ كل ما فعله ساعتئذ أنّه ازورّ ببصره عن السعداوي" وهمهم: إنّ الله لايظلم من عباده أحدا ...

ثمّ طفرت من عينه دمعة فلم يمسّها بل تركها تتهاوى على خدّه انّه ليذكر كيف خلا به محاميه بعد ذلك وجعل يتحدّث إليه حديثا مسهبا مستفيض الحواشي لم ترسخ منه في ذهنه إلاّ هذه الجملة التي ختم بها قوله : "ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان مهما يكن من أمر يا شيخ "عبد المتجلّي" الحاكم هو الله ؟ " ...

وانصرف عنه المحامي وعاد هو إلى تلك البئر في حلوكتها وصمتها المرهوب وظلّت هذه الجملة ترنّ أصداؤها المفزعة في حنايا نفسه... لقد أحسّ بها تأخذ عليه سبيل تفكيره بل تلهب رأسه وتسري في أوصاله تخزّه وخز الإبر ؟

وألفى لسانه يردّد وهو مطأطىء الرأس :

ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان، إنّما الحاكم هو الله؟.

« كل عام وأنتم بخير »

قصة الحكم لله

جزيـــرة الاحـــلام

يسير عليك أن تلمّ بصورة واضحة لمدينة "استكهلم" متى رسمت في مخيّلتك صورة لخلجان متناثرة ينساب فيها ماء رقراق وهي تجوس خلال جزر صغار رافلة في أخضر ناضـــر .

تقول الحكمة العربيّة المأثورة : ثلاثة، يذهبن الحزن الماء والخضرة والوجه الحسن.. وهذه المعالم الثلاثة هي طابع ذلك البلد الطيّب فحيثما ترجّع البصر تطالعك تلك المفاتن، وتشهد كيف يتألّف مزاج من جمال الكون تعاونت عليه فطرة الطبيعة وصنعة الإنسان ؛ ليست مدينة "استكهلم" عاصمة كشأن تلك العواصم التي تختنق بأبنية تتطاول، وطرق تتزاحم وإنّما هي معرض رائع من منتزهات متّصل بعضها ببعض وما انتقالك بين هذه المنتزهات إلاّ تطواف بأرجاء المدينة ذات الطول والعرض .

ما أكثر الجزر هنا وما أجملها ؟

من بينها جزيرة هي أوسعها شهرة وأعمرها بالزّوار، لوقوعها غير بعيد من قلب المدينة "جزيرة جور جاردن" أي "حديقة الغزلان" وإنّما أطلق عليها هذا الاسم لأنّها كانت في العهد القديم مراتع للظّباء يؤمّها الهواة للاصطيـــاد .

وطاب لنا أن نقصد تلك الجزيرة التي يحقّ لها أن تسمّى "جزيرة الأحلام" فاتّخذنا إليها زورقا بخاريًّا أُلقيت قيادته إلى الجنس

اللطيف فهنا غادتان تبدوان في لبوس البحّارة لبوس رشيق يزيدهما من فتنة وسحر... ولقد استبان لي أنّ الجنس اللطيف يسيطر على البحر في قيادة أمثال هذا الزورق فما أشبه غيده بحوريات البحر النواتي تبالغ في وصفهنّ الأساطير ! ... وانّهنّ حقّاً لما هرات في أداء مهمّتهنّ نشيطات في إدارة الدفاف وشدّ الحبال أنيسات يجعلن من أنفسهنّ دليلات يرشدن السيّاح ويزوّدنهم بطرائف المعلومات والأخبار...

تهادى بنا الزورق على صفحة الجدول والغادتان تتحكّمان به في مملكة الهواء والماء ونحن مستسلمون لهما تتصرّفان بنا كما تهويان وليس بجديد أن يسلّم المرء أمره إلى "حوّاء" تمضي به في ملتطم الحياة كما تشاء فهذا حكم القدر مسطّرا في لوحه منذ الأزل وسيظلّ الحكم النّافذ إلى غاية الأبد.

وتراءى لنا عن اليسار شارع "سترانـدفاجن" العظيم حيث تقيم مفوضيتنا العزيزة وعن اليمين معالم الجزيرة بما فيها من غابات ومتنزّهات ومروج تعلو نجادها تارة وتهبط وهادها تارة أخرى فحارت عيوننا بين الشاطئين لانكاد نتملّى فتنة الشاطىء الأيسر حتّى يلفتنا إليه الشّاطىء الأيمن بما حوى من كنوز الطبيعة الزّاخرة.

وبينما نحن ماضون إذ لاح لنا العلم الأخضر بهلاله وأنجمه البيض وهو على ساريته العالية يخفق فما لبثت قلوبنا أن خفقت معه وأشرعنا إليه أبصارنا نجتلي طلعته ونبعث إليه تحيّة عامرة تحمل التهنئة إلى الوطن العزيز إذ كان اليوم يوافق يوم العيد الأصغر عيد الفطر.

ومضى بنا الزورق في هينة ويسر كأنّه يجوز طريقاً معبّداً في روضة زهراء وأخذت عيوننا ربوة في الجزيرة فقالت الدليلة متهدّجة الصوت في رقّة وحنوّ : هذه خميلة الحبّ ! ...

حقّاً ما أجمل هذه الرّبوة التي سوّدتها الطبيعة في غير تكلّف وأضفت عليها غلالة رقيقة من نسج الخيال والأحلام وما أولاها بأن تكون محرابا تتناجى فيه القلوب حين يؤلّف بينهما حبّ وهيام !...

« **شمس وليل** »

الفـــن . . . مـا هـو ؟

ـ ومن الخطإ الشائع الظنّ بأنّ الفنّ شيء اكتسابيّ كالعلوم مثلا، والحقّ ـ كما أشرنا من قبل ـ أنّه كائن في نفوسنا ، فالمفاضلة بينه وبين العلم مفاضلة غير مقبولة... فلحياة الإنسان ناحيتان : ماديّة وروحيّة. وممّا لا شكّ فيه أنّ النّاحية المادّيّة تشغل حيزا هامًّا من تفكيره فلا يمكن أن يهمل مطالبها لتعلّقها بتيسير وسائل حياته. ولكن للناحية الرّوحيّة مكانها الذي لاغنى عنه، إذ منها يستمدّ وحيه في إنشاءاته المادّيّة .

ـ وعلى هذه النّاحية الرّوحيّة يتوقّف توفيقه ونجاحه، فيما يقدّمه من اختراعات وما ينشئه من مؤسّسات...

ـ وقد استطاعت البشريّة أن تحيا الحقب الطويلة وتجتاز أشدّ الأهوال في عصورها المختلفة وهي في غير حاجة إلى الأمصال الطبيّة، أو القناطر الهندسيّة ولكنّها لم تستغن عن الفنّ لحظة واحدة فإن جردنا العالم من الفنّ فثمّ العدم والفناء ... !

ـ فما هي الوسائل التي نحتاج إليها لإيقاظ روح الفنّ الكامنة في نفوسنا، وتنميتها وازدهارها ؟ ...

ـ النّاس فريقان : فنّان وغير فنّان.فبذرة الفنّ في الفريق الأول يقظة نامية وفي الفريق الآخر هامدة منكمشة... فالفنّان يمتاز عن سواه من عامّة النّاس، بأنّ شعوره بالحبّ والجمال قويّ جامح

فهو مرهف الحسّ دقيق العاطفة غير أنّ هذا ليس كلّ ما يمتاز به الفنّان عن سواه. فهناك شيء أساسيّ لا يستغني عنه الفنّان وهو القدرة على التّعبير عمّا يحسّه في أسلوب شائق وشكل حسن.

– هذا محبّ صادق يقف أمام محبوبته يشكو لها غَرامه فلا يجدُ عنده إلاّ كلمة : " أحبُّك " ! ... يذكرها في تكرار ممل يثير سخط محبوبته فتقصيه على حين نجد محبًّا صادقا في عواطفه كالأوّل ولكنّه يمتاز عنه بمقدرته على التعبير عن حبّه في أسلوب جميل أخّاذ فالأوّل مثل الفنّان النّاقص والثّاني مثل الفنّان الكامل ! ...

– ولسنا نعني بالفنّان ذلك الشخص المشتغل بالفنون الجميلة وحده بل نعني كلّ إنسان نستطيع أن نلمس في عمله – أيًّا كان هذا العمل – الشعور بالجمال والقوّة في التّعبير عن هذا الجمال ؟ ... فليس كلُّ موسيقيّ فنّانا، بل إنّ من الموسيقيين من هم عمّال فنّ ؟ ... وليس كلُّ أديب فنّانا، فهنالك الأديب الصّادق في فنّه والأديب المهرج في أدبه ! ...

– ويمكن أن نطبّق هذه النظريّة على كلّ فئة من فئات النّاس مهما تختلف أنواعها ودرجاتها .

« دراسات في القصة والمسرح »

حيـــرة الأديـــب

الأدباء المصريون اليوم يحيون في دنيا عجيبة، لا يمكننا إلاّ أن نعدّها مرحلة انتقال فلكلّ أديب معاصر أن يفخر بأنّه عصاميّ يشقّ بيده الطريق ، إذ هو لا يعيش في عهد انتظمت فيه شؤون الأدب وتعيّنت أهدافه وتوحّدت لغته... فحوله مذاهب شتّى يجرّب منها ما يظنّ أنّه الأوفق حتّى إذا تبيّن له خلاف ما ظنّ عاد إلى مذهب كان يأباه وهو لا يدري : أيقتصر على التّراث العربيّ يغترف منه ويطبع الكلام على غراره ؟ ... أم يقبل على الجديد المستحدث من ألوان الأدب في الغرب ؟ وتراه يؤثر في كتابته الفصحى مرّة ويعطف على اللغة الدّارجة مرّة ويتوسّط في الأمر فيخلط بينهما مرة ثالثة. وهو تارة يأنس إلى الألفاظ المجهورة والأساليب المنمّقة وطورا لا يجد غضاضة في قبول الكلمات الدخيلة ويتبذّل شيئا في استعمال العبارات الساترة... وليس الأديب المعاصر — على اختلاف تلك الحالات — إلاّ محاولا أن يأتي بجديد يضمن له رضا ضميره ورضا القرّاء معا! ..

فالأدب في هذه الحقبة لا طابع له وذلك لأنّ الحياة الثّقافية لم يتكوّن لها طابع بعد... وهذه دور التعليم ذات نوازع متباينة : الأزهر يحافظ على قديمه ويرسم للمستقبل طريقا يتفرّع من الماضي والجامعة تنادي بالتجديد نداءات مختلفة بين متطرّفة ومعتدلة وبعض المعاهد الأجنبيّة بجنسياتها المتعدّدة تنشر أنواعا من الثقافات والمشارب ولكلّ ذلك أثر مختلط في الجيل الناشيء لا تستقرّ معه الحياة الأدبيّة

على شيء يذهب الحيرة والقلق ! ...

فالآثار التي تتمخّض عنها قرائح الأدباء المعاصرين – كلّ على حسب مذهبه ووفق نزعته – هي جهود شخصيّة والبيئة الأدبيّة في هذا العهد كقدر تطبخ فيها تلك الأخلاط وتصبح طعاما شهيّا هو ثقافة المستقبل وهو طابع الغد الذي كتب على الأدباء المعاصرين ألاّ يشهدوه الاّ ظنّا وتخمينا ! ...

فهؤلاء الأدباء المعاصرون هم فداء ذلك العهد الانتقاليّ المختاط وهم كجنود الطليعة الذين يتقدّمون الجيش ويعرفون أنّ مصيرهم الهلاك المحقق ولكن لهم على أيّة حال فخر التّمهيد للجيش حتّى يكتب له الظفر ! ...

والأدب المصريّ القائم اليوم، يجاهد ويكافح ليقوم على أنقاضه عباقرة ينشئون ثقافة جديدة هي الثقافة الثابتة وأدبا جديدا هو الأدب الخالد العظيم ! ...

وسوف تكون آثار المعاصرين كالأساس المستور لهذا البناء الشامخ..

« **دراسات في القصة والمسرح** »

الفـــن للجمهـــور

هل ننزل بالفنّ إلى مستوى الجمهـــور ؟ ...

أو نتسامى بالجمهـور إلى ذروة الفن ؟ ...

قضيَّـة يتجاذب النُّقَّـاد طرفيهـا بين حين وحين، وكلَّمـا سكنـت ثائـرة التحـاور بينـهم في شأنِهـا عادت كمـا كـانـت أو أشـدّ مِمَّـا كانت لأدنى مناسبة تعرض ومتى سكنت بين طائفة من النُّقـاد استأنفهـا نقـاد اخـرون في قـابـل من الـزمـن قـريـب أو بعِيـد ...

لهـذه القضيَّـة تـوأم أو شبيه وما بـرحت تلك القضيَّـة الأُخـرى مثار النِّـزاع بين الباحثين والكتَّـاب يجادلـون في أمـرهـا لا تـرتفـع لـهم خصومـة ولا ينقضِـي جـــدال.

أعنِي : قضيَّـة اللغـة ...

هـل نتنـزّل بالفصحى إلى اللغـة العاميَّـة التي يجـري بهـا التخاطب : لغـة الجمهـور ؟ ... أو نتسامى بالجمهـور إلى الفصحى التي تجـري بهـا الأقلام لغـة الخاصَّـة ولسان الثقـافـة ؟ ...

ويبـدو أنّ مثل هـذا الخلاف يقـوم في كـلّ شأن من شـؤون الحياة وعلى وجـه أخصّ في عهـدنـا الجديـد، ذلك العهـد الـذي تتناصـر فيـه الجهـود لإنصـاف الجمهـور وايتائـه حقَّـه ورفع الغبـن عنـه وتـوفيـر الكرامة لـه وأريـد بالجمهـور جملة الشعب في أوسع نطـــاق .

أمّـا فيمـا يتعلـق باللغـة فإنّـي أرى أنّ الفصحى والعاميـة تلتقيـان على الطريـق في نحـو من التّصالـح والمـؤازرة، الفصحى تطوّع قـواعـدهـا وأساليبهـا لكي تلبّـي مطالـب الحياة، ولـكيلا يستعصـي على الجمهـور أن يتّخـذ لـه أداة تعبيـر. والجمهـور بجانب ذلـك يشيع فيه التعليم ويتـزوّد بالقـراءة والاطّـلاع فيصـدف عن العاميـة ويأنـس بالفصيح وإذن يتضاءل سلطـان العاميّـة عليـه بقـدر ما تملـك الفصحى منـه ناصيـة البيان.

وأمّا في الفـنّ فأهـمّ ما يجب التنبّـه لـه أن التنـزّل بالفنّ إلى الجمهور لا يعنـي الاسفـاف والابتـذال وأنّ التسامـي بالجمهـور إلى الفنّ لا يعنـي التكلّـف والافتعـال.

الأول تخلّـف بالفنّ لا يـرضـاه الطمـوح...

والآخـر عبث لا جـدوى فيـه ولا غنى ...

لو تـدبّـرنـا قضيـة الفنّ والجمهـور : أيهمـا ينـزل إلى الأخـر ؟... لأدركنا أنّ الأمريـن لا يتعـارضـــان متى هـدفنـا إلى تـزكيـة الفنّ ونفـع الجمهـور معـا على درجـة ســواء...

أتيح لـي أن أخبـر الجمهـور في حقيقـة نفسيتـه فآمنـت بأنّـه لا ينبـو عن العمـل الفنّـي بـل انّـه يصبـو إليـه ويقبـل عليـه وفي مستطاعـه أن يفهمـه وأن يستجيب لـه مـا دام في هـذا العمـل ما يصوّر لـه الحيـاة ومـا يكشـف لـه عن المشاعـر ومـا يبصّره بالكون الذي يعيش فيـه.

أكبـر مـا يعـوق الجمهـور عن استيعـاب العمـل الفنّـيّ هو التواء العـرض ووعـورة السبيـل إلى الفهـم فإذا أحسنّـا عرض الفنّ عليـه ويسّرنا

سبيله إليه ، — عرف قدره، وأحسن تذوّقه واستمتع به وآثره على غيره بل إنّه لا يرضى به بدلا من بعد...

إذا راعنا أنّ الإنتاج الأدبيّ الفنّي محدود الانتشار قليل الحظّ من الرواج فمن الخطل أن نردّ ذلك إلى أنّ الجمهور زاهد في الفنّ الرفيع، علينا أن نتبيّن الحواجز التي تقام لذلك عمدا أو على غير عمد.

ربّما كانت اللغة أحد هذه الحواجز...

ربّما كانت طريقة النّشر حاجزا آخر...

ربّما كان من الحواجز تقريب الإنتاج الأدبيّ غير الفنّي من الجمهور وإلهاؤه به وخداعه عن غيره والحيلولة بينه وبين ما يوقظ فيه كوامن السُّمو بذوقه إلى الرّفيع من إنتاج الأدب الفنّي .

اكفلوا للجمهور قسطا وسطا من التّعليم وابسطوا له لغة سلمت من إغراب اللفظ وتعقيد التركيب ثمّ انظروا كيف يرقى إلى الأدب في مستوياته العالية، وكيف يصفو ذوقه في تقديره وتعشّقه وكيف يستزيد منه ما استطاع أن يستزيد...

« **دراسات في القصة والمسرح** »

نشـــوء القصـــة وتطورهـــا

... أمّـا "رسالـة الغفـران"، "للمعـرّي" فـلا يبعـد أن يكـون مؤلّفها قد كتبهـا متأثّـرا بجو المقامـة، فقـد تـوفّي "المعـرّي" سنـة 449 هـ. أي بعـد وفـاة "الهمـذانـي" باحـدى وخمسين سنـة و "رسالـة الغفران" تفضـل "المقامـات" بمميّـزات عـدّة ولعـلّ ذلك عائـد إلى أنّ المقامة قد تمكّنـت من فكـر "المعـرّي" واستقـرّت فيه ولكنّـه تمثّلها وأخرجها صـورة أخـرى حيّـة ناضجـة وفي الـرّسالـة كثيـر من السّجع والأشعار العـويصـة المعانـي الغريبـة الألفاظ وفيهـا نقـد لشعـراء الجاهليّـة والإسلام وأدبائهمـا وفيهـا ذكـر للـرّواة والنحـاة وفيهـا أيضـا تصويـر للمجتمع العـربـيّ في مختلف عصـوره والشيء الكثير من هـذا هـو من مـوضـوعات المقـامـة ولكن "المعرّي" عالجهـا فى طريقـة مبتكـرة.

ـ أمّـا مـا امتـاز بـه في رسالتـه وتفـوق بـه على المقامـة تفـوّقـا محسوسـا فـذلك هـو خيـالـه الخصب الـواسـع مـن جهـة وسخـريتـه اللاذعة الخفيّـة من جهـة أخرى فأيّ خيـال أكبـر من ذلك الذي يصـور لنـا الجحيـم والجنّـة ومـا فيهمـا من عذاب ونعيم تصويـرا رائعـا يملـك على القـارىء لبّـهُ. أمّـا سخـريّتـه في هـذه الـرّسالـة فقـريبـة الشّبـه بسخـريـة "أنـاتـول فـرانـس" القصصي الفـرنسـي الشهيـر، فكـلاهمـا تهكّـم لاذع لا يشعـر بـه إلاّ مـن قـرأ مـا بيـن السّطـور ! ...

و"رسالـة الغفـران" قصّـة تخيّـل فيهـا "المعـرّي" ذهـاب رجـل إلى الجنّـة ورؤيتـه لجهنّـم ومـا شاهـده فيهمـا من شعـراء وأدبـاء. ومـا جرى

بينه وبينهم من محاورات في الأدب والشّعر واللغة وما قابله في الجنّة من أناس لم يكن ينتظر نزولهم بها ! فسألهم : بم غفر الله لهم ؟ ... فذكروا له فيما ذكروا أشعارا قالوها، فغفر الله لهم من أجلها وكانت جوازهم إلى دار النعيم لذلك سمّيتْ "رسالة الغفران" . وقد ذكرنا قبلا تماثل الفكرة بين "رسالة المعرّي" و"كوميدية دانتي الالهيّة" واحتمال تأثّر الأخيرة بالأولى .

ـ كذلك يوجد تشابه بين موضوع "المعرّي" وقصيدة "ملتن" الشّاعر الانجليزي المسمّاة "بالفردوس المفقود" وبهذه المناسبة نذكر أنّه على أثر ازدياد صلة الغرب بالشرق تأثّر الأدب الغربيّ بالأدب العربيّ وخصوصا بكتابَيْ "ألف ليلة" و"كليلة ودمنة" فأقاصيص "هانس اندرسن" الدنمركي، و"رحلات جلفر"، "لسويفت الانجليزي" "وسياحات جيل بلاس" لـ "لوساج" الفرنسي وكتاب "الغابة" لـ "روديارد كبلنغ" كلُّها تحتمل شيئا من روح القصّة العربيّة ...

« **دراسات فى القصة والمسرح** »

القصـــص المصـــرى الحـــديث

مـرّت القصّـة المصريّـة الحديثـة بعهـديـن :

ففـي العهـد الأوّل ، حـاولـت التحـرّر مـن القالب العربـيّ القديم، ويمثّل مطلع ذلك العهـد "حديث عيسى بن هشام" "للمويلحي"، فقـد نسـج على منـوال "المقامـة" إلاّ أنّـه يمتـاز ببعض الجدّة في عـرض الحـوادث ورسـم الصُّـور والكشف عن الشّخصيـات المصريّـة الصميمـة ولعلّـه تعبير صـادق عن الذّهنيّـة المصريّة التي تأثّـرت آنئـذ بالثقافة الغـربيّـة تأثُّـرا غير قليـل ...

وفي العهد الثّـانـي مضت القصّـة تنهـج النّهج الغربي الحديـث، وتمثّل مطلع ذلك العهـد "روايـة زينـب" للدّكتـور هيكـل ، فهـي أوّل ثمـرة تـوافـرت لهـا عناصـر القصّـة الفنيّـة...

ولـقـد كـان حـديـث القصّـة المصريّة قبـل ربـع قـرنٍ يكـاد يعـدّ من صيـد الخيـال وكـان الأدب التقليـديّ يـوشـك ألاّ يعتـرف للقصّـة بمكانتها السّـاميـة ولا يفسـح لهـا مجالا بيـن الألـوان الأدبيّـة الرفيعة وكنّـا حين نقلّـب الصحـف والمجـلّات ونتصفّـح الكتب، ونـرتاد المسارح في تلـك الفتـرة، — لا نصـادف إلاّ أدبـا قـديمـا يتجـدّد بالتكـرار أو مترجمـات من آثـار الغـرب ، أو مقتبسـات منهـا في حـدود ضيّـقـة ...

أمّـا اليـوم فإنّ العيـن لا تقـع على صحيفـة من صحف الأدب إلاّ صـادفـت فيهـا ذلـك اللـون القصصيّ الجـديـد يتبـوّأ مكانـه الكريم كذلك

تخرج لنا المطابع – في الفينة بعد الفينة – جهودا مشكورة في سبيل النهوض القصصي الفنّي ونلمح على المسارح والستارة البيضاء طلائع طيّبة من قصص مصري حتى أصبح ذلك اللون عنصرا من عناصر الأدب معترفا بقدره الصحيح ...

« **دراسات في القصة والمسرح** »

عنصر الصدق في القصة

... أوّل ما توحي به إنسانية القصّة هو الصِّدق : صدق الإحساس وصدق التّعبير، لا صنعة ولا تزيّد ولا تقدير لأشياء يفرضها الكاتب على عمله الفنّي فرضا ، يبغي بذلك أن تسلّمه هذه الفرائض إلى نتائج مقصودة متكلّفة.

وهذا الصّدق لا بدّ له أن يعتمد على نفاذ البصيرة وألمعية الفكر، فإنّه لا سبيل إلى الإحساس الصادق والتّعبير الصادق إلاّ إذا كان الكاتب مزوّدا بقوّة التهم للنفس ، وبالقدرة على سبر أغوارها وبالحذق في تصيُّد خوالجها الباطنة .

وآفة الصدق في القصّة أن يبدو للكاتب غرض ظاهر يبغي الدّعوة إليه. وتمثيله في عمل قصصي فتراه مضطرًّا إلى أن يجتلب لغرضه المرسوم هياكل من الحياة الاجتماعيّة مستعارة لا يبالي فيها أن تكون طبيعيّة نابضة الرّوح بل هو يبذل كلّ شيء ولا يبقي على شيء لقاء المضيّ إلى ذلك الغرض الذي فرضه على نفسه وأدار قلمه من حوله.

وإنّ قصّة هذا شأنُها مهما يكن جهد كاتبها وسعة حيلته وبراعة تصرّفه ومهما يكن جلال الغرض وروعة النظريّة التي أريد تحقيقها، – لهي قصّة لا يزيد طنينها على أن يعبر بالأسماع ولا يمكن أن يكون سلطانها إلاّ بارد الأثر حاجزا عن أن تستجيب له النُّفس

وكثير من القصص المصريّة و -- بخاصّة في السنما والمسرح -- تنوشها هذه الآفة وتعمل على تقويضها وتستلّ منها روح الفنّ وذلك لأنّ كتّاب هذه القصص تداعب أخيلتهم دعوات على الإصلاح الاجتماعيّ فتغريهم بأن يسخّروا أقلامهم لخدمة هذه الدعوات. وطوعا لذلك يجدون خطواتهم مقيّدة لا تعدو الإتّجاه الذّي رسمه لهم غرض الإصلاح المباشر. فإنّ أوحت طبائع المواقف والمشاهد والشّخصيات بسلوك معيّن وأقدار لا مفرّ منها ضربوا عن ذلك كلّه صفحا واندفعوا بمواقفهم ومشاهدهم وشخصياتهم في طريق كاذب مفتعل تنكره الطبيعة ويأباه منطق الحياة.

على أنّ هؤلاء الكتّاب لا يخدمون الإصلاح الاجتماعي بهذا الكذب والافتعال في تأييد الدّعوات. وإنّما تجد هذه الدّعوات الإصلاحيّة عونا لها في أعمال فنّية يتّفق لكتّابها أن يكونوا قد أحسّوا بما يدور في مجتمعهم إحساسا صادقا فعبّروا عنه تعبيرا صادقا دون قصد مكشوف وفرض محتوم.

وإنّ الأعمال الأدبيّة التي يقصد بها تأييد المذاهب الاجتماعيّة أو الأغراض الإصلاحيّة أو التشيّع لا تجاهات معيّنة: -- إمّا أن تكون قد فرضت على الكاتب فرضا وإمّا أن يكون الكاتب قد ألزم نفسه بها إلزاما. وفي كلتا الحالين يفقد الكاتب أوّل شرط للإجادة الفنّية وهو الطلاقة والحرّيّة فلا فنّ إلاّ إذا كان مصدر الوحي أعماق النفس وأغوار الشعور، ولا صدق إلاّ إذا تحقّقت الاستجابة والتأثّر بين الكاتب وما يعالج من تصوير وتعبير، ولا إيحاء ولا استجابة إلاّ إن أطلق الكاتب نفسه على سجيّتها في آفاق رحيبة لاتحدّها القيود والحدود.

صلـــة القـــاص بشخصيـــاتـه

متى خطرت للكاتب خطرته واختمرت فكرته، كان عليه أن يعيش معها، وأن يجوز بها أطوارها في محيط الحياة، يدع لها حريّة التّصرّف وفق ما يكتنفها من ملابسات فلا يقسرها على تصرّف معيّن يأباه منطق الحـوادث.

وليلاحظ أنّ شخصيّات قصّته تسلك طريق الحياة متسايرة يستجيب بعضها لبعض ويتأثّر بعضها ببعض فلتكن هذه الشّخصيّات هي وحدها التي تتلقّى مصيرها على النّحو الطّبيعي الذي يفضي بها إليه واقع الحياة دون تطفّل خارجيّ أو تحكّم وإلزام .

وليس الكاتب في هذه الخليّة الإنسانيّة التي يعالج تصويرها والتعبير عن أقدارها إلاّ بصيرتها النيّرة وقلبها الخفّاق ولسانها الذي يفصح عمّا يضطرم فيها من خلجـات...

فإن لزم الكاتب موقفه هذا لا يتعدّاه بغيا أو فضولا عاشت تلك الخلية الإنسانيّة معه حياة لا تكلّف فيها ولا رهق واطّرد بها السّياق دون شذوذ أو التواء وتلقّت مصايرها المحتومة في يسر وانصاف.

وربّما يكون الكاتب قد تمثّل لشخصيّات القصّة في خياله مصاير معيّنة، ولكن سياق الطبيعة ومنطق الحيـاة في مجرى القصّة، يؤدّي بها إلى مصاير أخرى لم تكن للكاتب في حسبـان .

« دراسات في القصة والمسرح »

بيـن القصـــة والشعـــر

لقد انكشف لي من الصِّلة بين الشاعر والقصّاص ما يجعلهما صنوين يتنازعـــان لونا واحدا من الأدب ويلتقيان على خصائص متشابهة في الفنّ . لم تفترق القصة عن الشعر في القديم ولا في الحديث.

كان القصّاص شاعرا أو كان الشاعر قصّاصا في الماضي البعيد والحاضر المشهود ذلكم "هو ميروس" الملقّب "بأبي الشعراء" لم يكن إلاّ قصّاصا تأنس إليه بنوّة القصّة كما تأنس بنوّة الشعر ...

في حضانة الشاعريّة وفي نعومة نسيجها المفوّف نعمت القصّة بمهدها الأوّل فسكنت إليه وترعرعت به ونبتت نباتها الحسن، إلى هذه الملاحم الشعريّة الأولى يرجع الفضل في نشوء القصّة الفنيّة وتطوّرها وما زالت هذه الملاحم حتّى اليوم مواضع الإعجاز في القصص الخالد ومنازل الإلهام لكلّ قصّاص عبقريّ الخلق والإبداع.

ودونكم روائع "شكسبير" و"جوته" وأضرابهما من نوابغ القصّاص... كثير من هذه الروائع يستمدّ من الإطار الشعريّ روعته ورونقه، فهي به باقية الأثر، أشعارها تهزّ أوتار القلوب بوقعها الشجيّ ولحنها الطروب.

وأخيرا احتفظ لنا الشرق بلقب "الشاعر" يطلقه على ذلك القصّاص الجوال حين تنعقد حوله السوامر فينشد قصص البطولة أشعارا على

انغام "الربابة" مصوّرا بها شتّى المشاعر من رقّة وعنف ومختلف المواقف من هزيمة وانتصار.

فالقصّة والقصيدة بينهما لحمة ونسب وهما تزد وجان أو تمتزجان منذ هفت النفس الإنسانية إلى التّعبير والبيان ...

ولم يكن ذلك الازدواج أو الامتزاج إلاّ لأنّ الشاعر والقصّاص يهدفان إلى غرض مشترك ويمضيان إلى غاية واحدة.

كلاهما يلتمس الإفصاح عن العواطف والمشاعر ...

وكلاهما يعالج تمثيل الاستجابة الوجدانيّة لحياة ...

وكلاهما يتشوّف إلى التعبير عن أسرار الجمال في الطبيعة والكون وسرائر النفوس في مجتمع النّاس ...

كلاهما يحوم حول تلك المعاني التي تجد متنفّسها الطليق في إطار القصّة أو في إطار الشعر.

ربّ شاعر تقرأ له قصيدة فإذا هي قصّة من أعماق النفس البشريّة منتزعة ولمحة من خصائصها مصوّرة ...

وربّ قصّاص تقرأ له قصّته فإذا هي — في روعة أخيلتها ولطف معانيها — قصيدة حقّة لا يعوزها من معالم الشعر إلاّ مقاطع الأوزان.

ومن طريف الموافقات — بين القصص والشعر — أن حروف كلمة "القصّة" تستوعبها جميعا كلمة "القصيدة" ولا تزداد عليها القصيدة إلا حرفين إثنين لعلّهما رمز خفيّ إلى الرّوي والقافية.

والذين ينادون بأنّ الشعر باق لن تنال منه الأحداث والأيّام إنّما ينادون بذلك عن يقين بأنّ الشاعريّة معنى إنسانيّ يلازم النفس البشريّة ما بقيت محتاجة إلى التعبير والتنفيس وستظلّ هذه الحاجة في نفس الإنسان ما بقيت فيه انفاس.

ليس الشعر حلية وزينة وإنّما هو ضرورة المجتمع الذي لا بدّ له من بواعث وجدانيّة تمدّه بالقوّة والحيويّة ...

إلاّ أنّ الشّعر كسائر الفنون الأدبيّة — يتطوّر ويتشكّل، وفقا لأشتات الحوافز من حوله ومن ثمّ يكتسب صبغة العصور فيما يتعاقب عليها من سعود ونحوس وفيما ينتابها من تخلّف ونهوض.

وذلكم هو عهدنا الحاضر ما كادت تنبعث فيه القوميّة المصريّة انبعاثها القويّ لتستكمل مقوّماتها الصحيحة حتى رأينا الأناشيد الوطنيّة والأشعار الحماسيّة — تزدهر وتنتعش مستجيبة لأهداف البعث متأثّرة بروح النهضة فمن شدو تلك الأناشيد والأشعار يستمدّ مجتمعنا الجديد حرارة الغيرة ومضاء العزم وقوّة الكفاح في سبيل التحرير والإصلاح ...

وسيمضي الشعر في أداء رسالته الجديدة مكتسبا صبغة العصر في الإحياء والتجديد غير متخلّف في التعبير عن "مصر" الناهضة في موكبها الوثّاب إلى العلاء ...

« دراسات في القصة والمسرح »

مستقبـــل القصـــص

ـ ليس الأدب على وجه عامّ والقصّـه على وجه خاص إلاّ مرآة للمجتمع وصورة تفصح عن جـوانبه ونفسيّات أهله وقد شهدنا بعد الحرب العالميّـة الأولى ما لحق القصّـة من تطوّر قويّ طوعا لما لحق الحيـاة الاجتماعيّـة كلّها من التطوّر.

ـ فلولا تلك الحرب لكان التغيُّـر في مذاهب القصّـة وأساليبها الفنّيّـة بطيء الخطى يستغرق مديدا من الزمن ولكن الحرب بفورتها العنيفة هدّمت كثيرا من المذاهب وبدّلت ألوانا من النّظم وأقامت في عالم الفكر صرحا جديدا سرعان ما توطّدت دعائمه وحسبنا أن نشير إلى تطوّر المرأة، وأثره في المحيط الاجتماعِيّ لنتبيّن عظم الفارق بين ما قبل الحرب وما بعدها .

ـ فقد وثبت المرأة في سبيل حرّيتها ونشاطها في المجتمع وثبات بعيدة المدى ممّا كان له أثر لا يذكر في صبغة الأدب ومنحى القصة وكذلك نلمع إلى التطوّر الصِّناعِيّ والاقتصادِيّ الذي أعقب الحرب فقد كان سلطانه عظيما في تحديد الاتّجاهات السّياسية والاجتماعيّـة للطبقات وكان لتلك الإتجاهات صداها المدوّى في مضمار الأدب القصصِيّ ولذلك كان طبيعيّا أن يعدّ النقاد تلك الحرب حدّا فاصلا بين أدبين : أحدهما أدب ما قبل الحرب، المتّسم بطابع المحافظةّ وروح التقاليد الموروثة والآخر أدب ما بعد الحروب، الذي يعد ثورة تجديديّـة عـارمة ...

– ونحن في مصر قد أحسسنا بهذه الظاهرة في أدبنا العربيّ فقد نجمت دعوات ونزعات في الإصلاح لم تخل من المغالاة ولكنّها أفادت في توجيه الفكر المصريّ وخلق لون جديد من أدب مصريّ .

– وإنّ ما حدث عقب الحرب الأولى حدث عقب الحرب الثانية التي اكتوى العالم منذ فترة بلظاها. بيد أنّ التطوّر كان أعمق وأعنف من ذي قبل وإنّنا لنشهد تطوّرا سريعا وتنازعا قويًّا في شتّى مناحي الحياة الاجتماعيّة والفكريّة ولا مراء أنّ الأدب ملاق من ذلك نصيبه الأكبر فنراه صفحة تختلج عليها مظاهر الروح الجديدة في المستقبل المنتظر ...

– ولمّا كان أدب القصّة في مصر حديث النّشأة ربيبا للقصّة الأوروبيّة ما برح يرتسم خطاها ؛ – فإنّه مهما يحتفظ بطابعه المستقلّ فلن يكون بمنجاة من التأثّر بالمنازع الجديدة التي تصطبغ بها القصّة الغربيّة في تطوّرها المقبل .

– وإذا رغب إلينا أحد في أن نتناول بالحديث حدود هذا التطوّر وسماته فإنّه يريدنا على أن نلقي الكلام ضربا في بيداء المجهول وتكهّنا بطوارىء الغد المغيب وسبقا للحوادث والملابسات التي يترتّب بعضها على بعض والحديث في مثل هذا لا يؤمن معه الشّرود ! ...

« دراسات فى القصة والمسرح »

أبو القاسم الشابي

شعـــــري

شعري نُفاثة صـــدري إن جاش فيه شعوري
لولاه ما انجاب عنّي غيمُ الحياة الخطير
ولا وجدت اكتئابي ولاَ وجدت سروري
به ترانِي حزينـــا أبكي بدمعٍ غزير
به ترانـي طَروباً أجرّ ذيلَ حُبوري

* * *

لا أنظم الشِّعر أرجو بـــه رضـاء الأمير
بمدحـــة أو رثـــاء تُهدى لربّ السرير
حسبِي إذا قلت شعرا أن يرتضيه ضميري

* * *

ما الشِّعر إلاّ فضـــاء يرفّ فيه مقـالي
فيما يسرّ بـــلادي وما يسرّ المعالِي
وما يثير شعوري من خافقات خيالِي

* * *

لا أقرض الشِّعر أبغي به اقتناص نوال
الشِّعر إن لم يكن فِي جماله ذا جلال
فإنّما هو طيف يسعى بوادي الضّلال
يقضِي الحياة طريدا في ذلّة واعتزال

* * *

يا شعر ! أنت ملاكي وطارِ في وتلادي
أنا إليك مراد وأنت نعم مرادِي
قف، لا تدعنِي وحيدا ولا أدعك تنادي
فهل وجدت حساما يناط دون نجاد ...

« اغانى الحياة »

قلت للشعر

أنتَ يا شعر فلذةٌ من فؤادي ... تتغنّى وقطعة من وجودي
فيك ما في جوانحي من حنين ... أبديّ إلى صميم الوجود
فيك ما في خواطري من بكاء ... فيك ما في عواطفي من نشيد
فيك ما في مشاعري من وُجوم ... لا يغنّي ومن سرور عهيد
فيك ما في عوالمي من ظلام ... سرمديّ ومن صباح وليد
فيك ما في عوالمي من نجوم ... ضاحكات خلف الغمام الشّرود
فيك ما في عوالمي من ضباب ... وسراب، ويقظة، وهجود
فيك ما في طفولتي من سلام، ... وابتسام، وغبطة، وسعود
فيك ما في شبيبتي من حنين، ... وشجون، وبهجة، وجمود
فيك — إن عانق الرّبيع فؤادي — ... تتثنّى سنابلي وورودي
ويغنّي الصّباح أنشودة الحبّ ... على مسمع الشّباب السعيد
ثمّ أجني في صيف أحلامي ... السّاحر ما لذّ من ثمار الخلود
فيك يبدو خريف نفسي ملولاً ... شاحب اللون عاريَ الأملود
جلّلته الحياة بالحزن الدّا ... مي وغشّته بالغيوم السود
فيك يمشي شتاء أيّامي البا ... كي وتُرغي صواعقي ورعودي
وتجفّ الزّهور في قلبيَ الدّا ... جي وتهوى إلى قرار بعيد..
أنت يا شعر قصّة عن حياتي ... أنت يا شعر صورة من وجودي
أنت يا شعر — إن فرحت — أغاريدي ... — وإن غنّت الكآبة — عودي
أنت يا شعر كأس خمر عجيب ... أتلهّى به خلال اللحود ... ؟

أتحسَّاه في الصَّباح لأنسى ما تقضَّى في أمسيَ المفقود
وأناجيه في المساء ليلهيني مرآه عن ظلام الوجود
أنا لولاك لم أطق عنتَ الدّهر ولا فُرقة الصَّباح السَّعيد
أنت ما نلت من كهوف الليالي وتصفَّحت من كتاب الخلود
فيك ما في الوجود من حَلَكٍ داجٍ وما فيه من ضياء بعيد
فيك ما في الوجود من نغم حلو وما فيه من ضجيج شديد
فيك ما في الوجود من جبل وعر وما فيه من حضيض وهيد
فيك ما في الوجود من حسك يد مِي وما فيه من غضيض الورود
فيك ما في الوجود...، حبَّ بنو الأر ض قصيدي أم لم يُحبُّوا قصيدي
فسواء على الطيور -- إذا غنَّت -- هتاف السَّؤوم والمستعيد
وسواء على النجوم -- إذا لاحت -- سكونُ الدّجى وقصف الرّعود
وسواء على النَّسيم أفي القمر تغنَّى أم بين غضّ الورود
وسواء على الورود أفي الغيران فاحت أم بين نهدٍ وجيد.

« أغاني الحياة »

قلب الشاعر

كلّ ما هبّ، وما دبّ، وما ... نام، أو حام على هذا الوجودْ
من طيور، وزهور، وشذى ... وينابيعَ، وأغصان تميدْ
وبحار، وكهوف، وذُرى ... وبراكينَ، ووديانٍ، وبيدْ
وضياء، وظلال، ودجى، ... وفصول، وغيوم، ورعود
وثلوج، وضباب عابر، ... وأعاصيرَ وأمطارٍ تجود
وتعاليمَ، ودين، ورؤى، ... وأحاسيسَ، وصمتٍ، ونشيد
كلُّها تحيا بقلبي، حرّةً ... غضّة السِّحر كأطفال الخلود

* * *

هاهنا، في قلبيَ الرّحبِ العميق ... يرقص الموت وأطياف الوجود
هاهنا تعصف أهوال الدّجى ... هاهنا تخفق أحلام الورود
هاهنا، تهتف أصداء الفنا ... هاهنا تعزف ألحانُ الخلود
هاهنا، تمشي الأماني، والهوى، ... والأسى، في موكبٍ فخْمِ النّشيد
هاهنا الفجر الذي لا ينتهي ... هاهنا الليل الذي ليس يبيد
هاهنا ألفُ خضمٍّ ثائرٍ ... خالدِ الثّورة مجهول الحدود
هاهنا في كلّ آنٍ تمّحي ... صور الدّنيا وتبدو من جديد

« أغاني الحياة »

الكآبة المجهولة

أنا كئيب،
أنا غريب،
كآبتي خالفت نظائرها
غريبةٌ في عوالم الحزَن
كآبتي فكرةٌ مغرّدةٌ
مجهولة من مسامع الزمن
لكنَّني قد سمعت رنَّتها
بمهجتي في شبابيَ الثَّمل
سمعتُها ، فانصرفتُ مكتئبا
أشدو بحزني، كطائر الجبل
سمعتها أنَّةً يرجِّعها
صوت الليالي ، ومهجة الأزل
سمعتها صرخة مضعضعة
كجدول في مضايق السبل
سمعتها رنَّة، يعانقها
شوق إلى عالم يضعضعها
ضعيفة مثل أنَّة صعدت
من مهجة هدّها توجُّعها
كآبة النَّاس شعلة، ومتى
مرّت ليال خبت مع الأمد

أمّا اكتئابي فلوعة سكنت
روحي، وتبقى بها إلى الأبد

* * *

أنا كئيب، أنا غريب،
وليس في عالم الكآبة من
يحملُ معشار بعض ما أجد
كآبتي مرّة، وإن صرخت
روحي فلا يسمعنّها الجسد

كآبتي ذات قسوة صهرت
مشاعري في جهنّم الألم
لم يسمع الدّهر مثل قسوتها
في يقظة قطّ ، لا ، ولا حلم

كآبتي شعلة مؤجّجة
تحت رماد الكون تستعر
سيعلم الكون ما حقيقتها
ويطلع الفجر يوم تنفجر

* * *

كآبة النّاس شعلة ، ومتى
مرّت ليال خبت مع الأمد
أمّا اكتئابي فلوعة، سكنت
روحي وتبقى بها إلى الأبد

* * *

احـــلام شـــاعـــر

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا ... سعيدا بوحدتي وانفـــرادي
أصرف العمر في الجبال، وفي الغابات ... بين الصَّنوبر المـيَّـــاد
ليس لي من شواغل العيش ما يصرف ... نفسي عن استماع فـــؤادي
أرقب المـوت، والحياة، وأصغـي ... لحديث الآزال والآبـــاد
وأغنّي مع البلابل في الغـــاب ... وأصغي إلى خرير الـــوادي
وأناجي النُّجوم، والفجر، والأطيار ... والنَّهر، والضيـاء الهـــادي
عيشة للجمال، والفنّ أبغيهـــا ... بعيدا عن أمّتي وبـــلادي
لا أعنّي نفسي بأحزان شعبـــي ... فهو حيّ، يعيش عيش الجماد!
وبحسبي من الأسى مـــا بنفسي ... من طريف مستحدث، وتـــلاد
وبعيدا عن المدينـــة، والنَّـــاس ... بعيدا عن لغو تلك النَّـــوادي
فهو من معدن السَّخافة والإفك ... ومن ذلك الهراء العـــادي
أين هو من خرير ساقية الوادي ... وخفق الصَّدى، وشدو الشَّـــادي
وحفيف الغصون، نمَّقها الطـــلّ ... وهمس النَّسيم لـــلأوراد ؟
هذه عيشة تقدّسها نفسي ... وأدعو لمجدها، وأنـــادي

« أغـانى الحيـاة »

أغـــانـــى التـــائـــه

كان في قلبيَ فجر، ونجـــوم وبحار، لا تغشّيهـــا الغيـــوم
وأناشيـــد، وأطيـــار تحـــوم ورييع مشـــرق حلو جميـــل
كان في قلبي صبـــاح، وإيـــــاة وابتسامات، ولكن... وأســـاه!
آه! مـا أهـــولَ إعصارَ الحيـاة آه! ما أشقى قلوب النَّـاس! آه!
كان في قلبيَ فجر، ونجـــــوم
فإذا الكـلُّ ظـــلام وســـديـــــم...
كـان في قلبـــيَ فجـــر ونجـــوم
يا ابن أمّي ! أترى أين الصَّباح؟ قد تقضّى العمر والفجر بعيـــد
وطغى الوادي بمشبـوب النـــواح وانقضت أنشودة الفصل السعيد
أين نـاي ؟ هل ترامته الرّيـــاح؟ والأغاني أين محراب السُّجود؟
خبّـروا قلبي- فما أقسى الجراح !- كيف طاشت نشوة العيش الحميد
يـا ابن أمّي ! أترى أيـــن الصَّبـــاح .. ؟
أوراء البحر؟ أم خلـف الـوجـود .. ؟
يـا ابن أمّي ؟ أترى أيـن الصَّبـــــاح ..؟
ليت شعري! هل تسلّيني الغداة وتعزّيني عن الأمس الفقيـــــد
وتريني أنّ أفراح الحيـــاة زُمَرٌ تمضي، وأفواج تعـــود
فإذا قلبي صبـــاح وإيـــــاة وإذا أحلاميَ الأولـــى ورود
واذا الشحرور حلو النَّغمـــات واذا الغـــاب ضيـــاء ونشيـــد
ليت شعري هل تعزّيني الغـــداة ؟
أم ستنسانـي وتبقيني وحيـــــد ؟
ليت شعري هل ستسليني الحيـــاة ؟

« اغـانى الحيـاة »

الأشـــواق التـــائهـة

يا صميمَ الحياة! إنّـي وحيـد مدلج تائه. فأين شـروقـكْ ؟
يا صميمَ الحياة! إنّـي فـــؤاد ضائع ظامىء فـأيـن رحيقـك ؟
يا صميم الحياة ! قـد وجم النّـا ي وغـام الفضـا فأيـن بـروقك ؟
يـا صميـم الحياة! أيـن أغانيـ ـك؟فتحت النُّجُوم يصغي مشوقك

* * *

كنت في فجـري المـوشّـح بالأحـــلام عطرا يرفّ فوق ورودك
حالمـا ينهـل الضياء ويـصغـي لـك في نشوة بوحي نشيـدك

.....

* * *

يا صميم الحياة! كم أنا في الدّنـــيا غريب أشقى بغـربـة نفسـي
بيـن قـوم لا يفـهـمـون أناشيـــد فؤادي ولا معانـي بـؤسـي
في وجود مكبّـل بقـيـــود تائـه في ظلام شكّ ونحـس
فاحتضنّـي وضُمّنـي لك ـكالماضي ـ فـهـذا الوجـود علّـة بؤسي

* * *

.....

ليتنـي لم أفد إلى هذه الدّنْـــيا ولـم تسبح الكواكب حولـي !
ليتنـي لم يعانق الفجـر أحـلا مي ويلثم الضّيـاء جفـونـي !
ليتنـي لم أزل ـكما كنت ـ ضوءاً شائعاً في الوجـود غير سجين !

« أغـانـي الحيـاة »

ألحـــانـــى السكـــرى

قد سكرنا بحبّنا واكتفينـــــا يا مدير الكؤوس فاصرف كؤوسك
واسكب الخمر للعصافيـــر والنّحـــــل وخلّ الثّرى يضمّ عروسك

* * *

مالنا والكؤوس نطلب منهـــا نشوة والغرام سحر وسكـــر !
خلّنا منك فالربيـــع لنـــا ســـا ق وهذا الفضـــاء كأس وخمر !

* * *

نحن نحيا كالطّير في الأفق السّا جي وكالنّحل فوق غضّ الزّهور
لا نرى غير فتنة العالم الحسيّ وأحـــلام قلبهـــا المسحـــور

* * *

نحن نلهو تحت الظّلال كطفلـــــــين سعيدين في غرور الطفولهْ
وعلى الصّخرة الجميلة في الـواد ي وبين المخاوف المجهولهْ

* * *

.....

نحنْ مثل الربيع : نمشي على أر ض من الزّهر والرّؤى والخيال
فوقها يرقص الغـــرام ويلهـــو ويغنّي في نشـــــوة ودلال

* * *

.....

قد تركت الوجود للنّاس فليقـــــضوا عليه الحياة كيف أرادوا
وذهبنا بالحبّ — وهو روح — وتركنا القشور وهي جمـــاد

* * *

قد سكرنـــا بحبّنـــا واكتفينـــا طفح الكأس فاذهبوا يا سقـــاة
نحن نحيـــا فلا نريـــد مزيـــدا حسبنـــا ما منحتنـــا يا حيـــاة

« أغـانى الحيـاة »

الصبـــاح الجـديـــد

اسكتِـي يـا جـراح واسكنِـي يا شجـون
مـات عهـد النَّـواح وزمـــان الجنـــون
وأطـلّ الصَّبـــــاح من وراء القـــرون

* * *

في فجـاج الـردى قـد دفنـت الألـــم
ونثـرت الـدّمـــوع لـريـــاح العـــدم
واتَّخـذت الحيـــاة معـزفـــا للنَّـغـــم
أتغنَّـى عـلـيـــــه في رحـــاب الزمن

* * *

وأذبـــت الأســـى في جمال الوجود
ودحـوت الفـــؤاد واحـة للنشِـيـــد
والضِّـيـــا والـظـلال والشَّذَى والورودْ
والهـوى والشبـــاب والمُنى والحـــنانْ

* * *

اسكتِـي يا جـــراح واسكنِـي يا شجـون
مـات عهـد النَّـواح وزمـان الجنـــون
وأطـلّ الصَّبـــــاح مـن وراء القـــرون

* * *

في فـؤادي الرّحيب معبـد للجمـــــال
شيَّـدتـه الحيـــــاة بـالـــرّؤى والـخـيـال
فتلـــوت الـصـــلاة في خشوع الظَّـلال
وحـرقت البـخـــور وأضـأت الشُّمُـوع

* * *

إنّ سحر الحياة خالدٌ لا يزول
فعلام الشّكاة من ظلام يخول
ثمّ يأتي الصّباح وتمرّ الفصول ؟
سوف يأتي ربيع إن تقضّى ربيع

* * *

اسكتي يا جراح واسكني يا شجون
مات عهد النّواح وزمان الجنون
وأطلّ الصّباح من وراء القرون

* * *

من وراء الظّلام وهدير المياه
قد دعاني الصّباح وربيع الحياه
يا له من دعاء هزّ قلبي صداه!
لم يعدْ لي بقاء فوق هذي البقاع

* * *

الوداع! الوداع! يا جبال الهموم
يا ضباب الأسى! يا فجاج الجحيم!
قد جرى زورقي في الخضمّ العظيم
ونشرت القلاع فالوداع! الوداع!

« اغاني الحياة »

تحت الغصون

ها هنا في خمائل الغاب تحت الزّان ... والسِّنديان والزيتون
أنتِ أشهى من الحياة وأبهى ... من جمال الطّبيعة الميمون
ما أرقّ الشّبابَ في جسمكِ الغضّ ... وفي جيدك البديع الثّمين !
وأدقّ الجمال في طرقك السّاهي ... وفي ثغرك الجميل الحزين !
وألذّ الحياةَ حين تغنّين ... فأصغي لصوتك المحزون
وأرى روحك الجميلة عطراً ... ضايعاً في حلاوة التّأنين !
قد تغنّيتِ منذ حين بصوت ... ناعم حالم شجيّ حنون
نغما كالحياة عذباً عميقاً ... في حنان ورقّة وحنين
فإذا الكون قطعة من نشيد ... علويّ منغّم موزون
فلمن كنت تنشدين ؟ فقالت: ... "للضّياء البنفسجيّ الحزين"
"للضّباب المورّد المتلاشي ... كخيالات حالم مفتون"
"للسّماء المطلّ للشّفق السّاجي ... لسحر الأسى وسحر السُّكون"
"للعبير الذي يرفرف في الأفق ... ويفنى مثل المنى في سكون"
"للأغاني التي يردّدها الرّاعي ... بمزماره الصّغير الأمين"
"للرّبيع الذّي يؤجّج في الدنيا ... حياة الهوى وروح الحنين"
"ويوشّي الوجود بالسِّحر والأحلام ... والزّهر والشّذى واللحون"
"للحياة التي تغنّي حوالي ... على السهل والربا والحزون"
"للينابيع للعصافير للظلّ ... لهذا الثّرى لتلك الغصون"
"للنّسيم الذي يضمّخ أحلامي ... بعطر الأقاحي والليمون"

"للجمال الذي يفيض على الدّنيا لأشواق قلبيَ المشحون"
"للزّمان الذي يوشّح أيّامي بضوء المنى وظلّ الشُّجُون"
"للشّباب السّكران للأمل المعبود لليأس للأسى للمنون"

* * *

فتنهّدت ثمّ قلت : "وقلبي من يغنيه ؟ من يُبيد شجوني ؟ ..
قالت : "الحبّ" ثمّ غنّت لقلبي قُبَلاً عبقريّة التّلحين
قبلاً علّمت فؤادي الأغاني وأنارت له ظلام السّنين
قبلاً ترقص السعادة والحبّ على لحنها العميق الرّصين

« اغاني الحياة »

النبـــي المجهـــول

أيُّهـا الشعب ليتنـي كنت حطّابـا ... فأهوي على الجذوع بفأسـي!
ليتنـي كنت كالسّيول إذا سالـت ... تهدّ القبور : رمسا برمس!
ليتنـي كنت كالرّياح فأطـوي ... كلّ ما يخنق الزهور بنحس!
ليتنـي كنت كالشّتاء أغشّـي ... كلّ ما أذبل الخريف بقرس!
ليت لي قوّة العواصف يا شعبي ... فألقي إليك ثورة نفسـي!
ليت لي قوّة الأعاصير إن ضجّـت ... فأدعوك للحياة بنبـس!
ليت لي قوّة الأعاصير... ؟ لكـن ... أنت حيّ يقضي الحياة برمس.!
أنت روح غبيّة تكره النـور ... وتقضي الدّهور في ليل ملس.
أنت لا تدرك الحقائق إن طافت ... حواليك دون مسّ وجسّ ..
في صباح الحياة ضمّخت أكوابي ... وأترعتها بخمرة نفسـي ..
ثم قدّمتها إليك فأهرقـت ... رحيقي ودست يا شعب، كأسي !
فتألّمت ثمّ أسكتّ آلامـي ... وكفكفت من شعوري وحسّي
ثمّ نضّدت من أزاهير قلبـي ... باقة لم يمسّها أي إنـس
ثم قدّمتها إليك فمزّقـت ... ورودي ودستها أيّ دوس
ثمّ ألبستني من الحزن ثوبـا ... وبشوك الجبال توجّت رأسي.

* * *

إنّني ذاهب إلى الغاب يا شعبي ... لأقضي الحياة وحدي بيأس
إنّني ذاهب إلى الغاب علّـي ... في صميم الغابات أدفن بؤسي
ثمّ أنساك ما استطعت فما أنت ... بأهل لخمرتي ولكأسـي

سوف أتلو على الطيور أناشيدي ... وأفضي لها بأشواق نفسي
فهي تدري معنى الحياة وتدري ... أن مجد النفوس يقظة حسّ
ثم أقضي هناك في ظلمة الليل ... وألقي إلى الوجود بيأسي
ثمّ تحت الصنوبر النّاضر الحلو، ... تخطّ السيول حفرة رمسي
وتظلّ الطيور تلغو على قبري ... ويشدو النّسيم فوقي بهمس
وتظلّ الفصول تمشي حواليّ ... كما كنّ في غضارة أمسي

* * *

أيّها الشعب أنت طفل صغير ... لاعب بالتّراب والليل مغمس
أنت في الكون قوّة لم تسسها ... فكرة عبقريّة ذات بأس
أنت في الكون قوّة كبّلتها ... ظلمات العصور من أمس أمس
والشّقيّ الشّقيّ من كان مثلي ... في حساسيّتي ورقّة نفسي

* * *

هكذا قال شاعر ناول النّاس ... رحيق الحياة في خير كأس
فأشاحوا عنها ومرّوا غضاباً ... واستخفّوا به وقالوا بيأس:
"قد أضاع الرشاد في ملعب الجنّ ... فيا بؤسه أصيب بمسّ"
"طالما خاطب العواصف في الليل ... وناجي الأموات في غير رمس"
"طالما رافق الظّلام إلى الغاب ... ونادى الأرواح من كلّ جنس"
"طالما حدّث الشياطين في الوادي ... وغنّى مع الرّياح بجرس"
"إنّه ساحر تعلّمه السحر ... الشياطين كلّ مطلع شمس"
"فابعدوا الكافر الخبيث عن الهيكل ... إنّ الخبيث منبع رجس"
"اُطردوه ولا تصيخوا إليه ... فهو روح شرّيرة ذات نحس"

* * *

هكذا قال شاعر فيلسوف ... عاش في شعبه الغبيّ بتعس

جهل النّاس روحه وأغانيها ... فساموا شعوره سوم بخس
فهو في مذهب الحياة نبيء ... وهو في شعبه مصاب بمسّ
هكذا قال ثمّ سار إلى الغاب ... ليحيا حياة شعر وقدس
وبعيداً هناك في معبد الغاب ... الذي لا يظلّله أيّ بؤس
في ظلال الصّنوبر الحلو والزيتون ... يقضي الحياة : حرسا بحرس
في الصّباح الجميل يشدو مع الطّير ... ويمشي في نشوة المتحسّي
نافخا نايه حواليه تهتزّ ... ورود الربيع من كلّ قنس
شعره مرسل تداعبه الرّيح ... على منكبيه مثل الدمقس
والطّيور الطراب تشدو حواليه ... وتلغو في الدّوح من كلّ جنس
وتراه عند الأصيل لدى الجدول ... يرنو للطائر المتحسّي
أو يغنّي بين الصنوبر أو يرنو ... إلى سدفة الظلام المغسّي
فإذا أقبل الظّلام وأمست ... ظلمات الوجود في الكون تغسي
كان في كوخه الجميل مقيما ... يسأل الكون في خشوع وهمس:
عن مصبّ الحياة أين مداه ؟ ... وصميم الوجود أيّان يُرسي ؟
وأريج الورود في كلّ واد ... ونشيد الطّيور حين تمسّي؟
وهزيم الرياح في كلّ فجّ ... ورسوم الحياة من أمس أمس،
وأغاني الرعاةِ أين يُواريها ... سكون الفضا وأيّان تمسي ؟؟

* * *

هكذا يصرف الحياة ويفنى ... حلقات السنين حرسا بحرس
يالها من معيشة في صميم الغاب ... تضحي بين الطّيور وتمسي!
يالها من معيشة لم تدنسها ... نفوس الورى بخبث ورجس !
يالها من معيشة هي في الكون ... حياة غريبة ذات قُدس !

« أغاني الحياة »

غـــرفـة مـن يـــم

ضعف العزيمة لحد في سكينته ... تقضي الحياة بناه اليأس والوجل
وفي العزيمة قوّاتٌ مسخّرة ... يخرُّ دون مداها الشّامخ الجبل
والنّاس شخصان : ذا يسعى به قدم ... من القنوط وذا يسعى به الأمل
هذا إلى الموت والأجداث ساخرة ... وذا إلى المجد والدّنيا له خول
ما كلّ فعل يُجِلّ النّاس فاعله ... مجدا فإنّ الورى في رأيهم خطل
ففي التّماجد تمويه وشعوذة ... وفي الحقيقة ما لا يدرك الدجل
ما المجد إلاّ ابتسامات يفيض بها ... فم الزّمان إذا ما انْسَدّتِ الحِيَل
وليس بالمجد ما تشقى الحياة به ... فيحسد اليوم أَمساً ضمّه الأزل
فما الحروب سوى وحشيّة نهضت ... في أنفس النّاس فانقادت لها الدّول
وأيقظت في قلوب النّاس عاصفة ... غام الوجود لها واربدت السُّبل
فالدّهر منتعل بالنّار ملتحف ... بالهول والويل والأيّام تشتعل
والأرض دامية بالإثم طامية ... ومارد الشرّ في أرجائها ثمل
والموت كالمارد الجبّار منتصب ... في الأرض يخطف من قدخانهالأجل
وفي المهامه أشلاء ممزّقة ... تتلو على القفر شِعرا ليس يُنْتَحَلُ

« أغـانى الحيـاة »

نظـــرة فى الحيـــاة

إنّ الحياة صـــــراع فيها الضّعيف يـــداسْ
ما فاز في ماضغيهـــا إلاّ شديد المـــراس
للخبّ فيهـا شجـــون فكن فتى الإحتـــراس
الكون كـون شقـــــاء الكون كـون التبـــاس
الكـون كـون اختـــلاق وضجّـــة واختـــلاس
سيّـــان عندىَ فيـــه السُّـــــرور والابتّـــــاس

* * *

بيـــن النـــوائب بـــون للنّاس فيـــه مـــزايـــا
البعض لم يـــــدر إلاّ البلى ينادي البـــلايـــا
والبعض ما ذاق منهـــا سوى حقيـــر الـــرزايا
إنّ الحيـــاة سبـــــات سينقضِـي بالمنـــايـــــا
ومـا الـرّؤى فيـــــه إلاّ آمالنا والخطايـــــــا
فإن تيقـــظ كـــانـــت بين الجفـون بقـايـــا

* * *

إنّ السّكينـــــــة روح في الليل ليست تضـــامْ
والـرّوح شعلـــة نـــــور من فوق كلّ نظـــــام
لا تنطفِـي بـريـــاح الـــــإرهـاق أو بـالحســـام
بـل قـد يعجّ لظـــاهـــــا سيلا ويطغى الضّـــرام
كلّ البـلايـــا جميـعـــا تفنى ويحيا الســـلام !

والـذلّ سبَّـة عـــــار لا يـرتضيــه الكـرام !

* * *

الفجــر يسطع بعـد الـــــــدّجى ويأتي الضيــاءْ
ويـرقـد الليــل قســـرا على مهـــاد العـفــاءْ
وللشعـــوب حـيـــــاة حينـــا وحينـــا فنـــاءْ
واليأس مـــوت ولـــكـــن مـوت يثيـــر الشقـــاءْ
والجـدّ للشَّعـــب روح توحِـــي إليــه الهنـــاءْ
فإن تـولّـت تصـــــدّت حيـاتــه للبـــــــلاءْ

« أغـانى الحيـاة »

نشيـــد الجبـــار

او هكـذا غنـى بروميثيـوس

سأعيش رغم الدّاء والأعـــداء ... كالنّسر فوق القمّـة الشمّـــاء
أرنو إلى الشّمس المضيئة هازئا ... بالسُّحب والأمطار والأنـواء
لا أرمق الظلّ الكئيب ولا أرى ... ما في قرار الهـــوّة الســوداء
وأسير في دنيـا المشاعـــر حالما ... غردا – وتلك سعادة الشُّعراء –
أصغي لموسيقى الحياة ووحيها ... وأذيب روح الكـون في إنشائـي
وأصيخ للصوت الإلاهيِّ، الـذي ... يحي بقلبـي ميِّت الأصـداء

* * *

وأقول للقدر الذي لا ينثني .. ... عن حرب آمالي بكـلّ بـلاء:
"لا يطفىء اللهب المؤجّج في دمي ... موج الأسى وعواصف الأرزاء ..
"فاهدم فؤادي ما استطعت فإنّـه ... سيكون مثل الصّخرة الصمّـاء"
"لا يعرف الشكوى الذليلة والبكاء ... وضراعة الأطفال والضعفـاء"
"ويعيش جبّارا يحدّق دائمـا ... بالفجر.. بالفجر الجميل النّائي"
"واملأ طريقي بالمخاوف والدّجى ... وزوابع الأشواك والحصبـاء"
"وانشر عليه الرّعب وانثر فوقه ... رجم الرّدى وصواعق البأساء"
"سأظلّ أمشي رغم ذلك عازفـا ... قيثارتي مترنّمـا بغنائـي"
"أمشي بروح حالم متوهّـج ... فـي ظـلمة الآلام والأدواء"
"النُّور في قلبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السّير في الظّلماء"
"إنّي أنا النّاي الذي لا تنتهي ... أنغامه مادام في الأحيـــاء؟

"وأنا الخضمّ الرّحب ليس تزيده ... إلاّ حياة سطوة الأنواء"
"أمّا إذا خمدت، حياتي وانقضى ... عمري وأخرست المنيّة نائي"
"وخبا لهيب الكون في قلبي الذي ... قد عاش مثل الشّعلة الحمراء"
فأنا السّعيد بأنّني متحوّل ... عن عالم الآثام والبغضاء"
"لأذوب في فجر الجمال السّرمدي ... وأرتوى من منهل الأضواء"

* * *

وأقول للجمع الذين تجشّموا... ... هدمي وودّوا لو يخرّ بنائي
ورأوا على الأشواك ظلّي هامدا ... فتخيّلوا أنّي قضيت ذمائي
وغدوا يشبّون اللهيب بكلّ ما ... وجدوا.. ليشووا فوقه أشلائي
ومضوا يمدّون الحبال ليأكلوا ... لحمي ويرتشفوا عليه دمائي
إنّي أقول لهم – ووجهي مشرق ... وعلى شفاهي بسمة استهزاء–:
"إنّ المعاول لا تهدّ مناكبي ... والنّار لا تأتي على أعضائي"
"فارموا إلى النّار الحشائش والعبوا ... يا معشر الأطفال تحت سمائي"
"وإذا تمرّدت العواصف وانتشى ... بالهول قلب القبّة الزّرقاء"
"ورأيتموني طائرا مترنّما ... فوق الزّوابع في الفضاء النّائي"
"فارموا على ظلّي الحجارة واختفوا ... خوف الرّياح الهوج والأنواء"
"وهناك في أمن البيوت تطارحوا ... غثّ الحديث – وميّت الآراء"
"وترنّموا – ما شئتم – بشتائمي ... وتجاهروا ماشئتم بعدائي "
"أمّا أنا فأجيبكم من فوقكم ... والشّمس والشّفق الجميل إزائي"
"من جاش بالوحي المقدّس قلبُه ... لم يحتفل بحجارة الفلتاء "

السعـــادة

.....

...فما السَّعادة في الدّنيا سوى حلم
ناء تُضحّي له أيَّامها الأمـــم
ناجت بـه النَّـاس أوهـام معـربـدة
لمَّـا تغشَّتهم الأحلام والظّلـــم
خذ الحياة كمـا جـاءتـك مبتـسـمـا
في كفِّهـا الغـار أو في كفِّها العـدم
وارقص على الورد والأشواك متئدا
غنَّت لـك الطَّير أو غنَّت لك الرّجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضـض والجم شعورك فيها إنَّها صنـم
فمن تألَّم لم ترحم مضاتـــــه ومن تجلَّـد لم تهزأ بـه القـمـم

.....

وإن أردت قضاء العيش في دعـة شعريَّـة لا يغشّي صفوها نـدم
فاترك إلى النَّـاس دنياهـم وضجَّتهم وما بنـوا لنظام العيش أو رسمـوا
واجعل حياتك دوحاً مزهرا نضـرا في عزلة الغاب ينمو تم ينعـدم
واجعل لياليك أحلامـاً مغـرّدة إنّ الحياة وما تـدوي بـه حُلُـم

« أغـانى الحيـاة »

الاعتـــــراف

ما كنت أحسب بـعد موتك يـا أبي
– ومشاعري عـميـاء بـالأحـزان –
أنّـي سأظمأ للحـيـاة وأحتسِـي
من نهرها المـتوَهِّـج الـنَّشـوان
وأعود للدنيا بـقلب خـافـق
للـحـبّ ، والأفـراح ، والألحان
ولكلّ ما في الكون من صور المـنى
وغرائـب الأهـواء والأشـجـان
حتى تحرّكت السنـون وأقبلـت فتن الحياة بسـحرها الفتّان
فإذا أنا مازلت طفلا مولعـا بتعقّب الأضـواء والألـوان
وإذا التّشاؤم بالحيـاة ورفضهـا ضرب من البهتان والهـذيـان
إنّ ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصّـادق الإيمان

« أغـانى الحيـاة »

الـــى الـشـعـــــب

أين يا شعب، قلبك الخافق الحسّاس؟ أين الطُّموح ، والأحـــلام ؟
أين يا شعب، روحك الشّاعر الفنّان؟ أيـن الخيـــال ، والإلـــهـــام ؟
أين يا شعب، فنّك السّاحر الخلّاق؟ أين الـرّســوم ، والأنغـــام ؟
إنّ يمّ الحيـاة يـدوي حـــواليـك فـأيـن المغـامـر المـــقـــدام ؟
أيـن عـزم الحيـــاة ؟ لا شيء إلاّ الموت والصَّمت والأسى والظَّلام
عمر ميِّت، وقـــلـب خـــــواء ودم لا تثـــــيـــره الآلام
وحيـــاة تنـام في ظلمـة الـــوادي وتنمو من فوقهـــا الأوهـــام
أيّ عيـش هـــذا وأيّ حياة ؟ ! (ربّ عيـش أخـفّ منـه الحمـام)

* * *

... يا إلهي! أما تحسّ؟ أما تشدو؟ أما تشتكِـي ؟ أما تتكـلَّمْ ؟ ...
...أيّ سحر دهاك ؟ هل أنت مسحور شقيّ؟ أو مـــارد يتـهـكَّـــمْ ؟

* * *

آه ! بـل أنت في الشعب عـجـوز فيلسوف محطَّـم في إهـــابـــهْ
مات شوق الشباب في قلبـه الذّاوي وعـزم الحياة في أعصـــابـهْ
... فالـزم القبر... فهـو بيت شبيه بـك في صمت قلبـه وخـــرابـهْ
واعبد "الأمس" وادّكر صور الماضي فدنيا العجـوز ذكـرى شبابـهْ...

* * *

... فلماذا تعيش في الكـون يـا صاح! وما فيـك من جنىً يستفيـــدهْ
لست يـا شيـخ للحيـــاة بـأهـــل أنت داء يبيـدها وتبيـــــــدهْ

* * *

... أنت يا كاهـن الظـلام حيـــاة تعبـد المـوت ... ! أنت روح شقيّ

كافر بالحياة والنُّور ... لا يصغي إلى الكون قلبه الحجريّ...
أنت قلب لا شوق فيه ولا عزم وهذا داء الحياة الدّويّ ...
أنت لا شيء في الوجود فغادره إلى الموت فهو عنك غنيّ.

« **أغاني الحياة** »

ارادة الحيـــــاة

إذا الشعب يوما أراد الحيـــــاة فلا بدّ أن يستجيب القـــدر
ولا بدّ للّيل أن ينجـلِـــي ولا بدّ للقيـد أن ينكســـــر
ومن لم يعانقه شـوق الحيـــاة تبخّر في جوّها واندثـــر

.....

كذلك قالت لي الكائنـــــات وحدّثني روحهـا المستتر

* * *

ودمدمت الرّيح بين الفجـاج وفوق الجبـال وتحت الشّجر:
"إذا ما طمحت إلى غـايـــة لبست المنى وخلعـت الحذر"
"ولم أتخوّف وعـور الشّعـاب ولا كبّـة اللهـب المستعـر"
"ومن لا يحبّ صعود الجبـال يعش أبد الدّهـر بين الحفر".
فعجّت بقلبِـي دمـاء الشّبـاب وضجّت بصدري ريـاح أخر
وأطرقت أصغي لعزف الرّيـاح وقصف الرّعـود ووقع المطر

* * *

وقالت لي الأرض لما تساءلـــت: "يا أمّ هل تكرهين البشر؟":
"أبارك في النّاس أهل الطموح ومن يستلذّ ركـوب الخطـر"
"وألعن من لا يماشي الـزمـان ويقنع بالعيش عيش الحجـر"
"هو الكون حيّ يحبّ الحيـاة ويحتقر الميّت المندثـــر"
"فلا الأفق يحضن ميت الطيور ولا النّحل يلثم ميت الزّهـر"
"ولولا أمومـة قلبِـي الرّؤوم لفرّت عن الميت تلك الحفـر"
"فويل لمن لم تشقه الحياة من لعنة العـدم المنتصـــر"

« أغـاني الحيـاة »

فـي ظـــل وادى المـــوت

نحن نمشي، وحولنا هاتـه الأكوا ... ن تمشي لكن لأيَّـة غـايـــــه؟
نحن نشدّو مع العصافير للشمس ... وهـذا الـرّبيع ينفخ نـايـــــه
نحن نتلو روايـــة الكـون للمـوت ... ولكن مـــاذا ختـــام الـــروايـه؟
هكذا قلـت للـرّيـاح فقالـــت : ... "سل ضميـر الوجود :كيف البداية؟"

* * *

وتغشّى الضبـاب نفسي فصاحـت ... في ملال مرّ : "إلى أين أمشي ؟"
قلت: "سيري مع الحياة..."فقالت: ... "ما جنينا ترى من السَّير أمس ؟"
فتهـافتّ كـالهشيـم – على الأرض ... ونـاديـت : "أين يا قلـب رفشي ؟"
"هاتـه، علَّنِي أخطّ ضريـحِـــي" ... "في سكـون الدّجى وأدفن نفسي"

* * *

"هاتـه فالظَّـلام حولي كثيـف ..." ... "وضباب الأسى منيخ عليّـا ... "
"وكؤوس الغـرام أترعهـا الفجـر،" ... "ولكن تحطّمت في يـديَّـا ... "
"والشَّبـاب الغريـر ولىّ إلى الماضي" ... "وخلَّى النحيب في شفتيَّـا ... "
"هاتـه، يا فـؤاد إنَّـا غـــريـبـــان" ... "نصوغ الحيـاة فنّا شجيَّـا ... "

* * *

"قد رقصنـا مع الحياة طـويـلا ..." ... "وشدونـا مع الشبـاب سنينا ... "
"وعـدونـا مع الليالي حُفـــاة ..." ... "في شعاب الحياة حتى دمينـــا"
"وأكلنـا التُّـراب حتَّى مللنـا .." ... "وشربنا الدّمـوع حتَّى روينا..."
"ونثـرنـا الأحـلام والحبّ والآ م.." ... "واليأس والأسى حيث شينا ... "

* * *

"ثم ماذا؟ هذا أنا: صرت في الدّنيا" "بعيدا عن لهوها وغناهـــا"
"في ظلام الفناء، أدفن أيّامـي" "ولا أستطيع حتّى بكاهـــا ؟"
"وزهور الحياة تهوي بصمت" "محزن مضجر على قـدميّـا"
"جفّ سحر الحياة يا قلبيَ الباكي" "فهيّا نجرب الموت هيّـا ! "

« أغـانى الحيـاة »

صلـــوات في هيكـــل الحـــب

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديـــد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليـد
يالها من وداعـة وجمـــال وشباب معنم أمـلـــود!
يالها من طهارة تبعث التقديـــس في مهجة الشقيّ العنيـد!
يالها رقـة تكاد يـرفّ الـور د منها في الصخـرة الجلمود!
أيّ شيء تراك؟ هل أنت "فنيس" تهادت بين الورى من جديـد
لتعيد الشباب والفرح المعســول للعالم التعيس العميـد
أم ملاك الفردوس جـاء إلى الأر ض ليحيي روح السلام العهيد
أنت ... ما أنت ؟ أنت رسم جميل عبقريّ من فنّ هذا الوجـود
فيك ما فيه من غموض وعمق وجمال مقدّس معبـود
أنت... ماأنت؟ أنت فجر من السحر تجلّ لقلبيَ المعمـود
فأراه الحياة الحياة في مونق الحسن وجلّى له خفايا الخلـود
أنت روح الربيع تختال في الدّنيـا فتهتزّ رائعـات الـورود
وتهبّ الحياة سكرى من العطـر ويذوي الوجود بالتغريـد
كلّما أبصرتك عيناي تمشين بخطو موقّع كالنشيـد
خفق القلب للحياة ورفّ الزهـر في حقل عمريَ المجرود
وانتشت روحيَ الكئيبة بالحبّ وغنّت كالبلبل الغرّيـد
أنت تحيين في فؤاديَ ما قد مات في أمسيَ السعيد الفقيـد
وتشيدين في خرائب روحـي ما تلاشى في عهديَ المحدود

من طموح إلى الجمال إلى الفنّ ... إلى ذلك الفضاء البعيد
وتبثّين رقّة الشّوق والأحلام ... والشّدو والهوى في نشيدي
بعد أن عانقت كآبة أيّامي ... فؤادي وألجمت تغريدي
أنت أنشودة الأناشيد غنّاك ... إله الغناء ربّ القصيد
فيك شبّ الشباب وشّحه السحر ... وشدو الهوى وعطر الورود
وتراءى الجمال يرقص رقصا ... قدسيًّا على أغاني الوجود
وتهادت في أفق روحك أوزان ... الأغاني ورقّة التغريد
فتمايلت في الوجود كلحن عبقريّ ... الخيال حلو النشيد
خطوات سكرانة بالأناشيد ... وصوت كرجع ناي بعيد
وقوام يكاد ينطق بالألحان ... في كلّ وقفة وقعود
كلّ شيء موقّع فيك حتّى ... لفتة الجيد واهتزاز النّهود
أنت.. أنت الحياة في قدسها السّامي وفي سحرها الشّجيّ الفريد
أنت.. أنت الحياة في رقّة الفجر وفي رونق الرّبيع الوليد
أنت.. أنت الحياة كلّ أوان ... في رواء من الشّباب جديد
أنت.. أنت الحياة فيك وفي عينيك آيات سحرها الممدود
أنت دنيا من الأناشيد والأحلام ... والسّحر والخيال المديد
أنت فوق الخيال والشّعر والفنّ ... وفوق النُّهى وفوق الحدود
أنت قدسي ومعبدي وصباحي ... وربيعي ونشوتي وخلودي

* * *

يا ابنة النّور إنّني أنا وحدي ... من رأى فيك روعة المعبود
فدعيني أعيش في ظلّك العذب ... وفي قرب حسنك المشهود
عيشة للجمال والفنّ والإلهام ... والطُّهر والسّنى والسُّجود
عيشة النّاسك البتول يناجي الرّ ... بّ في نشوة الذّهول الشديد

وامنحينِـي السَّـلام والفـرح الرو ... حيّ يا ضوء فجريَ المنشـود
وارحمينِـي فقد تهـدّمت في كـو ... ن من اليأس والظَّـلام المشيـد
أنقذينِـي من الأسى فلقـد أمسيـ ... ـت لا أستطيع حمل وجـودي
في شعاب الزّمـان والموت أمشي ... تحت عبء الحياة جمّ القيود
وأماشي الورى ونفسي كالقبـ ... ـر وقلبِـي كالعالم المهـدود
ظلمة مالها ختام وهـ ... ـول شائع في سكونهـا الممـدود
وإذا ما استخفَّنِـي عبث النَّـاس ... تبسَّمت في أسىً وجمـود
بسمة مـرّة كأنِّـيَ أستـ ... ـلّ من الشَّوك ذابـلات الـورود
وانفخي في مشاعري مرح الدّنيا ... وشدّي من عـزميَ المجهود
وابعثِي في دمي الحرارة علِّـي ... أتغنَّى مع المنى من جديـد
وأبثّ الوجود أنغـامَ قلـ ... ـب بلبليّ مكبّل بالحـديـد
فالصَّباح الجميل ينعش بالـدِّفء ... حياة المحطَّـم المكـدود
أنقذينِـي فقد سئمت ظلامي ... أنقذينِـي فقد مللت ركودي!

* * *

آه يا زهرتي الجميلة لو تدريـن ... ما جدّ في فـؤادي الوحيد!
في فؤادي الغريب تُخلق أكوان ... من السِّحر ذات حسن فريـد
وشموس وضَّاءة ونـجـ ... ـوم تنثر النُّور في فضاء مـديـد
وربيع كأنَّه حلم الشَّـاعـ ... ـر في سكرة الشَّباب السعيـد
ورياض لا تعرف الحَلَك الدّاجي ... ولا ثـورة الخريف العتيـد
وطيور سحريّـة تتنـاغـ ... ـى بأناشيدَ حلـوةِ التغـريـد
وقصور كأنَّها الشَّفق المخضوب ... أو طلعة الصَّبـاح الوليـد
وغيوم رقيقـة تتهـ ... ـادى كأباديد من نُثـار الـورود

وحياة شعريّة هي عندي صورة من حياة أهل الخلود
كلّ هذا يشيده سحر عينيك وإلهام حسنك المعبود
وحرام عليك أن تهدمي ما شاده الحسن في الفؤاد العميد
وحرام عليك أن تسحقي آمال نفس تصبو لعيش رغيد
منك ترجو سعادة لم تجدها في حياة الورى وسحر الوجود
فالإله العظيم لا يرجم العبد إذا كان في جلال السُّجود

« أغاني الحياة »

الجمـــال المنشـــود

يا عـذارى الجمـال والحبّ والأحـــــــلام بل يا بهـاء هذا الـوجـــود!
قد رأينا الشُّعـور منســـــدلات كلّلـت حسنهـا صبـاح الورود
ورأينا الخـدود ضرّجهـا السـحـــــر فآهـا من سحـر تلك الخدود!
ورأينـا الشفـاه تبسـم عـن دنـــــيا من الـورد غـضّـة أمـلـود
ورأينـا الجفـون تبسـم أو تحـلـــــم سكرى بالشّدو. بالتّغـريـد
ورأينـا النُّهـود تهـتـزّ كـالأز هـار في نشوة الشّباب السعيد
توقظ الوجد في القلوب ولكن ليت شعري! ماذا وراء النُّهود ؟
مالذي خلف هـذه الفتنـة الخـــــــرّاء في ذلك القرار البعيـــد ؟
أنفوس جميلة كطـيـور الغـــا ب تشدو بمستـرقّ النّشـيـد
طاهـرات كأنّهـا أرج الأزهـــا ر في مولـد الرّبيع الجديـد ؟
وقلـوب مضيئة كنجـوم الليـــــــل ضوّاعة كغضّ الـــورود ؟
أم ظـلام كأنّـه قطـع الليـــــل وهـول يشيب رأس الوليد
وخضمّ يموج بالإثم والمنـكـــــــر والشّرّ والضّلال المديـد
صانكن الإله من ظلمة الرّوح ومن ضلّة الضّمير العنيـــد
فظلام النفوس شرّ ظـــلام سر مـديّ الأسى شنيع الخلود
يرزح القلب فيه بالألم المـــرّ ويشقى بعيشـه المنكـــود
ورُواء الشّبـاب يـذبـل كـالأو راق في ثـورة الخريف العنيد
غير باق في الكون إلاّ جمال الرّو ح غضا على الزمـان الأبيـد

« أغـانى الحيـاة »

أراك

أراكِ فتحلو لدي الحياة ويملأ نفسي صباح الأملْ
وتنمو بصدري ورود عذاب وتجنو على قلبيَ المشتعلْ
ويفتنني فيكِ فيض الحياة وذاك الشباب الوديع الثَّمِل
ويفتنني سحر تلك الشفاه ترفرف من حولهنّ القبل
فاعبد فيك جمال السماء ورقّة ورد الربيع الخضل
وطهر الثّلوج وسحر المروج موشّحة بشعاع الطَّفل

* * *

أراك فأخْلقُ خلقا جديدا كأنيَ لم أبْلُ حرب الوجودْ
ولم أحتمل فيه عبْئاً ثقيلا من الذّكريات التي لا تبيدْ
وأضغاث أيّاميَ الغابرات وفها الشّقيّ وفيها السّعيد
ويغمر روحي ضياء رفيق تكلّله رائعات الورود
وتسمعني هاته الكائنات رقيق الأغاني وحلو النشيد
وترقص حولي أمان طراب وأفراح عمر خليّ سعيد

* * *

أراكِ فتخفق أعصاب قلبي وتهتزّ مثل اهتزاز الوترْ
ويجري عليها الهوى في حنوّ أنامِلَ لدْنا كرطب الزّهر
فتخطو أناشيد قلبيَ سكرى تغرّد تحت ظلال القمر
وتملأني نشوة لا تحدّ كأنّيَ أصبحت فوق البشر
أودّ بروحي عناق الوجود بما فيه من أنفس أو شجر
وليل يمرّ وفجر يكرّ وغيم يوشّي رداء السّحر.

« **أغاني الحياة** »

أيتها الحالمة بين العواصف

أنتِ كالزّهرة الجميلة في الغاب
ولكن ما بين شوك ودودد
والرّياحين تحسب الحسك الشرّير والدّود من صنوف الورود
فافهمي الناس ... إنّما النّاس خلق مفسد في الوجود غير رشيد
والسّعيد السّعيد من عاش كالليل غريبا في أهل هذا الوجود
ودعيهم يحيون في ظلمة الإثم وعيشي في طهرك المحمود
كالملاك البريء كالوردة البيضاء كالموج في الخضمّ البعيد
كأغاني الطيور كالشّفق السّاحر كالكوكب البعيد السّعيد
كثلوج الجبال يغمرها النّور وتسمو على غبار الصّعيد
أنت تحت السماء روح جميل صاغه الله من عبير الورود
وبنو الأرض كالقرود وما أضيع عطر الورود بين القرود !
أنت من ريشة الإله فلا تلقي بفنّ السّما لجهل العبيد
أنت لم تخلقي ليقربك النّاس ولكن لتعبدي من بعيد ...

« أغاني الحياة »

الى عازف أعمى

أدركتَ فجر الحياة أعمى
وكنت لا تعرف الظَّلامْ

فأطبقت حولك الدّياجي وغام من فوقك الغمام
وعشت في وحشة تقاسي خواطرا كلّها ضرام
وغربة ما بها رفيق وظلمة مالها ختام
تشقّ تِيه الوجود فرداً قد عضَّك الفقر والسَّقام
وطاردت نفسك المآسي وفرّ من قلبك السَّلام

* * *

هوّن على قلبك المعنَّى إن كنت لا تبصر النُّجومْ
ولا ترى الغاب وهو يلغو وفوقه تخطر الغيوم
ولا ترى الجدول المغنِّي وحوله يرقص الغميم
فكلّنا بائس جدير برأفة الخالق العظيم
وكلّنا في الحياة أعمى يسوقه زعزع عقيم
وحوله تزعق المنايا كأنّها جِنَّة الجحيم

« أغاني الحياة »

(1)

أغنيـــة الألـــم

ما أمرّك أيُّها الألم وما أعـذبك !

أيتها المرارة التي أترعت أودية الحياة بأمواج الدّمـوع وملأت آفاق الوجـود بأنّات النُّفوس الدّاميـة !

أيَّتها اليد الرهيبة الهائلة التي حطَّمت على شفاه القلوب كؤوس الأحلام وأراقت رحيق النُّفوس بكهف الظـلام .

أيُّها الهول الذي ترهبنا ملامحه وتخيفنا ذكرياتـه .

أيُّها الألم الرائع الذي نحبّه ونخشـاه .

إنّك أنت الشعاع الأزلي الجميل الذي وشّح ظلمة نفسي بالشَّفق ورصّعها بالنُّجـوم وتوَّجها بأضواء الصَّباح !

وأنت أنت الصوت الإلهي النبيل الذي أوحى إلينا أناشيد السَّماء وعلّمنا كيف نغنّي للبشريّة أغانيَ الجمال ...

وأنت أنت المنبع السِّحري الغريب الذي ينمِّق سبل الإنسانية المضرّجة بالدّمـاء بأوراد الحياة وأزهارهـا .

أيُّها الألم الإلهي النبيل الذي نحبُّه ونخشاه ترى أيَّة شفة ترشَّفت رضـاب الحيـاة ولم يطهرها لهيب الحياة ؟ ! وأيَّة زهرة تلفت قبل الربيع ولم يروّع الشِّتاء أحلامها ؟ ! وأيَّة نفس بشريَّة عانق الفجر روحهـا بجناحيه ولم تراقصها أهوال الظَّلام ولا عذّبتها أبالسة الجحيم ؟ !

لنبحث أيَّتها الحياة عن قدمي ذلك الجبَّار الجميل المحدّق بما وراء هذا الوجود .

ولنسجد أيّتها الليالي والأيّام إلى تلك الأجنحة النّاريّة المشبوبة بأوجاع القلوب والتي تسمو بالنّفس البشريّة إلى أقصى آفاق الخلود وتنحدر بها إلى ظلمات الحياة أيّان تضطرب عواطف الوجود الغامضة وترتعش شكوك البشر وتتمايل أحزان الدهور. أيّان تلقّى "المعرّي" لزومياته وتغنّى "الخيام" برباعياته ويرتّل الخالدون إنجيل الحياة !!

ولتتغنّ يا قلبي بأنشودة الأحزان المرّة إلى الأبد !

لتركع أيّها الوجود بخشوع أمام تلك القوّة الإلهيّة التي تصوغ من دماء النّموس وأنّاتها أقدس ما في هذا العالم وأبدع ما في مشاعر الأيّام وتنشىء من ظلمات القلوب صباحا ساحرا سرمديّا لاتكدّره الرّياح !...

ولنقدّس أيّتها الليالي والأيّام تلك الأشعّة الورديّة الصّافية تنبت حول جداول الأحلام الدّامية هاتيك الزّهور النّاريّة المقدّسة التي نستنشىء عبيرها من لوعة "المجنون" وأغانيه ولتترنّم يا قلبي بأغنية الآلام المرّة حتّى الأبد . !

لنصلّ أيّتها الكائنات بخضوع أمام ذلك الضّباب السّحريّ الذي يستر بنقابه عرائس الشّعر وعذارى الأحلام !

ولتتغنّ أيّتها الليالي والأيام بمجد تلك الشّعلة الخالدة التي أنارت للبشريّة سبيل الحياة الغامضة وهدتها إلى شجرة المعرفة التي لا تنبت إلاّ على ضفّة نهر الدّموع والأحزان ولترتّل يا قلبي أغاني الأوجاع المرّة حتّى الأبد ! .

ولنمجّد يأيّها الغاب المنتحب . ويأيّها الوادي الكئيب ويأيّها الكهف الأخرس ويأيّتها الحيرة الواجمة ويأيّتها الحياة المغمورة بالدّماء ويأيّتها الإنسانيّة التائهة المتوّجة بالأشواك الريّانة بالدموع السّائرة على بساط لهيب الأوجاع. لنقدّس كلّنا ذلك الألم الذي يجعل من الشاعر قيثارة غريبة غامضة، منطرحة في ملتقى رياح الوجود صدّاحة بأغانيَ الحبّ والجمال ! !

لترتّل يا قلبي الكئيب البائس أنشودة الآلام المرّة بالدموع ولتردّدها على مسمع الظلام حتّى الأبد ! ! !

« **أبو القاسم الشابي** »

(2)

الخيـــال فى الأدب العـــربى

أما ذهبتم في يوم من أيّام الربيع الحالمة إلى بعض ضواحي المدينة، حيث البريـــة المهتزّة الناضرة، والغاب المونق الجميل ؟

أما رأيتم ذلك البلبل الأنيق ، المتنقّل بين الغصون المورقة ، يترنّم بأغاريده الرقيقة الشجيّة ؟

أما أبصرتم تلك القبّرة الرشيقة، المتخطّرة بين مخارف الأشجار، وحول مسارب الحقول، تتغنّى بتلك الأناشيد العذبة الطاهـــرة ؟

أما شاهدتم في ضحوة النهار تلك الفراشة الجميلة ترفرف حول الأعشـــاب البليلة، وتلك النّحلة الهازجة تحوّم بين الزهور السّكرى بأنوار النّهار ؟

أما ساقت إليكم ذات يوم نسمات المساء الوادعة ذلك الصوت الفضّيّ الجميل المتجـــاوب في ظلام الغاب ؟

ثمّ أما أحسستم إذ ذاك، وأنتم بين أحضان الطبيعة، بذلك الشعور القويّ الغامض الشّامل يستحوذ على مشاعركم، ويستولي على نفوسكم، فيجعلها أدنى إلى الخلود منها إلى هذا العالم الفانـي ؟

بلى !

ولكن أي شيء هو هذا الذي حرّك في نفس البلبل حبّ النشيد فانطلق يغنّي بين الغصون المزهرة، وداعب قلب القبّرة الصغيـــرة فاندفعت تغرّد راقصة بين الحقول، و أثار الفراش فرفرف بين الشقيق والأقحوان، وأهاج النحلة فانطلقت تدمدم فوق أعشاب الربيع ، باحثة عن رحيق الورود، وأيقظ في أعماقكم ذلك الإحساس المبهم البهيج اللذيـــذ ؟ ؟

أيّ شيء يا ترى هذه القوّة الساحرة التي تسكر كلّ شيء، وتعبث بكلّ شيء ؟

إنّها هذا الروح الإلهي النبيل الذي تبصرونه في السماء والماء، والنُّور والفضاء، وفي الوردة الناضرة، والنسمة الطائرة، وفي حلة الموج، ووميض النّجوم .

إنّه الجمال الخالد المعبود، الذي أحسّ به أهل "بابل" فعبدوه في "عشتروت"، وشعر به "اليونان" فقدّسوه في "أفروديت" ، واستفزّ قلوب "الرومان" فمجّدوه في "فينيس" وأقامت له الإنسانية كلّها معابد المجد في أعماق القلوب .

فالجمال هو الذي نبّه الطائر فغرّد، وأيقظ الفراش فحرّم، واستخفّ النحلة فطافت بين الرّياض، واتخذ من أنفسكم هيكلا شعريّا تعبدونه فيه وأنتم لا تشعرون .

والجمال هو الذي أنطق شعراء الوجود بتلك الأناشيد الخالدة المتغنّية بجلال الكون، ومجد الحياة .

والجمال هو الذي مهّد للانسانيّة هذا السبيل الذي تضرب فيه، واستثار أفكار الجبابرة من مراقد النسيان

ولولا هذا الجمال المنبثّ في مظاهر الكون وطواياه لاتّخذت الإنسانية سبيلا آخر غير هذا الذي تعرفه، ولحرم العالم من ثمار خالدة أنتجتها العقول .

* * *

وبعد ، فما الذي أريد قوله من وراء هذا الكلام ؟

أريد أن أقول : إنّ مثل هذا الجمال الطبيعي الذي يستفزّ كوامن الحسّ، ويهزّ أدقّ أعلاق الشعور، والذي عرفتم أثره في نفوسكم كلّما خلوتم إلى أحلامكم بين أحضان الطبيعة... أقول : إنّ مثل هذا الجمال الطبيعي هو القسطاس العادل الذي ينبغي أن توزن فيه نفسيّات الأمم، وشاعريات الشعوب، ليعلم ما هي عليه من قوّة وضعف ، ومن صحّة أو فساد .

وإنّ على حسب ما في الإقليم من جمال وروعة تكون شاعريّة الأمّة، فإن كان وسطها الطبيعي بهيجا نضيرا كانت شاعريّة الأمّة خصبة منتجة، وإنّ كان كالحا مقشعرًّا كانت كزّة مجدبة .

بل أزيد : إنّ على حسب طلاقة الجوّ أو قطوبه تكون نفسيات الأمم والشعوب، فإن كان الجوّ طلقا ضحوكا كان روح الأمّة مفراحا مرحا، وإن كان الجوّ جهما عبوسا كان روح الأمّة داجيا مكتئباً.

ولماذا لا يكون للوسط الطبيعيّ أثره الفعّال في تكوين نفسيات الأمم وطبعها على غراره وقد تحقّق العلماء أنّ له الأثر القويّ في خلق المزاج الفرديّ وتكوينه ؟ !

* * *

وإذا فماذا يمكنني أن أقول عن الأمة العربيّة ؟

إذا أخذت هذا المقياس وطبّقته عليها، ناظرا إلى الوسط الطبيعي الذي عاشت فيه، لا يمكنني أن أقول إلاّ أن شاعريتها ستكون شبيهة كلّ الشّبه بالوسط الطبيعي الذي نمت وتدرّجت فيه. فبما أن الأمّة العربيّة قد عاشت في أرض محرومة من هذا الجمال الذي يستفزّ المشاعر، ويؤجّج الخيال، لأنّها قطعة عارية قاحلة، لا يعترض العين فيها غير المواسي المقفرة الموحشة والصّحاري الظامئة المترامية يخطف في حواشيها السراب، وقد يعثر الطرف فيها على رقعة يهتزّ فيها النبات أو جدول يتدفّق بين الرّمال أو غدير نائم بين الصخور العارية. بما أنّ الأمّة العربيّة قد عاشت كذلك فينبغي أن تكون شاعريتها قريبة من هذه الأرض كلّ القرب ؛ فيها ما فيها من ضياء وإشراق ومن بساطة وسذاجة .

من محاضرته : « **الخيال الشعري عند العرب** »

(3)

الشعـــور بالجـمـــال

يقـول الفـلاسفـة الأقدمـون : "إنّ النفـس البشريّـة قد خلقـت من عنصـر الحسـن وجلبـت من فـنّ الجمـال ..."

وفي هـذا الكـلام شيء من الحـقّ غيـر قليـل وإلاّ فبمـاذا تعلّـلـون هاتـه اللـذة السّـاميـة التي تشعـر بهـا النفـوس جميعـا كلّمـا شاهدت مرأى جميـلا من مـرائي هذا الكـون البهيـم ؟ وبماذا تفسّـرون هذا الشّغـف بالجمـال الذي قـد يصبح في بعض النّفـوس تعطّشـا دائمـا وحنينـا لا يـرتـوي، وقـد يسمـو في بعض النفـوس الشاعـرة إلى أفـق أعلى فإذا هـو غيبـوبـة كليّـة في هـذا الكـون البـديـع وتستغـرق المشاعـر وتطغى على كـلّ الميـــول ...

تلـك هي النّفـس الإنسانيـة : فلـذة خالـدة من الجمـال العبقـريّ الذي يتفجّـر من قلـب الحيـاة تفجّـر العطـر من الـوردة اليانعـة فيشمـل كلّ ما في هـذا الملكـوت من حيّ ومـيّـت وينسجـم على قسمـات هـذا العالم ووجـوه هـــذا الـوجـــود ...

تلـك هي النّفـس الإنسانيـة : فلـذة خالـدة فصلتهـا يـد القـدر عن جمـال الحياة ولـذلك فهـي أبـدا تحنّ إليـه في أيّ مظهر كـان وفي أي لون بدا فإن فقدته ظلّـت تبحث عنه بيـن سمع الأرض وبصرها حتى تظفر به.

... أمّـا العـرب فقـد حـرمـوا كمـا قلنـا من هـذا الجمـال السمـاوي الذي يجـد عنـده القلـب لـذّة الحسّ وسعـادة الشّعـور ولم يكن لديـهم من مظاهـر الجمـال على اختـلاف فنونـه غير فنّ واحـد وهـو "المـرأة" ففي المرأة وحدها استطـاعوا أن يجدوا ذلك الينبوع السّحريّ المتفجّـر من قلـب الحياة ... وفي المـرأة وحدهـا ظفـروا بتلك الكـأس الرّوية التـي تطفئ ظمـأ القلـب إلى الحسن وغلّة النّـفس إلى الجمـال فتغنّـوا بمحاسن المـرأة وشبّـبوا بمفاتنهـا ما شاء لهم الشّعـر والعاطفـة .

وتلك جبلّة الإنسان في العالم كلّه منذ القدم. فالمرأة هي النّصف الجميل الذي يحمل في قلبه رحيق الحياة وسلسبيل المحبّة. والمرأة هي الطيف السّماوي الذي هبط الأرض ليؤجّج نيران الشّباب ويعلّم البشريّة طهارة النّفس وجمال الحنان، تلك هي المرأة في رأي البشريّة جمعاء إلاّ قلوبا لم تعرف نعمة الحبّ ولا سمعت نشيد الجمال فظلّت مغلقة موصدة كأفئدة الصُّخور ... ولكن العرب تجاوزوا في التغنّي بالمرأة كلّ حدّ حتّى أصبحت هي اللحن الجميل الذي تستهلّ به القصائد ، وهي الكلمة السّحريّة التي تنفتح لها كنوز الشّعر وحتّى أصبحت عندهم كآلهة الشعر عند قدماء اليونان لا يبدأون الشعر إلاّ بنجواها ولكن لا تتعجّلوا فتحسبوا أنّهم أجلّوا المرأة ونظروا إليها نظرة سامية فيها طهر العبادة وفيها معنى التّقديس والإجلال كما كان ينظر قدماء اليونان إلى آلهة الشعر حينما يناجونها في مستهلّ القصائد. كلاّ ! فإنّ شيئا من هذا لم يكن لأنّ الشعر العربيّ لا يُبَوّئُ المرأة المنزلة السّامية وذلك المقام الجميل إلاّ ليتحدّث عن ملهاته السّاحرة التي ألفى عندها متعة الجسد ومنهل الشّهوات أو لكي يفاخر رفاقه من أبناء البادية بأنّه قدير على تصبّي قلوب النّساء والعبث بهنّ ليس غير ... !

أجل فإنّ نظرة الأدب العربيّ إلى المرأة نظرة دنيئة سافلة منحطّة إلى أقصى قرار من المادّة لا تفهم من المرأة إلاّ أنّها جسد يشتهى ومتعة من متع العيش الدّنيء ...

« الخيال الشعرى عند العرب »

(4)

رأى فى الأدب العـــربى

يجب علينا أن لا ننظر إلى الأدب العربيّ إلاّ تلك النظرة المعجبة لا غير حتّى يمكننا أن نتّخذ لنا أدبا قويما فيه ما في الحياة الحاضرة من عمق في الفكر وسعة في الخيال ودقّة في الشعور. أمّا أن نتّخذ الأدب العربيّ الذي عرفنا خلوّه من مثل هاته الأمور مثلنا الأعلى الذي ننسج على منواله فذلك هو الخمول وذلك هو الموت الزؤام.

لقد أصبحنا نتطلب حياة قويّة مشرقة ملؤها العزم والشّباب. ومن يتطلّب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة ... أمّا من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور السّاخرة ... لقد أصبحنا نتطلّب الحياة ... ولكن لنعلم قبل ذلك أنّنا جياع عراة وأنّ تلك الثروة الطّائلة الضخمة التي أبقاها لنا العرب لا تشبع جوعنا ولا تسدّ خلّتنا لعلّنا إن شعرنا بفقرنا وعرانا تحرّكت فينا عوامل العزّة الإنسانيّة فطفقنا نعمل بعزم وقوّة ما نستر به سواعدنا العارية ونطعم به أرواحنا الجائعة ممّا نحوكه بأنفسنا ونستخرجه بأيدينا من مصانع الحياة ...

فلا خير في أمّة عارية تكتم فقرها ... ولا خير في شعب جائع يظهر الشّبع ... وشرّ من كلّ ذلك أمّة تقتني أثوابها من مغاور الموت ثمّ تخرج في نور النّهار متبجّحة بما تلبس من أكفان الموتى وأكسية القبور.

« الخيال الشعرى عند العرب »

منتقيات من الأدب التونسي المعاصر

النثر

-١-

مقالات وقصص

الطاهر الحداد

محمد العربي

علي السدوعاجي

محمود المسعدي

في معـــركـة المـــرأة

المرأة هي أمّ الإنسان تحمله في بطنها وبين أحضانها وهو لا يعي غير طابعها الذي يبرز في حياته من بعد وترضعه لبانها تغذّيه من دمها وقلبها، وهي الزّوج الأليف تشبع جوع نفسه وتذهب وحشة انفراده وتبذل من صحّتها وراحة قلبها لتحقيق حاجته وتذليل العقبات أمامه وتغمره بعواطفها فتخفّف عنه وقع المصائب والأحزان وتجدّد فيه نشاط الحياة، وهي نصف الإنسان وشطر الأمّة نوعاً وعدداً وقوّة في الإنتاج من عامّة وجوهه فإذا كنّا نحبُّها ونحترمها ونسعى لتكميل ذاتها فليس ذلك إلاّ صورة من حبّنا واحترامنا لأنفسنا وسعينا في تكميل ذاتنا، غير أنّنا قد اعتدنا في نظرنا للمرأة أن نراها منفصلة عن الرّجل، لا شأن لها في تكييف نفسه وحياته وأحرى أن لا يكون لها شيء من ذلك في نهوضه الشّعبيّ أو سقوطه فكنّا بذلك نتجرّع مرارة الخيبة في حياتنا من كلّ وجوهها دون أن ندرك مصادر هذه الخيبة النّامية فينا فنعمل لزوالها .

النّاس أمام المرأة اليوم فريقان : أنصار لها ومعارضون ولكنّهم في الغرب غيرهم في الشّرق والفرق بينهم بعيد جدّا كالفرق بين امرأتهم وامرأتنا فهم في أوروبا متّفقون على تعليم المرأة وتربيتها وعاملون في ذلك جميعاً لتقوم بعملها كاملاً في المنزل وتربية الأبناء مع تمكينها من الحرّيّة المدنية لاستثمار مواهبها في الأعمال الأدبية

والماديّة العائدة بالخير على منزلها أو على الثّقافة العامّة ولتأخذ حظّها أيضا في الأنتفاع بمباهج الحياة وقد نالت من ذلك ونال منها المجتمع الأوروبي أوفر نصيب ثمّ هم يختلفون بعد ذلك في تقدّمها مع الرّجل إلى الإنتاج الماديّ وسيادة الدولة وتحمّل أعبائها بالمساواة معه حتّى لا يمتاز عليها في شيء وهذا ما تسير إليه اليوم في تيار قويّ.

فالمعارضون يرون في ذلك تضييعاً لوظيفة المرأة في المنزل والنّسل وتثقيفه حيث تنهمك في الأعمال العموميّة التي تذيب جهدها وتخمر وقتها حتّى لا يبقى منه لشيء آخر زيادة عمّا في ذلك من منافسة الرّجل في طلب العمل تلك المنافسة التي كانت من عوامل البطالة في جهات أوروبا بينما هي لا تقوى على عمل الرجال فتأتي به كاملاً مثلهم.

والأنصار يرون تجربتها في ذلك أيّام الحرب الكبرى وبعدها دليلاً واضحاً على النّجاح الذي تجده بدأ بها في المستقبل وينبغي أن لا يعتبر هذا النّجاح في الشّعب إلاّ قوّة جديدة فيه وتوفيراً لإنتاجه الماديّ والمعنويّ وعوناً له عليه في حدّ لا يضيع مهمّة النسل. وإذا كانت وظيفة تربية الأطفال التي تمتاز بها المرأة يضرّ بهذا الاتّجاه فإنّ تأسيس معاهد الأطفال والإكثار منها يرفع كثيراً من هذه التّبعة على المرأة حتّى يزيلها بالتدريج وقد أخذت الدول الأوروبية اليوم تباعاً بهذا الرأي مع التدريج فأفسحت للمرأة في مقاعد النيابة وكراسي الحكم في الدولة

الطاهر الحداد

من مقدمة كتاب « **امرأتنا في الشريعة والمجتمع** »

الـــرد عـلى منتقـــديـه

رويداً رويداً أيُّها القوم ! وعلى رسلكم فأنتم لا تستطيعون أن تختصُّوا دوننا بفهم الدّين أو القرب منه، وقد خلقنا في الإسلام سواء وإذا أردتم أن تقتبسوا من تاريخ الكنيسة وحاضرها حقًّا لكم في حرمان غيركم من الإيمان وغلق أبواب السماء دونه فان تستطيعوا إلى ذلك سبيلاً في الإســلام .

التهويل لا ينفعكم والتظاهر بالحماس للدّين أمام عموم الأمَّة لا يروج طويلاً حتّى ينكشف وإذا كنت قد أثبتّ في الكتاب (1) من الآراء ما هو مستجدّ وغير معروف من قبل فالإسلام كنز لا يفنى وبحر لا يحيط به الإنسان ولا القرون ولا الأحقــاب وإنّما يغترف النّاس منه في كلّ عصر ما يفي بحاجتهم ويروي من غلّتهم وهذا سرّ خلوده ومصدر فيضه العميم .

لقد كنت أظنّ أنّني سأجد تقديراً وعناية صادقة فيما ألّفت لا لأنّني كنت أنتظر كيل المدح والشُّكر لي جزافاً أو الإعلان بعصمتي من خطإ الرأي فذلك خراف لا يعلق بذهن عاقل وهو إلى ذمّ الإنسان من طريق الإشارة أقرب منه إلى مدحه وإنّما كنت أنتظر تمحيصاً صادقــاً للكتاب فما فيه من خلل ينقد بقوّة البرهــان والرّجوع للحقّ فضيلة، وما فيه من حقّ يجب أن يعلن للنّاس حتّى تمكن به الاستفادة ويعترف للعامل بحسن ما عمل .

الطـاهر الحداد

من مقال نشر بجريدة « **الزمـان** »

---

(1) الكتاب هو « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » .

الرجـــال بأعمـــالهم

تأتي على الأمم أيّام تعيش فيها بأوهام الخيال تمجّد غير أهل المجد وتعترف بالفضيلة لغير أهلها فتعدم ملكة التمييز التي هي أخصّ أوصاف الأمم الحيّة، تظنّ المجد كلّ المجد في الوظائف والوسامات وتتوهّم العلم والفضل في الألقاب الرّسميّة وأشكال الملبوسات وتجهل تلك الكلمة التي بنت عليها الشّعوب الحيّة أساس التمييز "الرجال بأعمالهم" لا بألقابهم وأزيائهم ولا بأقوال النّفاق التي تخالف ما أبطنت سرائرهم. تتألّم الأمّة لما حلّ ويحلّ بها وتتجرّع كأساً ملؤها البؤس والشقاء وهناك أناس لم تشعر نفوسهم حتّى ببعض أسف على ما تعانيه أمّتهم ولكن إذا ذكرت أسماؤهم عندها أظهرت من جلائل الاحترام والتعظيم لهم نظراً لألقابهم وأزيائهم ما يؤلم كلّ حيّ شاعر.

نعم إن كثيراً من ذلك الاحترام نفاق ورياء أوجبه شعورها بالضّعف لتفرّق أجزائها ونحن يؤلمنا ذلك ولكن الأمر الأكثر إيلاماً أو الموجب لتدارك الحال بكشف الأحوال هو تعظيم الأمّة بقلب مخلص لغير مستحقّ لذلك ولكنّها لو عرفت أنّ الرّجال بأعمالهم بل لو اجتهد أبناؤها المخلصون في إفهامها ذلك لكان لها شأن غير هذا الشأن .

قد يقيض الله للأمّة في أيّام محنتها رجلاً أو رجالاً يحاولون

انتشالها من تلك الظلمات فيقوم في وجوههم أولئك النّاس المغرورة بهم أمّتهم فينسبونهم إلى المروق من الدّين أو القيام في وجه الدّولة ومحاولة قلبها فيحكم عليهم بالقتل أو السجن أو يبعدون عن أوطانهم، كلّ ذلك وأمّتهم تنظر إليهم وربّما كانت مسرورة بذلك حيث يوهمها أولئك المخادعون أنّهم إنّما فعلوا ذلك انتصارا للحقّ من أولئك المبطلين .

الطاهر الحداد

من مقال نشر بجريدة « **الأمة** »
عدد 29 فى 18 ماى 1922

العامل التونسي في عهد الحماية

إنّ شقاء العامل التونسيّ قديم التّاريخ لكنّه يمتاز في عصر الاحتلال بتفويق العامل الأوروبي المماثل له في العمل ونوع الشغل عليه فهو يرى كلّ يوم أنّ هذا الزميل الذي يشتغل إلى جانبه طول النّهار يترقّى في كسبه يوميًّا لتحسين حياته وحياة أبنائه بقدر ما ينزل هو إلى الحضيض بفضل تحكّم السّياسة العنصرية الآتية من روح الاستعمار وإذا كان للبلاد التونسيّة في العهد القديم جدب تصاب به أو قحط يجعل تاريخاً للحوداث بعده كعام (بوبرّاك) فإنّ لعهدها الحاضر موسماً في كلّ عام مملوءاً بالمجاعة المهلكة الماثلة بصورتها الهائلة في المهاجرين التّونسيين نساء ورجالاً من طرف البلاد إلى طرفها طلباً للقوت فيسقطون من الجوع أمواتاً في الطّريق ومهما تحسّنت المحصولات الزّراعيّة فإنّ التصدير يجتاحها وقد انضمّ إلى هؤلاء طائفة كبيرة من الشعب كانت تعيش في أملاكها ومزارعها فزحزحت عنها إلى الاستعمار الفرنسي الذي أخذ مكانها فانسابت على وجهها في أنحاء المملكة طلباً للرزق فاشتغل شقّ منهم في خدمة الأرض وفي المعامل والمناجم التي تنقده أجراً في أيّامنا هذه من الثلاثة فرنكات إلى التسعة في اليوم، وشقّ منهم وهو عظيم لم يجد شغلاً فانساب في مدن المملكة يتسوّل في الطّرقات ويسأل النّاس إلحافاً حتّى صار ذلك حرفة له وهم الذين نشاهدهم كلّ يوم يجوبون النهار في ذرع الطرقات وينامون ليلاً على التّراب حتّى في أيّام القرّ الجامدة

وبلا غطاء ولا تسأل عن مشهدهم يوم تخونهم الصحّة وتنتاب الأمراض المزمنة أجسادهم الضعيفة .

الطـــاهر الحداد

من مقال نشر بجريدة « لسان الشعب »
عدد 193 فى 26 أوت 1925

الـــرمـــــاد

هي باربسية — أو هكذا تقول -- قدّمت إليها في حفلة رقص كنت أقوم فيها بوظيفة -- البرمان -- أو الساقي، أهشّ كؤوس — الكوكتيل — وأفتح زجاجات — الشمبانيا -- وقد رغبت في هذه المهمّة لأنّها تعفيني من الاعتذار عن عدم الرّقص. فكلّ جهل في افريقيا الإستوائية مغفور ماعدا جهل الرّقص ورفع الأرجل ووضعها على نغمات — السوينق — لأنّ الكلّ في — برازفيل — يرقصون وليلة الأحد تصير برازفيل بسودها وبيضها عبارة عن حلبة رقص جنونيّ .

وأظهرت براعة في مزج الخمور وهتف الراقصون بحياة "البرمان" وحملت — وقد لعبت الخمر برؤوس الجميع — على الأكتاف وألقيت في حلبة الرقص وصرت كالكرة يقذفني هذا الى تلك وهذه إلى أخرى... وأخيراً وقعت لسوء حظّي — أو لحسنه — لا أدري بين ذراعي — كلود — حرت ثانية وأنا بين ذراعيها أنشق عطرها ثم تمتمت بين الضحك والغضب : ما دمت حصلت هنا فلن أبرح

وهنا وضع أحدهم اسطوانة على — الفونغراف — وانطلقت الموسيقى معربدة — بالسوينق — فالتفتّ الأذرع من جديد بالخصور ولم استطع الانفلات فالتفّ ذراعي بخصر — كلود — بعد أن قلت لها : إنّي أرقص كالفيل فقالت : اتبع خطواتي وما عليك — وراحت ترفعني وتضعني كأنّي لعبة ورحت أتبعها كالآلة وكانت تمسك بيدي وتدفعني بعيداً عنها نحو ثلاثة أقدام ثم تجذبني وتلتصق بي التصاقاً رحت منه في

غيبوبة كالتي يجدها رجال الصُّوفية عندما ينهكون قواهم في العبادة فيشعرون بأنَّهم امتزجوا بالذّات العالية ويجدون تلك النَّشوة التي أوحت إلى الحلاّج بأن يصرخ : "أنا الله" تلك النشوة فقط هي التي أستطيع أن أصف بها نشوتي فأصرخ أيضا كالحلاّج : أنا الله – أو : أنا – كلود!

وسكتت الموسيقى ففررت من رقصتي إلى – البار – وكرعت كأساً من – الوسكي – وأشعلت سيقارة – وانطلقت الموسيقى من جديد لكنَّها هذه المرّة غير معربدة بل هادئة في ثورة .

وأقبلت عليّ – كلود – وكلُّها ابتسام وحبور بل أكثر من هذا وذاك : كلُّها حياة كما يشتهي الشّعر أن تكون الحياة – اعتلت أحد المقاعد العالية الملتصقة بحاجز – البار – وقدّمت إليّ وجهاً تمسك شفتاه العصبيّتان سيقارة ترفعها لفوق وتحطُّها لتحت، وهي طريقة لطيفة في سؤال النّار. أوقدت لها السيقارة – وكان سكوت ثقل عليّ – فقلت وأنا أنزع عن سيقارتها مقدار أنملة من الرّماد وأرمي به إلى حيث لا أدري :

– لماذا لا ترقصين ؟ ألا يستهويك – الطانقو – ؟

فقالت ولم يتغير شيء من ملامحها ولم تتحرّك السيقارة في فيها: إني أرقص الآن

فقلت وأنا ابتسم : لكن حذار – فسيقارتك ربَّما تحرق فارسك – ؟

فقالت إنّ فارسي من رماد لا يحترق – وسكتت ثم زادت كأنَّها تناجي نفسها : الرّماد أقوى من النّار – لأنَّه يغمرها – لأنَّه

يخنقهـا –

ورمت بالسيقارة ومكثت واجمة –

وكأنّ السيقارة كانت تحجب وجهها عنّي – فلمّا ألقتها بدا كلّه ألماً جميلاً كصورة المسيح المصلوب –

وقطعت الصمت أنا من جديد فقلت لها :

وهل لا تزالين ترقصين ؟

فأومأت برأسها : نعم

وسكتت وسكتت

وهنا آمنت بأنّها ترقص وتستسلم إلى ذراعين خفيين ينقلانها على وقع النغمات إلى عالم آخر، هل قدّر لك أن تشاهد عينيْ امرأة وهي ترقص بالخيال ؟ هل قدّر لك أن تغوص في عينين زرقاوين ملئتا نغماً ... ؟ أمّا أنا فقد غصت وحبست تنفُّسي كأنّي أغوص حقّاً، حبست أنفاسي كالغائص في أعماق البحر ومحت الأبعاد منّي كلّ تفكير. وسكتت الموسيقى وامّحت آثارها من عينيْ صاحبتِي. فقذفت بي إلى الخارج فتنشقت الهواء بكلّ لهفة ،

وقالت : شكراً وانصرفت .

أذكر أنّي مرّة تخلّفت في البيت – وأنا طفل – لأحمل بعض المتاع وألتحق بأمّي وأبي وإخوتي في المحطّة لنركب القطار إلى – سان جرمان – حيث كنّا نريد أن نقضي ثلاثة أيّام على شاطيء البحر. وتلكّأت في السَّير. ولمّا وصلت إلى المحطّة وجدت القطار قد تحرّك

بعد حاملاً أمّي وأبي وإخوتي فشعرت بوحشة وانقباض وملأت المحطّة بكاء وعويلاً، لقد عاودني نفس هذا الشعور ساعة فارقتني هذه المرأة التي لا أعرف عنها سوى أنّها ترقص وهي جالسة مع — فارس — خيالي من رماد. ولولا بقية باقية من كبرياء — بل لولا بقية من نفاق الكبار — لملأت قاعة الرقص تلك الليلة بكاء وعويلاً مثلما فعلت وأنا طفل .

محمد العربي

عن مجلة « **المباحث** »

عدد 10 ـ جانفي 1945

سهـــرت منـه الليـــالى

كانت (الخالة) امرأة ممتلئة الجسم يتحرّك كلّ جزء منها بمفرده وهي تطلع درج السُّلم لاهثة شاخرة تتصبَّب عرقاً وهي تصرخ مداعبة ابنة أختها من قبل أن تراهـا :

ـ أين أنت ؟ أين ؟ ما هذا بسلّم ؟ هذا الصراط، أين أنت يا فتاتي، لعن الله هذا الشَّحم الذي يعوقني حتّى عن التنفُّس .

ـ خالتِي سلامتك يا خالتِي تفضَّلِي هو ذا المقعد الذي يريحك ويريح شحمك ... ولكن دعينِي أقبِّلك، وتقبِّلها وتجلس الخالة على المقعد وهي تزيح عن وجهها العصابة السوداء وتتفرّس قليلاً في وجه زكية ابنة أختها وتسألهـا :

ـ ماذا. ما لعينيك مورّمتين أكنت تبكين ؟

ـ هو ذاك ... لا يمكن أن أخفي عنك شيئاً يا خالتِي !

ـ ما أبكى عزيزتي، ما أبكى صغيرتي قولي لخالتك الحنون كيف أتبكين في العام الثاني من زواجك ؟ هي أخلاق أمُّك المسكينة (وهي في دار الحقّ ونحن بدار الباطل) تتجلّى فيك لقد كانت رحمها الله ولوعة بالبكاء احكِي لخالتك كيف تعيشِين ... مع ...

ـ كما وددتني أن أعيش في جهنَّم منذ ألقيت بي في جحيم هذا الزواج ..

ـ هذا زوجـك ...

– زوجي. قل جلاّدي فقلبه قلب جلاّد ... هو يقتل كلّ يوم شيئا منّي ستجدينني ميّتة جامدة في زيارتك المقبلة إن لم أذب وأسل دموعاً من عينيّ .

– خفّفي عنك ... احكي لي الأول بالأوّل ما وقع بينكما

– إنّه رجل خبيث أحمق سكّير يسكر كلّ ليلة ولا يأتي بعد كلّ منتصف ليل إلاّ ليعربد عليّ وعلى طفلي. آه لو لم يكن حمّادي ابننا بيننا ! آه يا خالتي لقد كان في أوّل (سكراته) يشتمني شتماً مقذعاً وينعتني بأقبح النعوت ولا يسمّيني إلاّ بأخبث أسماء الأسماك والطّيُور فإنّني (حسب الخمّار) بين الطاووس والوطواط أو بين التن و"النازللي" القبيح الرّأس ثمّ يجبرني على ايقاد النّار وطبخ "المشلوش" بعد السّاعة الثانية من منتصف الليل وإلاّ فإنّي أستحيل في نعته إلى حمارة لا تجيد الطّبخ ...

– أعوذ بالله ! أعوذ بالله ! هذا شيطان ... وشيطان بذيء القول !

تقول الخالة هذا وهي تنظر شزراً إلى باب غرفة النّوم الموصود كأنّها تسأل قريبتها بعينها "إن كان ما زال نائماً" أم "هل خرج" لتعرف أي طريق تسلك في نقدها له .

وتجيب زكية :

– إنّه لا يصحو إلاّ بعد منتصف النهار ... كعادته وإن صحا فلكي ينام ثانياً.

– ينام ؟

– بين الكتب والجرائد التي تأخذ كلّ وقته إنّه لا يكلّمني إلاّ

وهو سكران فإنّ صحا فهو للكتب والأوراق هي ذي تملأ كلّ الغرف والويل لي إن فقد منها ورقة ... ليتك زوّجتني أميًّا مثلي. إنّ عشرة هذا لا تطاق .

ـ لا تطاق .

ـ تصوّري أنّه رجع ليلة أمس يترنّح سكراً ورائحته كرائحة النسناس وعثرت رجله بكتاب ألقاه الطّفل المسكين ولم أنتبه له فصبّ جام غضبه على الطّفل ولطمه لطمة كادت تخرج روحه ووددت افتكاكه منه..

ـ الطفل أم الكتاب ؟

ـ الطفل يا خالتي ... حمّادي ... فلطمني أنا بدوري .

ـ كيف لطمك أنت ولا تقولين لي هذا من الأول. آه ... إنّ الأمر أهمّ ممّا كنت أظنّ. كيف، أيرفع يده على امرأته وأمّ ولده. هذا لا يطاق وصلنا إلى اللطم. اسمعيني يا فتاتي أنت صغيرة فافتحي أذنك إلى نصائح خالتك المجرّبة لقد زففت إلى ثلاثة رجال وأنا أعلم النّاس بهم إنّ الرجل الذي يضرب امرأته ليس برجل (تحتدّ هنا الخالة كلّ الحدّة وتصرخ في ابنة أختها) اسمعي اطلبي طلاقك منه وسنحاكمه ونطالبه بتعويض وندخله السّجن، إنّ القضاء وكلّ شرائع (الخمسمائة دنيا) لا تبيح لأيّ رجل كان لطم امرأة ضعيفة ! اطلبي طلاقك منه، قلت لك ... إذ ليس بعد اللطم من معاشرة.

ـ الطلاق ... هو ذاك .

ـ أتصبرين على معاشرة هذا الفظّ. قلت إنّه أحمق قلنا لا بأس ككلّ الرجال. قلت إنّه يسمّيك باسماء البهائم قلنا لا بأس سيغيّر

نعوته حسن معاشرتك له. قلت إنّه سكّير قلنا لا بأس ستنتفخ كبده ويترك الخمرة. قلت إنّه يحبّ مطالعة الكتب قلنا لا بأس وهي وإن كانت ضرائر لك إلاّ أنّها أخفّ وطأة من ضرّة بشرية واحدة . لكن وصلنا لسؤ المعاشرة والضّرب ... اطلبي طلاقك وأنا الضّمينة بحصولك عليه من أقرب السبل .

– كيف يا خالتي ؟

– إن كان دمك هذا دماً مثل الذي يجري في عروقي (تقول هذا وهي تنظر إلى معصميها المكتنزين والتي ضاقت بهما الأسورة الفضّية) إن لم يكن دمك ماء وسكّراً وعصير برتقال وإن كنت حقّاً ابنة اللبوة منجية أختي رحمها الله ستقومين توًّا إلى لمّ أدباشك وتخرجين معي الآن وعليّ أنا الباقي .

تخجل زكية ... وتصعّد بصرها لباب الغرفة (غرفة النوم) وتصوّبه إلى الأرض

– خالتي لا ترفعي صوتك

وتتحمّس الخالة ويهتزّ كلّ جسمها اهتزازاً لا تجيده إلاّ المرأة الشّعبية وهي غضبى وتصرخ :

– لا أرفع صوتي سأرفع صوتي ويدي، لاأرفع صوتي ولماذا من فضلك ؟

– لئلا تزعجي ... تزعجيه

– أزعج من ؟

– هو دعيه ينام ... المسكين لقد سهر كثيراً الليلة البارحة يا خالتي.

علي الدوعاجي

عن مجلة « **الأسبوع** »

السنة الاولى العدد 12

محمود السعدي

-1-

خواطر في الثقافة والأدب

أبـو الـعــلاء

فيمــا بينــك وبيــن نفســك

يمرّ عليك أبو العلاء – كما مرّ منذ قرون على أجيال قبلك وأجيال – نزاعة هولا هداما للذّات الوجود مذهابا بطمأنينة الروح مدعاة لأدهى ما تخشى من دواهي الحيرة والاشكال، فالْعنه إن شئت وصحّت لك لعنة المتّهم بالكفر والإلحاد وانفر عنه إن كنت تخشى على عشاء بهر الضوء والنور ونكب عنه إن خفت على رونق سعادتك قتام البؤس واليأْس واشتد عليه ما قدرت أن تشتد وجانبه وادفعه وتطهّر منه وصل وكن عليه نقمة وعنه إعراضا وله كرها وإبغاضا ... فلن تفوته ولن تتخلّص منه، بل أنت على ذلك كلّه في بعض أيّامك تجده أحبّ إليك من اللذة وأروح عليك من الطمأنينة وأبرد عنك من برد اليقين .

ذلك أن نسبة قرينة بينه وبين بعض نفسك تضطرّك إليه، وصدى له بعيدا في قرارة قلبك يرغمك عليه وأنّك له مدين بأنه يسعدك على أن تكــون .

* * *

فأنت حيّ مؤمن بالحياة أو محتاج إلى الإيمان بالحياة تقتضي الإيمان بدمك ولحمك وتقتضيه بحرفتك وشغلك وتقتضيه بتفكيرك وعقلك وآرائك ودينك. لا مكان فيك للعدم ولا مجال فيك للموت. قد تبوّأت مكانك من ضروريّة الكون وانتصبت حلقة في سلسلة حتم

وقلت : أنا الحي أنا الحياة ثم اشتملك بعد نظام الكيان نظام الحياة الدنيا. فأنت في بنيان مرصوص لا يتصدّع وضمن ترتيب محكم لا يتشوّش فمنزلتك راضية مرضيّة وحتم قاهر وسنة لله .

ويكاد أن يكمل لك رضاك واستسلامك وان يقرّ لك قرارك لولا أن الغزالي يهجس في قلبك: "إنّ النفس بالطبع متمرّدة عن الطاعات مستعصية عن العبودية " (الاحياء) فإذا أنت تجد في بعض أيّامك انصرافاً عن الرضى ونزعة إلى الغضب والثورة وتوقاً إلى التشويش وحاجة إلى الجموح والجحود والنفي. وأيّ سكون لا يحوج إلى الحركة؟ وأيّ قرار لا يدعو إلى القلق ؟ وأيّ جمود لا يقتضي النمو ؟ وأيّ عدم لا يوجب الحياة ؟ بل تجسّس قلبك ودقاته وسكناته وانظر من حياتك إلى فترات الهدوء والرفق والسكينة واللين كيف تقتضي فترات هوجاً من شدّة ونشاط وبأس وقسوة.

وكذا أنت التناقض والتراوح والتردّد. ترتدّ من الخير إلى الشرّ ومن الشرّ إلى الخير ومن التقوى إلى الذنب ومن الذنب إلى التقوى. فإذا لك أيّام خمر ولهو بعدها الصلاة والتوبة وعونك فيها التستّر والخفية. وإذا لك أيّام زور وكذب بعدها الصدق وعونك فيها الكفّارة ثم إذا لك أحوال رياء يغطّي عليها وينسيها صادق اللهجة، وأيّام ضعف وخوف تثني عليها بأيّام الشجاعة والقوّة، ثمّ إذا لك ثني إيمانك ورضاك وإذعانك أيّام تساؤل وشكّ وحيرة ...

ولا بدّ أن يقيح قرحك ولا بدّ أن تلفظ قيحك، فأبو نواس معالج خمرك وأبو العلاء معالج جبنك ورياءك وبهتانك وشكّك ويأسك

تقرؤه فيكفيك المؤونة إذ هو اشتدّ وصدق ويئس واحتار وشكّ فاحتمل عنك عبأك ، فأنت لا تضحّي للشجاعة ولا تضحّي لصدق اللهجة ولا تضحّي للشكّ والحيرة ولا لليأس والشقوة إلاّ بقدر ما يجهد المفكّر فكره ويحرّك عقله وأنت في ذلك كلّه تجتزىء عن مأساتك بمأساة غيرك وتكتفي بمأساة لا بأس عليك منها هي من فكرك تصوّر محض وصورة خدعة. لأنّك حيّ والحياة تقتضي الافتراء والجبن وواجب المحافظة على حياتك يقتضي أن تكذب على نفسك بنفسك وأن تكون في كذبك متوسطاً بأبي العلاء وصدقه وفي جبنك متنكّراً بشدّة أبي العلاء وبأسه .

ولو أحببت أبا العلاء واحترمته لأردت نفساً كنفسه ولو سموت إليه وأعظمته لطلبت صدقاً كصدقه وثباتاً كثباته وبأسه .

ولكنّك بحياتك سعيد فرح راض ولكلّ شيء في حياتك لاحظ موضعا وحكمة ومن كلّ شيء ساكن مطمئنّ إلى ما تواضع عليه النّاس من معنى وأنت كأشخاص "دستيو فسكي" خاضع متواضع لا ترى الإيمان إلاّ في الإذعان، ولا القرب من الله إلاّ في الانحطاط إلى أسفل درجات الإنسانيّة حتّى كأنّ الأنفة من التذلّل والاستسلام وكأنّ الترفّع والثورة طغيان وإشراك وعتوّ وتألّه .

وما طغى أبو العلاء ولا تألّه وإنْ هو ترفّع وأنف واستعصى وإنّما أدرك أنّ الحياة رياء وزور وجبن والأحياء كذلك لا يقوون على مواجهة الحقّ ويرون صدق العزم في البحث عن الحقيقة إلحاداً وكفرا فإذا ثبتوا لذلك ساعة إذا هم على أعقابهم مرتدون وهم يستغفرون كأنّ الله

يبغض الأحرار ولا يحبّ إلاّ العبيد المتذلّلين أو كأنّ طلب الحقيقة مميت فإذا هم قصدوا إليه بعض عشية أو ضحاها إذا هم كالقصبة في الريح من الرعب يرتجفون .

* * *

وما كان في نفس أبي العلاء موضع للتذلّل ولا الخوف ولا الزور. بل كان الذي يفعم نفسه أنّ عظمة الإنسان في أنفته وعزّة نفسه وصدقه والقوّة على صدقه .

فهو هو في أنفته وعزّة نفسه وقد دخل بغداد ثم خرج عنها وهو يقول :

ولا أثقّل في جاه ولا نشب ولو غدوت أخا عدم وإدقاع

وهو هو في ثورته واستعصائه مجابهاً عظماء دهره صادعاً فيهم بجورهم قائلا :

ملّ المقام فكم أعاشر أمّة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

أو قائلاً :

قالوا فلان جيد لصديقه أَلاَ كذبوا ما في البرية جيد
فأميرهم نال الإمارة بالخنا وتقيّهم بصلاته متصيّد

وهو هو القائل :

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسة
فأفّ من الحياة وأفّ منّى ومن زمن رئاسته خساسة

والقائل أيضا :

ساس الأنام شياطين مسلّطة في كلّ مصر من الوالين شيطان

وأنت تقرأ هذا كلّه حين تشتدّ فيك نزعة إلى النكير على ما ترى في أحوال البشر من ظلم وجور وعلى ما يبدو لك في النّاس من فساد طبيعة. ولكنّك لا تقوى أنت على إشباع نزعتك هذه بالنكير الفعليّ. فتسرق لها لفظ أبي العلاء ويبقى النكير نية مكنونة فيك وتقول وتفرح :

غار فعلي في النوايا كجبال في ظلام

وتسكن نزعتك وتهدأ، وتعود أنت إلى حياة لك وادعة يفعمها الذلّ والمسكنة وتلتجىء فيها غريزة الأنفة إلى زوايا المكاتب ومسروق الاشباع .

* * *

وما حاجتك بعد كلّ حساب – وأنت تخشى على حياتك أن يفوتها هناؤها – ما حاجتك إلى مسؤوليات الإنكار وقد جعلت لك عنها مندوحة في المنافقة والرياء ؟ – تقول إنّك قد تكره وتحتقر في ذلك نفسك فإذا وجدت منه مضاضة في بعض أيّامك وقذف في قلبك شوق إلى الصفاء والطهر فأبو العلاء بين يديك وصدق أبي العلاء فيه ما يطهّر نفسك ونفوس الآلاف مثلك. ولا عناء عليك في ذلك إلاّ أن تقرأ قوله :

تستّروا بأمور في ديانتهم وإنّما دينهم دين الزناديق

أو قوله :

إنّما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

أو قوله :

سبّح وصل وطف بمكّة زائـــراً سبعين لا سبعاً فلســت بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له أطماعه لم يلف بالمتماســك

* * *

على انّك إن جاريت أبا العلاء في بعض أقواله هذه وتطهّرت مما فيك من نفــاق ورياء ودفعت عن نفسك وصمة ذلك بإنكار ما في غيرك من رياء ونفاق فهل أنت ثابت على ذلك إلاّ بعض أوقاتك ؟ ألا تأخذك خشية الدوار أحيانا ؟ ألا يوقفك عند حدّك خوفك أن تفتضح الحياة والبشريّة جمعاء وأن تصبح لك عراء وأن تنكشف العورة ؟ ألا يجيئك الجبن ويعسر عليك الحقّ والصدق ؟ وتتذكّر مآل الصدق والحقّ وتذكر قصّة الغزالي وتيهه وتتصوّر حياة أبي العلاء ومــرارة الحقيقة عليه، وتكاد أن تستغيث وتبادر فتلوي إلى حياة الرياء والكذب.

ولكنّك مع ذلك تجد في نفسك حسرة على العجز عن الصدق المطلق وتجد الصدق يستهويك ويغريك ويودّك أن تكون من المنتسبين إليه، فإذا أنت تعطف إلى أبي العلاء وتقول : إنّه قد طلب الحقيقة وكان صادق العزم فيهــا. وتدور رواية الصدق في طلب الحقيقة والثبات لمرارة الحقيقة. رواية الشكّ واليأس على مسرح فكرك وتتلو قول أبي العلاء :

أمّا الجسوم فللتــراب مــآلهــا وعييت بالأرواح أنّى تسلك

وقوله :

أمّا اليقين فلا يقيــن وإنّمــــا أقصى اجتهادي أن أظنّ وأحدسا

وقوله :

ضحكنا وكان الضحك منّا سفاهة وحقّ لسكّان البسيطة أن يبكوا
يحطّمنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

وقوله :

أيغيث ضوء الصبح ناظر مدلج أم نحن أجمع في ظلام سرمد

وتطالع رسالة الغفران فإذا ثني كلّ سطر منها : "أليس أنّ نعيم الجنّة باوزها وبشرها البشريّ وقصورها وحورها ومجالس لهوها كنعيم الدنيا هذا الكذّاب الزائف ؟ "

ويوسوس لك الشيطان كما وسوس لأبي العلاء : "لعلّ كلّ شيء كذب وخدعه" ؟ ولعلّ كلّ شيء رياء وتزييف كصلاح الأمراء وتقوى المتّقين وجودة الأصدقاء ؟ ولعلّ أعمال الإنسان وآراءه ومعتقداته وآماله وجناته وحياته ؟ ولعلّ الكيان نفسه؟وتتقدّم خطوة أخرىفتقع في جحيم الصدق والحقيقة. فإذا الحياة لا تكتفي أن تكون عبثاً وخدعة بل إذا هي جناية، ويقوم لعينك قبر أبي العلاء عليه :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

* * *

وتنتهي الرواية على مسرح فكرك وقد وقفت على باب الغيب والأبد. وتخرج بعد أن تكون تلوت تلك الأبيات ودارت في خلدك هذه الأفكار فإذا أنت قد أفرج عنك وذهبت عنك الألفاظ وتصوّرات الفكر بجميع هذه المشكلات وكأنّك قد صدقت حقًّا في طلب حلّها وكأنّك قد ثبت حقًّا لمرارة ما تدعو إليه من شكّ وحيرة وبأس مميت لكن لا عليك من ذلك بأس. فهل سمعت قطّ أن أحداً من نظارة المسرح أحبّ لحبّ مجنون ليلى أو جنّ لجنونه أو مات لموته ؟

وإنَّما شأن المجنون أن يحبّ وأن يجنّ وأن يموت وشأن المعرّيّ أن يفكّر ويصدق في طلب الحقيقة وأن يتألّم جميع آلام مأساته الروحيَّة وشأنك أنت شأن النظارة يتفرّجون .

ولو أحببت أبا العلاء واحترمته لأردت نفساً كنفسه ولو سموت إليه وأعظمته لطلبت صدقاً كصدقه وثباتاً كثباته وبأسه ولكنّك قد لا تعدو أن تحتفل بذكرى مولده وأن تردّد اسمه .

عن مجلة « **المباحث** »
عدد 21 ديسمبر 1945

أبـو العتـــاهيـة

لست أعرف شاعراً مسخه أصحاب الأذواق المعتلّة مسخهم لشخصيَّة أبي العتاهية أو لعلّه ليس إلاّ أنَّهم لم يعموا عن شخصيَّة شاعر بقدر ما عموا عن شخصيَّة أبي العتاهية فقد تصرّفوا فيه مدى القرون كما شاءت لهم أذواقهم وأفهامهم وسوء تبصّرهم وعجزهم عن درك حقائق شؤون الأدب الجوهريّة فأورثونا بذلك شخصيّة لأبي العتاهية أقلّ ما يقال فيها إنّها الوعاء الجامع لكلّ معاني جمود النفس وإقحال الطبع وتحجّر العاطفة. ولست أذكر حتّى الآن أنَّه سمّي قط أمامي أبو عتاهيتهم هذا كما يتصوّرونه ويصفونه دون أن تحضرني صورة الشيخ أبي قراقب "فقيه" القرية الجليل الذي كنت أعرفه في عهد صباي يحمل القرآن ويعلّم شبّان فلاّحي القرية في المسجد ليلاً متن ابن عاشر ويقصّ عليهم قصّة سيِّدنا عليّ ورأس الغول ويعظهم في كلّ مجلس مصغّراً لشأن الدنيا وسعادتها معظّماً للآخرة وأجرها ونعيمها واصفاً لذّات الجنّة وما فيها من قصور وطعام وحور وولدان "مخلدون". وكان — وهو الرجل الذي لم يعرف له النَّاس في شبابه لهواً ولا رأوه التفت إلى فتاة ولا تزوّج قط — إذا انتهى إلى الحديث عن الجنَّة رأيته يتلمّظ ويتمطّق ويمسح على بطنه كأنَّه قد استوى بعد في قصور الجنّة وحضره طعامها الشهي واوزها وحورها ورحيقها المختوم وكذلك كان إذا سئل عن عزوبته قال : ومتاع الآخرة أفضل وأبقى — وإنَّما كانت به آفة جسديَّة قطعته منذ الصبا .

والحقّ أنّ صورة هذا الشيخ "الفقيه" لم تكن تحضرني لأنّها تشبه شخصيّة أبي العتاهية من حيث ما حوته من "فلسفة" في الحياة والموت والدنيا والآخرة ولكنّها تحضرني بجميع معانِي العجز الخلقي والنفسانِي والبعد عن خلجة الحياة الشاعرة الحائرة المتألمة – بجميع معانِي الجمود . معاني الجماد .

.....

وأتساءل : أيُمكن أن يكون أبو العتاهية حقًّا من جنس هذا أو ذاك ؟ أصحيح أنّه هو هذا المتزهّد الذي عجزت نفسه وجسده أن يشعرا كما يشعر كلّ حي بميل إلى الحياة وحبّ لنعيمها ؟ أهو هذا العاجز الذي لم يبلغ من الحيويّة الباطنة واليقظة الحسيّة ما يجعله يتألم – كما يتألّم كلّ حي وكلّ حيوان – لمفارقة الدنيا والإعراض عن نعيمها وهي التي قيل فيها إنّها عروس ؟ وهل أطيب من ريح العروس؟ أيكون أبو العتاهية هذا المتزهّد الذي ماتت الدنيا في نفسه فجأة في سنّ الخمسِين ونحن نعلم من الأخبار التي وردت عنه أنّه كان في شبابه من المخنّثين أي ممّن اتقدت فيهم الشهوانيّة والحسّ إلى حدّ الإفراط ونعلم أنّه قضى عشرين سنة من عمره على الأقل في بحبوحة الحياة الرافهة الترفة التي كان يحياها ببغداد الخلفاء وأبناء الخلفاء والعظماء ومن اتّصل بهم من الشعراء ؟ أم هم كذبونا عندما وصموه بالتخنّث وحشروه في جملة من كان ينادمهم أبو نواس وطبقته من أهل الخلاعة والمجون ؟ أكذبنا صاحب الأغانِي لمّا قصّ علينا أنّه يوم دعا صديقه مخارقا وقد عزم على التزهّد جعل مخارق يغنّيه وهو يسقيه ويشرب ويبكِي ؟ أكذبنا عندما ذكر أنّه كان له في بيته

الألوان المختلفة من النبيذ وآلة النبيذ والملاهي.

.....

المسألة لا تحتمل إلاّ وجهين : إمّا أن يكون كلّ هذا كذباً محضاً وإمّا أن تكون شخصيّة أبي العتاهية غير التي يذكرها النّاس عادة، والحقيقة أنّ هذه المشكلة هيّنة الحلّ جداً وإنّما عليك في ذلك أن تقبل على كتاب الأغاني .

.....

فلو أنّ الله هداك إلى ملابسة الأدب القديم وقرأت هذا الخبر لعلمت أنّه لا يقتضي من وقتك ..... إلاّ ربع ساعة على أكبر تقدير ولرأيت حينذاك كيف يكشف لك أبو الفرج عن سرّ نفسية كاملة بصحيفة وبعض صحيفة فهذا الخبر الوجيز يتلخّص بصفة بسيطة في أن أبا العتاهية عزم على ضرب من "الرحيل" فجاء صديقه مخارقا المغنّي وسأله أن يهبه يوماً فوهبه مخارق إياه وجاء بيت أبي العتاهية من غده وإذا مائدة وطعام وفاكهة وريحان ثمّ إذا ألوان من الأنبذة وإذا أبو العتاهية يصبّ فيسقي صاحبه ويشرب ويقول : غنّني في قولي كذا فيغنّيه مخارق ولا يزال يغنّيه وهو يشرب ويبكي إلى أن صير العتمة. ثمّ يقوم أبو العتاهية فيكسّر النبيذ وآلته والملاهي ويخرج ما كان من ذلك في بيته فيكسره ويصبّ النبيذ ثمّ يغتسل ويلبس ثياباً بيضاً من صوف ثمّ يعانق صديقه وهو يبكي ويسلّم عليه سلام الفراق لا لقاء بعده. وينصرف مخارق وهو لا يفهم شيئاً ممّا صنع أبو العتاهية ثم يراه بعد ذلك في أحوال غريبة ثمّ يبلغه أنّه انتصب حجّاماً ثمّ لا يكون بينهما لقاء إلى أن يبلغ مخارقاً أنّ أبا العتاهية مريض وأنّه

اشتهى أن يسمعه فيجيء مخارق ويستأذن فيخرج إليه رسول أبي العتاهية يقول : "إن دخلت إلي جددت لي حزناً وتاقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه وأنا استودعك الله واعتذر إليك من ترك الالتقاء". ويكون ذلك آخر عهد مخارق به .

* * *

على هذا النمط من الاقتصاد والاحتشام الشديد يصف لك أبو الفرج أبا العتاهية في تزهّده وزهده وبمثل هذا الخبر البسيط يقصّ عليك أروع مأساة إنسانية يمكن أن تجري في باطن نفس شاعر كأبي العتاهية. وتقرأ هذا الخبر وتعود بالذاكرة إلى كلّ ما تعلم عن حياة أبي العتاهية قبل تزهّده وإلى كلّ ما في شعره من تلميحات غامضة إلى الحيرة والألم واليأس فإذا أنت تقف بفضل الأغاني على سرّ هذه النفس الحيرى المعذّبة وتدرك أن أبا العتاهية هذا لم يتزهّد حماقة وبلادة طبع ولم يتزهّد التزهّد الذي يفهمه النّاس بل تزهّد لأنّه كان يألم جميع آلام "الفاقة الكبرى" ولأنّه انتهى بعد أن أصاب من الدهر ما شاء إلى الجوع الأكبر الذي ينتهي إليه المرء إذا هو لم يوقف نفسه عند حدّ وتركها تتقلّب من غاية إلى غاية :

تبارك من لا يملك الملك غيره متى تنقضي حاجت من ليس يشبع ؟
وأيّ امرىء في غاية ليس نفسه إلى غاية أخرى سواها تطلّع؟

وتدرك عندئذ ما كان في نفس أبي العتاهية من تقطّع دام عندما عزم على الخروج من حال الحريّة في التمتُّع وإشباع الهوى إلى حال الضبط والسلطان على النفس وهو القائل :

وإنّي لممّن يكره الموت والبلى ويعجبه ريح الحياة وطيبها

تدرك هذا التقطّع الدامي وتفهم السرّ في بكائه وشربه قبيل تزهّده والسرّ في هذا الحزن الذي خاف أن يجدّده له دخول مخارق عليه وفي تركه لقاء صديقه. ولا تستغرب أن يكون المختار القائل:

طلبت المستقرّ بكلّ أرض فلم أر لي بأرض مستقرّا

والشّاك المحتاج إلى اليقين القائل:

خذ من يقينك ما تجلو الظنون به وإن بدا لك أمر مشكل فدع
قد يصبح المرء فيما ليس يدركه معلّق البال بين اليأس والطمع

ولا تستغرب أن تكون نفسه انطوت طيلة سنّي تزهّده الثلاثين على ما يشير إليه قوله:

لكلّ امرىء رأيان رأي يكفّه عن الشيء أحياناً ورأي ينازع

أي على جهاد عتيد وخصومة ثابتة لنفسه وهواها ومع ذلك فهي تبقى حيّة قائمة فيه بكلّ ما فيها من غرائز وأهواء حيويّة إلى يوم يمرض مرضه الأخير فتعاوده شهوة سماع الغناء فيحضر مخارق فإذا هو على فراش موته يجد في صدره فؤاداً يقوى على المقاومة والصراع حتّى في تلك اللحظة القاتمة الضعيفة البائسة فيملك نفسه ويترك السماع ولقاء صديقه ويكظم الألم ويموت ...

* * *

وإذن – فأبو العتاهية ليس شاعر الزهد ولا شاعر الحكم الذي يحصر قيمته النّاس في مثل هذه الحكم "الفقيهيّة":

– من يعش يكبر ومن يكبر يمت ...
– من سالم النّاس سلم – من شاتم النّاس شتم

– إن القليل بالقليل يكثر – إن الصفاء بالقذى ليكدر

ليس أبو العتاهية هذا أو لا يهمّنا منه هذا. بل أبو العتاهية كما يراه ويرينا إياه صاحب الأغاني هو هذه الشخصيّة العتيدة التي عرفت طيلة ثلاثين سنة من العمر مأساة الصراع القاتل بين النفس وهواها وبين صاحب النفس يرى أن إطلاق الحريّة لها لا يعقب إلاّ جوعاً وبؤساً بعد بؤس فيركن إلى ضبط النفس بحدود التزهّد والقناعة ... عساه أن يصيب بامتلاك نفسه بعض ما لم يصبه بإطلاقها من الحريّة والسعادة والطمأنينة والقرار .

وهكذا يتّصل أبو العتاهية ببرزويه الذي قاسى هو أيضاً من نفسه ما قاسى إلى أن انتهى به الأمر إلى أن قال : "وحينئذ صار أمري إلى الرضى بحالي وإصلاح ما استطعت إصلاحه من عملي لعلّي أن أصادف باقي أيّامي زماناً أصيب فيه دليلاً على هداي وسلطاناً على نفسي..."

وهكذا يرجع بك أبو العتاهية وتزهّده – لا إلى معاني الجمود النفساني والوعظ القروي والحكم العاميّة – بل إلى معنى مأساة النفس الطموح الطموع والتطلع الذي لا يقف والجوع الذي لا يسكن والظمأ الذي لا يشفى إلى معنى من معاني المأساة البشريّة العامّة إلى الأدب والأدب مأساة أولا يكون ...

عن مجلة « **المباحث** »

عدد 12 مارس 1945.

المنـزلـة المستحيلـة

قالت ظلمة : وهؤلاء يا أبا هريرة ! أعنِي الرهبان . قال : إنَّهم خليط كسويقاء المرق .

فيهم الهوائيّون عبدة الخيالات أصحاب الأحلام. الذين يريدون الأرض أن ترتفع إلى السماء والحقيقة إلى الوهم والذات إلى الظلّ. وقد حدّثني بعضهم يوماً فقال : انظر إلى السماء فأراها نوراً والأرض فأراها ماء ونفسي فأراها شعاعاً. ويقول : النجوم إخوتي وزهر الأرض وسادي والشمس طعامي. هل أكلت من الشمس ؟ أنا طائر أو صخر أو سحاب في السماء. فقلت له : فإذا تيقّظت قال : لا أدري في أيّ بلد وقعت وليس من همّي. وطلبت مثل أحلامه. فإذا صاحب الأحلام إذا ذهبت به قتل الدنيا وانقطع إلى الفوق فليس في الكون غيره وإن هو إلاّ خيال. وليس أكره من الخيال عندي.

وفيهم الأرضي يلعن ربَّه أن ليس من طين ، ويطلب المغالطة كالذئب يتصنّع جزة الغنم فكأنَّه يقول : يا ربّ نزعت طينِي فانزع روحانياتك. ولست ممّن يحبّ الطين أن يرتدّ إليه كلّ شيء.

وفيهم يا ظلمة الأعرج الضعيف النفس، يحبّ الكامل السالم ويكبره فيعبده ويكره ضعف نفسه فيريد ربَّه أن يقرضه القوّة .

وفيهم صاحب الشوق يحنّ إلى ما يوسوس في صدره من ذكرى القدم .

وفيهم يا ظلمة الكفرة مثلك إيمانهم خدعة وقد جهدوا أن يعلموني إيمانهم . ثمّ نظرت إليهم يركعون ويسجدون لله ويكثرون من ذكره ويجعلونه في السماء يرفعون إليها الأبصار فلا يذهب ذلك بشيء من كفرهم. فإن أكثرهم يلحّون في ذكر الله إلحاح الشّاك أو المنكر. وبعضا منهم يلحّون في ذلك أكثار من ذكر الله ولمّا يعرفه فلمّا خاف أن يجده سكن اللسان. إنّهم يخلقون ما يعبدون. ويطلبون الغيبة. ولكنّهم لم ينجوا من أنفسهم. بل تفرّد بهم شيطان الروح وماتوا ميتة غريبة. أحياء في بواطنهم نيام عن الدنيا، قد اتسعت نفوسهم فغطت عليها. أولئك قوم تاهت قلوبهم وأعينهم وغرّهم ما غرّني من أمر البراهمة بالهند يظلّ الرجل منهم عامّة دهره يتعبّد حرًّا أو قرًّا ولا يغيّر من ثيابه ولا يحرّك من طرفه، كأنّما ذهبت حياته وذهب جسده فكأنّه الفناء أو الاطمئنان الكامل — وليس كذلك كذا رهبان الدير سكون ولا اطمئنان .

وقد ارتضت رياضتهم وتلوت الأدعية وصلّيت الصلوات وأمسكت نفسي أن تكابر الله. فلمّا انتهيت فقدت نفسي. ففرحت وقلت : فنيت في ربّي — وقلت : هو الله. ثمّ طلبتها فإذا هي حاضرة لم تغب وإنّما انقلب الشكل. وإذا روحي لغو من الأناجيل وعقلي نسيج من الحروف وقلبي من الظلمات وربّي وهم من ذلك وليد. وإذا على لساني لعنة ذي المسغبة يطعم الزقوم .

ونظرت إليهم على اختلاف مذاهبهم، فرأيتهم يخدعون أنفسهم أولا يعلمون ما يفعلون. أو يكونون أدخل من الملائكة في الروح يطلبون محل الآلهة ويقولون لقد تألّه المسيح من قبلنا،

وهم على ذلك لا يتخلّصون من الحاجة تنزلهم إلى غائط الأرض ولا من الطعام يحرّك فكوكهم كالإبل تجترّ، ولا من الشهوة يركب بعضهم بعضا، فقلت : سحقاً لآلهة كالقردة والحمير وقلت : سحقاً لرهبنة لا تكون إلاّ تألّهاً مستحيلاً أو غروراً مؤلماً .

ثمّ خرجت عنهم وعنها .

من « **حدث أبو هريرة قال ...** »
(مخطوط)

الأدب مأساة أو لا يكون

... "إنّ للإنسان في مجاهدة الهوى ثلاث أحوال : الأولى أن يغلبه الهوى ولا يستطيع له خلافاً وهو حال أكثر الخلق . والثانية أن يكونَ الحرب بينهما سجالاً ... فهذا الرّجل من المجاهدين فإن اخترمته المنية في هذا الحال فهو من الشُّهداء لأنّه مشغول بامتثال قول النبيّ (صلعم) : جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم، والثالثة أن يغلب هواه ... وهذا هو الملك الكبير والنعيم الحاضر والحرّية التّامّة والخلاص من الرّقّ" — الغزالي — .

الأدب مأساة أو لا يكون مأساة الإنسان يتردّد بين الألوهيّة والحيوانيّة وتزفّ به في أودية الوجود عواصف آلام العجز والشعور بالعجز : أمام القضاء أمام الموت أمام الحياة أمام الغيب أمام الآلهة أمام نفسه ...

على هذا النّمط فهمت الأدب جميع الأمم التي خلّد التاريخ آدابها بين الآداب من الهند إلى اليونان ، ومن العرب إلى الافرنج وعلى هذا النمط بدأ أهل الشرق العربيّ يفهمون الأدب ولطالما تلهّوا عنه بجعجعة الألفاظ وتصفيق القوافي والأوْزان وألعاب محسّنات البديع والبيان ، وقديماً كان فيهم ابن المقفّع الذي ترجم كليلة ودمنة بما فيه من روعة المأساة الإنسانية وما يملأ جوانبه من صرخات الحيرة البشريّة، وكان فيهم أبو نواس الذي قضى كامل حياته في

مرارة السكر وتوقّع الموت منشداً في شعره أنشودة الإنسان "تلعب به الأقدار" وكان فيهم أبو العتاهية وموته والجاحظ وفكره وابن الرومي وطبيعته والمتنبّي وقوّته والغزالي وآلام معرفته والمعرّي وعواصفه الهول وابن خلدون ومقدّمته وجميعهم فيّاض بأدخل معاني الإنسانيّة في رواية الوجود ولغزه

قديماً كان الشرق من هؤلاء وأمثالهم مملوءا ولا من هذه المخلوقات الجامدة الأنفس الصمّاء الأفئدة العمياء البصائر التي شاءت عصور الانحطاط أن تفرضها عليه فرضاً والتي لا يزال الكثير من الشرقيين وغير الشرقيين يحصرونه فيها حصراً بل اسأل ذلك المستشرق الكبير الذي قال : إنّ الأدب العربيّ أدب "كليشيات" جميلة. لماذا لم ينظر إلى مَاوراء عصور الانحطاط ؟

والحقّ أنّ الذنب كلّه ذنبنا فما ضلّ سبل ابن المقفع وبيدبا والمتنبّي والمعرّيّ إلاّ نحن ولاعمي عن لبّ أبي العتاهية وأبي نواس والغزالي إلاّ نحن . ولا مسخ هؤلاء وغيرهم فهماً إلاّ نحن ومع ذلك فكتاب الأغاني بين أيدينا منذ قرون يكاد أن يصرخ صراخاً في كلّ صحيفة من صحائفه بأن الأدب قرارته نفس الإنسان ومجهره قلب الإنسان وظاهره وباطنه ولفظه ومعناه وصورته وروحه كلّها معقودة بأعماق روح الإنسان .

من مقال « **أبو العتاهية** » **عن المباحث**
عدد 12 مارس 1945

فأمـا الزبـد فيـذهب جفـاء

لكلّ أمَّـة حَقيقيّـة ممَّـا خلق الله شخصيَّـة هي جمـاع ميزاتهـا ونـزعـاتهـا وميـولهـا ووجوههـا الخاصَّـة، وعلى أنّ شخصيَّـة الأمَّـة تتجلىّ مظاهرها وتلمس آثارهاعمليًّا في نشاطها الحيوي الشَّامل وإنـتاجهاومواقفها في المجتمع الإنسانيّ فإنّ غريزة الإنسان الفكريَّـة لا تـرضى بمـا هو صـادر عن الفطـرة الغامضة حتى تـزيـد على المظـاهـر العمليّة للشخصيَّـة وعلى السلـوك المطابـق لهـا أن تخـرجهـا من حيِّـز النـزعـة الغريـزيّـة والعمـل الفطـريّ إلى حيِّـز المتعقّل المـركـوز في الفكـر ركزاً، القائـم في النَّفـس على عمـد التَّصوّر الـواضـح والإدراك المبيـن، وهـل في الإنسان شيء هـو أقسى حاجـة أو أشدّ اقتضاء أو أحـوج إلى الإرضـــاء أو أقتـل إذا لم يقنـع وأحيـا إذا أرضي من الفكـر والعقـل ؟

والـذي بـه تتكيَّـف شخصيَّـة الأمَّـة وبـه تتشكَّـل في أشكـال المتعقّـل الفكرّي هـو ثقـافـة تلـك الأمَّـة فهي مصبّ خصـال الأمَّـة جميعهـا والعبـارة عن خصائصهـا وغرائـزهـا ووجدانـيهـا ووجوههـا الطبيعيـة ولا تكـون الثقـافـة صادقـة ولا تكـون مطبـوعـة إلاّ إذا قـامت بـوظيفـة التَّعبيـر هـذه بـأمـانـة ونـزاهـة وكـان المنتمـون إليهـا القائمـون بالتَّعبيـر عن شخصيَّـة الأمَّـة المتكلِّمُـون بلسـان ثقـافتهـا متشبّعين من روحهـــا ونـزعـاتهـا غير دخيليـن عليهـــا أو مدفـوعيـن بـدوافـع دخيلـة وليـس معنى هـــذا أنّ الثَّقـافـة عند أمَّـة من الأمـم منحصـرة حتماً في وجهـة أو سبيـل لا تعدوهمـا بـل هي قـد تتشعَّـب شعاباً وتكـوّن جداول متفـرّعـــة وإنَّـمـا هـو أن يكون

التفرّع بالطّبع وأن يتّجه بالثقافة أهلها من الأمّة وجوههم وهم لا يستوحون غير روحها وشخصيتها، ولا يسلكون غير سبل اندفاعها الطبيعيّ دائبين بها نحو ما تصبو إليه كلّ ثقافة بما هي تعقّل وتوجيه : روح الحرّية الإنسانية السامية فالحرّيّة ملابسة لجبلّة الفكر وجوهر العقل لا تخلو عنها ثقافة حقّة ولسنا نجد في الماضي ولا الشّاهد شيئا يسمّى ثقافة وهو يقوم على مبدإ عبوديّة الفكر أو يدعو إلى استرقاقه .

وهذا المبدأ الإنسانيّ الأسمى القائمة عليه كلّ ثقافة حقّة وكلّ حضارة صادقة هو الذي علّمناه نحن معاشر المسلمين ديننا الحنيف منذ قرون حين قرّر في جملة الأصول التي لا يكون الإسلام إسلاماً بدونها هذا المبدأ : "لا إكراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ.." (الآية) – ذلك دين الحرّية – دين الأحرار .

وإذا كانت حركتنا الأدبيّة والثقافيّة الحاضرة تعمل للتّعبير عن شخصيّة بلادنا فقد أدرك رجالها الصّادقون أنّها لا تكون تونسيّة أو جزائريّة أو مغربيّة أي عربيّة إسلاميّة ولا يثبت لها أصل ولا فرع إلاّ إذا هي أوفت لروح الأمّة وسلكت جادّة الحقّ ونبذت الباطل وجرت إلى غاية المروءة الإنسانية والحرّية الإسلامية وإنّه ما جاء من الثقافة حرًّا فباق ثابت وما خرج عن حيّز الصّدق والطّبع الحرّ فمنبوذ مزيّف زائل وقد قال من قوله الحقّ : "فأمّا الزّبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع النّاس فيمكث في الأرض" مشيئة الله ولن تجد لما شاء ربّك مردّا .

عن مجلة « المباحث » (الى القارى)
عدد 22 جانفى 1946

الثقـــافـة

...الثّقافة تجرّد وإحرام وخضوع وسعي حثيث : تخلع فيه أوهام وأهواء ويحتقر الخوف وتحطّم القيود .

ذلك أن الثّقافة ولسانها النّاطق الأدب لم يكونا يوماً بمعزل عن حياة الأمّة ولا يغرنّك زعم بعض الأدباء المخفقين "وبرجهم العاجيّ" فإدمان العزلة يقطع الأديب عن الإنسانيّة التي هي مادّته الحيّة فتصبح آثاره أشباحاً لا روح لها ولا جسد سرعان ما تتلاشى فيستولي عليها النّسيان .

والثّقافة – لو أدركت جوهرها – كفاح مستمرّ يرمي إلى التحرّر والاستيلاء : التحرّر من أوهام المحسوس وسحر المظاهر لإدراك الحقائق والاستيلاء على القوّات الخفيّة والاحتقار للعرض الزائل بغية الاحتفاظ بالجوهر الثّابت والتسخير للنّزعات الجامحة لخدمة إرادة لا ترضى بالمنزلة الدنيا إلاّ على أنّها درجة في رقيّها إلى المنزلة العُليا.

فهي كما ترى توثّب دائم وتقدّم لا يرضى أن تقف به في سيره العراقيل أو أن تردّه المادّة الغاشمة إلى الوراء أو أن تحجب عنه القوّة العمياء غاياته فالثّقافة تأبى التراجع والتّقهقر ولا تحتمل مماكسة .

وإنّ سكنت رجلها أو وقف السّاعي إلى حكمتها فما هي إلاّ

وقفة المسافر يقيس ما بقي من طريق ويعدّ لها عدّتها وزادها أو ما هو إلاّ صمت المفكّر يعيد الكلمة في خلده فيشحنها حقًّا وإرادة وحكمة ثمّ يرسلها صريحة شديدة تغني عن الكلمات فتلقى النفوس المتجرّدة والفطرة الطيّبة فتخلع يبسها وتظهر قوّتها وتطلع فوق الأرض بزهرتها وريعها ثمّ تثمر وتنتج سنابل ...

عن مجلة « **المباحث** » **(الى القارى)**
عدد 31 ـ 32 اكتوبر نوفمبر 1946

في الأدب

اعلم – علّمك الله اليقين وجنّبك الشبهة – أن الأدب قد وسموه بسمات لا يستقيم في كثرتها أصدق تمييز وحملوه مسمّيات يضلّ في أدغالها أثبت العقول. فتطرقت إليه الهجنة لكثرة ما تنازعه من الأنساب، ولابسته الغمة لفرط ما اختلطت فيه المدلولات ؛ حتّى صار مظنّة لكلّ عماية، واسماً لكلّ مسمّى، ومقصداً لكلّ مريد، ومتناولاً لكلّ طامع – كلّ شيء ولا شيء .

منه أدبك "الصغير" الذي به تسلّم أو تردّ السلام وبه تحيّي القادم المكروه، وتبتسم للزائر الثقيل ، وتبشّ بالضيف المقيم، وبه تقبّل الصديق وتضمّ إلى صدرك عند اللقاء من حشي له صدرك كرهاً، وبه ترسل لسانك بالإطراء عند الحضرة مع الهجاء عند الغيبة، وبه تصانع وتجامل وتنافق وتطاوع وتلاين وتشاكل وتجاري حتّى يقال إنّك موصوف بكلّ أدب، منعوت بكلّ لطف ...

ومنه أدبك "الكبير" الذي به تدفع بعض أدبك الصغير أحياناً، فتفضّل الصراحة على النفاق، وصدق اللهجة على المجاملة، والمدح المقتصد على الإطراء جزافاً، والشجاعة على المطاوعة، وتحيّة الصدّيق على تحيّة العدو، وبه ترتفع إلى المروءة عن الملاينة وإلى قوّة النكير والدفع عن جبن المجاراة والمشاكلة، وبه تنحو نحو ذاتك تطهّرها من كلّ دنس باطن، وتنقّيها من كلّ عاطفة سوء وتنزّهها عن كلّ

لحنى خفي، ونحو نفسك تقيها كلّ حسنة ظاهريّة مع المرذلة الابليّة وكلّ كرامة على المسرح مع النذالة "وراء الستار" وبه تتّجه توقاً إلى موطنك الأول فتحنّ إلى عالمك العلوي وتذوب حنيناً .

ومنه أدب "الحماميين" الذي بشعره تغرّد الحمامة ويتغنّى الشحرور، وبه تنقلب الحبيبة طائراً أو بهيمة أو هزاراً أو عند لبياً، وينقلت صدر الشاعر قفص طيور لا تسمع منه إلاّ رفرفة جناح أو زقزقة أفراخ أو نوح حمامة، حتّى لكأنّ الشّاعر من عترة الأنبياء خلفاء سليمان .

ومنه أدب "الصناعة" أتّخذه أهله مرتزقاً يستغلّ وحرفة تستدرّ وبضاعة تنفق فهم في كلّ عيد مهنّئون، وبكلّ قافية مصفّقون ولكلّ معط مادحون وبكلّ محفل منشدون لا تفوتهم مناسبة حتّى ينتهزوها ولا "مقام" حتّى يقولوا فيه ولا "زفاف" حتّى يعيروه زينة كلّ استعارة وبديع كلّ بديع ولا "ختان" حتّى يوقّعوا فيه القوافي على نغمة "طهر يامطهر" ليقال إنّهم شعراء وإنّهم أدباء.

ومنه أدب "اللفظيين" الذي فيه يغصّ المتكلّم باللفظة تختنق في الحلق والحرف يتعطّل به اللسان وفيه يشتبه العي بالإعجاز ويلتبس العجز بالابعاد وتنوب الغصّة عن الفعل والنيّة عن القدرة وأنا المكنون عن الكون الفعّال ، ليقال إنّ الصّمت عمق والنقض أبرام

ومنه الأدب الذي لا ينعت ولا يضاف — واحد مفرد وخلاء ووحشة. لأنّه الأقصى ولأنّه المحنة بلون من الذاتية لا يعرفه إلاّ الذين عرضوا أنفسهم لكلّ بلية باطنة وكلّ معضلة دخيلة ودوت التجربة في أفئدتهم بجميع أصداء الكون والصيرورة والفساد. فهم ينشئون الإنسان والكون إنشاء. وذلك هو المخصوص بالفيلسوف خاصّة كما يقول عبد الله ابن المقفع.

الوضع الثقافي في تونس

في رأيي أنّه ينبغي أوّلاً للمتطلّع إلى أحوال تونس الثّقافيّة والفكريّة أن لا ينسى أنّها البلد التي كان لها بعد القرن الثاني للهجرة أعلام من علماء الإسلام أمثال سحنون وأسد بن الفرات تدوي بأصواتهم أركان جامع القيروان وأنّها أغنت ثروة الثقافة العربيّة على طور العُصور بمثل مؤلّفات ابن رشيق وابن شرف وأبي القاسم الشابي وأنّها كان بها طوال قرون أحد معاقل العلم الإسلامي الثلاثة الكبرى ألاَ وهي جامع الزيتونة بتونس والأزهر بالقاهرة والقرويين بفاس ثم انّها فوق ذلك كلّه أنجبت للعالم بأسره أحد عمالقة الفكر الإنسانيّ : ابن خلدون ... ولعلّ أخصّ خصائص الوضع الثقافيّ والفكريّ في تونسَ أنّهُ يتنزّل في صميم هذه السّنة الثقافيّة العربيّة الإسلاميّة التي لاتزال سنّة على وجه الدّهر وأنّه قائم عَلى هذا الضرب الفطريّ أو الجبلي من الوفاء التاريخيّ الدائم إلى ذاتيته تلك ولونه الإنساني ذاك .

على أنّ من السنة ما قد يكون جموداً ومن الوفاء ما قد يكون شيخوخة ونضوب حياة وما وفاء تونس ولا أخذها بسنّتها الثقافيّة التالدة من هذا ولا من ذاك في شيء بل لا أظنّني مخطئاً إذا قلت إنّ تونس لا تزال منذ القرآن تجهد أن يكون وفاؤها لسنّتها الثقافيّة وفاء "ديناميا" حيًّا لسنّة "ديناميّة" متجدّدة حيّة وأن يكون الذي ترثه عَن الماضي في غير تنكّر له وإنكار نقطة الانطلاق نحو

جديد يكتسب بجهد جهيد ويضاف إلى صالح الموروث وباقيه .

بهذا يفهم السرّ في أنّ الثقافة التونسيّة والتفكير التونسيّ استطاعا أن يتحمّلا نحو القرن من الغزو الاوروبي والسّطو الاستعماريّ وأن يخرجا من ذلك بذاتية سالمة من مسخ التقليد الأجنبي والاصطباغ بمستعار الصّبغة من ثقافته وتفكيره وسالمة في آن واحد من التجمّد والتحجّر في قديم الذاتية الموروثة الذين كانت تدفع إليهما غريزة المحافظة على الوجود تجاه الاستعمار وأخطاره وهجوماته .

ولا ريب أن طور "التعصّر" الضروريّ الذي سرّ به الشرق العربيّ كلّه بين أواسط القرن التاسع عشر واليوم قد مرّ على تونس أعسر ما يكون وفي أشدّ الظروف وبأعظم الأخطار . وقد خرجت منه البلاد مع ذلك بثقافة مبعوثة كأصدق ما يكون البعث وأقوى وبفكر مجدّد كأحْيا ما يكون التجدّد والتجديد وما من شكّ عندي في أنّ الذي خرجت به تونس من هذا الطور هوَ إلى جانب محافظتها الكليّة على ذاتيتها الثقافيّةالعربيّة الإسلاميّة. تقوية الجانب "الإنسانيّ" الصميم من تفكيرها ونظرتها إلى الوجود. وقديماً انتقل ابن خلدون التونسيّ بالتفكير العربيّ الإسلاميّ من لفظة "سنّة الله" التي كان بعض العلماء قبله يكرّرونها من دون معنى علميّ إلى مفهوم "السُّنن الكونيّة" المستقراة من واقع الأحداث والتي يعني جماع ما كسبه الفكر الإنساني لما ابتدع العلم الحديث .

وكذلك ترى في ميدان آخر أبا القاسم الشابي يتأثّر بالغرب وآدابه على طريق شعراء المهجر ولكنّه لا يلبث أن يعود إلى "حظيرته"

الأولى مجدّداً النظرة والإحساس فيخرج شعراً عربيّاً صميماً يتعالى فيه عن نواح "الرومانتيكيّة" المجرّدة وعن "العبرات" المنفلوطيّة الساذجة إلى التغنّي بألحان مأساة مصير الإنسان وشأنه في الوجود وفي الكون .

ومع أنّه ليس أكره إليّ من الكلام عن نفسي فإن التصفّح والاستشهاد يوجبان عليّ أن أذكر هنا رواية "السد" التي نشرت لي بتونس والتي لا أعلم أنّه كتب عنها وعرفها في الشرق غير الدكتور طه حسين وهي رواية عالجت فيها مشكلة الفعل والخلق الإنساني من بعض وجوهها. وكلّ ما يهمّني ذكره منها هنا أنّها تتناول مشكلة "وجوديّة" تنتسب في جوهرها إلى بعض ما عالجته في القديم "الميتولوجيّة" اليونانيّة الخالدة وعالجه في العصر الحاضر الكثير من كتّاب الغرب ومفكّريه ولكنّها مع ذلك منزلة تنزيلاً في صميم الفلسفة الوجوديّة الشرقيّة أو بالأحرى الإسلاميّة بكلّ ما تذهب إليه من تحديد لماهيّة الإنسان ومنزلته من الله ومن الكون ومن تقدير لإمكانيات الإنسان وفعاليّة إرادته ولقدرته وخلقه ولكلّ ما تحتويه تلك الفلسفة من روعة الإيمان وقوّة الشكّ .

عن مجلة « **الفكر** »
سنة 3 ـ عدد 1 ـ اكتوبر 1957

القـــوميـــة العـــربيـــة

إنّ القوميّة العربيّة لا تقوم ولا يمكن أن تقوم على ذاك العنصر الثّقافيّ الحضاريّ الأوّل وعلى هذا العنصر الثّانِي من الاتّحاد المقدّر في المصالح الماديّة فقط، بل هي تقتضي في كنهها عنصراً ثالثاً آخر يتألّف مع الاثنين الأوّلين ويرتكز عليهما، ولكنّه غيرهما. ولا يستقيم كيان القوميّة العربيّة بدونه وهو هذا العنصر النفسانِيّ البحت الذى يتلخّص في الإرادة المشتركة للوجود الجماعيّ، فقد يكون اتّحاد في اللغة ويكون اتّحاد أو نسب قريب في الأدب والثقافة كما بين الشعوب الانجلوسكسونية وتكون مصالح اقتصادية وسياسية مشتركة كما بين كثير من أمم العالم دون أن ينتج عن ذلك "قوميّة" واحدة بعينها، وأخصّ خصائص قوميّتنا العربيّة التي غالبت الدهر هي أنّها لم تزل تتجدّد فيها هذه الإرادة المشتركة لوجود جماعيّ متّحد أو مؤتلف قد يشمل في بعض الأحيان جميع نواحي الكيان الموحّد من ثقافيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وسياسيّة وقد لا يشمل إلاّ بعض تلك النواحي في أحيان أخرى، وعلى اختلاف المحتوى فإنّ القوميّة تبقى ما بقيت الإرادة المشتركة طاقة حياة وغريزة وجود مركوزة في صميم القوم تضمّ الفرد إلى الفرد والجماعة إلى الجماعة، وقد تظهر هذه الإرادة بمظهر غريزة الدّفاع عن الكيان وطاقة الكفاح الحيويّ في أوقات الخطر وتتجمّع قواها إذ ذاك كلّها في النّاحية المهدّدة منها، سواء أكانت لغة أو ديناً أو مصلحة اقتصاديّة أو استقلالاً سياسيّاً، كما كان ذلك

منها عندما نهضت الشعوبيّة فكانت دفاعاً عن جنس العرب ودرءاً لثلبه وانتقاصه. أو عندما حاربت بيزنطة في عهد بني حمدان والمتنبّي أو جابهت جيوش النّصارى في عهد الحروب الصّليبيّة فكانت دفاعاً عن الإسلام وعن حوزة الإسلام ولعلّها لم تظهر في أيّ عصر مضى بمظهرها الكامل مثلما ظهرت في العصر الحديث تجاه الموجة الاستعماريّة التي طغت على عموم بلدان العالم العربيّ والإسلاميّ. فكانت القوميّة العربيّة دفاعاً عن الإسلام وإحياء له على يد محمد عبده وأمثاله من المصلحين الدينيين. وكانت ثقافيّة دينيّة على يد علماء الشرق الحديث وأدبائه الذين عملوا منذ قرن ونصف قرن على بعث الأدب والتفكير العربيّ وتجديدهما والنّهوض بهما هذه النّهضة الحديثة المباركة التي لا نزال نحياها. وكانت سياسيّة اقتصاديّة تحريريّة في مختلف الحركات الوطنيّة التي كافحت الاستعمار حتّى حرّرت الأوطان العربيّة الواحد بعد الآخر. ولا نزال نشاهد آخر معركة لها في كفاح الشعب الجزائريّ الباسل المجيد.

عن مجلة « **الفكر** »
السنة 3 ـ عدد 4 ـ جانفى 1958

ميمونة تخاطب غيلان

ها قد طُردتَ من الخيال والأمنية وزُحزحتَ وزال القرار. فأنت في نفسك مقصور عليها وقد اشتملت بالعجز والغيض ... خرج عنك رجالك وخذلوك، وسدّك لا يزال يجهد أن يتمّ وأنت لا تزال تجهد أن تقدر فإذا أنت تهوي وتتّقد وتصطلي نارك. وتريد أن تطفىء غيظك بالكفر والطغيان واللعنة. غالبت صاهبّاء تظنّ أنّك الغالب. فجمعتْ عليك كلمة رجالك وأوحت إليهم الشّقاق والنّفاق، وتركتك وحيدا مؤلما حقيراً. وتركت لك هذا السُّدّ منتصفاً صورة منك إليك ...

لقد همُّوا أن يقتلوك في قيامهم عليك، وأن لا ينصرفوا إلاّ أن يهدموا سدّك تهديماً. ولكنّ صاهبّاء شاءت بك لطفاً أو غاية قسوة فصدّتهم وأبطلت أيديهم عنك. حتّى لقد رأيت أيديهم يرفعونها بالضّرب أو الهدم ولا تضرب ولا تهدم، حركات سكوناً كصوتك ينقلب سكوتاً فكأنّ قوّة السّواعد والأيدي تختنق في العضلات اختناق صوتك ينشأ في صدرك ويموت في حلقك ولم يصبك إلاّ نار في اليد أحرقتها وسلمت وسلم سدّك ثمّ جاءتك الهواتف فقالت : "كفى عناداً واستسلمْ فما قدّر لك غير الشروع كبعض الأفعال من أخوات كاد فلا تطلب بلوغاً إلى غاية ولا تطمح إلى قِمّة ..."

فلنزهدْ ولنستسلمْ يا غيلان دع عنّا السماوات والأعالي ولنكتف بالأرض وأنّك إن أتممت الفعل وأنهيته فقد قتلته. فليبق هذا السدّ

غير تامّ، ليبق له خلوده يا غيلان دعه بلا نهاية ... ولنكن لأنفسنا يا غيلان لا عليها لغيرها لنكن انتظارًا للحاضر لذيذًا، ولنكن القريب البعيد، اللذة الحاضرة والسَّعادة الحاصلة نستبعدها كالتمنِّي وهي واقعة لنكن مقدّمة لنفسينا وتمهيدًا ننتظر النّعمة وهي حاضرة ونتوقّع المتعة وهي شاهدة وتنتظرني وأنا بين يديك وأنتظرك وأنت فيّ لنجعل الطّلب في قلبينا : أطلبك وأنا حاملتك وتطلبني وأنت حاملي لننس الممكن يا غيلان لنكن الفجر ...

« **السد** » (المنظر السادس)

ميـــــــارى

... وتتهيَّأ ميارى للكلام فيصرف غيلان وجهه إليها وصدره ويتجمَّع عليهما نور القمر فكأنَّه لا يضيء سوى غيلان وميارى وتنطمس ميمونة في الظَّلام وتبقى على دموعها حديث وحدتها ... وتتكلَّم ميارى ...

ميارى

وقفتَ خلفي إليّ وأنا إليك وجعلتَ رأسك على كتفي وشعري وتناظر وجهانا في مرآة الأفق لا يتناهى وطوّقت رأسك بذراعَيَّ فإذا أنا حاملة إناء خمراً وصنماً معبوداً وعالماً حيًّا وإذا نحن أحسن الحسن وإذا حسننا نفي لكلّ شيء سوانا وإنكار ودفع، وهان عندنا الأمل والعَزْم والخيال والوهم، وهان في أعيننا الكون وجاءنا الاحتقار والإهمال والزّهد وانتفى الحرص وحلّ بنا الكبر والطَّهارة المحض واندفعنا نشب وثبات الأغوال العواصف وطلقنا وانكسرت عنَّا الروابط وقامت لنا بدائع الدّنيا ...

حتّى صار عندي للماء عشق ومن الظَّمإ والقحط ضجر وكره وكرهتُ كما كرهتَ إسلامهم وصاهبَّاء وجئتك دفقاً يؤتى وعيناً تُورد وجنّة خلدي، على أن كنت قبل لا أهواك ولا أحبُّك وكنت رأيتك في صخورك ومعاويلك وحديدك ورجالك وسدّك، عليك العرق كالسَّواقي فقلت : إنَّه من جنس من سبقه من المحاولين العجّز رخيّ ضعف لا يرى غير الماء للقحط دواء وينتصف الطريق ثم يهزل

ويضعف، ويقتل ولا يميت، ويوقد ولا يحرق. ويحبّ ولا يعبد. ويقول ما يقوله قومه : لا سبيل إلى الخلق المطلق. ثمّ نظرتك تُرغم القاعدة على الفوضى، والجهادَ على ما لا يتناهى ولا يحصى. ورأيتك في الجهاد كالمقاتل وحده في دغل من السُّيوف والأعداء أو كوالج عيص فيه اشتباك وأهداب كثيفة يتقدّم ولا يحجم. ويقطع الأهداب ويعضد. سائر السَّبيل لا تتوقّف ... فجئتك وأحببتك .

وكنت أنتظرك من أقصى مبدإ أيّامي وعمري حتّى كدت أنفد وحتّى كدت أقع للشمس أهديها نفسي وجسمي وقلت ليس غيرها جديراً بدمي ولحمي وليس غيرها يستحقّ جسدي الرّخام المغري ولذّتي وألواني وظلمي ولا غيرها أهلاً لعبادة كإهداء بكارتي وغضاضتي وجدّة جسمي لأنّ الشمس بنورها هي الإباء والطّهارة والنفي والثورة ولأنّها تسخر من الظّلام والعقل وتهزأ بالجوهر والعارض ويحضرك نورها وهو الخلاء والغيبة ولا يتجسّم لك وهو الملأ والحضرة فهو للعدم احتقار غاية . وهو كمال الخيال والأمنية والحلم ...

ثمّ جئتك، فنظرتك. ونظرت فإذا انور الشّمس خيوط أو بيت عنكبوت يلمع لعيني فنفضته فأسقطته كخرشاء الحيّة عنّي وعرفت وجه فرحي بوجهك ...

وها قد جاءت ساعة السَّير العظيم والخلق المتين والفعل فليدفعنا إلى الذّروات الجهد والعزم ويرفعنا عن النّاس. وهات يدك غيلان نثب فوق ذرى الأرض الرّواسي نأباها ونعلوها ونطر بالسُّدّ كالطّير الغراسي .

وتأخذه من يده فيقوم معها في لين وتؤدة وقد اكتسى وجهاهما جمالاً بديعاً وارتويا ماء نظوراً وازدادا عظمة في الروّح وفي القامة طولاً وتستأنف ميارى وهي ذاهبة به من يده تحمله كالموجة فتقول :

ميـــارى

سنخلق الرّياح العواصف .

ونخلق الرّعود الزلازل .

سننشيء السُّـــــــدّ .

ونـنـشـــيء الـحـــــبّ .

غيـــلان

(كالملمّ به طائف)

نعم. سننشئ ونخلق. سنعلّم هذه الأرض الشجاعة والعقل والبأس والشَّدَة ونهزّ أهلها هزًّا حتّى يتوبوا من الهزال والجبن وكره المياه وحبّ القحط ويعرضوا عنها وسنرسل فيهم كلامنا وروحينا سيلاً جحافاً حتّى يعلموا قوّة الروح ويذعنوا إليها. وستخدم نبيّهم ورجالهم ونساءهم وحتّى صاهبّاهم وما لها من قدرة ونسوطهم كالبغال حتّى تدمى أيدي آلهة الهزال والقحط في إقامة السُّدّ وخدمة ما أراد الإنسان من خلق وننفخ في كلّ شيء حياة ولتقومَنّ الصخور بنفسها فتطير فتقع مواقعها من السُّدّ طوع عزمينا. لننفخَنْ عاصفة هولاً لنُنْشئنْ ولنخلقنْ خلقاً لأنّ القوّة والوثبة فينا .

يذهب غيلان وميارى في غبار القمر المذهب وحرير الليل اللذيذ الرّطوبة

ميمونة

(وهي تشيعهما بالنظر وتهزأ مرًّا)

سيخلقان الرياح العواصف ... ويخلقان الرّعود الزلازل ..
سينشئان السُّدّ ... وينشئان الحبّ ... فعلى أهل الخيال اللعنة !

وتتفجّر ميمونة بكاء عويلاً ... ساعة طويلة. ثمّ تهدأ فلا يسمع بعدها إلاّ البغل بجانب الخيمة يخفق بأذنيه ويفكّر فيما قدّر له بين البغال من شأن...

... وتتواسع الليلة ...

« **السد** » (المنظر السادس)

غيلان وميارى وميمونة

ترتمي ميمونة فجأة فتقوم قيام العزم
وتقول في روعة

انظرا! انظرا الجبل ! ...

ينظر غيلان وميارى فيقع في نفسيهما
كالصاعقة

انظرا الجلاميد من الظلمات تهتزّ وتتقدّم. إنّي لأسمع لحن السّواد.

تسمع ألحان متلاطمة داوية حيرى كالإعصار
والعاصفة

انظرا السماء تداعي وتهوي. كالجسر حمّل فوق جهده ...
انظرا الأجسام والأشكال والأصوات تنهار وتتدوي ...
إنّه لزئير الثّورة والنّقمة.
إنّه لقيام العواصف والزعازع الصّمّاء.
وإنّه للخسران والخيبة.

ينشأ الظلام فجأة فينتشر. وتعصف ريح من الشيطان كأنفاس الزبانية أو كالدّم والإثم ... وتتقلّع الخيمة وتخفق بجناحيها وتطير وتصفّق. ويقوم النبات والعضادُ قيام النّبال. ثمّ تتوالى زفرات طويلة. كأنين في صدر الأرض ثقيلة. وينشأ على وجه الأرض دخان كأوّل اللهب. ثمّ تجري ريح صلاءُ كتنفّس بركان صاعدة خافضة. ويهمهم السّحاب وراء الجبل. ثمّ يندفع حاملاً على السّماء. فتكركره

الرّياح وتنصبه على دائرة السّماء كغطاء رصاص ...
وميمونة وغيلان وميارى واقفون ينظرون والرّعب عليهم واقف . وميمونة ترتجف وترتعد وغيلان وميارى ثابتان كالصّخر. وليس إلاّ أن تأخذ الرّيح شعَر ميارى الطويل فترساله في الظّلمات كإرسال البحر لجسم حسناء. وأمّا غيلان فقائم ثابت لا يتحرّك منه شيء. ووجهه أحسن ما يكون وأوسع وأجلّ وأبدع ... ثمّ تقع أولى قطرات المطر ثقيلة حادّة. فتصفق على الأرض كصليل الحديد أو كالشّتم والصّفعة وتتمزّق السماء جرحاً من النور أحدّ من الخاطر ويظهر الجبل في ضوء البرق متضاحكاً قائم الصدر متهيّئاً للتحرّك. وتتجاوب انفلاقات الرّعد كدبدبة حوافر في السّماء. ثمّ يعدو الرّعد إلى جميع أرجاء الكون. وينفخ فيملؤها قلوعاً. أثقلت ريحاً وتطلق أو طاب السّماء ماء. ويجتمع الماء والريح والبرق والجبل والرعد والظلمة والغيظ والنقمة، فإذا السّماء بسحابها الأسود وحْلٌ فيه فحمٌ. وإذا الأرض والماء والرّيح عجين والرّعد والبرق ...
وتبرز من الغيب سواعدُ وأيد كقطع الجبال . فتدكّ السماء والأرض والنجوم والأجبل ... وتقوم في الكون جميعاً ثورة شعواء حمراء صلبة. وكأنّ صوتاً همهمةً يرتّل : وأمرنا العواصف والرّعد والسحاب والبرق والزلازل والهدّ فانفلقت جميعاً ودوّت دويّاً. وأرسلنا الصّاعقة فشقّت وأودعت حياة حيّة .

ميمونة

هذه العواصف والرّعد علينا. أفأنتما خلقتما العواصف أم صاهبّاء ؟

غيلان وميـــارى

خلقنـا تـريـاق العاصفـة والصاعـقـة . بنينـا . أقمنـا سـدًّا ، الزوبعة عـــاجزة أن تفنيه والصاعقـة .

ميمـونـــــــة

(وقد رأت شيئا على ضوء البرق)

انظـرا! انظـرا الجبـل يتحامـل على نفسـه ، ويقوم ويتحـرّك ويتقـدّم انظـرا آلافـاً من الطيـور تجرّه من شعـره، أشجـاره سـوداً. ألا تـريانـه يـزحف ويكـركـر رحـاه ويطحـن السدّ والـــوادي ؟

يسمع دوىّ هـول

غيـــــــلان

(لـميـــــارى)

انظري السدّ يتصاعد! انظرى السدّ يعلو!

ميمـــــونـــــة

السدّ أشلاء. السدّ أنقاض تساقط فى الهاوية

ميـــــــارى

(لـغـيـــــلان)

ألا تـرى سـراجاً في منتهى الغاب منيـراً ؟ اُنظر إليه يدعـونـا، زجاج صفـاء وعـزم وأمنيّـــة انظـره قراراً في الزلازل على الـــزلازل ...

لـكن ما أكثر الغاب أشجاراً! ما أشدّ الغصون اشتباكاً! وما أشدّ سراجنا طريقا..

يأخـذهـا غيـــلانْ مـــن يـــــدهـــا

ميمـــونـــــــة

(كـالنـــاجيـــة)

انظرا ... انظرا أسفل الجبل. تحت السَّحاب من النافذة. انظرا الفتحة. انظرا الوهد لا شيء فيه .

والسكون في الوهد والرّاحة.

غيلان وميارى
(يتعانقان)

لنعلُونْ برأسينا ولنفتحَنْ لهما في السماء باباً .

يرتفعان وقد طارت بهما العاصفة ميمونة
تنظر إليهما وقد غابا عنها في العاصفة الآن بلغا المُنية واستقرّا.

ثمّ تصيح صيحة كتمزيق ثوب جديد ؛
وتنظر نحو الوهد ثُمّ تقول :

الأرض ! هذه الأرض اكتشفتُهـا ...

وتندفع في الظلمات منحدرة إلى الوهد. تحسب أنَّها تدركه فتلوذ وتلجأ. لكن الوهد يتناءى بعيداً، والأرض تنحفر إلى غير نهاية بين يديها ...

ويشهق البغل ويصيح رعباً ويضرب بالحافر ضرباً ... لكنَّه مربوط بشأنه، مشدود بصخرة إلى الرّيح والعاصفة والزلزال والبرق والصاعقة...

« **السد** » (المنظر الثامن)

- 2 -

تأملات فلسفية

من روح الشرق

المســـــافـر

« أعلم أن اليقظة التى هى لنا بالحس هى النوم ،
والحلـم الـذى هـو لنـا بالفعـل هى اليقظـة » .
(أبو حيان التوحيدى)

دفعتـه ضـرورة المساء آخـر عتمـة يـوم من أيّـام الصيف، وقـد جاءت ليلـة لألاء من زجاج. فإذا هـو يجيء الجبـل ظاهـر المدينـة، ويدخـل الحديقـة ويقـوم تحت القبّـة. وقد أسقـط في نفسـه وجاءهـا الإسلام. ويقول: قـد شـوّشـتْ دواليب. وانقضى تـوق، وانفصمـت أوتـار. ولقـد مـات ميت...

ويذكـر عهـداً لـه طـويـلاً قضـاه في البحث والطلب والجـوس. إذ قـالـوا لـه : سِل الشـرق سرّ الطمأنينـة والحلـم. وإذ قـام فسـار في طرق الشـرق وثنايـاه، فجـاب من بـلاده اليابـس والـرطب، وذا الـزرع وغيـر ذي الـزرع. والفضـاء والصحـراء، والسهـل والحـزن والنخـل والـوادي. ودخـل القصـور الجنان وفاخـر الأمصـار ووضّـــاح المـدن. فمـا كـان فضاء من قحـط ممـدود، ولا مسجـد وصـلاة، ولا جمـل وسكـون منيـخ، ولا مقبـرة وبياض قبـور إلاّ سـألهـا سـرّ الطمـأنينـة والحلـم. وأطال السـؤال وأكثر مدّ اليد وألـحّ وألحف حتّى لقد ظنّ مراراً أنّـه فاز بالسِّـرّ والطمأنينـة

والحلم. ثمّ إذا هو تقوم له بعد الظنّ مآذن المساجد نقية صاعدة كالنبال، فإذا التوق يقوم وإذا الطريق والجوس تعود ...

كذلك سنتين في سؤال وحاجة ورجاء في الفوز.

ثمّ يجيء هذا المساء باليقظة والموت : بشوق النفس وقد خان وخوى، والطريق وقد طمست عمى، وقد امتنع الحلم والاطمئنان نأى. ويحدث نفسه : "ومع ذلك أفليست الطمأنينة والحلم واضحة السرّ بينة الطريق ؟ أليس أنّها ... ؟ "

"بلى . إنّها نوم من السماء وروح. وبراءة من الحركة والجهد والعناء. وحلول الدعة والهدوء والسكون. فالإسلام بها إسلام وإذعان. والحي بها جسداً وروحاً قرار واعتدال. لكن لاهي طمأنينة "أبولون" الإغريق تمسك يده عنان الأفراس الجامحة ولا ترتعش ولا تألم. وتغطّي طمأنينته على باطن التقطع ودفين الداء ولا يحتار ولا يوجع بل سكون الرخام.طمأنينة الرخام يقوم ويقاوم ويثبت ولا خلجة في القوام ولا اختلاج. كذا ألحان موسيقى الشرق. وكذا خطوط نقشه. راجعة عوداً على بدء ، ولا حركة ولا تحول ولا انتقال – ولا هي الجبن ولا العجز ولا التسليم للقدر ولا القول بالجبر. بل القرار الأعظم : قرار واجب الوجود. قرار الكون وادعاً إلى سننه في اكتفاء ورضى. ولتكن الدنيا خضمّاً من هوج العناصر هيج القوى، فلن تحرّك من الشرقيّ وَلا هو يبالي بها. فهو يعلم أنّ لا تحوّل ولا تقلّب ولا جديد، وأنّه ما من شيء إلاّ وهو إلى غيره من وجه منتسب، ومنه نسخة

وصورة، وإليه عائد. وما حوّل رقص راقصاً عن نفسه قط وإن هو حوّل صوره ولوّنه بألوان وأكثر جسده. لكن الراقص يعود في آخر الرقص طاهراً خالصاً تامّاً إلى نفسه . كذا فلتقلب الزعازع من الدنيا ولتحوّلها تحويلاً ولتكثر منها إكثاراً ولتقوّض تقويضاً . فلن تحير من الشرقيّ باسماً وادعاً موقناً بأن الأعراض لا تذهب بشيء من الجوهر ولا تجيء بشيء : يقين الرخام. حكمة الرخام.

فالرخام والشرقيّ يعلمان أنّهما دائمان باقيان. وأنّهما غالبا الدهر وأفنيا الزمان. فالزمان بالحركة : عنها يتولد وبه تقاس. والحركة تحوّل وانتقال وفساد وزوال، تأكل وتفني وتحرق وتبيد : من الأجرام ومن الأجساد ومن النفس والفكر. بل انظر النفس وحركتها والفكر وحركته، وما يلقيان من نصب مشاكل الروح والحياة ومنغلق المعضلات كالرحى إذا دارت على قطبها ولا طعام وترحي، فجعجعة وحركة مبيدة وأكل حجر لحجر. وإذا سكنت وسكن الحجران كلاهما على الآخر ، كان التطابق والاتفاق، وانتفى الأكل والفساد. وكذا الشرقيّ في اتّفاقه والكون، وسكونه إليه، واتّحاده به. وللدوام جزاء السكون والدعة والبقاء وللأبد .

وهذا هو سرّ بقاء الشرقيّ ودوامه على الدهر : هذا النفي لكلّ حركة واضطراب. وهذا الخلاص من كلّ زمان. تنفيها وتخلص منها أهرام الفراعنة واطمئنان "بوذا" وإيمان الأنبياء وحتّى طمأنينة التونسيّ لا يحتار ولا يتكدّر ولا يألم لعالم تزعزعه الحروب والانقلابات وهل أعلى وأسمى من هذا التماسك والتمالك عن حيرة النفس. وهذه

الثقة بالحكمة. وهذا الثبات للتحوّل والتقلب ؟ وهل أعظم من هذه الحكمة تمحو الأحداث الزائلة وتثبت. وتبيد الأعراض وتبقى. وحدها قائمة الذات ؟

ولكثير ما تبيد من ألم الإنسان ! فهي تنفي بشري الحيرة عن الإنسان. ومأساة الصراع بين الكيان الناقص والكيان الكامل. فلا الشرق يعرف "ديونيزوس" يألم أنّه كالفرع عُضِد عن أصله وانّه وحيد مقطوع، ولا هو يعرف مأساة "ديونيزوس" يجهد أن لا تبقى حياته الفرديّة فرعاً مقطوعاً من حياة الكون وان تعود له الصلة بأصله فيتّحد مع الكيان وروح الحياة المطلقة الكبرى. فما انقطعت صلة الشرقيّ بالكلّ المطلق ولا هو حدّته أحوال ولا حصره زمان : وليد اللانهاية والاطلاق. في الله حي. عائد إلى الله وما انحصر بشر في حدود البشريّة إلاّ جاء الألم وجاء العجز وجاءت مأساة شأن البشر في الحياة. وما حدته حدود أفق الإنسان. لكن الشرقيّ غير محدود. طالق من ظرف البشريّة إلى الله : فيه يحيا وبه تنفتح له أوساع الاطلاق. وبه يسلم من ألم "ديونيزوس"، ألم الحد والفراق والوحدة والانحصار. كالحيران الخالي إلى غار جبل يتيه روحا في فضاء الصحاري : قاعاً صفصفاً في قاع صفصف. فإمّا أن تمينه الوحدة وانحباس النفس في النفس وخلوّ الروح في قشرة البشر، والشعور بضعفه وانفراده وحقارته في الكون. وإمّا أن يتسع ويطلق وتسري في روحه روح الكون وروح الإسلام وروح الله. كذا الحلاج وكذا الغزالي وكذا غيرهما، سلموا إذ أنكروا البشريّة

وانتسبُوا إلى عالم الوجود المطلق : عالم الله. وما قصر الحلاج ولا الغزالي ولا ابن الفارض عن سواهم فكراً وحيرة وتيهاً في المعضلات، ولا هم عمدوا إلى التصوّف وانقطعوا إلى الوجود المطلق عجزاً عن الفكر وعناء تفكير البشر. وإنّما هو الفكر يبلغ بصاحبه أقصاه ويقتصر فيه المفكّر على العقل، فلا يكون منه إلاّ أن يفضي به إلى الوحدة وإلى العجز عن بلوغ الحقّ بالتعقّل والعقل. ويشرف على أول أفق اليأس والقنوط، ويكاد أن يأخذه دوار الحيرة. ويخاف أن يقع فيه. فإذا الخوف يلجئه إلى أن يعمد إلى العلويات : يولّدها له عجزه البشريّ ويسلم بها من أن يغلب ويقهر كذا ينتسب إلى الآلهة عُجّز البشر. فإذا العجز قدرة وإذا سرّ طمأنينة الآلهة مفتوح" .

بكلّ ذا يحدّث المسافر نفسه وبأنّه يعلم جدّ العلم ما هي هذه الطمأنينة وهذه الحكمة الشرقيّة. ولطالما مدّ فيها إلى الشرق يد السؤال. ولطالما ألحف في ذلك. ولطالما حسب بعد التصبّر والتطلّب وتوطين النفس أنّ الشرق رزقه إياها وتصدق بها عليه. ولكنّه ينظر في هذا المساء فإذا العطية كاذبة وإذا الصدقة كاذبة وإذا الحسبان خدعة وإذا هو يجد في نفسه أنّه لم يفز من هذه الطمأنينة الشرقيّة بشيء قط. وينظر فتعاوده ذكرى آخر ما قطع من مراحل سفره الطويل :

فهو في قرية "كسرة" على جبل جلاميد من الصخر كقطع العذاب تتراكم وتتراكب. ثمّ يقوم فيها فجأة الجدار جانب الجهل عاريا كجنب مقروح، تنشج في أسفله عين ماء باكية تسيل إلى الصخر. فتأكل من أصل الجبل. ثمّ تقع إلى الغور تحته فتشتّت فيه وتضيع كيأس نفس عقيم. وتتبعثر بيوت القرية بين الصخور حقيرة بشرية

ذلة مسكنة كشتمة في وجه قوّة قاهرة أو عار على جمال. ويتباسط فوق القرية على رأس الجبل بساط غليظ من حصى حديد عليه أغربة سود. وفوق القرية والجبل والبساط والأغربة السود هتول فضاء أوساع السماء. وينظر المسافر حوله فإذا الجبل قافلة هول من أشخاص حجارة، كلّ له ألم ، وكلّ له قصةٌ جلبة، والأذن تسمع وعين الماء تحكي. وتنشأ الحياة ويتحرّك الجبل المأساة وتتحرّك الصخرة الفيل والصخرة الدب فتطأ وتدوس. وتتفرقع أوصال الجبل وتصوت أحشاؤه يعصرها عصراً ليخرج ماء وعينا. ألماً كألم الأرحام لدى المخاض ... والسماء فوق ذلك مقوية مقفرة خالية .

وذا هو رمز المسافر نفسه : خلت سماؤه وأقفر، وأعتمل روحه وفكره. وتألّم وعصر احشاءه عصراً .

ثمّ هو في قرية "مكثر" يجول ضواحيها ويقف عند قوس نصر روماني، عمارة في الأثير قدّت في السماء والزرقة. فينظر فإذا حجارة القوس تتباعد وتتصاعد في ليّن وهوادة، وتترامى ويترامى القوس إلى أبعاد الفضاء . فيدخل الناظر من القوس إلى السماء كأنّه جعل إليها طريقاً معراجاً ولها باباً .

وذا ليس من المسافر في شيء؛ذا رمز الشرق اللاحق بالسماء.

وهاتعاود المسافر ذكرى عروجه إلى السماء من القوس. فيعجب منها ويكذبها عقله ويقول : ما كان عروج. ولقد كان العروج. ولكنّه كان في يسر بسيطاً ، كأنّه بالطبع حتى ليبعده العقل وحتّى ليكذّب . وهذا المسافر يشرف على أفق ما لا يدرك بالتعقّل. وكأنّه الخبط

والجنون. وما هو بالخبط ولا الجنون. فيدرك أن طمأنينة الشرقيّ وحلمه ممّا لا يتعقّل فيه، وأنّه إن خانه الجهد إليه وكذب أمله فيه واستحال عليه فذلك أنّه لم يطلبه قطّ إلاّ من وجه التفكّر والتعقّل وليس تدرك طمأنينة بالعقل والجهد والفكر. وما هي إلاّ أن يكون الحي كياناً أملأ كيان أرفقه، طاهراً من التعسّف والتوتّر والاشتداد. فليس في الكون اضطرار ولا تكليف ولا عسف ولا شيء يرغم إلى شيء : فلا قمر هذه الليلة الوضّاح يجهد جهده أن يكون وأن يضيء. ولا هذه الليلة العذراء تجهد جهدها أن تكون وأن تلطف وترقّ. ولا بحيرة هذه المدينة تجهد جهدها وتتكلّف أن تتلألأ بلألاء القمر وأن تتآخى على صفحتها الأنوار والظلمات. ولا شيء من هذا السكون وهذا الرضى وهذا الملأ يجهد اجتهاداً إلى السكون والرضى والملأ. لا تكلّف ولا تجهّد ولا تصنّع. بل ذاك هو الطبع والاتّفاق والمطابقة والاتّحاد والوصال ورضى الكلّ بالكلّ ذاك مقدار ما يوجبه الكون على الحي من جهد إلى الكيان : مقدار جهد الكائنات المطمئنّة راضية مرضية. لا جهد الصراع والمقاتلة، ولا جهد عامل المناجم يقطع أحشاء الأرض وينهب،ولا جهد "برومتي" يجهد أن يطلق من الأغلال، ولا جهد الزورق البخاري يجرّ الباخرة العظيمة يدخلها الميناء، ولا جهد الحي النهم الأكول يقع على مائدة الدنيا فيأكلها أكلاً. وإنّما هو أن تنفتح النفس للكون وأن تكون إليه منتبهة يقظة وعنه راضية وبه واثقة واله مسلمة : هبة الحي نفسه للحياة. هبة الوجود المطلق للحي الطمأنينة والسعة والروْح .

وتتّسع عين المسافر إلى المدينة وينظرها. فإذا هي كالبحيرة

الرصاص واقعة إلى نفسها قائمة هامدة هادئة كرقاص الساعة الساكتة. وإذا عينه لأول مرّة تنظر وترى فلا تجهد ولا تنصب في النظر والرؤية ويشبعها النظر والرؤية ... وإذا وقار وعظمة وهدوء وقرار.

وينحدر المسافر مفتوح العين فى النوم والحلم. فيكون انحداراً رفيقاً رقيقاً لطيفاً. ويكون أوّل عهده منذ سنتين بالراحة والنوم .

ولا يزال في الطمأنينة والحلم .

نشر ملحقا بكتاب « السد »

ـ قصـــــة ـ

السنـــدبـاد والطهـــارة

كانت الليلة مأساة قلقا قلبا دويا يتصارخ فيها الدّمار والكيان وينبو كلّ شيء عن القرار كأنّ عدماً يجهد إلى الوجود أو كأن حياة تجهد إلى الفنـــاء ...

* * *

خرج السندباد من خانه يحمل جراباً. فبادرته من الباب نفخة عتيدة من هذه الرّيح القتال التي لم تفتأ تهزهز الدنيا من يوم قذفه مركب إلى هذه المدينة. فلوى لها السندباد لحظة ثمّ وقف وهي تنفضه نفضاً وترمي بجرابه على ركبتيه وتحصب وجهه وعينيه. ويوشك جسده أن يشترك ويصير هبوباً محضاً كالقلاع. فيأبى ويصمد ويقول : "كم طالت مهزلة هذا الصراع بين الغولين : غول الفساد وغول الكيان ! فلا يغلب منهما غالب ! ألا ينتهيان ؟ وإنّـي ما أرى نظارة. فلمن يتصـــارعـــان ؟ "

ثمّ نظر يميناً وشمالاً في الزقاق الضيق الطويل فرآه خلاء وحشة وظلاماً رصاصا وقد كنست منه العاصفة كلّ مارّ وكلّ حيّ وكلّ وجود. ثمّ كأنّ السندباد تردّد ساعة أيصعد في الزّقاق أم يحدر. أو لذّ له أن لا تجد لذعـــات البرد وصفعات الزعزع الحاصبة عليه سلطاناً. ثمّ إذا هو اندفع محدراً في الليل والقرّ والزوبعة الخالية وسار مسرعاً في سيل الهبوب حتّى دفع إلى بطحاء المرسى تتزاحم

فيها أكداس ظلام من العدائل فتماسك لحظة ثمّ تمشى فعبر البطحاء ومال فمشى على مرفأ الناحية اليسرى وعلى يمينه سفن وفلك راسية تذعذعها الرياح . ولا يزال كذلك يمشي حتّى وقف على غاية المرفأ وقابله البحر ظلمات وغيباً . فنظر مليًّا والريح تلحّ على ظهره كتحامل جسد الأنثى الضابعة. وأصغى إلى العواصف ترشّ على صفحة الماء في المرسى رشًّا نحاساً فيأتيها من ظلام البحر صدى هدير وهمهمة. ثمّ إذا السندباد صفقت منه ضحكة فلق شديدة قصيرة خانقة كأنّها سخريّة شيطان قارسة. وقال : "ليلة عاتية وريح شمال هجهاجة لاذعة ولعاب البحر ورماد السّماء ... هذا الكون يتقيّأ " .

* * *

وفجأة انثنى السندباد. وجال ببصره فإذا قبالته على يمين المرسى نور سراج يرهقه الليل فلا يكاد يضيء. فتراجع قاصداً إليه متئد الخطى..

.....

وجاء حتّى أطلّ على السراج في قعر سقيفة مستطيلة ذات دخان مدخل لحانة أو خان ونظر يتعرف فتذكّر أنّه كان نزل هذا المكان لدى عودته الأخيرة من سفرته الأخيرة وأنّه خان وحانة وما خور معاً جمعت فيه قهرمانة خمراً وقياناً وفرشاً وطعاماً ومبيتاً لكلّ مسافر ذي قلق ومسغبة وكلّ سكّير عربيد. فدخل حتّى وقف على باب في زاوية السقيفة. ونظر فإذا الحانة تكاد تكون خالية إلاّ من جماعة من البحارة سكارى يغنّون ويعربدون. أو من شيخ في ناحية كأنّه مسافر غريب يخفق برأسه نوماً ويتّكىء على جوالق من متاع المسافر.

وإذا صاحب الحانة الأحمر منكب الصلعة على صندوق يحسب دراهم. وغلام له مقبل على كؤوس يصلحها وينضدها ويخدم الشاربين .

وأرجع السندباد البصر وأداره في داخل الحانة فرأى بها دخاناً متلبّداً وتصوّر عدد من تعاقب بها من شرب في ذلك اليوم ووجد منها قززاً. وهجم عليه معنى جميع ما مرّ به في أسفاره ورحلاته من حانات الخمّارين على المراسي. وأفعم نفسه أن هذه الحانات لا تخلو واحدة منها من الدّنس والعار والشُّؤم والقبح واليأس. كأنّه لا يسافر مسافر إلاّ وهو يريد أن يتطهّر ولا ينزل من مركب نازل إلاّ وهو يريد أن ينزع أوساخه ...

.....

* * *

لكن ما شأن السندباد وذلك كلّه الآن ؟ فهو قد تاق إلى الفرار فجاء يطلب ربّان مركب يركبه فيوغل به في غيابات البحار وهو يعلم أنّ صاحب هذا الخان يعرف من الرائح ومن الغادي من أرباب السُّفن لأنّهم لا بدّ أن يمرُّوا به لكأس يشربونها أو جواهر يبيعونها جواريه أو ساعة ينفثون فيها مرارة البحر الملح في بطونهنّ . ولئن توقّف السندباد الآن لحظة على الباب فإنّما ذلك لأنّ الحانة لقيته بصفعة من الدخان والنتن وخنقته بريح الخمر ذي المهراقة وقيء السكارى. ونفخت في وجهه بقايا سهك ما تلاصق بها كامل اليوم من بشر متحاككين ودفء تنور المطبخ وبخار الطعام ودسمه. وعلى ذلك فالسندباد لا يقذر الدخول وإنّما يقوم في الباب — بينما يقول صاحب الحانة : عم مساء — يقوم وينظر ويبتسم ويتذكّر. يتذكّر

أنّه عرف كثيراً من معاطن الحيوان شملته كثير من حظائر النّاس : في بيت أبيه عند ما كان صغيراً ينام وأمّه وأباه وأخوته السبعة على فراش واحد فيصبح وعليه من لعاب أخته وبول أخيه الأصغر وبخر كامل العائلة وكامل الليلة ويقول كبشّار : هذه ثمرة صلة الرّحم. ثمّ في الكتّاب حين كان صبيًّا يلقّن القرءان ويجلس في الشّتاء والصيف في سقيفة ضيّقة تراكم فيها خمسون ليس منهم الاّ متنفّس باخر أو مطلق رجليه بالكلع الريح فائح بكامل جسده وأمعائه حتّى يمتلىء الكتّاب نكهة وغيماً. ثمّ بعد ذلك في منتديات النّاس وفي الأسواق وفي السُّفن بعد السفر ثمّ لدى أصباحه من جميع من عرف في حياته من الجواري والنّساء. بعد أن يكون ذهب أوّل المتعة في أوّل الليل بالسكرة واللذة ولا يصبح من الجسد المطروح إلى جسده إلاّ صنة الإبط وشعر العانة وقبح العورة. فلا يجد له إلاّ مقسا كفرث الحبلى وغصة. ثمّ ... لكن ما فائدة التعداد أفليس كلّ ما يملأ أفئدة الناس وما يتحرّك في صدور الناس وما يتعفّن في رؤوس النّاس من بغضاء ودناءة وأوهام ونفاق وحماقات وسفاسف. أليس كلّ شيء كذا نفيا للطهر والنقاء والحسن والطيب؟ أليست الأرض كلّها ؟ أليس كلّ حيّ ... ؟ وتحرّكت يد السندباد وكأنّه لا يشعر فقبضت بطنه وقال : ثمّ أليست هذه أيضا ؟

وما دامت السماوات لم تخلق للإنسان محيطاً غير الإنسان ولا ظرفاً غير الجسد ولا فجّرت فيه معيناً غير النفس الأمّارة بالسوء. وما دام السندباد قدْ دخل قبل اليوم ألف ماخور وماخوراً والتجأ إلى

أجواف العاهرات ألف ليلة وليلة – ما دام بين النّاس لم يقتلهم جميعاً وفي جسده لم يصفّه كالزجاج فليدخل هذه الحانة فإنّه لا تثريب عليه.

* * *

وتحرّك فتقدّم يدفع جرابه بركبته وحرّك يده ردًّا على سلام صاحب الحانة واقتحم الدّفء والدخان والهواء وجماعة البحارة السكارى. وذهب إلى مقعد بزاوية الحانة بارد أسود فوضع جرابه وجلس وقد احمرّت عيناه واغتصّ وهو لا يدرى أمن شدّة عفونة الهواء أم من الحنين إلى البكاء. وجعل يديه على عينيه وجاء الغلام يسأله ما يختار من شراب فيقول : كأساً من خمر الكرخ ويفتح عينيه فإذا قبالته شمطاء معطيرة مزهوّة كذباب على فرث منصبة الثديين كالدلاء مشغولة اليدين والصدر والخدّ بكلب وبر أبيض لسانه كالنّار قائم كالعود. فيمعن النظر فإذا هي القهرمانة صاحبة الحانة ويتذكّر أنّه لدى مرّته الأخيرة بحانها تركها تترنّح ثملى في أجضان البحارة السكارى. لكن ما لها هذه الليلة تنسى وجهها الذى خلقه لها الله وما لها تتحوّل به في عين السندباد إلى صورة من وجوه كلّ من عرف من النساء ؟ وما لها تفوح بنتن كلّ سلطان سفّاح ذى دماء وكلّ قاض ملتح ذى ارتشاء وكلّ مؤدّب صبيان ذى لواط وكلّ صاحب رفعة متلصّص سراق وكلّ متعبّد كاذب ذى رياء وكلّ رذل متعال أصله فى الحمأة والخزى ورأسه بين الرؤساء ؟ ثمّ مالها تهمس إليه وصوتها يحكي أصواتهم جميعاً صوتاً صوتاً : "نحن جميعا هكذا نقرب الكلب وحرارة شعره ولسانه ونتفيك ونقصيك ونردك وأنفاس الأعاصير في وجهك ... أو تحبّ الكلاب ..." ولا تزال تتحوّل صورها وتتنوّع أصواتها إلى صورة

كلّ حيّ وكلّ إنسان وصوت كلّ حيّ وكل إنسان وهي تقول : ..." أو تحبّ الحياة كما نحبّها أو تقلع عن القتل والجهاد. ولكنّك خيّرت بين النساء والمعرفة والنّاس والطهارة فاخترت" . ويزيد وجهها وصوتها قائلين : "عم مساء" ويهوي جسد فيمسح جنبه ويجلس إليه...

ويرتدّ السندباد بغتة إلى الحسّ . فإذا الجالسة إليه قينة من قيان الحانة يتذكّر أنّه كثيراً ما لجيء إلى حظنها وفراشها في ليالي الهلع والفرار. وتتسرّب إلى جسده فظاعة القبح .

* * *

وهمّت به القينة فهمّ بالقيام وتفل وهمهم ولم تفهمه : " كذا، كلّما هبط إنسان أرضاً لقيته الحياة بوجه العاهرات" .

ثمّ قام فأنكرت وقالت : "إلى أين ؟ أعودة أم سفرة أخرى ؟ "

فلوى وجرّ جرابه وشقّ الحانة. ثمّ خرج إلى الليل يقول كذي الخبل : "إلى ما وراء الحياة، إلى الطُّهر"

فأوّل فلك لقيته وقع فيها وأرسلها شديداً وأوغل في العاصفة والبحر.

وكانت آخرة سفراته واحتوته طهارة الأعماق .

عن مجلة « **المباحث** »
عدد 42 ـ 43 اكتوبر 1947

- ٩ -

مقتطفات من خطب

فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة

في

السياسة والاجتماع

وهـذا الـذى قلتـه مـؤمنـا

وأوضحت رأيـك فـي حكمـة ... لها انقـاد شعبـك كـلّ انقياد ...
وهـذا الـذي قلتـه مـؤمـنـا ... وردّدت قولـه فـي كـلّ نـاد
وما كنت ترمي لغيـر البنـا ... وتطهيـر ديـن الهـدى من فساد ...
وتوجيه شعبك للصّالحـات ... وتنميـة الكسـب بالإجتهـاد
فـإنّ التخلّـف داء عـضـال ... وقهـر التخلّـف أسمـى جهـاد ...
فـإنّ الـذي قلتَـه ثـورة ... على الجهـل والبـؤس والإضطهاد

عن قصيد « **لمحمد الشعبونى** »

أيـن كنـا والى أيـن نسيـر

... يجب ألاّ ننسى في أيّ منزلة كنّا منذ ما يقلّ عن سنة، لا ننسى أنّ سياسة الإدماج والفرنسة والإلحاق لم تزل قائمة الذات ساعية بجميع الوسائل إلى يوم 31 جويلية 1954، لا ننس أنّنا كدنا أن ننهزم بعد كفاح دام أربعة وسبعين عاما لما قدّمت لنا فرنسا إصلاحات 4 مارس وكاد يقضى بسببها على الدّولة التونسيّة بإدخال الجالية الفرنسيّة بتمامها وكمالها في الأمّة التونسيّة وجعلها عنصرا تونسيًّا ينتخب وينتخب على مبدإ المناصفة. فمنذ أربعة وسبعين عاما كنّا نقاسي السيطرة الفرنسيّة ونخضع للحكم المباشر ونعاني القوّة الغاشمة إلاّ أنّ شرعيّة الحكم كانت مفقودة لأنّ فرنسا استمدّت سلطتها ونفوذها من اتّفاق مفروض على الباي بالقوّة. فما دام الباي مالكا لهذه البلاد فإنّه المؤتمن على هذه السّيادة بحيث تفعل فرنسا ما تشاء بتنازل الباي، وبعبارة أخرى كان بيد فرنسا الحوز ولكن لم يكن بيدها الاستحقاق. فكلّ ما اغتصبته من سلطة منحتها المراقبين المدنيين ومن نفوذ تمتّعت به الجندرمة والجندية الفرنسيّة كلّ ذلك غير شرعيّ لم تقرّه الاتّفاقيات .

ولذلك كنّا دائما وأبدا نطالب فرنسا بأن ترجع إلى رشدها وترجع إلينا سيادتنا. ولا عجب ان كان أوّل مطلب وأهمّه للحزب الحرّ الدستوري التونسي هو منح تونس دستورا باعتبار أن الدستور هو مظهر السيادة، وقلنا لها : فما دامت السيادة ملك الأمّة فنحن نطالب بأن تكون

الحكومة التونسيّة مسؤولة أمام الشعب وهو صاحب السِّيادة، وكانت فرنسا تعارض ذلك لأنَّها تعلم أنّ الشعب متى استطاع أن يعيِّن نوّابا عنه يصبح ممارسا للسِّيادة ولا يبقى لوجود فرنسا أيّ أساس ترتكز عليه ...

... ابتدأت الإزمة واحتدّت خصوصا من 15 ديسمبر 1951 عندما سافر وزراء التفاوض إلى باريس مطالبين بالاستقلال الدّاخليّ باعتباره مرحلة. فكان جواب فرنسا أنَّها لا تمانع في منح تونس برلمان بشرط أن يكون الفرنسيّون ممثّلين فيه وذلك هو بالضَّبط السيادة المزدوجة إذ تصبح فيه السيادة التونسية حقّا مشاعا بيننا وبين الجالية الفرنسيّة على قاعدة المناصفة وقد صمدنا في سبيل إبقاء السيادة التونسيّة والمحافظة عليها فاستعملت فرنسا القوّة واضطهدتنا وفرضت علينا إصلاحات 4 مارس 1954 التي تمكّن الجالية الفرنسيَّة من حقّ المناقشة في الميزانيَّة وذلك هو مظهر السُّلطة التشريعيَّة .

فنحن لا نبالغ إذا قلنا إن إصلاحات 4 مارس كادت أن تأتي على كفاحنا التَّحريري وتغيِّر سيادتنا وتقضي على عروبة هذه الأمَّة وإسلامها، ويتضاءل إذّاك العنصر التونسّي العربّي المسلم شيئا فشيئا ويصبح بعد أجيال جالية بين الجاليات الأخرى قد يقول المؤرّخون فيما بعد إنَّه كان يتكلّم العربيّة كما يقولون اليوم إن أهل تونس منذ 14 قرنا كانوا يتكلّمون اللاتينية فلتذكروا ذلك حتَّى تقدّروا هذا الانقلاب العظيم حقّ قدره .

ثمّ وقف الشعب وقفته واعتلى المجاهدون قمم الجبال لا ليفتكُّوا

شيئا بل ليحطِّمُوا تلك الإصْلاحات التي بدأت في بعض المناطق تدخل في حَيِّز التطبيق .

فأنقذنا الله سبحانه وتعالى – فلتنظروا إلى حيث كنَّا – حتَّى نعرف الخطوة التي لا تزال أمامنا فيكون حكمنا على الأشياء حكما صحيحا .

فالمعاهدات التي كانت تربطنا بفرنسا كانت صوريَّة والمهمُّ هو أن نعرف كيف كانت تطبَّق. كنّا أشبه شيء بمقاطعة فرنسيَّة حتَّى أنّ بعض إخواننا العرب ممن يفدون علينا سوّاحا كانوا يتعجَّبُون عندما يطأون أرضنا ويرون الأعلام الفرنسيَّة ترفرف واللافتات مكتوبة باللغة الفرنسيَّة ولا يجدون معالم العروبة والإسلام إلاّ حينما يدخلون الأحياء القديمة حيث يجدون أناسا لابسين طرابيش وعمامات فما هو سبب ذلك ؟ هو الحكم الفرنسّي المباشر. لقد أهملت المعاهدات وضاعت في خبر كان.. وانتقلنا بخطوة أو خطوات نحو الفرنسة والإدماج بحيث إنّ أكبر انتصار سجَّلته هذه الحركة التحريرية وأكبر عمل قامت به هو أنَّها أوقفت ذلك الاتِّجاه الذي كان يجرفنا نحو المحق والذّوبان في غيرنا .

المؤتمر الوطني بصفاقس

(نوفمبر 1955)

التعـــاون الحـــر

... غير أنّ الشيء الذي من واجبي أن أصارحكم به هو أنّه بعد تصحيح وضعنا السياسي كأمّة ودولة يجب أن تعلموا – وأنتم أعلم النّاس بذلك – أنّ عروبتنا وكوننا أمّة إسلاميّة لا يمنعنا ولا يفرض علينا أن ننعزل عن الدنيا عمّن جاورنا من شعوب وأمم بل يفرض علينا إذا كنّا نريد خير هذه الأمّة أن نتعاون مع من لا يمانع في التعاون معنا من الدول العربيّة والإسلاميّة وغير العربيّة والإسلاميّة ممن ربطتنا بهم ظروف سياسيّة وتاريخيّة ومصالح اقتصاديّة لكن على أساس واحد وعلى شرط هو أن يكون هذا التعاون حرًّا غير مفروض بالهيمنة بل في دائرة المصلحة المشتركة وصالحنا الخاصّ باعتبار ما يفرضه علينا موقعنا الجغرافي وحاجياتنا في التّقدم والرّقي، عندما نقول هذا لا نقول شيئا جديدا فمنذ قديم الزمان منذ قرون منذ العهد القرطاجنّي والبلاد التونسيّة مرتبطة ومتعاونة بطبيعة موقعها مع كلّ من جاورنا من شعوب ودول وأمم ولمّا كنّا نقاوم الاستعمار ونطالب وندعو لعدم التعاون مع النظام الفرنساوي لم يكن ذلك لأنّهم فرنسيّون ولا لأنّهم مسيحيّون غير مسلمين بل لأنّهم كانوا يريدون هذا التعاون على أساس القهر وأساس الاستعمار فكنّا ندافع عن كرامتنا ونقاوم كلّ تعاون ونعتبر كلّ من يتعاون مع المستعمر خائنا لأن كرامتناوشرفنا أعلى وأشرفمن المصالحالماديّة التي ربّما تنجرّ عن ذلك التعاون فعندما ترجع فرنسا إلى رشدها أي إلىترجيح التعاون الحرّ ورفع

كلّ ما من شأنه أن يحدّ من سيادتنا أو من حرّيّتنا ـ وعلى هذا الشرط فقط ـ يمكن لنا بل مصلحة بلادنا تفرض علينا التعاون مع كلّ الشّعوب والأمم التي رائدها التعاون لا السّيطرة على غيرها من الشّعوب الضعيفة ...

المؤتمر الوطني بصفاقس

(نوفمبر 1955)

هذه هي الخطوط الأساسية لسياستنا

إنّنا قد عقدنا العزم في آن واحد على الوصول إلى الهدف وعلى دفع الثّمن وهذا هو السّبب الذي حمل كثيرا من النّاس على الجود بدمائهم والتّضحية بأرواحهم في تلك المعارك التي خضناها أثناء مراحل كفاحنا باعتبار أن كلّ ذلك هو الثمن الضروريّ للخلاص من السيطرة الأجنبيّة والآن وقد عقدنا العزم على أن نصبح في مصافّ الدول الراقية فإنّ هناك أيضا ثمنا يجب علينا بذله وهذا الثمن ليس موتا ولا سجنا ولا يشابههما من صنوف العذاب بل هو عبارة عن عادات قديمة يجب تقويمها وعن عقلية فات أوانها ينبغي تغييرها وإحلال نظرة أخرى إلى الأمور محلّها نظرة إلى بعضنا وإلى حياتنا كمجموعة متضامنة بعضها مع بعض دون حيف أو امتهان أو استبداد أو استثمار .

هذه هي الخطوط الأساسيّة لسياستنا التي ترمي إلى إخراج تونس من الحالة التي كانت عليها ومن الفوضى التي كانت تتخبّط فيها وكانت تتناول اقتصادها وتجارتها وفلاحتها. ونتيجة كلّ ذلك الجهل والتقهقر..

أمّا سياسة توحيد القلوب واستثمار أكثر ما يمكن من المواهب الكامنة في أبناء هذا الوطن حتّى يستطيع كلّ من لم يشارك في المعارك السّابقة الإسهام في المعارك القادمة التي لا تقلّ أهمّيّة عن معارك الحرّية والاستقلال — وهو ما أردّده دائما — فتهدف فيما تهدف إلى غرس الشعور في كلّ تونسيّ بأنّ له مسؤولية في هذا الوطن المشاع

بين النّاس وبأنّه يعمل لصالح أمّته وبعرق جبينه سواء في الحقل أو فى المعمل أو الإدارة أو المدرسة تحرّكه روح جديدة أساسُها تجديد هذا الوطن وبناؤه على أسس سليمة متينة .

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

(4 جانفى 1963)

كفـاح متـواصل في عـدة ميـادين

إنّـه لعمـل عظيم يتمثّـل في الكفـاح ضدّ الطبيعـة وضدّ الأراضي القـاحلـة وضد الأمـلاح ويـرتكـز على استثمـار المعلـومـات الفنيّـة والاستفادة من خبرة إطـاراتنـا الوطنيّـة أو على الاستعـانـة بالمنظّمات الـدوليّـة مثل منظّمة التغـذيـة التابعـة للأمم المتّحـدة والتي تقـوم بتجارب ذات شـأن في الوسط التونسيّ كـــهنشير سيدي مـــهـذب وهنـــاشير قـمـودة ..

فهناك مهندسون واختصاصيّون تابعون لهيئة الأمم المتّحدة يوالون الدراسات لإدخال مشاريـع عديدة ترمي للتنمية الاقتصادية حيّـز التنفيذ وأن بعض هذه المشاريع تساهـم تـونس في تمـويلهـا وتساهم فيهـا المنظّمة الأمميّـة المشـار إليهـا، بحيث أنّ هناك عمـلا متـواصلا وثـورة عـارمـة متـواصلـة ضد طبيعـةصعبة بخيلـة نحـن بصدد استخراج ما يقوم بأودنا منها بمجهـود جبّار

بيد أنّ هـذه النتيجـة التي هي أمامنـا وهـذه الثمـرة التي ننتظرهـا من سعينـا من شأنهـا أنّ تشجّعنـا على مـواصلـة السير وعلى مـواصلـة الكفاح ضدّ هـذه الطبيعة الشحيحـة التي كانت نصيبنـا وكنّـا من نصيبهـا. ويلـزمنا أن نتسلّح بالعـزم القـويّ ونمعـن في إعمـال الـرأى لـكي نغيـر الأوضاع القانـونيّـة ونيسّـر أسبـاب العمـل ونرغّـب فيـه ونحـثّ الفـلاح على مواصلـة السّعي والتحمّـس لـه مهمـا كـانت التكاليف ونتجنّـب كلّ مـا ينفـّر الإنسان من العمـل حيـن يـرى أنّ سعيـه لا يعـود عليـه بغنـم يـذكـر.

وكلّ ما يرغّـب في العمل ويذكّـي في النفس الحميّـة والحماس

سواء بتطبيق الأوضاع الاشتراكية المعروفة أو بتطبيق ما يسمّى بالشياع أو الأمور المشاعة نحن نركن إليه ونقبل عليه، وكلّ ما يؤول إلى الإجحاف في التوزيع -- وهذا أيضا ممّا ينفّر من العمل مثلما ينفّر استئثار النّاس بعضهم لبعض – فإنّنا نتجنّبه ونبتعد عنه. وكلّ ما من شأنه أن يكوّن حقدا أو غضبا أو عدم رضى فإنّنا نقاومه بالقانون وبإجماع الأمّة. وليس من الممكن ألاّ تجمع الأمة على مقاومة الإجحاف أينما حل .

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

أنـانية يجب التخلص منهـا

قد يكون ثمّة من يقول : أنا لا يعنيني إلاّ مهنتي وليعمّ الطوفـان بعد ذلك وهذا رجل ساذج لا نقاومه وإنّما نحاول أن نقنعه بخطـأه وأن نبيّن له أنّه جزء من كلّ ولا بدّ له أن يهتمّ بواقع بلده وبكلّ ما يقرّره المسؤولون لأن هذه المقرّرات تؤثّر عليه كما تؤثّر على بقيّة المواطنين فإذا كانت مقرّرات خاطئة تعرّض حتما إلى أضرارها ومـن هنا يتّضح معنى الديموقراطيّة ومـعنى الجمهوريّة إنّهـما يعنيـان أنّ على كلّ مواطن بلغ المستوى اللائق أن يميّز بين الغثّ والسمين وأن يختار وينتخب لكي يكون مساهما في حكم بلده باعتباره فردا من المجموعة التي انبثقت عنها السيادة التونسيّة .

أجل هناك من يقول ذلك القول ولقد كان يطلق عليهم لقب « الخبز يست » لأن همّهم محصور في الحصول على الخبز لكن هؤلاء قد نسوا أن تصريفنا للشؤون العامّة يهدف إلى توفير الخبز كما نسوا أنّ الخبز وحده لا يكفي بل لا بدّ من الاهتمام أيضا بحاجـات أخرى لا يكون الإنسان إنسانا بدونها .

وشبيه بهؤلاء من يقصد فرنسا مثلا للاختصاص في مهنة معيّنة والتحصيل على كفاءة فنّيّة في تلك المهنة دون الاهتمام بأيّ شيء آخر، ولئن كانت هذه المهنة وظيفة اجتماعيّة يحتاجها البلد كما تحتاج الساعة أو المصنع إلى الدواليب المحرّكة فإنّه لا يكفي أن

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة
(28 مارس 1963)

سيد القوم خادمهم

نعتقد أنّ إصلاح الدواليب وإصلاح الأوضاع هو من الأعمال الأساسيّة التي لها دور فعّال لرفع مستوى الأفراد سواء منهم البورجوازي أو الغنيّ أو الفقير أو العامل أو الصانع أو المهندس، وارتفاع المستوى يكون أولا في الميدان الأخلاقيّ عندما يشعر العامل بفرح يغمره وبانبساط ينعم به ويستمرئ طعمه حين يخدم الغير وحين يكون في خدمة الغير منكرا ذاته ولـذّاته وحين ينظر للمصلحة العامّة ويسعى إليها ويحرص على تطبيقها ويتفانى في مصلحة إخوانه أبناء وطنه لأن الأخلاق ليست مجرّد الامتناع من اقتراف الآثام والكفّ عن إذاية الغير بل هي حين يهب الإنسان نفسه لخدمة الغير ويضع جهوده وإخلاصه وإمكانياته في خدمة الغير أي في خدمة المجتمع، وإنّ الذي تتركّز فيه هذه الأخلاق الفاضلة لن تحدّثه نفسه عندما يكون في موضع إستراتيجي هامّ من مواقع جريان الثروة العموميّة باستثمار ذلك الموقع أسوأ استثمار بأن يستغلّ جهل الغير أو احتياجه فيسلبه ما ليس له حقّ فيه .

هذا هو العمل من الناحية الأخلاقيّة، أمّا من النّاحية العلميّة التثقيفيّة والتربويّة فسعي في توسيع الأفق الذهني وتعويد الإنسان على النظر البعيد حتّى يدرك تمام الإدراك ويستبين له بكلّ وضوح أنّ مصلحته مرتبطة بمصلحة المجتمع ولا يمكن أن يظفر بمصلحته الحقيقية ولا أن يطمع في انتظامها واستقرارها وسلامتها وضمان

دوامها إلاّ في كنف سلامة المجتمع وحفظ مصلحة المجتمع وهذا الخلق يرقى إليه الإنسان شيئاً فشيئا وليس هذا بممتنع عن البشر ولا هو فوق قابليّته فإذا تقلّد هذه الفضائل أصبح من المعرضين طبعا وجبلّة عن الفساد والإفساد وزاياته رذيلة الاستثمار وحصل له اليقين بأنّه إن شاء أن يحقّق لنفسه تلك المصلحة العاجلة فإنّه يخلّ في آن واحد بالأخلاق الفاضلة وبمصلحته الحقيقيّة .

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

(29 جويلية 1963)

الجـزاء يكـون على قـدر العمـل

لا نقول إنّ الناس كلّهم متساوون من حيث المواهب والمقدرات ذلك لأن المساواة المطلقة ليست موجودة لا في الخلقة الجسديّة ولا في الذات البشريّة ولا في الدماغ ولا في الفكر ولا في المقدرة ولا في الكفاءة ولا في المواهب ولا في الطبيعة ولا في الشكل ... لكن الشيء الذي نرمي إليه هو ألاّ نقبل التفاوت أي عدم المساواة إلا إذا كان نتيجة شيء طبيعيّ في الإنسان لا نتيجة قانون جائر أو امتيازات مجحفة تحول بين الكفء المقتدر وبين الانطلاق والصعود لما يصبو إليه من رتب وأعمال :

وإنّا لنفضل استعمال كلمة العدالة على كلمة المساواة، فالإنسان الذي خلق غير قادر ويشعر هو نفسه بقصوره وبعدم اقتداره فإنّما يظلم حين يبوأ مقعدا أكبر من مواهبه أو حين يعهد إليه بمهام لم ييسر لها ولا يستطيع النجاح فيها ومن قبيل العدل المقبول أن يقف عند الحدّ الذي تسمح له مقدرته بالوصول إليه. أمّا كلّ من له استعداد لأن يصعد فإنّه يمكّن من الصعود ومن الكسب ويضمن له أن لن يذهب عرق جبينه أبد الدهر سدى ولن يستغلّه أحد غيره بسبب نظام هو من صنع البشر ولا يمنع من تغييره كون الدولة قد أيّدت هذا النظام من قبل وأدخلته في صلب القانون. فما أقرّه قانون يمكن أن يمحوه قانون آخر كلّما ظهرت في ذلك مصلحة :

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

تحديد النسل

... كيف يكون النجاح حليفنا والأفواه المستهلكة تزداد في كلّ عام أكثر ممّا تزداد الأقوات وكلّما سعينا في إدخال الأساليب العصرية على الفلاحة لتنمية محاصيلها وتنويعها وكلّما حرصنا على تصنيع البلاد لتوفير دخلنا القوميّ وتوزيعه بكيفية عادلة حتّى تتحسن حالة من كان يتخبّط في ضحضاح من الفاقة والشقاء ... كلّما سعينا في ذلك وجدنا في طريقنا عقبة تزايد السواليد فتصطدم بها خططنا وتتعثر فيها برامجنا الإصلاحية

وما الحيلة إذا كان عدد سكان البلاد أربعة ملايين عندما وضعنا برامج الإنعاش لفائدتهم لكنّهم بعد عام أو عامين أصبحوا ثمانية ملايين فإذا شئنا أن نوزّع عليهم ذلك الدخل الذي سعينا في تنميته كان الذي يناله كلّ فرد أقلّ ممّا كان يناله من قبله عندما كان عدد السكّان أربعة ملايين فقط هذا هو المشكل الذي أريد منكم أن تتكرّموا فيه معي. على أنّي لا أقصر نظري على الحال القريب بل أنّي أنظر لما هو بعيد وأريد منكم أن تتغلّبوا على العقلية القديمة بإمعان النظر وبتسليط العقل على التقاليد وعلى الأوهام التي تمكّنت من النفوس والتي من جملتها التي توسوس لأصحابها بأنّ هذه المسألة أي مسألة تحديد النسل لا سلطان لنا عليها في حال أنّها من المسائل التي للإرادة البشريّة قدرة على تكييفها بتعاطي الأسباب الموصلة للزيادة فيها أو للحدّ منها. ألا ترى أن مجرّد ابتعاد المرأة عن الرجل يوقّف حركة النسل تماما. فيلزمنا أن نسعى في

تغيير مثل هذه النفسيّة الانهزاميّة ويلزمنا أن نعرّف النّاس بأنّ العقل البشريّ الذي استطاع أن يتحكّم في الطبيعة وفي الذرّة وفي المياه وفي الأودية ويتغلّب على الأمراض وعلى الأوبئة قادر على أن يتحكّم في نفسه ويرسم لها حدودا لا تتعدّاها في هذه القضيّة الجوهريّة.

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

(26 ديسمبر 1962)

ضرورة اكمال الحاجات وانسجامها

إنّ انسجام العمل في جميع الميادين أمر هامّ جدّا وكلّما أطّلعت على بعض الانجازات الهامّة الماثلة للعيان كبناء دور الشعب والمسارح وبعث الموسيقى والفنون وتأسيس مصانع النسيج وغيرها، كلّما أطّلعت على شيء من ذلك أخذت أفكّر وأتساءل، وأنا أربط كلّ شيء بتزايد النسل، هل وفّرنا القوت ؟ هل وفّرنا لقمة الخبز ؟

إن هذه اللّقمة تتوفّر بخدمة الأرض واستصلاحها وإذن فلا بدّ للتونسيّين من أن يستخرجوا من أرضهم القوت الضروري الذيّ يحفظ الكرامة ومن هنا جاءت أهميّة الفلاحة التي أعطتها هذه الحكومة نصيب الأسد من المشاريع والأموال والتجهيز والقروض التي أخذناها من الخارج. ذلك لأنّ الفلاحة هي أساس الازدهار فإذا استطعنا أن نستخرج منها مقدارا كافيا من القوت الذى ينقذنا من نقص التغذية ومن أن يكون التونسيّ كالشجرة الذابلة التي ينقصها الماء والسماد، إذا استطعنا ذلك أمكن لنا أن نتوجّه إلى ميادين أخرى بأن نقتصد قليلا من ذلك القوت ونموّل بما زاد عن الحاجة الضروريّة مشاريع من شأنها أن تنمو وتتقدّم وتضمن الكرامة والمستوى اللّائق، وهكذا، نتخلّص من مشكلة القوت لنهتمّ أكثر فأكثر بمسائل أخرى كمواصلة التشجير وبناء المساكن وتمديد شبكة الكهرباء والهاتف وتوسيع نطاق التعليم وغير ذلك ممّا يتعلّق برفع المستوى.

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

انمـا الـديـن الأخـلاق

... ما تـزال الإنسانيّـة من دهـور تفلسـف العلاقـة بيـن العلـم والأخلاق وبيـن الأخـلاق والدّيـن ومهمـا تـكن المذاهب الّتي اتّجـه إليها المفكّـرون في هاتيـن القضيّتيـن أجيالا بعـد أجيال فإنّهـا قـد وقفـت في معظمهـا عند حدّ القـول بأنّ العلـم آلـة استكشـاف ومعرفة يمكّـن الإنسان من الفهم ولا يمكّـنـه من الاختيار ويجعلـه قادرا على ربط المسبّبات بأسبابهـا ولـكنّـه لا يمكّـنـه من الاهتـداء إلى المقـاصـد والغـايـات والتمييـز بين الخيـر والشّـر بـل إنّـه ليحصـل العكس في كثيـر من الأحيان إذا كـان العلـم لا يـردعـه وازع الضّـميـر ولم يقـم على أساس إيمـان بقيـم أخلاقيّـة تجعـل المرء فـوق كـلّ الموجودات وتسنـد إليـه شـرف الاضطـلاع في هـذه البسيطـة بـوظيفـة الخيـر وإقامـة العـدل ومـؤاساة الضعيف : وإنّـمـا ذلك الأخـلاق !

كذلك تفلسف المفكّـرون فيمـا بين الـدّيـن والأخـلاق من تقـارب وتناصـر فكـان مـردّ أقـوالـهم عامّـة أنّ الديـن متمّـم للأخـلاق متـوّج لها وأنّ العاطفـة الـدينيّـة الصّـادقـة تقـوم على أساس الضّـمِيـر وهو الذي يميّـز بالفطـرة والغـريـزة بيـن أمـور هي الخيـر وبين هنات هي الشّـر .

وليـس أصدق ولا أكثـر نفعـا وفضـلا من التّقـوى التي تنبـع من معين الرّوح الطّـاهـرة الـزكيّـة فتسابـق الدّيـن إلى أوامـره ونـواهيـه وتجـاوزه إلى مـا سكت عنـه من المكـارم والفضـائـل .

وليس أدنى مـرتبـة من تلـك التّقـوى التي يغيض من حولهـا الشّـعُـور

الصّافي بما هو الخير وما هو الشرّ فيبقى صاحبها مرتطما بنواهي الشريعة وأوامرها صخورا صلدة يلفحها القيظ فلا روح ولا فيض .

وقد يحصل ما هو أشدّ وأنكى ذلك بأن يأتي المتّقي فرائض الدّين ولا يتورّع عن مخالفة الضّمير في المسكوت عنه من شؤون المعاش والاجتماع وهكذا يتّضح أنّ فحوى رسالة الإنسان في الوجود وجوهر مسؤوليّته في الحياة هو أن يجعل لكيانه معنى ولسلوكه خلقا في كنف غايات روحيّة وقيم متفجّرة من معين الضّمير الأخلاقيّ الفطريّ الذي ركّبه الله في الإنسان وفضّله به على الحيوان وأوكل إليه أنّ يربّيه ويزكّيه حتّى يكون بحقّ نبراسه الذي به يستنير ودليله الذي به يهتدي إلى قيم الأعمال والكائنات .

ذلك بأنّ الضمير الأخلاقي هو منبع القيم وهو مصدر تطوير الشرائع والقوانين وهو مرقاة الحضارات والمجتمعات نحو السّموّ اللانهائي وهو الذي في الأوّل والآخر يجعل السّعادة الحقيقية في نكران الذّات وفي الإيثار وخدمة الغير خالصا لوجه الله .

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

(31 جويلية 1963)

السلـــوك والمعتقـــد

لمّا اصطدم المجتمع الإسلامي بالحضارة الغربيّة وتسرّبت إليه ألوان من الحياة ومرافق من العيش لم يعهدها من قبل لم يتردّد الكثيرون في اقتباسها والاستمتاع بها. إلاّ أنّهم لم يلائموا بين السلوك والمعتقد ولم يجعلوا الفكر موافقا للفعل مساندا له فكانت القطيعة بين الذهن وبين الوضع الذي يكتنفه وأصبح الدين على هامش حياة تقبل بالضرورة ولا يقرّها المسلم في قرارة نفسه. فإذا هو ممزّق بين مستويين يتأرجح بينهما ولا يقدر على رتق ما بينهما من فتق يتزايد يوما بعد يوم : مستوى العقائد الدينيّة التي تسيطر على حياته الروحيّة ومستوى الحياة العمليّة وضروراتها التي ليس منها بدّ .

وبذلك يرتطم المجتمع الإسلامي في لون من الزيف والمؤاربة ومخادعة النفس إذ لم تعد أفعاله مصداقا لأقواله وإذ فقد ما ينبغي أن يربط بين القول والفعل من صدق وإخلاص يصبح بدونهما الكلام لغوا والعمل عبثا بل رجسا .

وتشتدّ هذه الآفة بالمجتمع الإسلامي كلّما ظهرت فيه احتياجات جديدة هو عاجز عن تسديدها بمحض قدرته وخاصّ إنتاجه. فينخرم الهيكل الاجتماعي وتتّسع الهوّة بين فئة موسرة وبين جماهير أكلها الجوع وأضناها المرض بسبب تحجّر القريحة وانحباس الكدح وانتفاء الجهد الخلّاق. فإذا هي عالة تلتقط فتات المائدة البشريّة قد انكسرت

فيها شوكة الإنسان وتلاشت فيها الكرامة التي هي زينة البشر والمقدار الأدنى من القبس الإلهي في عباده. فإذا هي لقمة سائغة للدعايات المهرّجة والمذاهب المفضية إلى بثّ القطيعة ونشر البغضاء بين الأفراد والجماعات .

ذلك بما أفسح للجفوة بين الدين والدنيا · بين الروح والفكر من جهة وآلة العقل والاجتهاد من جهة أخرى. وهو السبب الأصليّ لهذا النقص الفادح الذي يشتكي منه العالم الإسلامي بأسره في ميدان الفنون الصناعيّة والآليّة والذي جعلنا نتأخّر عن ركب الحضارة بعد أن كنّا في طليعته .

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

(11 أوت 1962)

عوامل اليقظة الفكرية في العالم الاسلامي

... فالاستعمار كان إذن العامل الأول في إيقاظ المشاعر وتحريك الهمم للعمل لكن قد وجدت من دونه عوامل أخرى يسّرت أسباب اليقظة ومهّدت لها السبل منها أن الحركة الفكريّة قد انبعثت في أقطار إسلاميّة كبيرة من قبل أن توجد في تونس وكان من روّادها الأولين الشيخ جمال الدين الأفغانيّ وأضرابه فكان من السهل السير على خطى تفكيرهم والاستنارة بهدى ما وصلوا إليه من الكشف عن أسباب تقهقر المسلمين ومن معرفة كون تلك الأسباب ترجع إلى كبت الحرّيّات أي إلى طمس مواهب البشر وتعطيل أدمغتهم عن التفكير فيما ينفعهم وإلى استبداد الملوك ولهذه المساوي والهنات ارتباط ببعضها بعضا فالكبت يطفئ شعلة الكرامة التي تتّقد في النفوس ويطفئ أيضا حبّ الحريّة وإذا انطفات الحريّة من الناحية الدينيّة انطفأ نورها في البشر بصفة عامّة، عند ذلك يجد المستبدّ الجوّ خاليا أمامه ويلقى المجال فسيحا لتصريف جوره والإمعان في بغيه ويجد أمامه قوما راضين بالاستبداد لا يثأرون ولا يثورون لضيم يراد بهم فيصبحون كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا، بحيث انّ هناك أسبابا تراكميّة كالظلمات التي بعضها فوق بعض يحدث بواسطتها ما يشبه الدور والتسلسل فالاستبداد نتيجته الكبت والكبت نتيجة الاستبداد ونتيجة الإثنين التأخّر والانحطاط ونتيجة الانحطاط الضعف المادّي الذي يجعل الأمّة نهبا لكلّ طامع ولقمة سائغة في فم كلّ مفترس وتغدو كالرزق الذي مات عنه أهله فكلّ واحد يريد أن تمتدّ إليه يده.

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

(7 ديسمبر 1962)

اصـــلاح التعليـــم

عندما كنّا نعيش في صفّ المعارضة على الهامش وكانت تونس لغيرنا لا لنا كنّا نعدّ البرامج ونعقد العزم على أنّنا عندما تستقلّ بلادنا وتصبح دواليب الحكم فيها بأيدينا يجب أن نبدأ بمعالجة مشاكل التعليم لأن كلّ ميدان يتوقّف على التّعليم الذي هو المحرّك الحقيقي للإنسان والقوّة التي بها يرتفع عن الحيوان ولأنّ ما يوضع في العقل هو الذي يوجّه الأمّة التوجيه الحقيقي تقدّما وتأخّرا وليس بين الإنسان وسائمة الأنعام — كما دلّت التجربة — إلاّ ما يملأ العقول .

وكم من أمّة أرتفعت وتقدّمت ركب المدنيّة وأصبحت تشعّ النور على الدّنيا والعدل على الشّعوب ثمّ نرى نفس تلك الأمّة وقد أصبح أحفادها بعد فترة زمنيّة قصيرة أو طويلة عالة على البشريّة.

وقد كان المسلمون وهم يعدّون أربعمائة مليون في القرن التاسع عشر يساوون صفرًا وكان الهنود وهم يعدّون مئات الملايين وَالإفريقيون الشماليون في كثرتهم العددية أشبه بالسّوائم ولا يختلفون عن قطيع الإبل الذي يقوده الطفل الصغير، وذلك لأنّ هذه الكثرة تسكنها قلوب ميّتة وأدمغة فارغة فالعقل إذن هو الذي يركّز مبدأ القدرة والمسؤوليّة. والجهل والتعليم الفاسد يبعثان من التواكل وعدم الثقة بالنفس ما يطفىء شعلة الخلود ويسوىّ البشر بسائمة الأنعام .

رأينا أنّ الاستعمار يرمي في برامجه إلى استعباد العقول ليضمن

لنفسه الاستعمرار والدّوام إلى ما لا نهاية له ولذلك عزمنا بمجرّد فوزنا بالاستقلال على تحرير العقل وإصلاح آلة التفكير وجعلها قادرة على القيام بواجبها على الوجه الأتمّ ومواجهة الدّهر ومغالبة الزّمن والتحكّم في الطبيعة والتفكير السليم في بداهة وإصابة .

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

(25 جوان 1958)

مـا يحتـاج اليـه التمثيـل

إنّ التمثيـل لـيس فقط عـبقريّة تبـرز وأدوارا تتـقـن وروايات تنتقى وتشخّص بل هو يفتقر أيضا إلى عدّة أمور تقنية فهناك الإخراج والماكياج وتكييف الأصوات وتقدير الأنوار والمقدرة على استخدام الأجهزة الكهربائية المتشعّبة وهذه كلّها أمور تسهّل أمور الممثّل ونحن مثلما أرسلنا شبّانا إلى الخارج ليحذقوا فنّ التلفزة أو السّنما كذلك ينبغي أن نوجّه فريقا منهم ليتكوّنوا من الوجهة التقنية في جميع الأمور التي لا يستغني عنها التمثيل وما كان للرّجال الموهوبين في هذا الميدان أمثال جان لوي بارو وأضرابه أن يصلوا إلى قمّة المجد لو لم يكن بجانبهم رجال فنّيّون يتقنون صناعتهم ولهم فيها أيضا مواهب لا يستهان بها . وبفضلها يحصل ذلك التأثير وذلك الضّغط الخيالي على شعور الجمهور فثمّة الكلام وثمّة نبرات الصوت وثمّة الإشارات وكذلك ثمّة النور وثمّة الظلمة وثمّة كلّ الأعمال والحركات الأخرى الدّاخلة في نطاق الميدان التّقني.

والممثّل يحتاج أيضا إلى أن يوسّع أفقه الذهني بدراسة عدّة علوم منها تاريخ الآداب وتاريخ التّمثيل إلى غير ذلك من ضروب التثقيف التي ترفع من مستواه العامّ وعندما يملأ وطابه من المعرفة ويستوفي نصيبه منها وتتجمّع لديه كلّ الأسباب والظّروف التي كان في شوق شديد إليها يبقى نجاحه متوقّفا على العبقريّة تلك الموهبة الخاصّة التي يتمايز بها النّاس وبها يتفاضلون ولا تكون وليدة الشهادات ولا نتيجة الدّراسات مهما طالت وتنوعت.

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

(7 نوفمبر 1962)

تعميـــم الريـــاضـــة

إنّ الهدف الذي يجب أن تضعوه نصب أعينكم والذي أعتقد أنّكم على بيّنة منه هو أوّلا وبالذّات نشر الرّياضة وتوسيع نطاقها حتّى تشمل النّشىء التونسيّ كلّه بل وحتّى تشمل الكهول إن أمكن .

يجب أن تعمّ الرياضة التلامذة وعمّال المصانع والحقول والحضائر والموظّفين وذلك نظرا إلى فوائدها المعروفة وإلى مفعولها في تهذيب العقل والجسم وبعث الأخلاق الرفيعة التي يجب أن يتحلّى بها كلّ إنسان

كلّ هذا واضح ومفهوم وهو دافعنا إلى توسيع نطاق الرّياضة حتّى تشمل كلّ المواطنين وإنّنا لنسير في هذه السبيل بخطى حثيثة، ونظرة سريعة إلى اعتمادات الرياضة في ميزانية الدولة والى تقديرات المخطّط الثلاثي توضّح لنا الحقيقة فإنّ تلك الاعتمادات تبلغ درجة مهولة وهذا ما يوضّح أن الرّياضة في نظرنا ليست مجرّد هواية تعتمد على جهود الجمعيات فقط ويترك حبلها على غاربها كما يقولون فالدّولة تخصص الملايين بل المليارات للنّهوض بالرياضة نظرا إلى أهمّيتها ...

ذلك هو هدفنا الأول في ميدان الرّياضة في تحسين حالة المواطن بتهذيب بدنه وعقله وإرادته وهو هدف هامّ لا يمكن أن تتغافل عنه الدّولة ومجال التّهذيب هذا مجال رحب لم نكن نتصوّره على هذا الاتّساع ذلك لأنّه يشمل الميدان الوسط أي الميدان الذي هو بين المدرسة والبيت، بين المدرسة والعائلة .

من خطب الرئيس الحبيب بورقيبة

(28 جويلية 1962)

منتخبات من الأدب التونسي المعاصر

الشعر السياسي

محمد الشاذلي خزنه دار — الهادي المدني

الطاهر الحداد — أبو الحسن بن شعبان

صالح السويسي — الصادق مازيغ

محمد الفائز القيرواني — أحمد المختار الوزير

سعيد أبو بكر — الشاذلي عطاء الله

الحـــــر

الحرّ من لا يستكين لمـرهـــق ... فعليك خصمك مـمّ ويحكّ تتقي

واصدع بحقّك في الأبـاة ولا تقـل ... (إنّ البلاء موكّـل بـالمنطـــق)

فإلام تستجدي وحقّـك بيّـــن ... شلّت يد تمتدّ للمتصـــــدّق

تبًّا لمن ألف الخنـــوع لغاشـم ... ما تلك إلاّ شيمـة المتملّـق

أولى وأحرى أن يبيت على ظمـا ... مَن ظلّ من مـــاء المهـانة يستقي

فيم احتمالك والكـوارث جمّـة ... ممّن يراك بنظـرة المستفـوّق

صمّ وعمي ساخـرين تطـــاولاً ... منّـا كأنّـا في الورى لم نخلق!

لا تشكهم إن الشكـاة مـذلّـــة ... وإلى مـراقي العزّ وحـدك فارتق

مستضعف من بات يـرقب منّـــة ... من أهلـه أو من عـدوّ أخـــرق

اسـك لصالحـك السّبيـل بحكمـة ... وافتح بحزمـك كلّ بـاب مغلـق

وهمـا الطّـريقان : السعـادة والشقا ... فكن السعيـد إذا أردت أو الشقي

واحمـل بنـولاذ العزيمـة وقـرهـا ... واصعـد مع البـازي المطلّ وحلّـق

« **محمد الشاذلي خزنة دار** »

(عن الأدب التونسي للسنوسي)

ضحـــايـــا

نبكـي لفـرقتـهم وهـم أحيـــــاء سبعـاً بكتـهم تـونـس الخضــراء

مـا كـان في كفّـي الحسـام وإنّمـــا من تحت فكّـي حيّـة رقطـــاء

أرسلتهـــا حصبـــاً على مغتـالـــهم فتـريـــه مـاذا يفعـــل الـشـعـــراء

سأهـزّ من قـومي الـذيـن بـلـوتـهم مـا تـرتضيـــه الهِـمّـــة القعســاء

عربيّـة الإحساس في نخـواتـهـــا لله تلـك النخـــوة العـــربـــاء

لا تخلـــدوا فشـلاً لفـلّ عزيمـة ولـو ادلهمّـت سحبـها الظلـمـاء

دعـهم يـريقـوا يـزهقـوا يستنـزفوا ينفـوا يبيـدوا يفعـلـوا مـا شـاءوا

واسترسلـوا في الأمـر دون تـراجـع فـالحبـل منـــه انشقّـت الصمّـاء

« **محمد الشاذلي خزنة دار** »

(عن الأدب التونسي للسنوسي)

بين مارق وخادر

أتونس عندي في هواك تولّع ... وأنت مني نفس عليك تقطّع
نسيت بك الدّنيا وعيشي وراحتي ... أريد لك الحسنى وخصمك يمنع
يريد انقراض الأهل منك ليبتني ... هنا دار ملك (آبد) لا يزعزع
يواصل سعي اليوم بالليل جاهداً ... إلى غاية فيها يهيم ويرتع
بجهل بتفليس بتجويع أنفس ... بخلق رؤوس تستهان فتركع
تساوم في حقّ البلاد عدوّها ... وتحتال في صوغ الكلام فتخدع
أولئك هم أدواء تونس ثبّتوا ... لأعدائها أقدامهم فتوسّعوا
لقد آجروهم بالقليل ليسرعوا ... بهم نحو إلحاق فلم يتراجعوا
فلا ذمّة يرعونها في بلادهم ... ولا خشية من بأسها يوم تفزع
فكم أنت يا أمّ البنين شقية ... بهم إذ غدوا سمّاً بجسمك يصرع
فويل لهم يوم الحساب ينالهم ... قصاص وفي التّاريخ أنكى وأفظع

* * *

ظللت تعانين الحياة مريرة ... تزيد بك البلوى وقومك هجّع
أضاعوك واستخذوا لسلطة معشر ... لنزف دماء الواهنين تجمّعوا
شبابك موؤود ومجدك آفل ... ومالك منهوب وحقّك ضائع
تنادين لكن من تنادين ؟ خادر ... يمرّ بعينيه الخيال فيجزع
تعوّد حمل العسف والمقت والعنا ... ينام كخالي البال وهو مروّع
يقاد إلى جهل وفقر وذلّة ... ومحنة تجنيس تليها فجائع
يذكّر بالحسنى فيغضي مخافة ... ويبعث في شرّ فيأتيه يهرع

لقد مات هذا الشَّعب وأغتيل عزّه فأصبح للأرزاء فيه تولّع

* * *

شقينا وما زلنا لتونس حرمة فتبًّا لأبناء توانوا وضيَّعوا
رضينا لها بالصَّفع وهي عليلة فكنَّا كعضب في حشاها يقطّع
فياليت شعري! هل تصادف نشأتي تقيم لها رأساً أميلَ وترفع
وتلبسها تاج الجهاد مخضَّباً وفيه المنى والعزّ والمجد لامع
أفق أيُّها الشَّعبَ المهان فقد أتوا إليك بتجنيس لعلك تخدع
وأيّد لهم بالحسّ أنَّك ماجد وإن كنت في بؤس فجنسك أرفع
ولا ترهبن فالخوف موت محقَّق يعمّ بنينا شرّه المتطلّع
نهوضاً إلى المجد الذي شاد أهلنا بعزم له قلب الصَّنما يتصدّع
نشيد به للمجد صرحاً ممرّداً تسوخ الدراري وهو لا يتضعضع

« الطاهر الحداد »
(عن الأدب التونسي للسنوسي)

انهضـــي

إلى متى أمَّـــة الإســـلام فـي كرب ... وقد أحاط بكم جيش من النوّب
والفكر أضحى من التَّأخير في تعب ... والغير في الجدّ أمّا نحن في لعب
ما آن أن تنهضي يا أمَّـــة العـــــرب ؟

يا أمَّـة لعظيم النُّصح مـــا سمعت ... أسلافها استيقظوا لكنَّها رقدت
وفي نوادي الهوى واللعب قد رتعت ... وما أفاد لسان الوعظ والخطب
مـا آن أن تنهضي يا أمَّـة العـــرب ؟

يا أمَّـة عامـل الأغراض فـــرّقها ... والعين قد شاهدت حزناً فأرّقها
ناديت والنَّفس حسن الصَّبر فارقها ... إن دام هذا العنا يا موت فاقترب
مـا آن أن تنهضي يا أمَّـة العـــرب ؟

بضائع الفسق في ذا الصيف نافقـة ... والمومسات (بحلق الواد) راقصة
والنَّفس بالرقص بل بالنَّقص والعة ... والفكر عن كلّ نفع صار في حجب
ما آن أن تنهضي يا أمَّـــة العـــرب ؟

أين الدّيار التي بالعـــزّ آهلـــــة ... أين الرّبوع التي بالفضل عامـــرة
أين العيون التي بالحزم ساهـــرة ... هذي مآثرها من أعجب العجب
ما آن أن تنهضي يا أمَّـة العـــــرب ؟

أين المعالي التي كانت لأمَّتنـــا ... أين التَّعاضد إذ تدعو لرفعتنا
أسلافنا شيَّدوا فخـــراً لملَّتنـــا ... والضَّدّ من بأسهم في غاية الرّسب
مـا آن أن تنهضي يا أمَّـة العـــرب ؟

أسلافنا فعلوا الخيرات واتَّحدوا ... وجلّ أعدائهم بالحقّ قد شهدوا

قوم بأفعالهم في الكون قد سعدوا هم شيّدوا وهدمنا كل منتصب

ما آن أن تنهضي يا أمّـــة العـــرب ؟

أسلافنا رفعوا للدّين مـــا رفعوا لله درّهم بالعلم كم نفعـــــوا

قوم بحزم وعزم للعلا اندفعوا هذا وذكرهم في الصُّحف والكتب

ما آن أن تنهضي يا أمّـة العـرب ؟

هذي العلوم لدى الأقوام منتشره وما لنا فكرة في النفع مفتكره

والجهل بالحال قد أبدى لنا ضرره والمرء بالفكر لا بالمال والنسب

ما آن أن تنهضي يا أمّـــة العـــرب ؟

فالجهل داء ومنه ينتج العـــدم والعلم تحيا به بين الورى الأمم

سلوا (اليبان) بماذا قومه انتقموا يجيب بالعلم لا باللهو واللعـب

ما آن أن تنهضي يا أمّـــة العـــرب ؟

يا ربّ هيّىء لنا من أمرنا رشـــدا وانصر شريعتنا واختم لنا سعدا

واجعل لأمّتنا في سعيها مددا لأنّ رفعة جنسي منتهى أربـــي

ما آن أن تنهضي يا أمّـــة العـــرب ؟

« **صالح السويسى** »

(عن الأدب التونسى للسنوسى)

صـــوت تـــونـس

أتصبو بعد ما انصـرم الشّبـاب ... وتغريك النّواهد والكعـاب

وتطرب والأسى وقف علينـا ... ونحن على المصائب لا نثـاب

فشمـر والتفت يـوماً قليـلاً ... إلى ما كـاد يتلفـه الخـراب

ربوع العلم ويحك دارسـات ... وربع اللهو ناطحة السحـاب

جثا الآبـاء في حلق الـزوايا ... وهذا النشء فارقـه الصـواب

فمالك خادر الأعصاب نـوماً ... ونحوك قد تطاولت الرّقـاب؟

لقد عـاف الجهـالة كلّ شعب ... وهبّ كأنّـه أُسـد غضـاب

ومزّقت الشعوب على يديهـا ... قيود الأسر وارتفع النّقـاب

تهيب بنا فهل من مستفيـق ... وخوفي صوت تـونس لا يجاب!

« **محمد الفائز القيروانى** »

(عن الأدب التونسى للسنوسى)

أنت روح ذللوها بالجماد

عنّ يا شحرور لا تنحب معيي ... أنت لم تخلق معي الانتحاب
خلّ دمعي ساكباً من مدمعي ... واحتفل للطلّ من دمع السّحاب

* * *

خلّني واحفل بأوراق الرّبيع ... منشداً فوق الغصون المورقه
حيث تكسوها من الوشي البديع ... حلّة المعشوق شمس مشرقه
غنّ فوق الدوح بالصوت الرفيع ... يسمع المحزون تلك الزقزقه
علّها تشفي عليل الأضلع ... حين تنسيه هموماً وعذاب

* * *

ممّ تشكو ؟ أنت في العشّ تنام ... في رياض الحقل في الفرش الوثير
واجداً في النور طوراً والظلام ... تارة حبًّا له النفس تطير
فوق تلّ أنت تحيا في سلام ... أو على الأعشاب في شاطي الغدير
لا ترى بعض ذئاب تدّعي ... أنّها جاءت إلى قتل الذئاب

* * *

آه! لكن ما الذي تنفع آه؟! ... بين قوم لم يزالوا في جمود
أخمدت في أرضهم – وا آسفاه! ... نارهم فاستملحوا ذاك الخمود
واستقرّ الخطب فيهم قدماه ... فاستعاضوا بالندثار عن خلود
كلّما أفهمت شخصاً لا يعي ... أو جموعاً قابلوني بالسباب...

« سعيد ابو بكر »
(عن الأدب التونسي للسنوسي)

فـاجعـــة المـــرســى

ألا يا أيُّهـا الوطنيّ شمِّـــــر ... فإنّ بلادك الخضرا تعـانـــي
كفى ما قـد مضى فانهـض وكسِّـر ... قيـود الذلّ عنهـــا والهـــوان
أرى الإسلام شمِّـر مستعـــــدًّا ... وأنت كما عهدتك في تـوان
ألاّ خلّ البكـاء فليس يجـدي ... بكاؤك فلتدعـه إلى الغـوانـي
ودع عنـك التأسُّف في الـزوايـا ... فذاك لديّ أحرى بالجبـــان
وذر عنـك الضغينـــة والتّعـادي ... فقـد ولّى زمـان الاضطغـان
لقـد أصبحـت عبـداً مستـذلاًّ ... تطأطىء للأجانب بامتهـان
تذلّ وأنـت في بلـد أتتـه ... جدودك قبـل بالسَّيف اليماني
هلـمّ فـزعـزع الدّنيا بصوت ... تخرّ له جبـابـرة الـزّمـان
إذا لم تنتـزع ذلاًّ وشينـــاً ... فإنّـك والجمـاد إذاً سيـان

أراهـم أرهقـوا الخضـرا كـأنّـا ... مع الأقـوام في حـرب عـوان
فكم وأدوا بريئـاً ذا عيـال ... لأنّـه لـم يـدن يـومـاً لجـان
فبـات بنـوه والأهلـون تبكي ... نجيعاً سال فـوق الخدّ قـان
وكم شنقـوا فتىً لـو خـاض يوماً ... طعاناً كان خوّاض الطعـان
يـرومـون القضـاء على الأهـالـي ... لكي يتربّعوا في ذا المكـان
ومـا هم مدركـوا مـا أمّلـوه ... بتونس أو يؤوب القـارضـان...

« الهـادى المـدنى »
(عن الأدب التونسى للسنوسى)

صـــوت الجـــريـح

صوت الجريح دعا إلى الإحسان ... وغدا صداه يرنّ في الآذان
صوت يذكّرنا بأقدس واجب ... نيت عليه دعائم الإيمان
مالي أراه مردّداً من بيننا ... والنّاس بين تصامم وتواني
أوَ لستمُ من أمّة حسّاسة ... شادت مفاخرها بكلّ مكان
ماذا التّثاقل عن إغاثة إخوة ... أكذا تكون إغاثة الإخوان؟
هل سرّكم أن يتركوا من بعدما ... خاضوا الحروب لنصرة الدّيّان
هل سرّكم إهمال ذيّاك الجريح ... وقد سعى لحماية الأوطان
أيبيت فوق التُّرب مكلوم الحشا ... ونبيت في فرش بقلب هاني
ذاك الذي طلب الحياة بعزّة ... ذاك الذي لا يرتضي بهوان
ذاك الذي قد علّمته جدوده ... قهر العدى مهما انبرى لطعان
لمّا رأى الأعداء حول ديـاره ... باع الحياة وهبّ للميدان
حتّى إذا هزم العدى وأذاقهم ... طعم العذاب منوّع الألوان
نالته طعنتهم وكم من طعنة ... سبقت إلى بطل بكفّ جبان
فهوى إلى التُّرب المخضّب بالدّما ... مترنّحاً كترنُّح النّشوان
حتّى إذا ضمد الطبيب جروحه ... ودماؤه تزداد في السّيلان
ورأى بأنّ الدّاء أصبح معضلاً ... مستحكماً بمكامن الجثمان
طلب الدواء فقيل هل يرجى الدّوا ... والمسلمون نواعس الأجفان
هذا يجيد الاعتذار عن العطا ... وسواد أصبح فاقد الآذان ....

« **أبو الحسن بن شعبان** »
(عن الأدب التونسي للسنوسي)

مـن وحـى الربـاط

إذا عدّت الخضراء زهر المناقب ... وتاهت على الدنيا بجلوة كـاعب
فإنّ الرّباط الفذّ درّة عقـدها ... وموجب إطراء لها في المواكب
على الدّين والتقوى ابتناه حماتها ... قباب إليه الفضل من كلّ جانب
مهاد لروحانية وتـــــلاوة ... وموطن تقديس ونيل رغائـب
وموئل أبطال ومعقـل فتيـة ... سموا لاقتعاد المجد بين الكواكب
بذانطق التّاريخ عنهم وسجّلت ... مآثرهم بالتبر أقلام كـاتـب
فإن شئت كانوا من ذوي النُّسك والهدى ... وإن شئت شدّوا بالسيوف القواضب
على عزّة شمّاء حطُّوا رحالهم ... لصدّ مغير أو هداية راغـب

.....

وأسلمت فكري للتّأمّل بغتة ... وسالمت صرف الدهر غير مغلب ...
وخاطبني الطّيف النّقيّ وقد دنا ... بهمس لطيف وابتسامة عاتب :
"ألا فاستمع وعظ الدهور وكن فتى ... محيطاً بأسرار المصير الغوائب"
"وكن مؤمناً بالروح في بعث أمّة ... تردّت إلى قعر الأسى والنوائب"
... سرت نفحات من عصور تقادمت ... إلى عصرنا في سيرة المتـواثب"
"فنشوة إيمان وصدق عبـــادة ... وصبر على البلوى بشوق مغالـب"
"تحلّى جلال الطهر كلّ رزيّـة ... وأفنى جمال الحقّ زرق المصاعب"
"ومن زمرة النّفر الميامين رفرفت ... حمائم يمن للرّشاد كـواسب"
"حملن إلى أقصى العصور رسالـة ... وخلاّن أشواق النفوس الذّوائب"
"وفي مستهلّ القرن أقبلن حوّماً ... على مهد طفل باسم الثغر لاعب"

"فكان الحبيب المنتقى دون غيره وكان الصفيّ المحتبى بالمواهب"

"وأثبت في سفر الخلود مجاهداً وأفرد في الدّنيا بأسمى المناصب"

« الصادق مازيغ »

عن مجلة الفكر ـ ديسمبر 1959)

لا سلم الا في الكرامة

أكذا على الورقاء يسطو الأجدل ... أكذا نداس بأرضنا ونقتّل ؟
أكذا يصول على البريّ تعسُّفاً ... وغد له بالخزي مأض مثقل ؟
أكذا تحلّق في فضاء بلادنا ... هذي البزاة أمامنا تتنقّل ؟
أكذا تدبّ إلى المنازل في القرى ... تلك الذئاب ضوارياً تتسلّل ؟
الأمن في "النادي" له اسم شاخص ... لكن حقيقته الهباء المرسل
الحقّ يعلن في المحافل دعمه ... وحفاظه وهو الشريد المهمل
كذب يقال على المنابر دائماً ... أفما تميد لما فروه الأجبل ؟
السلم تزعم عصبة تحقيقها ... وهي التي تذكي الحروب وتشعل ؟
ورفاه عيش زيّنوه لناظر ... في ثوبه جهم الحمام يسربل
دجل على الدّنيا تفاقم ويله ... وغمام شرّ بالمكاره مسبل
ولربّ قائد عصبة متهوّس ... يهذي بلفظ العزّ وهو الأسفل
ويشيد صرحاً للإخاء مموّهاً ... يسعى إليه وفي يديه المعول !
ديك على الأرجاس يصدح بالخنى ... ويعبّ من حوض الغرور وينهل !
لا يستفيق من الضّلال لتعسه ... حتى يغيّب في حشاه المنصل
الدّهر سطّر للأوادم خطّة ... مرسومة عن شرّها لن يرحلوا
هي موعد للحتف يسحق جمعهم ... إن لمّ يثوبوا للرّشاد ويعقلوا ...
والظلم يهلك والمظالم كلُّها ... والشرّ يطوى والستائر تسدل
وتطهّر الأوطان من قطّانها ... سيان ذو رمح وآخر أعزل
سيان جلاّد يدلّ ببأسه ... وضحيّة في سجنه تتململ

سنخوض معركة الجلاء بهمّة ... توّاقة وبعزمة لا تأفل

ونذود عن أرض الأباة عصابة ... للنّكر تعبث بالحياة وتجهل

سنصدّها عن ثغرنا مدحورة ... في اليمّ ترقل كالنّعام وتجفل

لا سلم إلاّ في الكرامة تجتنى ... أو غنم إلاّ بالجهاد يسجّل

أو ظلم إلاّ مقلع متعثّر ... في وجه كل مصمّم لا ينكل

سنسدّد الضربات لا نخشى الرّدى ... ونخوض نار الحرب وهي تصلصل

« الصادق مازيغ »

الديوان (ضياء)

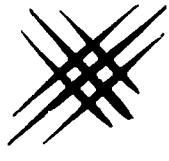

ضيـــاع

من دمي من مشاعـــري لحنِ شعري المنغَّمُ
لحن شعري قصيـدة عن حياتي تـترجـــمُ
هو أنشودتي التِـــي صاغها القلب والفـمُ
هو جهري صريحه وهو سرّي المكتّـم
هو لهوي وصبوتـي وجنُـونِـي المذمَّم
هو جهلِي وغفلتي وظـلامي المخيَّـم
هو شكّي وحيرتِـى هو ظنّـي المرجَّم
هو ضعفي وقوّتِـي والرّضى والـتبـرّم
هو شوقي ولهفتِـي هو حبّي المضـرّم
هو روحى وهيكلِى وابتهالى المعظَّـم
لحن شعرى قصيـدة عن حياتى تـترجـم

* * *

جئت أمس وفي غـد سوف أبلى وأحطـم
ثمّ لحدٌ يضُـمُّنِـي أخرس الخوف مظلم
تنتهشنِي أراقـــم تتغـذّى وتطعـم
فوق صدري وفي الحشا تتـلاقى وتنعـم
جئت لا أدري كيـف جئت ولا كيف أصْلَمُ
وتقدّمت والحيـا ة متـاه مجشَّـم
قيل لي : العقل حكمة ورشـاد ومغنَـم

قيل لي : العقل وحـــده في الحيـــاة مؤمَّـــم
خـدعتـهم ظنـــونـهم ليس للعقـل مـــلأم
فانظـروا هـل رأيتـم كيـف يطغـى ويغشـم
وانظـروا هـل رأيتـم كيـف للشَّـرّ يبـــرم
إنَّـه العقـل حيـن سـا د استبيـح المحـــرّم
فـالـدّمـاء يـريقهـا صـارم الحـــدّ أعـجـم
والنُّفُـوس أبـيـهـــا يستـــذلّ ويـجـــــرم
هـــذه الأرض كـلُّـهـا نـار حـــرب تضـــرّم
أيـن، أيـن معـــاذنـــا مـن فنـــون تـهـــدّم
يتبـــارى فـي صنـعـهـا مبـدع ومتـمّـــــم
أرسلـوهـــا كـــواكبـاً في الفضـــاء تحـــوّم؟
وهي للفتـــك والفـنـــا ء تعـدّ وتحـكـــم
أيـن، أيـــن أمـــانـنـــا إنَّـــه العقـــل مجـهـم
خـدعتـهم ظنـــونـــهم ما لذا العقـل مـــلأم
إنَّـمـا العقـــل وحـــده فـي الحيـــاة جـهـنَّـــم

* * *

لحـن شعـري قصيـدة عن حياتـي تتـرجـم
هو أنشـودتـي الـتِـــي صاغهـا القلب والـدّم
هو بالحـبّ نـاطـــق وهـو للحـبّ مُلـهـم

« **أحمد المختار الوزير** »

(عن الفكر ـ ديسمبر 1958)

دخـــان

وســار الشاعر القلـق ... تمزّق قلبه الرّيـــبُ
تلمّس عينــه الدّنيـــا ... وتعصب عينــه الحجـب
على شفتيــه غمغمــة ... وفي أضلاعه لهـــب
ويسأل كلّما أعيـى : ... لماذا السَّعي والنَّصب ؟
لمــاذا الكـدّ لا أدري ... لماذا الجهـد والغلب ؟
شقــاء يا لمهـزلـة ! ... مريـر مالــه سبـب
أجدّ والمقاديـــــر ... لهـا بحياتنا لعـب ؟
أسعي والقضـا حتـم ... فما دفع وما هـــرب ؟
ولا منجـاة للانســان ... ممَّا جـدّ يجتنـــب
أنبنِي ثمّ لا نمضِي ... ويهوي بالبنـا العطب ؟
أتضحكنـا أمَـانِينـا ... وتسفح دمعنـا النّوب؟

* * *

ألسنـا من ضـلالات ... على الآراب نحتـرب
يقتّل بعضنـا بعضـاً ... وهمّ القاتل السّـلب
نجيع من دم يغلِـي ... به الكثبـان تختضـب
وأشـلاء وهامـات – ... وصرعى غالهم قضب
وأمّ – يا لمثكـلـة ! ... تساق لحتفهـا وأب
ودنيا ساحها الويـلات ... والأدواء والسّـغـب
وناس فعلهم زيـف ... وجهر حديثهم كذب

صدور ساءما ضمّت فغيب صدورهم نخب
طغام قد تهيّجهم إلى أطماعهم كلب

* * *

وسار الشّاعر الأعمى ومدّ سبياله أشب
يعثّر خطوه تيه ويخنق صوته اللجب
وتقرح قلبه الحسرات والأشجان والكرب
وما يدري له أمناً وقد أعياه مضطرب
وسار محيّراً يشدو ورجع نشيده لهب
ويسأل أين في دنياه أين الحبّ والحدب ؟

« **أحمد المختار الوزير** »
(عن الفكر جويلية 1960)

يـــوم الشهـــداء

قيلت فى الاحتفال بذكرى الشهداء يوم 9 أفريل 1962 بساحة الاستقـلال بالقيروان وقد أشار فيها الشاعر الى رجوع رفـات المجاهدين الذين ماتـوا فى ديار الغربة واحتفل بدفنهم بتونس فى ذلك اليوم الأغر :

أرج مـا نشمُّـه أم ثنـــــــاء عطَّـر الكون واحتـواه الفضـــاء
واحتفـــال يقيمـه الشعـب كـالأعيـــــاد أم واجب دعـا ووفـــاء
وهتـــاف كـأنَّـه من زغـاريـد قيـــــان أثـارهـن الغنـــــاء
وطقـوس تقـام فـي كـلّ عيـد صلـوات يـدعو بهـا الأتقيـــاء
أم صـدى ذلك الكفـاح وصـــوت بقيـت بيننـا لـه أصـــــداء
وسطـور مـن سفـر تـاريـخ شعـب يتغنَّـى بآيهـا الشُّعـــراء
فتصيـخ الدّنيـا بأسمـاعهـا اللهفـى إلى مـا يخلـد الخطبـــاء
كأغـاني الفـردوس والنغـم المخضلّ والفجـر دبّ فيـه الضيـــاء
وحفيـف الأوراق دغـدغهـا الـــرّيـح وهـزّت أعطـافهـا الأنـداء
وحـديـث التاريـخ فـي مسمـع الـــدّهـر وقـد أنصتـت إليـه السَّمـاء
ذكـريـات من عطـرهـا ينفـح المـجـــد ومن ذيلـهـا تفـوح الدِّمـاء
فتغـذّي أنفاسنـا بشـذى الخلـــد وتزكـو بعـرفهـا الرّمضـاء
أيّ مجـد صـروحـه لبنـــات من كبـود رسا عليهـا البنـــاء!
ونفـوس لم تستسغ علقـم الـــذّلّ فعاشت في ظلّـهـا الكبريـاء
ودمـاء كـأنَّـهـا رشحـات المســـك منهـا تعطّـر الخلـصـــاء
وشعـاع من فجـر إبريـل لم يلبث طويـلاً حتَّى أطلَّـت ذكـاء

فإذا الأرض والسّماء أهازيج عـــــذاب وفـرحـة وهنـــاء
وإذا كلّ تونسي وفي عـرنينـــــه الصّلب همّـة شمّـــاء
وإذا رفرف من النـور يعلـــو للسماوات فوقـه الشّهـداء
أيّ ذكرى يعيدها الشّعب في تاســـع ابريـل يـوم حمّ القضـاء!
أيّ يوم كأنّـه العيد في الأيّـام أو أنّـه لهـا طغـــــراء!
يتغنّى الشباب في يومـه الفيّـاض بالشـر حين يحلـو الغنـاء
وتجلّى اللوحات في الأطر الغرّ أو تتلى على المـلأ الأسمـاء
مـرح كلّـه وبشـر وتجـديد لعهـد ومـأمـل ورجـاء
حرم الحزن فيه حتى كأنّ اليـــوم عرس يعاب فيه البكـاء
وام الحزن والحيـاة صـــراع وانتهـاء الأشواط فيها ابتـداء
قد درسنا الكفاح وجهاً لوجه منذ ابريل حين فاض الإناء
وصبرنا فلم يفدنا اصطبـار وعفونا فعاودوا وأســاءوا
ثمّ ثرنا على الهضيمة نكويهـا جباهاً قد غاض فيها الحيـاء
فإذا تونس مطهّرة الـذيـل وأرض كريمة غنّـاء
وإذا شعبهـا العظيـم على العهـــد مقيم يصان فيه الإبـاء
لا يسيغ الهـوان حتّى ولو طـــاب ظلالاً وراق فيـه الهـواء
وحرام على الكريم حيـاة الـــذلّ والمـوت للعزيـز بقـاء
هكذا قالت الحيـاة وهـذي سنة الكون باركتهـا السّماء ..
تونس يا صدى الأمومة في كـلّ فـؤاد يـقيم فـيـه الـولاء
عبقت روحك الزّكية كالزهر وشعّت كما يشعّ الضّيـاء
لك أرواحنا وللتّربة العفراء إخـــلاصنا وهـذي الـدّمـاء
قد صنعت الأجيال في مصنـــع الدّهر فعاشت ولم ينلها الفناء

وبنيت الاهرام لا من صخـــور تتفيّـا ظلالهـا الصحـــراء
إنّما اخترت أن تكون عقـولاً تتبارى وتبتنـي ما تشـــاء
وكتبت التاريخ لا في سـجـلّ أو صكوكاً يأتي عليهـا العفـاء
بل كشوفاً أعدّها العلم للدنيا ثمـــاراً يطيب منهـا الغـــذاء
لم يكن أمسك البعيد هو التاريـــــخ يعنو لوجهـه العظمـاء
بل لك اليوم من موقفـك الغرّا امتداد لما مضى وانتمـــاء
ولك اليوم في شبابك ينبـوع ثريّ وقـوّة ونمـــاء
ولك المجد كلّه جمعتـــه لك كفّ نقيّـة بيضـــاء
وبنته على ذرى شـامخـــات عزمـات وهمّـة قعساء
رفعتهـا يد الحبيب وأعلـــت صرحها فاستوى عليها البنـاء
فاستظلّي بركنه فلنعمّ الرّكـن ما فيه جنّـة ووقـــاء
والعلا والفخار للوطن الغالـي وللخلد أيّها الشّهـــداء
وليعش قائد الرعيل المفـــدّى وانعش تونس ويعل اللـــواء

« الشاذلي عطاء الله »
(مجلة الفكر ـ جوان 1962)

www.lisanarb.com

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com
رابط بديل